أليس ميلر

جُذُور العُنف

في تربية الطفل

ترجمة: د. قاسم المقداد





جُـذُور العُنْـف
فـي تَربِيَةِ الطِّفْل

عنوان الكتـاب: **جذور العنف في تربية الطفل**

اسـم المؤلـف: **أليس ميلر**

اسـم المترجـم: **د. قاسم المقداد**

الموضـــوع: **تربية وعلم نفس**

عدد الصفحات: 264 ص

القيـــاس: 17 × 24 سم

الطبعـة الأولى: 500 /كانون الثاني 2024 م - 1445 هـ

رقم الإصدار	تربية وعلم نفس
1315	4

ISBN: 978-9933-38-515-6



سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: +963 11 2314511

هاتـف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة -
المنطقة الحرة - مدينة الإعلام للنشر

هاتـف: +971 506844076

web: www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

@House Ninawa





Ninawa house

ninawa_publishing_house

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والتحرير والتحقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني:
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

أليس ميلر

جُـذُور العُنْـف
فـي تَربِيَةِ الطِّفْل



ترجمة

د. قاسم المقداد

العنوان الأصلي للكتاب

C’est pour ton bien

Racines de la violence dans l’éducation de l’enfant

Alice Miller

صدر عن دار النشر الفرنسية

Aubier 1983



أليس ميلر - Alice Miller

1923 - 2010م

نفسانية، واجتماعية، ورسامة، وكاتِبة، من بولندا، أصبحت نظرتها حول عواقب إساءة معاملة الأطفال ذات تأثير كبير. ابتعدت في كتبها عن التحليل النفسي، معتبرةً إياه شكلًا من أشكال الإساءة للطفل. حصلت على شهادة الدكتوراه في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع. ودرست التحليل النفسي وممارسته في زيوريخ. حصلت عام 1986 على جائزة يانوش كورتشاك الأدبية عن كتابها «ما لست على علم به: خيانة المجتمع للطفل». وأعلنت ميلر خلال مقابلة أجرتها مع الصحيفة الألمانية (علم النفس اليوم) رفضها للتحليل النفسي لأنها شعرت بأن نظرية التحليل النفسي وممارستها جعلت من المستحيل على الطفل الضحية الذي تعرض للإساءة من فهم الانتهاكات التي ألمّت به والعواقب التي تبعت تلك الإساءة، كونها بقيت في إطار إلقاء اللوم على الطفل والدفاع عن الوالدين.

المحتويات


تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

- من الطبيعي أن يحرص العقل على اتباع إرادته، وإذا لم نهتمّ به بشكل صحيح في السنتين الأوليَين من عمر الطفل، يصعب علينا بلوغ الهدف لاحقاً، لأنهما سنتان تتميـزان بالقـدرة على استخدام العنف والإكراه؛ غير أن الزمن يُـنسي الأطفـال مـا عاشـوه خـلال طفـولتهم الأولى. لو انتزعنا إرادتهم، فلن يتمكّنوا لاحقاً من تذكّر أنهم كانوا يملكونها، ومـن ثـم لـن يكون لشدّة الوسائل التي نستخدمها أي أثر مشؤوم عليهم (1748).
- لأن عـدم الطاعـة يعنـي إعـلان الحـرب عـلى شخصـكم. إذ يريـد ابـنكم الاسـتيلاء عـلى سلطتكم، ولهذا يحقّ لكـم مقاومـة القـوة بـالقوة لترسـيخ سـطوتكم، وإلا فعـلى التربيـة السلام. هذا التصحيح لا ينبغي أن يكون ميكانيكياً محضاً، بل إقنـاع الطفـل بأنـك سـيده (1752).
- جاء في العهد القديم إن من يحبّ ابنه عليه بـه بالسـوط، وسـيكون عـزاءه في المسـتقبل (العهد القديم 1، 30).
- رأيتُ أن أول واجباتي يقوم على تقديم المساعدة إذا لزم الأمر، وأن أخضـع لجميـع أوامـر والدي ورغباته وكذلك والدتي، والسـيد الخـوري، وجميـع الراشـدين، وحتـى الخـدم؛ لأني أراهم مُحقّين في كلّ شيء يقولونه.

  إن مبادئ تربيتي هذه تغلغلت في كياني كلّه (رودولف هويس، آمر معسكر أوشفيتز).
- يا لحظّ الحاكمين في أن يحكموا أناساً لا يفكّرون! (أدولف هتلر).

تمهيد

يؤخذ على التحليل النفسي أنه لا يساعد إلا أقلية مميّزة من الناس، وبطريقة مشروطة. وهو مأخذ له ما يسوّغه تماماً، ما دامت نتائج التحليل حكراً على هذا العدد المتميز. لكن قد يكون الأمر مختلفاً.

أفدتُ من ردود الفعل على كتابي «مأساة الطفل الموهوب»، أن مقاومة ما كنت أريد قوله لم تكن أكثر قوةً لدى الناس العاديين - وربما كانت أقلّ لدى الأجيال الشابة - منها لدى المتخصصين؛ فصار لزاماً نقل المعرفة المكتسبة بفضل التحليل الذي قام به عددٌ قليل من النخبة إلى عموم الناس لكيلا يبقى حبيس المكتبات. وهذا ما قادني شخصياً إلى اتخاذ قرار بتكريس السنوات المقبلة للكتابة.

أودّ أساساً وصف الظواهر التي تنشأ خارج الحالة التحليلية النفسية في جميع مناحي الحياة، لكن فهمها العميق يستند على التجربة التحليلية. لكن هذا لا يعني بأيّ شكل من الأشكال، أني أريد «تطبيق نظرية جاهزة» على المجتمع، لإيماني بعدم قدرتي على فهم الكائن البشري فعلياً إلا حينما أستمع إليه وأشعر به بمعزل عن النظريات لأحمي نفسي منها، أو حتى التمترس خلف هذه النظريات. لكن في مجال علم نفس الأعماق فإن بحثنا حول الآخرين أو حول أنفسنا يتيح لنا معرفة الحياة النفسية (**psyché**) البشرية التي ترافقنا أنّى يمّمنا شطر وجهنا، وتشحذ حساسيتنا حتى خارج غرفة المُحلّل النفسي.

لكن الرأي العام ما يزال بعيداً عن إدراك أن ما يصيب الطفل في السنوات الأولى من حياته ينعكس حتماً على المجتمع كلّه، وأن العُصاب (**psychose**)، والمخدرات والجريمة تعدّ كلّها تعابير مرمّزة لتجارب الطفولة الأولى. هذه الفكرة غالباً ما رُفضت، أو لم تُقبل إلا على صعيد فكري، بينما الممارسة (السياسية، والقانونية، والطبية النفسية) تبقى تحت سيطرة التصورات القروسطية المطبوعة كلّها بإسقاطات مبدأ الشرّ. وهذا كلّه بسبب غياب سيطرة العقل على مجالات الانفعال. هل يمكن نقل المعرفة الانفعالية عبر كتاب؟ لا أعرف، لكن يحدوني الأمل في أن يتمكّن كتابي هذا من إثارة تفكير هذا القارئ أو ذاك يبدو لي منطقياً بحيث يدفعنا إلى عدم إهمال هذه المحاولة.

جاء هذا الكتاب نتيجة الحاجة إلى الردّ على الرسائل العديدة التي وصلتني بعد صدور كتابي «مأساة الطفل الموهوب»؛ تأثّرت كثيراً بها. لكن الوقت لم يسمح لي بالردّ عليها، لكن ليس هذا هو السبب الوحيد. إذ سرعان ما لاحظت أن من واجبي التعبير عن أفكاري وتجاربي خلال هذه السنوات الأخيرة بشكل أكثر وضوحاً، لأني لم أستطع الاستناد إلى الكتابات الموجودة. وقد برزت، برأيي، مجموعتان من القضايا عبر أسئلة تقنية من زملائي، وأخرى أكثر عمومية من الأشخاص المعنيّين (وهذا لا يستبعد ذاك!): أولاً تعريف مفهومي لواقع الطفولة المبكرة بعيداً عن التصور الغريزي (**pulsionnel**) للتحليل النفسي التقليدي من جهة، ومن جهة أخرى ضرورة تحديد الفرق الدقيق بين مشاعر الذنب والأسى **deuil**. بهذا ترتبط مسألة رئيسة لا يتوقف تكرارها حول رغبة الوالدين الصادقة في تحسين الحال: ما الذي نستطيع تقديمه لأطفالنا بعد ملاحظة وقوعنا تحت سيطرة التكرار القهري (**compulsion de répétion**)؟

بما أنني غير مقتنعة بفعالية الوصفات أو النصائح، على الأقلّ فيما يخصّ السلوك غير الواعي، فلا أظن أن دوري يقوم على توجيه نداءات للأهل من أجل التعامل مع أطفالهم بطريقة تختلف عن تلك التي يتعاملون بها معهم؛ بل بالأحرى، أودّ إيضاح العلاقات المتبادلة، واستخراج المعلومة الحيّة والحسّاسة بالنسبة للطفل الذي يزال يعيش (مختبئاً إلى حدٍّ ما) في البالغ. ما دمنا لا نسمح له بإدراك ما حدث، فإن جزءاً من حياته يصاب بالشلل، وتبقى حساسيته مخنوقةً إزاء إهانات الطفولة. وتبقى جميع الدعوات إلى الحب، والتضامن، والرحمة، بلا طائل، في غياب هذا التعاطف مع السنوات الأولى وفهم أهميتها المطلقة.

تتخذ القضية أبعاداً درامية لدى علماء النفس المحترفين، لأنهم لا يستطيعون استخدام معرفتهم التخصصية بطريقة مثمرة إذا لم يكونوا قادرين على التعاطف مع مرضاهم، مهما كان الوقت الذي يكرّسونه لهم. وهذا يصحّ على عجز الأهل الذين لا يمكن لمستواهم الفكري العالي أو وقت الفراغ المتوفر لديهم من مساعدتهم على فهم طفلهم، ما داموا مجبرين على وضع مسافة عاطفية معيّنة بينهم وبين طفولتهم. في المقابل، تكون المرأة العاملة أقدر على فهم حالة طفلها خلال ثوانٍ إذا تمتّعت بانفتاح الذهن والحرية الداخلية اللازمين لهذا.

أرى أن مهمّتي تنطوي على تنبيه الرأي العام إلى آلام الطفولة المبكرة، وهو ما أسعى إليه على مستويين مختلفين، وأبذل جهدي على هذين المستويين للوصول إلى الطفل الذي كان عليه

القارئ الراشد. أبحث هذا في القسم الأول من الكتاب عبر عرضٍ لـ«التربية السوداء»، أيْ المناهج التربوية التي نشأ عليها أهلنا وأجدادنا. ربما يوقظ الفصل الأول عند بعض القراء، مشاعرَ إثارةٍ وغضب قد يكون لها تأثيرٌ علاجيّ مفيد. وفي القسم الثاني، سأعمد إلى وصف حياة إحدى مدمنات المخدرات، ثم أتحدث عن حياة قائد سياسي مشهور، وثالثاً عن أحد قتلة الأطفال؛ فهؤلاء الثلاثة كانوا ضحيّة معاملات سيّئة وإهانات عميقة خلال سني حياتهم الأولى. في اثنتين من هذه الحالات الثلاث، أستند بشكل مباشر تماماً إلى قصصٍ سردها لي المعنيّون حول طفولتهم، وما تلاها من حياتهما، وأودّ مساعدة القارئ على فهم هذه الشهادات المؤلمة بوصفي محلّلة نفسية. هذه الأقدار الثلاثة تدين الآثار التخريبية للتربية، وإنكارها للجزء الحيّ فينا، وتفضح خطرها على المجتمع. حتى في إطار التحليل النفسي، ولا سيما إطار النموذج الغريزي، تبقى آثارٌ من هذا الموقف التربوي. فكرتُ في البداية، في أن أجعل من دراسة هذه النقطة المحدّدة فصلاً أدرجه في هذا الكتاب، لكن نظراً لضخامة الموضوع، فقد تحول إلى موضوع لكتابٍ ثالث نُشر في ألمانيا (**Du sollst nicht merken, Suhrkamp, 1981**). بيّنتُ فيه أيضاً، وبشكل أدقّ ممّا فعلت حتى الآن، أوجهَ الخلاف بين مواقفي ومختلف النظريات والنماذج التحليلية النفسية.

هذا الكتاب يشكّل محصلة حواري الداخلي مع قرّاء كتابي السابق، واستكمالاً له إلى حدٍّ ما. كما يمكن قراءته بمعزل عن كتابي مأساة الطفل الموهوب، لكن إن أثار ما أكتبه هنا مشاعر الذنب بدلاً من الأسى (**travail de deuil**)، فإني أنصح بالعودة إلى كتابي السابق. ومن المهمّ والمفيد أيضاً ألّا يغيب عنا طيلة هذه القراءة أن ما أشير إليه باسم الأهل، أو أطفال لا علاقة له بأشخاص محدّدين، بل أعني به حالات (**états**)، أو مواقف (**situations**) أو مكانات تهمّنا جميعاً، لأن جميع الأهل كانوا أطفالاً وأن غالبية من هم اليوم أطفال سيصبحون أهلاً أيضاً.

ختاماً لهذا التمهيد، أريد أن أعبّر عن شكري لعددٍ من الأشخاص الذين لولا مساعدتهم ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور، أو على الأقلّ أن يتخذ هذا الشكل أبداً.

لقد تبيّنتُ الطبيعة الحقيقية للتربية (**éducation**) للمرّة الأولى بنقيضها خلال تحليلي الثاني. لهذا فإن شكري الثاني موجّه بنحو خاص إلى مُحلّلتي الثانية، غيرترود بولر- شوينغ -**G.B.**

Schwing، مؤلّفة كتاب استثنائي حول تجربة المرضى المعتقلين (**internés**). إنها شخص طالما اهتمّ بالكائن أكثر من اهتمامه بالسلوك، ولم تسعَ أبداً إلى تعليمي أو تقديم دروس لي سواء بطريقة مباشرة أو مواربةً. بفضل هذه التجربة تحديداً، تمكّنت من معرفة أشياء كثيرة بنفسي، وبطريقة طبيعية جداً، واهتممت بهذا المجال التربوي الذي نسبح فيه.

في عملية الوعي هذه، قادتني المناقشات العديدة مع ابني، مارتن ميلر، باستمرار، إلى مواجهة قيود جيلي التربوية الراسخة في ذهني منذ طفولتي. وأدين جزئياً بتحرّري الشخصي من هذه القيود إلى تعبيره الغنيّ والواضح عن تجربته المعيشة؛ تحرّرٌ لم يكن ممكناً إلا بعد أن تمكّنتُ من فهم أدقّ تفاصيل التوجّه التربوي، وأصغرها. هذا الكتاب يتضمنُ عدداً لا بأس به من الأفكار التي ناقشتها مع ابني قبل أن أبسطها فوق الورق.

أمّا بالنسبة لتحرير هذه المخطوطة، فقد كان للعون الذي قدّمته لي ليزبيث برونر قيمة لا تقدّر بثمن.

وبفضل سيغفريد أونسيلد **S. Unseld** الذي تأثّر شخصياً بكتابي حول الطفل الموهوب، وبفضل تدخّله الفعال ما كان لأعمالي أن تحطّ رحالها عند ناشر مجهول متخصّص، لكنها بلغت دوائر أكثر اتساعاً «من المرضى»، أيْ أناسٍ يعانون، أولئك الذين كُتبت هذه الأعمال من أجلهم في الحقيقة. وبما أن مجلّة **Psychée** قد رفضت نشر الدراسة الأولى من الدراسات، ولم يُبدِ ناشرون آخرون اهتماماً بها في تلك الفترة، فإني أدين لمنشورات **Suhrkamp** بصدور الطبعة الألمانية.

التربية

أو

اضطهاد الحيّ فينا

- جاء العقاب صاخباً جداً طيلة عشرة أيام. عشرة أيام طويلة جداً بالنسبة لأيّ وعي، أمر والدي أمام الناس بعشر ضربات عصا فوق الراحتين الممدودتين لابنه ذي الأربعة أعوام. سبعة أنابيب يومياً: مجموعها مئةٌ وأربعون أنبوبة وواحدة أخرى. تلك كانت نهاية البراءة. كل ما حدث في الجنة لآدم وحواء، وليليث الأفعى، والتفاحة، وتدفّق الفيضان التوراتي في الأزمنة الغابرة، وغضب الإله وسبابته المنتقمة - كل هذا لا أعرف شيئاً عنه. أبي هو الذي طردني من هذا كلّه (كريستوف ميكل، 1980، ص.59).
- من يسعى إلى معرفة ما كانت عليه طفولتنا، إنما يسعى إلى معرفة شيء عن روحنا. إذا لم تكن المسألة مجرد صيغة بلاغية، وإذا لم يكن المُخاطَبُ قادراً على الإصغاء، سيضطرُّ في نهاية المطاف، إلى ملاحظة أننا نحبُّ بهلع، ونكره ما تسبّب لنا بأكبر الآلام، وأكثر المعاناة هولاً بحبٍّ يعصى على التفسير (إيريك بوركارت، 1979، ص. 352).

مقدّمة

يكفي أن تكون أمّاً أو أباً ولم تعِش حالةً من الكبت التامّ لتعرف بالتجربة مدى صعوبة الصفح عن بعض مظاهر شخصية طفلك. يكون هذا الوعي مؤلماً بنحوٍ خاصّ حينما نحبّ الطفل، ونودّ احترامه بكبت خصوصيته، وندرك أننا مع ذلك لا نستطيع تحقيق هذا الذي نصبو إليه. الكرم والتسامح لا يمرّان عبر المعرفة الفكرية. لو لم نكن نملك، ونحن أطفال، إمكانية العيش بوعي وتجاوز الاحتقار الذي عانيناه، فإننا نجعله دائماً. المعرفة الوحيدة لقوانين تطوّر الطفل لا تضعنا في منأى عن عدم الرضا أو الغضب حينما لا يتفق سلوكه مع تصوّراتنا المثالية أو حاجاتنا، فضلاً عن الحالات التي يبدو أنه يعرّض فيها آليات الدفاع لدينا للخطر.

موقف الأطفال مختلف تماماً: فلا ماضٍ يعيقهم، ولا حدود لتسامحهم مع أبويهم على الإطلاق. حبّ الطفل للأبوين يمنعه من اكتشاف قسوتهما النفسية، سواء كانت واعية أم غير واعية، ومهما اتخذت من أشكال. كلّ ما يمكننا فرضه من دون عقاب على الطفل نجده في الكتب الأخيرة الصادرة حول تاريخ الطفولة [...].

كلما اقتربنا من العصر الحديث يبدو أن القسوة النفسية قد حلّت محلّ التنكيل، والاستغلال والاضطهاد الجسدي للطفل، وهي ما نطلق عليها اسماً تضليلياً وخدّاعاً هو «التربية **éducation**». بما أن التربية بالنسبة للعديد من الشعوب تبدأ من المهد، في مرحلة العلاقة التي ما تزال تكافلية مع الأم، فإن هذا الإعداد المبكر لا يتيح مطلقاً معرفة الحالة الحقيقية للطفل. بعد ذلك، فإن الحاجة إلى حبّ الوالدين تمنع أيضاً الطفل من إدراك الألم الذي يدوم طيلة الحياة، مختبئاً خلف أَمثَلَة (**idéalisation**) [رسم صورة مثالية] الوالدين التي تأسّست في السنوات الأولى.

في منتصف القرن التاسع عشر كتب والد شريبر، المصاب بالبارانويا، وتحدّث فرويد عن حالته، عدة كتب أصبحت بالغة الشعبية في ألمانيا لدرجة أن أعيدت طباعة بعضها أربعين مرّة وترجمت إلى عدّة لغات. وتكرّر حديث مؤلفها عن ضرورة البدء بتربية الطفل بشكل مبكر قدر الإمكان، أي منذ الشهر الخامس، بغية تحريره من بذور «الشرّ». وقد وقعتُ على العديد من المواقف المشابهة في رسائل الأهل ومذكّراتهم الخاصة. يُفسّر المراقب الخارجي، هذه

المواقف بشكل جيد جداً بأسباب الأضرار العميقة التي كان يعانيها الأطفال الذين أصبحوا مرضى عندي. لكن لم يكن هؤلاء الأطفال قادرين في البداية على استنتاج أشياء مهمّة من هذه الوثائق، ولم يتمكّنوا من فهم الواقع الموصوف إلا بعد تحليلٍ طويل ومعمّق جداً. كان لا بدّ في البداية، من التخلّص من تداخلهم بالأبوين من أجل رسم حدود شخصياتهم.

إذا كانت القناعة، بأن للوالدين حقوقاً كاملة عليهم وأن القسوة، الواعية أم غير الواعية، تعبيرٌ عن حبّهم، تبقى متجذّرة في أعماق الإنسان، فذلك لأنها تقوم على استيعاب (**intériorisation**) الأشهر الأولى من الحياة، أيْ مرحلة الانفصال عن الموضوع (**objet**).

المقبوسان الآتيان من النصائح التربوية التي قدّمها الدكتور شيربر في عام 1858 يبدوان بمثابة توضيح للمسار المعتاد لهذه العملية:

> العناصر الأولى التي على أساسها يتم تحديد المبادئ الأخلاقية والتربوية هي نزوات الصغير التي تتجلّى بصرخات وبكاء من دون سبب... ما إن نتأكد من أنها لا تتعلّق بحاجة حقيقية، وأن الطفل لا يشكو من عدم الارتياح، أو من ألم، أو مرض، يمكن التيقُّن بأن صرخاته مجرّد تعبير عن مزاج عابر، ونزوة، وأولى علامات التعنت. فلا يعود كافياً، كما في المراحل الأولى، التحلّي بالانتظار والصبر، ولا بدّ من إبداء المعارضة بطريقة أكثر إيجابية إلى حدّ ما: محاولة سريعة في تشتيت انتباهه، واستخدام عبارات قاسية، وحركات تنمّ عن التهديد، وبعض الطرْقات على السرير... وإذا لم يكن هذا كلّه كافياً، نستخدم التعنيف الجسدي الملموس، الذي ينبغي أن يبقى خفيفاً بطبيعة الحال، لكن ينبغي تكراره في فترات متقطعة منتظمة إلى أن يهدأ الطفل أو يخلد إلى النوم...
>
> وبتطبيق هذا النوع من النهج مرّةً أو مرّتين على الأكثر - نكون قد سيطرنا على الطفل بشكل دائم. عندئذٍ تكفي النظرة، أو الكلمة، أو حركة تهديد واحدة لكي نوجّهه. ولا بدّ من التفكير جيداً بأن هذا كلّه يمثّل أكبر نفع يمكن تقديمه للطفل، لأننا نجنّبه بهذا العديدَ من ساعات الاضطراب التي تضرّ بتطوره، ونحرّره من الشياطين الداخلية التي تتكاثر وتتحول بسهولة كبيرة إلى عدوّ لا يُقهر لحياة يزداد ثقلها عليه (ينظر، **Schatzman,1978,p. 32 et sq**.).

لا يشكّ الدكتور شيربر على الإطلاق في أنه يقارع في حقيقة الأمر نزوات الطفل، كما لا يشكّ أبداً في أنه يمارس سلطته من أجل مصلحة الطفل فقط:

إذا التزم الأبوان بهذا المسار، فسيُثابون بعودة هذه العلاقة، التي من خلالها تصبح نظـرةٌ واحدة منهما كفيلة بقيادة الطفل (المرجع السابق، ص.36).

نلاحظ غالباً أن الفواعل الذين تربّوا على هذا النحو، حتى في عمـرٍ متقـدّم، يشـعرون بـأنهم مستغَلّون ما دام التحدث إليهم يجري بطريقةٍ «ودّية».

غالباً ما سئلتُ عن سبب حديثي في كتابي مأساة الطفل الموهوب، عن الأمهات ولم أُفـرد منـه سوى القليل للآباء. وسبب هذا أن كلمة «أمّ» تشير إلى الشخصية الرئيسة التي يرى فيهـا الطفـل مرجعيته في السنوات الأولى. ولا يعني بالضرورة الأمّ البيولوجية، ولا أقصد به حتماً المرأة.

أردت بـأيّ ثمـن إيضـاح أن نظـرات المنـع، أو الازدراء، التـي يراهـا الرضـيع، قـد تـؤدّي إلى اضطرابات خطيرة في سنّ البلوغ، لا سيما الانحرافات، والعصابات الوسواسية. ففي عائلـة شريـبر، لم تكن الأمّ هي من يوجّه الطفل خلال سنواته الأولى، بالنظرة، بـل الأب. وأصـيب الابنـان لاحقـاً بأمراض عقلية مترافقة بهذيان الاضطهاد.

حتى الآن، لم أكن مهتمّةً على الإطلاق بالنظريات السوسيولوجية التي تبحث في دور كلٍّ مـن الأب والأمّ.

منذ بضعة عقود ازداد عدد الآباء الـذين يضـطلعون بوظـائف الأمومـة الإيجابيـة ويظهـرون للطفل حناناً، وحرارة، وفهماً لحاجاته. أما اليوم، فنجد أنفسنا في مرحلة تجريبية بالغـة الأهميـة من حيث دور الجنسين خلافاً لعصر العائلـة البطريركيـة، وفي هـذه المرحلـة كنـت ألاقـي بعـض الصعوبات في معالجة «الدور الاجتماعي» لـلأمّ مـن دون الوقـوع في مقـولات معياريـة تجاوزهـا الزمن. سأكتفي بالقول إنّ أيّ طفل صغير يحتاج إلى كائن يعرب لـه عـن تعاطفـه معـه (لا يهـمّ كثيراً ما إن كان الأب أو الأمّ) لمرافقته في الحياة، وليس إلى كائنٍ يقوده.

يمكن أن نصنع من الطفل الكثير مـن الأشـياء في السـنتين الأوليَـين مـن حياتـه، كـأن نطوّعـه ونمتلكه، ونعلّمه العادات الحسنة، ونصـلحه، ونعاقبـه مـن دون أن يحـدث أيُّ شيء أو يلجـأ إلى الانتقام. وهذا لا يمنع أنه لا يستطيع تجاوز الظلم الذي وقع عليه إلا بشرط الـدفاع عـن نفسـه، أي شرط التمكّن من صـياغة معاناتـه وغضـبه في تعبـير لـه قوامـه. وإن مُنـع مـن الـتصرف كـما يحلـو لـه، فـذلك لأن الأبـوين لا يحـتملان ردود فعلـه (صراخ، حـزن، غضـب) ويمنعانـه بمجـرّد

النظرات أو بإجراءات تربوية أخرى. لا شكّ أن صمته يضمنُ فاعلية مبادئ التربية، لكنه أيضاً يغطّي مواطن فساد التطور اللاحق. إذا استُبعدت ردود الفعل المتناسبة مع الإثارة، والإهانة، والعنف، بأوسع معاني العبارة، فلا تعود تندمج في الشخصية، فتُكبت المشاعر، وتبقى الحاجة إلى التعبير عنها بطريقة واضحة غير مشبعة، ولا أمل في إشباعها. وغياب الأمل في التعبير عن الصدمات العصبية غير الواعية المترافقة بالمشاعر المتبادلة التي ترتبط بها، يسبّب اضطراباتٍ نفسية خطيرة لدى غالبية الناس. وكما يعرف كلٌّ منا، فإن أصل العُصاب (**névrose**) لا يكمن في حقيقة ما جرى، بل في ضرورة الكبت. سأحاول هنا البرهنة على أن هذه المأساة لا تدخل في نشأة العُصاب فحسب.

إن قمع الحاجات الغريزية ليس سوى جزءٍ من القمع الكلّي الذي يمارسه المجتمع على الفرد. لكن بما أن القمع لا يُمارَسُ في سنّ البلوغ فقط، بل منذ الأيام الأولى للحياة، من الوالدين اللذين يتصرفان غالباً بنوايا طيبة، فلا يمكن للفرد أن يعثر على آثاره من دون مساعدة خارجية. وهذا أشبه بإنسان وُسم بعلامة في ظهره، لا يستطيع اكتشافها أبداً من دون مرآة. ويعدّ التحليل النفسي إحدى الحالات التي تقدم هذا النوع من المرآة.

يبقى التحليل النفسي شأنَ أقلية من الناس، وغالباً ما تكون نتائجه العلاجية موضع خلاف. لكن، حينما لاحظنا عدّة مرّات على فواعل مختلفين، تحرّر القوى بعد القضاء على مخلّفات التربية؛ وحينما نرى الطرق التدميرية التي تبذلها هذه القوى من كلّ حدبٍ وصوب طاقتها لتدمّر ما هو حيّ (**le vivant**) في الآخرين، كما في الفاعل نفسه، لأنه تعلّم منذ نعومة أظفاره اعتباره مشؤوماً وخطيراً، فإننا نودّ أن ننقل إلى المجتمع قليلاً من التجربة المُكتسبة من خلال الحالة التحليلية. وتبقى مسألة معرفة ما إذا كان هذا ممكناً موضع نقاش. لكن يحقّ للمجتمع، على الأقل، أن يعرف قدر المستطاع ما يدور فعلياً في غرفة التحليل النفسي. لأن ما نكتشفه فيها ليس شأناً شخصياً يتعلّق بعدّة مرضى وبعض التائهين، بل يهمّنا جميعاً.

بؤر الكراهية

(شواهد من نصوص تعود إلى القرنين السابقين)

كنتُ أبحث منذ زمن بعيد عن طريقة ملموسة وغير نظرية لتوضيح ما نفعله في عدد كبير من الحالات للأطفال منذ بداية حياتهم، وما يمكن أن يترتّب من نتائج ما نفعله على المجتمع. غالباً ما سألتُ نفسي كيف نروي ما يكتشفه الناس عبر ما يقومون به من عمل مضنٍ لإعادة بناء أصول حياتهم. ثمّة معضلةٌ قديمة تضاف إلى صعوبة العرض: من جهة هناك واجب السريّة، والقناعة بأننا نكتشف هنا عدداً معيناً من القواعد التي ينبغي ألا تقتصر معرفتها على عدد قليل من المُطّلعين من جهة أخرى. فضلاً عن هذا، أعرف مقاومة القارئ الذي لم يمارس التحليل، ومشاعر الذنب التي تنشأ فينا ما إنْ يحدّثنا أحدهم عن القسوة، بينما يجب أن يبقى طريق الأسى (**travail de deuil**) مسدوداً أيضاً. بمَ إذاً تفيدنا هذه المعرفة المكتسبة؟

اعتدنا كثيراً على فهم ما يقال لنا بوصفه تعليمات، وأسانيد أخلاقية، فنشعر أحياناً أن المعلومة المحضة عبارة عن توبيخ يدفعنا إلى رفضها. من حقّنا أن نقف ضد متطلبات جديدة، حينما تكثر الأسئلة وتفرض علينا في وقت مبكر جداً قواعد الأخلاق بالقوة في أغلب الأحيان. هناك عباراتٌ كثيرة جميلة مثل حبّ القريب، والتفاني، وروح التضحية، لكن القسوة لا تستطيع إخفاءها لمجرّد أنها مفروضة على الطفل، وهذا منذ مرحلة لا يمكن لاستعدادات حبّ القريب أن تكون موجودة. وبسبب الإكراه، ليس من النادر أن تكون مخنوقة في البيضة، وما يبقى عندئذٍ ليس سوى الإرغام الدائم؛ وهذا أشبه بتربة بالغة الصلابة لا ينبت فيها شيء، والأمل الوحيد في الحصول على الحب المطلوب يكمن في تربية المرء لأطفاله، حيث يمكنه إكراههم من دون شفقة.

هذا هو السبب الذي يدعوني إلى تحاشي أيّ موقف وعظي. ويمنعني صراحةً عن الامتناع عن قول يجب فعل هذا والامتناع عن ذاك، ولا أرى فائدةً في قولهم مثلاً إن الكراهية لا تجوز. يبدو لي أن دوري يقوم على إلقاء الضوء على جذور الكراهية التي يبدو أن القليل منا يعرفونها، والسعي إلى تفسير سبب قلّتهم.

أوليـت اهتمامـي كثـيراً لكتـاب كاتارينـا روتشـكي **K.Rutschky** المعنـون **Schwaraze Pädagogik (1977)** بعد أن وقع بين يدي. وهو مؤلّف من نصوص تتعلق بتربية تصف بشـكل بالغ الوضوح جميع التقنيات التقليدية لتكييف [تعليب] (**conditionnement**) الفاعل وعـدم الاهتمام بكيفية التعامل معه بالضبط، بحيث تؤكد انطلاقـاً مـن الواقـع، مـا توصّـلتُ إلى إعـادة تكوينه خلال عملي التحليلي الطويل. وهكـذا أتتنـي فكـرة اسـتخلاص بعـض المقـاطع مـن هـذا الكتاب الرائع، والطويل، وجمعها بطريقة يتمكن القارئ استناداً إليها من الإجابة بنفسه وبشكل شخصي تماماً عن أسئلة كنتُ أنوي طرحها. هذه الأسئلة الأساسية هي الآتية: كيـف تـربّى أهلنـا؟ ما الذي كان عليهم فعله بنا ويستطيعونه؟ كيف تمكنّا من إدراك أننا كنـا أطفـالاً آنـذاك؟ كيـف كان يمكن أن نتصرف بطريقة مختلفة مـع أطفالنـا؟ هـل يمكـن إلغـاء هـذه الحلقـة الشـيطانية المُفرغة ذات يوم؟ وأخيراً، هل يمكن أن تختفي عقدة الذنب إذا أغمضنا أعيننا؟

ليس من المستبعد نهائياً أن أحصل من خلال الشاهد المأخوذ من هذه النصوص، على نتيجـة مستحيلة جذرياً، أو سطحية تماماً. فما دام الفرد لا يستطيع رؤيـة شيء معـيّن، فهـو يعـدُّ نفسـه لكي لا يراه، حتى يفهمه بشكل سيّئ، ولكي يتحاشاه بطريقة أو أخرى. أمّا إذا كان متنبهاً له، فلن يحتاج إليّ لكي يدركه. لهذه الاعتبارات ما يسوّغها، لكن لا أريد التخلّي عن مشروعي لأنه لا يبدو لي من دون معنى، حتى لو استطاع عدد قليلٌ من القراء حتـى الآن الإفـادة مـن هـذه الشـواهد ولو نسبياً.

يبدو لي أن النصوص المُختارة لا تكشف عـن تقنيـات اسـتُخدمت لـترويض «بعـض الأطفـال» فحسب، بل لترويضنا عملياً، جميعاً كما نحن (لا سيما أهلنـا وأجـدادنا)، حتـى لا نفهـم مـا كـان يحدث لنا. أستخدم هنا كلمة «كشف»، مع أن تلك الكتابات ليست سرّيـة، بـل منشـورة وأعيـد نشرها عدّة مرّات. لكن، يمكن لإنسان الجيل الحالي استخلاص شيء منها يتعلق به شخصياً وبقـي خفيّاً على والديه. يمكن لهذه القراءة أن تكوّن لديه الشعور بأنـه اكتشـف سرّاً، أو شـيئاً جديـداً، لكنه معروف جيداً أيضاً، وبقي يحجب حياته ويحدّدها في الوقـت نفسـه. وهـو الشـعور الـذي انتابني شخصياً لدى قراءة كتاب «التربية السوداء» لكاتارينا روتشـكي. الآثـار التـي تركتهـا هـذه التربية على النظريات التحليلية النفسية، والسياسة وفي العديد من قيود الحياة اليومية بـدت لي فجأةً أكثر وضوحاً.

إن «التعنّت»، والنزوة، وعنف مشاعر الطفولة هي أكثر القضايا التي تواجه المربي. إذ يجري التذكير دائماً بأن تعليم الطاعة لا يبدأ قطعاً مبكراً إلى حدّ ما. لننظر في الأمثلة الآتية حول أفكار ج. سولزر **J. Sulzer**:

تتخذُ النزوة شكل تعبير طبيعي منذ الطفولة المبكرة، أي عندما يُحسن الطفل ترجمة رغبته بشيء ما من خلال الحركات؛ أي حينما يرى شيئاً يريد الحصول عليه؛ فيغضب إن لم يتمكن من ذلك، ويصرخ ويرفس بقدميه؛ أو حينما نعطيه شيئاً لا يلائمه، فيرمي به ويشرع بالصراخ. هذه عادات خطيرة تعيق التربية ولا تُنتج شيئاً جيداً عند الطفل. إذا لم نقضِ على النزوة والخباثة، فلن نتمكن من تربية الطفل بشكل جيد. ما إن تظهر هذه العيوب لدى الطفل، لا بد من الإسراع في اتخاذ إجراءات ضد الشرّ، كي لا يتجذّر بشكل أكثر عمقاً من خلال العادة، ولكيلا يطول الفساد شخصية الطفل كلّها.

من ثم، فإني أنصحُ جميع من لديهم أطفال يعملون على تربيتهم اعتبار القضاء على النزوة والخباثة بمثابة مهمّتهم الرئيسة، وأدعوهم إلى التشبّث بها مهما طال الزمن لبلوغ الهدف. وكما أشرنا سابقاً، فإن التفسيرات لا تقنع طفلاً لا يتكلم؛ ومن ثم لا بد من القضاء على النزوة بوسيلة ميكانيكية؛ ولهذا ليس أمامنا سوى أن نبيّن للطفل أهمية هذا الأمر. فإذا استسلمنا للنزوة مرّة، فإنها تصبح في المرّة الثانية أقوى، وتزداد صعوبة القضاء عليها. إذا توفرت للأطفال فرصة إدراك أنهم يستطيعون فرض إرادتهم من خلال الغضب والصراخ، فلن يتوانوا عن العودة إلى استخدام هذه الوسائل مرة أخرى. ويصبحون في نهاية المطاف سادة والديهم ومربّياتهم، وغير منضبطين، ومزاجيين، ولا يُطاقون، وهذا يتحول إلى سلاح يستخدمونه لاضطهاد والديهم وتعذيبهما طيلة حياتهم جزاءً لهما على ما تلقّوه من تربية «جيدة». في المقابل، إذا تمكّن الوالدان من منع النزوة منذ البداية بقسوة التوبيخ واستخدام العصا، فسيكون لديهم أطفالٌ جيدون خاضعون ومطيعون يمكنهم أن يقدموا لهم في المستقبل تربية جيدة. لتهيئة أرضية جيدة للتربية ينبغي عدم الكفّ عن العمل عليها حتى نشعر بأن النزوة قد زالت، إذ لا بدّ من زوالها مهما كان الثمن. يجب ألا نظن بأننا نستطيع القيام بأيّ شيء حسن في ميدان التربية ما دمنا لم نقضِ على هذين العيبين الأساسيين. أي أننا نتكبّد عناءً لا طائل منه. لا بدّ حتماً من وضع الأساس أولاً.

هذان إذاً هما أفضل أمرين ينبغي تركيز الانتباه عليهما في السنوات الأولى للتربية. حينما يتجاوز الأطفال عامهم الأول يبدؤون بالفهم والتكلّم، كما ينبغي الاهتمام بعدد معيّن من الأشياء الأخرى، شريطة أن تبقى النزوة هي الهدف الرئيس لأيّ عمل حتى تختفي نهائياً. ويبقى هدفنا الأساسي دائماً أن نجعل من أطفالنا كائناتٍ مستقيمة وفاضلة؛ وينبغي على الوالدين أن يُبقيا هذا الهدف حاضراً في ذهنيهما كلما نظروا إلى أطفالهم، حتى لا يفوّتوا فرصة العمل على هذه الأرضية. كما لا ينبغي أن يغيب عن بالنا هيئة أو صورة النفس الموجهة نحو الفضيلة، كما سبق وصفها، بحيث ينبغي علينا معرفة كيف نتصرف. المبدأ الأول والأكثر عمومية، والذي ينبغي الحرص عليه، ينطوي على تلقين الطفل حبّ الانضباط: وهي اللبنة الأولى في بناء صرح الفضيلة. لكن خلال السنوات الثلاث الأولى، لا يمكن القيام بهذا المسعى، كغيره من المساعي الأخرى التي نبدأ بها مع الطفل، إلا بطريقة ميكانيكية محضة. علينا أن نفعل ما ننوي القيام به تبعاً لقواعد الانضباط الصحيح. ويجب أن يكون كلّ ما يتعلق بالطعام والشراب، والملبس والنوم، والحياة اليومية للطفل منظّماً، ولا ينبغي تغيير أيّ شيء فيه بسبب نزوته، وتقلّبات مزاجه، حتى يتعلّم الخضوع التام لقواعد الانضباط الصحيح منذ طفولته المبكرة. للانضباط الذي نتبعه معه تأثيرٌ لا نقاش فيه على روح الطفل، وحينما يعتاد الأطفال في وقت مبكر جداً على الانضباط الصحيح، يستنتجون أنه طبيعي؛ لأنهم لن يتذكّروا أننا علّمناهم إياه بشكل مصطنع. وإذا غيّرنا نظام حياة الطفل حسب مشيئته بهدف إرضائه، فسيظنّ أننا لا نعلق أهمية كبيرة على هذا النظام وأن علينا الاستسلام لنزوته؛ قد يترتب على هذا المبدأ الأساسي أكبر النتائج تدميراً لحياة الفاعل الأخلاقية، وهو ما نستخلصه بسهولة مما قلنا سابقاً حول ضرورة الانضباط. بعد أن نتمكن من الحديث مع الطفل، ينبغي تحيّن جميع الفرص من أجل إفهامه أن الانضباط مقدّس لا يُسمح بتجاوزه. وحينما يطلب الطفل شيئاً مخالفاً للانضباط، يجب أن نرد عليه بالقول: عزيزي الطفل، هذا مستحيل، لأنه يخالف الانضباط الصحيح الذي لا يجوز لنا مخالفته أبداً، وهكذا دواليك [...]

العنصر الرئيس الثاني الذي يجب أن نركز عليه جهدنا منذ البداية، أي في السنة الثانية أو الثالثة من عمر الطفل هو طاعة الوالدين المطلقة، والأشخاص المسؤولين، والموافقة على

كلّ ما يفعلون. ليس لأن هذه العناصر مهمّة لحسن مسار التربية فقط، بل لأن لها تـأثيراً بالغ العمق على مجمل التربية أيضاً. إنها ضرورية للتربيـة لأنهـا ترسّـخ في الـذهن مبـادئ الانضباط وطاعة القـوانين أيضـاً. فالطفـل المعتـاد عـلى طاعـة والديـه لـن يصـعب عليـه الخضوع للقوانين وقواعد العقل، بعد أن يتحرّر ويصبح سيّد نفسه، لأنه يكون قـد اعتـاد على عدم التصرف وفق ما تمليه عليه إرادته. لهذه الطاعة أهمية كبرى، لأن التربيـة كلّهـا تقوم على تعلّم الطاعة. هـذا هـو المبـدأ المقبـول عمومـاً لأن عـلى الشخصـيات الرفيعـة المهيّأة لحكم الدول تعلُّم فنّ الحكم من خلال الطاعة. فمـن لا يعـرف الطاعـة لا يعـرف القيادة، لكن ليس هذا هو السبب الوحيد، بل لأن الطاعة تمـنح الإنسـان إرادة الخضـوع للقوانين، وهي أول صفة ينبغي أن يتحلّى بها الحاكم. ما إن نقضي على النـزوة عـبر بـذل أول جهد تربوي، ينبغي أن ينصبّ هذا الجهد على الطاعة؛ لكن ليس مـن السـهل تلقـين هـذه الطاعـة للأطفـال. مـن الطبيعـي تمامـاً أن ترغـب الـنفس في اتبـاع إرادتهـا، وإذا لم نتصرف بشكل جيد خلال السنتين الأوليَين، سيصعب علينا بلوغ الهدف لاحقاً. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه السنوات الأولى تتميّز بأننا نستطيع خلالها استخدام القوّة والإكـراه. ومـع مرور الزمن، ينسى الأطفال كلّ ما عاشوه في طفولتهم المبكرة. فإن تمكنّا من القضـاء عـلى إرادتهم خلال هذه المرحلة، فلن يتذكروا لاحقاً أنه كانت لديهم إرادة أبداً، ومـن ثـم لـن يترتّب على شدّة الوسائل التي استخدمناها نتائج مشؤومة.

إذاً، حينما يصبح الأطفال قادرين على فهم شيء معين، علينـا أن نبـيّن لهـم منـذ البدايـة، سواء بالكلام أم بالأفعال، أن عليهم الخضوع لإرادة الأبوين. ذلك لأن الطاعة تنطوي عـلى أن ينفّذ الأطفال: 1) ما يؤمرون به عـن طيـب خـاطر، 2) ويتخلّـوا عـما يمنـع عـنهم، 3) ويعتبروا أنهم حققوا ما يريدون من خلال التعليمات التي تُعطى لهم.

[نص مقتبس عن ج. سولزر **J. Sulzer**: محاولة فـي تربيـة الأولاد وتعلـيمهم **Versuch von der Erzienhung und Unterweisung der minder 1748**، نقلـه كاتارينـا روتشكي **Schwarze Pädagogig**: جذور التربية السوداء.]

هذه المعرفة النفسية الواسعة التي كان يتمتّع بها هذا المربّي قبل قرنين من الـزمن مدهشـة. فهو محقّ تماماً بقوله إنّ الأطفال ينسون مع مرور الزمن ما عاشـوه خـلال طفـولتهم المبكـرة، لا

شك أنهم «لن يتذكّروا أبداً أنهم كانوا يتمتعون بإرادة»، لكن ليس صحيحاً أن شدّة الوسائل التي استخدمناها لن تترك (إذاً) آثاراً مشؤومة.

العكس هو الصحيح: فرجال القانون، والسياسيون، والأطباء النفسيون، والأطباء، وحرّاس السجون يتعاملون مهنياً مع هذه النتائج المشؤومة طيلة حياتهم من دون أن يعرفوا هذا في أغلب الأحيان، لأن معرفة الأسباب تتطلب سنوات طويلة من العمل التحليلي النفسي، وحينما ينجح في معرفتها، يكون القضاء على الأعراض ممكناً.

نصادف دائماً غير متخصّصين يعترضون بقولهم إن هناك فواعل عاشوا حتماً طفولةً صعبة ولكنهم لم يصبحوا عُصابيين **névrosés**، بينما شبَّ آخرون في ما يسمّى عموماً «وسطاً محميّاً» يعانون من أمراض نفسية. الهدف هو البرهنة على وجود استعدادات غريزية والاعتراض على تأثير بيت الأهل.

المقطع الذي استشهدنا به أعلاه يساعد على فهم كيف يمكن (يجب؟) لهذا الخطأ أن ينتشر في جميع طبقات الشعب. الحقيقة أن العصاب **névroses** والذُّهان [الاضطراب العقلي **psychoses**] ليسا نتيجتين مباشرتين للإحباط الحقيقي، بل تعبيرٌ عن كبت الصدمة العاطفية. حينما يهدف الجهد المبذول لتربية الأطفال منعهم من إدراك ما نسبّب لهم، وما نأخذه منهم، وما يفقدونه، وما كان يمكن أن يكونوا عليه وما هم عليه، وحينما تبدأ هذه التربية في وقت مبكر إلى حدٍّ ما، يشعر الفاعل بإرادة الآخر من دون أن يتحدث عن ذكائه بوصفه خاصاً به. كيف له أن يعرف أن إرادته قد حُطّمت مع أنه لم يختبرها على الإطلاق؟ لكن هذا ما يسبّب له المرض. أما الطفل الذي عاش الجوع، والهجرة أو القصف وهو يشعر بأنه محترم كشخص عادي، فلن يقع مريضاً بسبب صدمات هذا الواقع. بل قد تتوفر له فرصة الاحتفاظ بذكرياته وتجاربه (لأنه عاشها مع أشخاص يعرفهم ومخلصين له) وبهذا فهم يُغنون عالمه الداخلي.

المقطع الآتي الذي أخذناه عن ج. كروغر **J.G.Krüger** يبيّن سبب الأهمية الكبرى التي كان يوليها (ويوليها) المربّي لمقاومة «التعنُّت» بكلّ قوّة:

> أنا لا أرى أنه لا ينبغي ضرب الأطفال أبداً لأخطاء ارتكبوها لضعف فيهم. الرذيلة الوحيدة التي تستحقّ الضرب هي «التعنُّت». لا ينبغي ضرب الطفل لأنه يتعلم بشكل سيّئ، أو لأنه وقع، أو لأنه يبكي؛ لكن من المشروع تماماً ضربه بسبب هذه الأخطاء،

وبسبب أشياء أخرى قام بها بدافع الإضرار. إذا لم يكن طفلكم لا يريد التعلم لكيلا يخضع لما تريدون، وإذا بكى قاصداً تحدّيكم، أي باختصار إذا أراد ركوب رأسه:

اضربوه، واجعلوه يصرخ

[ودَعوه يقول لكم]: لا، لا، يا أبي، لا، لا!

لأن مثل هذا العصيان يعني إعلان الحرب على شخصكم. ابنكم يريد انتزاع السلطة منكم، لذلك يحقّ لكم مواجهة القوة بالقوة، لترسيخ سيطرتكم، وإلا فعلى التربية السلام. لا ينبغي أن يكون هذا العقاب ميكانيكياً محضاً، بل إقناعاً لطفلك بأنك سيده. لهذا، عليك ألا تتوقف حتى يفعل ما رفض فعله سابقاً من باب الخباثة. إذا لم تأخذ هذه القاعدة بعين الاعتبار فإنك تخوض معركة يخرج منها المتمرد منتصراً باتخاذه قراراً صارماً بعدم الاهتمام بالضرب في المستقبل لعدم خضوعه لسلطة الأهل. في المقابل، إذا أعلن الطفل عن هزيمته منذ المرة الأولى، وأن عليه إذلال نفسه أمامكم، فإننا على يقين بأنه لن يجرؤ على التمرّد مرّة أخرى. لكن لا بدّ من التنبّه كثيراً إلى توجيه هذه العقوبات من دون غضب. لأن لدى الطفل ما يكفي من النباهة ليلاحظ ضعفكم، فيعتبر عندئذٍ أن العقوبة ناجمة عن تأثير الغضب في حين ينبغي أن تبدو له تطبيقاً للعدالة. وبالتالي، إذا لم تشعر بأنك قادر على ضبط نفسك، عليك بإيكال فرض العقوبة إلى شخص آخر، وتوصيته بعدم التوقف ما دام الطفل لم يستجب لإرادة الأب، ولم يأتِ لطلب الصفح منه. ويجب ألا ترفض طلب الصفح هذا، كما يقول لوك **Locke** بحقّ، بل استقبله ببرود، ومن دون أن تبادر إلى إظهار عاطفتك قبل أن يصحّح جريمته بالطاعة التامة والبرهنة بهذا على أنه عازم على أن يبقى مرؤوساً وفيّاً لوالديه. إذا تصرّفنا على هذا النحو منذ البداية بالمهارة المطلوبة في تربية الأطفال، فمن المؤكد أننا نادراً ما نضطرّ للّجوء إلى وسائل عنيفة من هذا القبيل؛ لكن لا يمكنك أن تتحاشاها أبداً، إذا كنت إزاء أطفال أُوكل أمرهم إليك بعد أن اعتادوا ركوب رأسهم. لكن، في حالة الطفل المتكبّر، وحتى حينما يتعلق الأمر بأخطاء جسيمة، لا يمكن تحاشي الضرب، أو الطلب إليهم توضيب طاولة الطعام، أو جعلهم يسيرون حفاة، أو حرمانهم من الطعام مع محاولة لمسهم بغير المواضع الحسّاسة (مقبوس من كروغر **J.G.Kruger: Gedanken von der Erziehung der kinder ,p. 170 et sq**).

هنا أيضاً، كل شيء مُقرّر. في الدراسات التربوية الأحدث، نرى أن رغبة المربّين في السيطرة غير واضحة تماماً. وخلال ذلك، وضعت مجموعة من الحجج لبيان قيمة الضرب وضرورته لمنفعة الطفل. هنا أيضاً يتم الحديث بشكل صريح عن «الاستحواذ على السلطة» و«مرؤوس وفيّ»،... الخ. ويكشف بالتالي عن الحقيقة المُحزنة التي ما تزال لسوء الحظ راهنة. لأن محفّزات الضرب ما تزال هي نفسها: الوالدان يناضلان لكي يتمكنوا من السيطرة على أطفالهم بعد أن أجبروا على التنازل عنها لوالديهم. التهديد الذي شعروا أنه يتعلق بهم في السنوات الأولى من حياتهم، ولا يستطيعون تذكّره (ينظر سولزر)، يعيشونه للمرة الأولى مع أطفالهم، وعندئذٍ فقط، أيْ بعد أن أصبحوا أكثر ضعفاً منهم، يدافعون غالباً عن أنفسهم بقوة. وهم بهذا يستندون على مجموعة المعايير المستمرّة حتى اليوم. ومع أن هذا يستمرّ لأسباب داخلية، أي لحاجاتهم الشخصية، فإن الأهل يسيئون معاملة أطفالهم، فمن المعروف في مجتمعنا أن معاملة الطفل هذه يجب أن تكون جيدة. الاهتمام الذي نوليه لهذه المحاجة يفصح عن غموضه. ومع أن الحجج مناقضة لأيّ تجربة نفسية، إلا أنها تنتقل من جيلٍ إلى جيل.

لا بد من وجود أسباب عاطفية مترسّخة بشكل بالغ العمق فينا وراء هذا كله. فلا يمكن لأحد أن يتبنّى دائماً «حقائق» تعاكس القوانين الفيزيائية (كالزعم بأن نزهة الطفل بسروال السباحة في فصل الشتاء، وبمعطف من الفرو في عزّ الصيف أمرٌ صحيّ له) من دون أن يكون المرء موضع سخرية. لكن، من المتفق عليه تماماً، الحديث عن ضرورة العقوبات الجسدية، والإهانة، والهيمنة على استقلالية الطفل بعبارات مختارة مثل «تصحيح»، و«تربية»، أو تعليم ما هو جيد. سنرى في المقبوسات الآتية كما ورد في كتاب **Schwarze Pädagogik**، الفائدة التي يمكن أن يكسبها المربي من هذه الإيديولوجيا لإرضاء حاجاته الأكثر خفاءً وسرّيةً. وهو ما يفسّر أيضاً المقاومة العميقة لاستيعاب ودمج المعرفة الأكيدة المكتسبة خلال تلك العقود الأخيرة حول قوانين علم النفس.

يوجد عدد كبير من الكتب التي تعالج طابع التربية المشؤوم والقاسي (مثل كتب كلّ من **E.Von Braunmhül**، و**L.de Mause**، و**K.Rutschkay**، و**M.Schatzmann**، و **K. Zimmer**). ترى، لماذا يكون تأثير هذه المعارف قليلاً على الرأي العام؟ حاولت في ما مضى تحليل الأسباب الفردية المتعددة التي من شأنها تفسير هذه الصعوبات، لكني أظن أن معاملة الأطفال يجب أن تخضع أيضاً لقانون نفسيّ عامّ يُستحسن تعريفه بوصفه ممارسة سلطة البالغ

على الطفل، والتي تبقى خفيّة ومن دون عقاب. ويبـدو إلقـاء الضـوء عـلى هـذه الآليـة العامـة تقريباً مصطنعاً ومعاكساً لمصلحتنا جميعاً (من يتخلّى برضاه عن إمكانية التخلص من الانفعالات المتراكمة، والمعايير التي تتيح لنا تحقيق وعي سليم؟) لكن هـذا الإيضـاح يتسـم بضرورة عاجلـة للأجيال القادمة. في حقيقة الأمر، ستزداد سهولة قتل آلاف الناس بكبسة زر، كما هـو الحـال مـع تقدم التقنية، كما تزداد أهمية دفع الوعي العام إلى قبول الحقيقة كلها حـول سـبب الرغبـة في القضاء على حياة ملايين الناس. العقوبـات الجسـدية ليسـت سـوى شـكل مـن أشـكال المعاملـة السيئة، وهي دائمـاً مُهينـة لأن الطفـل لا يسـتطيع الـدفاع عـن نفسـه، ويـدين فضـلاً عـن هـذا بالاحترام والمعروف لوالديه من أجل هـذا كلّـه. لكـن بمعـزل عـن الضرب، هنـاك مجموعـة مـن الإجراءات الأكثر تطوراً مـن تلـك المتخـذة «مـن أجـل مصـلحة الطفـل»، لكنـه لا يسـتطيع أبـداً اكتشاف طبيعتها العميقة والتي تترك نتـائج كارثيـة عـلى حياتـه اللاحقـة بوصـفها كـذلك. مـاذا يحدث، على سبيل المثال حينما نحاول، بوصفنا بالغين، تخيّل ما يمكن أن يشعر به الطفـل الـذي يصف ب. فيلوم **P.Villaume** تربيته على النحو الآتي:

حينما نمسك الطفل بالجرم المشهود، لا يصـعب علينـا كثـيراً دفعـه إلى الاعـتراف بجرمـه. فمن السهل أن نقول له: فلان رآك تفعل هذا أو ذاك. لكـن يبـدو مـن الأفضـل أن نكـون مواربين؛ وما أكثر هذه المواربات.

إذا سألنا الطفل عن الآلام التي يعانيها، فإننـا نعلـم منـه أنـه يعـاني هـذا الألم أو ذاك، أو يشكو من اضطراب معين نصفهُ له بدوره. فأتخيل التالي:

«إنني يا بني أعرفُ أوجاعك، وقد حدثتك عنها. ومن ثم فـإني أعـرف حالتـك. بـل أعـرف أكثر من هذا، وسأعرف ما الـذي يؤلمـك في المسـتقبل، وسـأقوله لـك؛ اسـتمع إليّ. وجهـك سيشـحب، وسيصـفرّ جلـدك؛ وسـترتجف يـداك، وسـتظهر بثـورٌ فـوق وجهـك، وعينـاك ستضطربان، وذاكرتـك ستضـعف، وذهنـك سـيذبل، وسـتفقد البهجـة، والنـوم، والشـهية، ...الخ.»

لن نجد أبداً طفلاً لا يخاف من خطابٍ كهذا. ونستمر في القول:

«سأقول لك أيضاً أكثر من هذا؛ اسمعني جيداً! هل تعرف سبب آلامك هذه كلّها؟ ربمـا لا تعرف هذا، لكني أعرفه. إنك تستحقّ هذا! سأقول لك ما تفعله سرّاً. انظر، الخ».

لن يعترف الطفل باكياً إلا إذا كان متعنّتاً إلى أقصى الحدود.

الوسيلة الأخرى للوقوف على الحقيقة هي الآتية (قبستُ هذا المقطع من محادثاتي التربوية):

استدعيت هنريش. «وقلت له: اسمعني يا هنريش، نوبتك دفعتني كثيراً إلى التفكير (هنريش هذا مرّ بعدّة نوبات ألم صغير). قلبتُ كل هذا في رأسي لأرى ما إن كنت قادراً على الوقوف على السبب، لكني لم أعثر على شيء. فكّر جيداً؛ هل تعرف شيئاً؟». يردّ هنريش: «لا، لا أعرف شيئاً (فعلاً لم يكن قادراً على معرفة أي شيء، لأن الطفل في هذه الحالة لا يعرف ما يفعل. على كلّ حال، لم يكن حديثي هذا سوى مدخل إلى الموضوع التالي.».

«لكن هذا غريب! هل شربت كثيراً من الماء بعد أن كان جسمك ساخناً؟»

هنريش: «لا. أنت تعرف جيداً أني لم أخرج منذ زمن طويل، إلا برفقتك.»

«لا أفهم - أعرف جيداً حالة ولد صغير في الثانية عشرة من عمره (كعمر هنريش) شهد قصة محزنة جداً - أودت به إلى الموت.» (المربّي يصف هنا حالة هنريش نفسه، باسم آخر، لكي يخيفه.)

«أصيب فجأةً برجفة مثلك؛ وكان يقول إنه كما لو كان ثمة من يدغدغه بقوة شديدة.»

هنريش: «يا إلهي! لن أموت، أليس كذلك؟ أنا أيضاً ينتابني مثل هذا الانطباع.»

«وأحياناً، اعتقدنا أن مثل هذه الدغدغات ستخنقه»

هنريش: «أنا أيضاً. ألم ترَ هذا؟ (نلاحظ تماماً أن الطفل لم يكن يعرف مصدر تعاسته.)

«بعد ذلك انتابته نوبة من الضحك الجنوني.»

هنريش: «لا، بدأ الخوف ينتابني، بحيث لا أشعر أين أنا.»

(اخترع المربّي هذا الضحك، لإخفاء نواياه من دون شكّ. كان عليه، برأيي أن يقول له الحقيقة.)

«استمر هذا كلّه لوقت معيّن؛ وأخيراً صار الضحك قوياً، وعنيفاً، لا يمكن السيطرة عليه، فاختنق به ومات.»

(رويت هذا كلّه بهدوء كبير؛ من دون الاهتمام بأجوبته؛ مع سعيي للقيام بكل شيء، حتى بالنسبة للحركات والتعابير الجسدية، لكي تتخذ المحادثة شكلاً وديّاً.)

هنريش: «هل مات من الضحك؟ هل يمكن أن يكون الضحك سبباً للموت؟»

«طبعاً، كما أقول لك. أنت لم تصب أبداً بنوبة ضحك جنوني. لديك الانطباع أن كل شيء ينضغط في صدرك، وتملأ الدموع عينيك.»

هنريش: «نعم، أعرف.»

«حسناً، تخيّل إذاً أن يستمر هذا طويلاً. لذا عليك مقاومته. هل أنت واثق من أنك قادر على ذلك؟ يمكنك أن تتوقف لأن الموضوع أو الشيء الذي أضحكك سيتوقف عن التأثير فيك، أو لا يعود يبدو لك مُضحكاً. لكن سبب ضحك هذا الولد المسكين لم يكن خارجياً، بل يعود إلى دغدغة أعصابه التي لا يستطيع إيقافها بإرادته؛ ومع استمرار هذه الدغدغة، يستمرّ ضحكه وينتهي به إلى الموت.»

هنريش: «يا للمسكين! ما اسمه؟»

«اسمه هنريش!» (نظر إليّ مندهشاً.)

«وقال بنبرة لامبالية.)

هنريش: «حسناً، وما سبب ذلك؟ »

(كان هذا هو السؤال الذي أنتظره. خلال هذا الوقت كنت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً؛ وفي هذه اللحظة، توقفتُ ونظرت إليه جيداً لكي أراقبه بدقة.)

«ما رأيك، يا هنريش؟ »

هنريش: «لا أعرف.»

«سأحدّثك عن السبب (رحت أتلفّظ بالجمل التالية ببطء وتشديد.) كان هذا الوالد رأى أحدهم وهو يؤذي نفسه بحركات غريبة بلغت أكثر أعصاب جسمه حساسيةً. فقلّده الولد الصغير من دون أن يعرف أنه سيؤذي نفسه. فاستمتع كثيراً بذلك وانتهى الأمر بأعصابه إلى حالة من الهيجان غير العادي، فأضعفها ثم أودى بحياته. (كان وجه هنريش يزداد احمراراً لشعوره حتماً بالحرج.) هل هناك ما يضايقك هنريش؟

هنريش: «آه! لا.»

«هل ما تزال تشعر بنوبتك؟ »

هنريش: «آه! لا. هل تسمح لي بالانصراف؟»

«لماذا هنريش! ألا تشعر بالارتياح معي؟»

هنريش: «أوه، بلى. لكن...»

«إذاً ما الأمر؟»

هنريش: «لا شيء»

«اسمع ياهنريش، أنا صديقك، أليس كذلك؟ اصدُقني القول. لماذا احمرَّ وجهك، واضطربتَ على هذا النحو لسماعك قصة هذا الولد المسكين الذي اختصر حياته بهذه الطريقة المثيرة للشفقة؟»

هنريش: «هل احمرَّ وجهي؟ لا أعرف سبب ذلك. لقد أشفقتُ عليه.»

«هذا كل شيء؟- لا ياهنريش، هناك أمر آخر، أقرؤه في وجهك. اضطرابك يزداد شيئاً فشيئاً. كن صادقاً، هنريش، لأن اللـه والناس يحبون الصادقين».

هنريش: «يا إلهي.» (انخرط في بكاء يثير الشفقة لدرجة أن عيني طفحتا بالدموع- فرأى ذلك، وأمسك بيدي وقبّلها بكل ما أوتي من قوة.)

«إذاً، هنريش ما الذي يدعوك إلى البكاء؟».

هنريش: «يا إلهي!»

«هل تريد أن أوفر عليك عناء هذا الاعتراف؟ لقد قمتَ الآن تماماً بما قام به هذه الولد التعيس، أليس كذلك؟ »

هنريش: «واللـه! صحيح»

ربما يكون هذا النهج الأخير أفضل حينما نجد أنفسنا أمام أطفال يتسمون بطبع هادئ ومرن. النهج السابق كان ينطوي على شيء من القسوة لأنه يمثل هجوماً حقيقياً على الطفل. (ب. فيلوم، 1787، مقبوس عن **K.R**، ص. 19 وما يتبعها).

لا يمكن لهذه الحالة أن تتضمّن غضباً أو تمرداً من الطفل ضد هذا التلاعب المُقنع، لأنه غير قادر على استخلاصه. ولا يمكن أن تستيقظ فيه سوى مشاعر الخوف، والخجل، وعدم الأمان، والهلع التي لا شكّ أنه سينساها سريعاً إلى حدٍّ ما بعد أن يعثر على ضحيته. فيلوم، مثله مثل كثيرين من المُربّين يحرص على أن تكون هذه المناهج ملحوظة:

ومن ثم، لا بد من مراقبة الطفل بغفلة منه، وإلا اختبأ، وصار حذراً فلا نعود قادرين على تعليمه أي شيء. وبما أن الخجل يدفعُ في كل الأحوال على إخفاء هذا النوع من الفروق، فلن يكون الأمر سهلاً في حدّ ذاته.

إذا راقبنا طفلاً في كل مكان (من دون أن يلاحظنا) لا سيما الأماكن الحميمية، فقد نمسكه بالجرم المشهود.

يجب أن ندفع بالأطفال إلى النوم مبكراً- حينما يغلبهم النعاس للمرة الأولى، ونرفع عنهم الغطاء بهدوء حتى نرى أين يضعون أيديهم، وما إذا كانت هناك أية مؤشرات. ونفعل الشيء نفسه قبل استيقاظهم صباحاً.

ما إن يشعر الأطفال أو يشكّوا قليلاً بأن سلوكهم السري غير مناسب، حتى ينتابهم الخوف ويتوارون عن أعين البالغين. لهذا أنصح بإيكال عمل المراقبة هذا إلى أحد الأصحاب إن كان الأمر يتعلق بولد، وإلى فتاة أو خادمة إذا تعلق الأمر بالبنت. من البديهي أن على المراقبين المشار إليهم معرفة السرّ، أو أن يكونوا في عمر وهيئة كي لا يتضرّروا من إفشاء هذا السر. ومن ثم يجب أن يكونوا قادرين، تحت ستار الصداقة (في الحقيقة ما يقومون به هو عمل صديق) على مراقبة الآخرين. بل أذهب إلى حد النصح بأن ينام المراقب في سرير الطفل نفسه إذا كنا واثقين تماماً منهم. على أي حال، علينا عدم الانتظار طويلاً حتى يفصح الطفل عما لديه بالكلام أو بالأفعال (ب. فيلوم، 1987، بحسب **K.R**. ص.316 وما بعدها).

إن اللجوء المقصود إلى الإهانة الذي يرضي حاجة المربّي يدمّر وعي الطفل لذاته ويجعله قلقاً ومعقداً، لكن يُعرض هذا الأمر بوصفه عملاً جيداً.

لا جدوى من القول إنه ليس من النادر أن يسرف المربّون في مدح مزايا الطفل، فهم يستثيرونه، ويساهمون في مضاعفة غروره، لأنهم في أغلب الحالات ليسوا سوى أطفال

صغار مفعمين بالغرور.[...] القضية هي القضاء على هذا الغرور في وقت لاحق. لا شكّ في أن هذا يعدّ عيباً. إذا لم يُقضَ عليه، فسيقوى، وحينما يتفاعل مع الاستعدادات الأنانية سيشكل خطراً كبيراً على المجتمع، فضلاً عن أن الغرور الذي يتحول إلى تكبّر يمكن أن يكون موضع ضجر أو سخرية الآخرين. وفضلاً عن هذا يمكن للغرور أن يحدّ من سلطة المربي بطرق متعددة؛ ويعتقد الفاعل الراضي عن نفسه أنه يحقق المنفعة المنتظرة من المربي، أو يمكنه على الأقل بلوغها بسهولة، فيرى في التحذيرات تأثيراً يسبب القلق المبالغ فيه، وفي التوبيخ علامةً على قسوة مُريعة. لذلك تكون الإهانة هي الملجأ الوحيد. لكن ما هو الشكل الذي تتخذه هذه الإهانة؟ أولاً، يجب التقليل من الكلمات لأنها ليست، في أي حال من الأحوال، الوسيلة المثلى للدفع إلى التصرفات الجيدة وتطويرها، ولا تكمن في تحاشي التصرفات السيئة أو القضاء عليها. لا يمكن للكلمات أن تكون مؤثرة إلا إذا ارتبطت بالتدخل على مستوى أعمق. الدروس الأخلاقية الكبرى المباشرة، والعِظات العقابية الطويلة، والهجاء اللاذع، والسخرية المريرة، هي آخر الوسائل التي من شأنها تحقيق الهدف: الدروس الأخلاقية تثير الضجر واللامبالاة، والوسائل الأخرى تفضي إلى الكراهية والتخاذل. وتبقى الحياة دائماً مصدر أكثر الدروس تأثيراً. ومن ثم ينبغي اقتياد الفاعل المقتنع بنفسه إلى حالات تجعله يعي عيوبه من دون أن يضطرّ المربي إلى التلفظ بأي كلمة: كأن نقترح على هذا الكائن المعتد بمعارفه من دون وجه حق، القيام بمهامّ تتجاوز قواه، وألا نبعث الاضطراب في نفسه حينما يحاول المبالغة، كما لا ينبغي السماح بأنصاف الحلول والسطحية في هذه المحاولات؛ علينا أن نذكّر هذا الذي يتباهى بعمله حينما يتراخى بعدم الاهتمام، ودفعه بإيجاز، لكن بقسوة، إلى اكتشاف كلمة منسية أو مكتوبة بشكل سيّئ أثناء الإعداد؛ لكن مع الحرص على ألا يشكّ التلميذ بوجود أيّ نيّة متعمّدة. المنهج الفاعل ينطوي بالنسبة للمربي على أن يجعل تلميذه يحسّ بأهمية الشخصيات النبيلة: لا بد من أن نقدم دائماً إلى الطفل الموهوب شخصيات تنتمي إلى البيئة الحية أو شخصيات تاريخية تميّزت بمواهب أكثر تفوقاً، أو استخدمت هذه المواهب لإنجاز أشياء تثير الإعجاب، أو نموذج رجال ارتقوا بالجهد والتنظيم الصارم إلى مستوى أعلى من سخافة العبقرية من دون أن يكونوا ذوي قدرات فكرية خارقة؛ بطبيعة الحال، ينبغي القيام بهذا من دون

ربط صريح مع التلميذ لكي يجري المقارنة بنفسه. أخيراً، في ما يتعلق بالمنـافع الخارجيـة، من المفيد التذكير بالطابع الآني والزائل لهذه الظواهر المرتبطة بتلك المنافع عبر إيحـاءات عرضية. رؤية جثة شاب، وخبر انهيار متجر يذلّل النفس أكثر من استخدام تعـابير ردعيـة أو تكـرار التـوبيخ.(مقبـوس مـن **K.G.Hergang, Pädagogi Realenzyklo-pädie** **(.,1851 , cité par K.R.,p.412 et sq)**.

قناع العاطفة يخفي قسوة طريقة التعامل بشكل أفضل:

سألتُ معلّم المدرسة ذات يوم عن كيفية الحصول على طاعة تلاميذه مـن دون عقوبـات جسدية فأجابني: أبذل جهدي في إقناع تلاميذي بقـولي إني أريـد لهـم الخـير، وأبـيّن لهـم بالأمثلة والمقارنات التـي يقومـون بهـا بأنفسـهم، مقـدار الضرر الـذي يترتـب عـلى عـدم طاعتي. فضلاً عن هذا، ألجأ إلى طريقة الثواب الذي ينطوي، خلال سـاعات الـدرس، عـلى إظهار تفضيلي للتلميذ الأكثر كياسة، وانصـياعاً، ومثـابرة؛ وهـو نفسـه الـذي أطـرح عليـه الأسئلة في أغلب الأحيان، فأسمح له بقراءة وظيفته أمام الآخـرين، وأجعلـه يكتـب فـوق السبورة ما ينبغي كتابته. وبهذا أخلق تنافساً بين التلاميذ: فيرغب كل منهم بـالتميز، وأن يكون المفضَّل لدي. وإذا استحقّ أحدهم العقوبة، أبعده إلى آخـر القاعـة خـلال سـاعات التدريس، فلا أطرح عليه أسئلة، ولا أطلب منه قـراءة أي شيء، وأتصرف كـما لـو لم يكـن موجوداً. وهذا يبعث ألماً كبيراً في نفـوس التلاميـذ بشـكل عـام، لدرجـة يجعـل المُعـاقبَين يذرفون دموعاً حارة، وإذا غامر أحدهم بعدم الانصياع لهذه الطريقة، عندئـذٍ لا بـد مـن ضربه. لكني أستبق تنفيذ العقوبة بتحضير طويل جداً بحيث تؤثر فيـه أكـثر مـن الضرب نفسه. فلا أضرب الطفل عند لحظة اسـتحقاقه للعقوبـة، بـل أؤجلهـا إلى اليـوم التـالي أو الذي يليه. وهو ما يمنحني ميزتين: أولاً يهدأ ذهني خـلال تلـك الفـترة، وأسـتعيد الهـدوء الذي أحتاج إليه لكي أضبط الأمر تماماً بمهارة؛ كما أن الطفل الـذي ارتكـب الخطـأ يشـعر بأن العقاب أكبر بعشر مرات بالنسبة له إضافة إلى أنه يجـد نفسـه مضـطراً للتفكـير فيـه باستمرار.

في اليوم الموعود لتنفيذ العقوبة، أقوم بعد صلاة الصباح بإلقاء خطاب مؤثر على جميـع الأطفال، لأقول لهـم إن هـذا اليـوم حـزين جـداً بالنسـبة لي لأن عصـيان أعـزّ تلاميـذي يضطرّني إلى ضربه. فتسيل الدموع، ليس دموع الطفل الذي سـيتلقى العقـاب فحسـب

بل دموع رفاقه أيضاً. وبعد أن أُنهي هذا الخطاب القصير أطلب من الأطفال الجلوس، وأبدأ بإلقاء درسي. في نهاية الحصة أخرج الشاب المذنب من الصف، وأعلن العقاب وأسأله ما إن كان يعرف سببه؛ وبعد أن يردّ على هذه النقطة بهدوء، أعد عليه الضربات بحضور جميع التلاميذ؛ ثم أستدير نحو المشاهدين لأقول لهم إني آمل من كل قلبي أن تكون هذه المرة الأخيرة التي أضطر فيها لضرب طفل (**C.G.Salzmann,1796**).

ولكي يستمر الطفل في الحياة، فإنه لا يحتفظ في ذاكرته إلا بعطف البالغ المقترن بخضوع يبديه «الشاب المذنب» وفقدان القابلية على عيش الأحاسيس التي يشعر بها.

ما أسعد الأهل والمعلمين الذين عرفوا كيف يربّون أطفالهم تربية جيدة وأن يكون لنصيحتهم قوة الأمر، ولم يضطروا أبداً إلى توجيه عقوبة حقيقية لهم، وحتى في هذه الحالات النادرة، فإن الحرمان من بعض الأشياء التي تحبها النفس مع أنها غير ضرورية، واستبعادهم عن صحبتهم، والحديث عن العصيان إلى أشخاص آخرين يرغب أطفالهم بالإعجاب، أو وسائل أخرى من النوع نفسه كلها تثير الخوف بوصفها أشد أنواع العقوبات. لكن هذه السعادة لا يحظى بها سوى أقلية صغيرة جداً من الأهل. إذ على الغالبية منهم اللجوء إلى وسائل أكثر قسوة من وقت إلى آخر. لكن إذا أرادوا الوصول بأطفالهم إلى الطاعة الحقيقية، يجب أن تكون عقوباتهم الكلامية أو الجسدية حتماً قاسية ولكن غير مخيفة أو عدائية.

يجب أن نكون هادئين وصارمين، في إعلان العقوبة وتوجيه هذه العقوبة، وعدم التلفّظ بأيّ شيء؛ حتى ينتهي العمل، ويصبح الفاعل المُعاقَب قادراً مرة أخرى على توجيه نصائح وأوامر جديدة. [...]

إذا بقي الإحساس بالألم قائماً لبعض الوقت بعد العقوبة، يصبح من غير الطبيعي منع البكاء والتأوهات مباشرة. أما إذا شعرنا أن الطفل المُعاقَب يسعى إلى الانتقام من خلال هذه الشكاوى المُملّة، فإن الوسيلة الأولى تنطوي على محاولة إلهائه عنها بنصحه بالقيام بأشياء ومشاريع أخرى. وإن لم يُجدِ معه هذا الأمر، يمكن منع البكاء بمعاقبة تجاوز هذا المنع إلى أن يتوقف البكاء بعد هذه العقوبة الجديدة. (مقتطف من **J.B.Basedow,**

Methdenbuch für Mütter der Familien und Völmer, 1773**، أورجـه K.R.,
ص.391 وما بعدها

يجب قمع البكاء الـذي هـو ردّ فعـل طبيعـي عـلى الألم بعقوبـة جديـدة، لكـن هنـاك عـدّة تقنيات لقمع المشاعر:

لننظر الآن في تأثير ممارسة التدريبات على قمع المشاعر بشكل تام. من يعرف قوة العادة الراسخة، يعرف أيضاً مقدار الجهد والمثابرة اللازمين لمقاومتها. يمكن عدّ المشاعر بمثابتها عادات وطيدة. وكلما ازدادت صلابة النفس وصبرها، ازدادت طاقتها في بعض الحالات الخاصة، على تجاوز ميل معيّن أو عادة سيّئة. ومن ثم يمكن استخدام جميع الممارسات التي يتعلم الأطفال من خلالها التحكم بأنفسهم ليتمتعوا بالصبر والصلابة من أجل قمع نزعاتهم. وبالنتيجة، فإن جميع هذه الممارسات تستحق اهتماماً خاصاً في إطار التربية، ويجب أن تُعدَّ بمثابة أحد أهم الأشياء، علماً بأن الناس جميعاً ينسونها تقريباً.

ومع ذلك فإن هناك الكثير من هذه الممارسات من هذا النوع، ويمكن تصورها بحيث يخضع الأطفال لها برضاهم، إذا تمكنّا من العثور على الطريقة المُثلى في التحدث إليهم، وحساب الزمن الذي تستحقّه بشكل جيد. أحد هذه التمارين مثلاً هو السكوت. فنسأل الطفل: هل يمكنك أن تبقى صامتاً من دون أن تتلفّظ بأيّ كلمة طيلة يوم أو ساعات؟ وترغيبه في تجريب ذلك إلى أن ينجح في هذا. بعد ذلك، يجب ألا نوفر شيئاً لكي نبرهن له على أن تفوقه على نفسه على هذا النحو يعد انتصاراً. كرّروا التمارين، واجعلوها معقدة بين حين وآخر، إما بإطالة أمد الاختبار، أو بمنح الطفل فرصة الكلام وجعله ينسى شيئاً معيناً. أطيلوا مدة هذا التمرين إلى أن تلاحظوا أن الطفل قد تمكّن منها نوعاً ما. عندئذٍ أفصحوا له عن أسرار لتروا ما إن كان، هنا أيضاً، قادراً على السكوت عنها. فإن بلغ حدّ معرفة الإمساك عن الكلام، سيكون قادراً على القيام بأشياء أخرى، ويدفعه الاعتزاز بنفسه والشرف الذي حظي به مما حققه، إلى النجاح في اختبارات أخرى. أحدها ينطوي على حرمانه من بعض الأشياء التي يحبها. فالأطفال متعلّقون بملذّات الأحاسيس. لذا يجب أن ندفعهم من وقت لآخر إلى ممارسة العنف على أنفسهم في هذا المجال أيضاً. قدّموا لهم فواكه جميلة واختبروهم في لحظة اختيارهم لإحدى هذه

الفواكه. هل يمكنك الاحتفاظ بهذه الفاكهة حتى الغد؟ هل تستطيع أن تهديها إلى شخص آخر؟ تصرّفوا تماماً بالطريقة نفسها التي أشرنا إليها في ما يتعلق بمراحل الصمت. الأطفال يحبّون الحركة، ولا يحبون البقاء ساكنين. أجبروهم على التدرب على هذا بحيث يتعلّمون إيذاء أنفسهم. اختبروا أيضاً أجسادهم، إذا كانت صحتهم تسمح بهذا؛ اجعلوهم يحتملون العطش والجوع، والحرارة والبرد؛ شريطة أن يتم هذا بموافقة صريحة من الطفل؛ لأنها تمارين لا ينبغي إكراه الطفل عليها، وإلا فلا جدوى منها؛ وأكفل لكم أن الأطفال سيكتسبون بهذا النوع من التمارين روحاً تتحلّى بمزيد من الشجاعة، والصلابة، والصبر، وتعبّر مبكراً عن نشاطها في قمع الميول السيئة. خذوا مثلاً حالة طفلٍ يتكلم بطيش لدرجة أنه يتكلم في أغلب الأحيان من دون سبب على الإطلاق. يمكن القضاء على هذه العادة السيئة بالتمرين الآتي. بعد أن تعرضوا على الطفل مطولاً عادته السيئة هذه، قولوا له: هيا بنا نرى ما إن كنتَ قادراً على التخلص من عادة التكلم بخفّة؛ سأرى اليوم كم مرة يمكنك الكلام دون تفكير. وبدءاً من هذه اللحظة يجب الانتباه إلى كل ما يقوله الطفل، وتنبيهه بوضوح كبير إلى خطئه كلما تكلم من دون تفكير، وتسجيل عدد المرات التي يحدث فيها هذا الخطأ طيلة النهار. في اليوم التالي، قولوا له: البارحة تكلمت من دون تفكير كذا مرة؛ هيا بنا نرى كم سيتكرر هذا الأمر معك اليوم؛ ونستمرّ معه على هذا النحو. فإذا بقي لديه القليل من الكرامة والغرائز الجيدة، ثقوا بأنه سيتخلّى عن خطئه تدريجياً. إضافة إلى هذه التمارين العامة، ينبغي أن نمارس تمارين أخرى نوعية تهدف مباشرة إلى الهيمنة على الانفعالات، ولكن ينبغي ألا نبدأ بها قبل أن نستخدم التصورات المشار إليها آنفاً. ثمة مثال واحد من شأنه أن يكون كافياً ليشكل قاعدةً لجميع التمارين الأخرى، إذ ينبغي أن أضيق اندفاعي إذا لم أشأ الإطالة. لنفترض طفلاً حقوداً، وأننا حصلنا منه سابقاً على ما يكفي منه من خلال العرض لكي يكون ميالاً إلى قمع هذا الهوى، ومن ثم يعد أيضاً بالقيام به، عليكم اختباره بالطريقة الآتية: قولوا له إنكم ستختبرون مقاومته لهيمنة هذا الهوى؛ قولوا له أن يبقى متأهباً، وتوخي الحذر من هجوم العدو. ثم، كلّفوا أحدهم بشكل سرّي بإهانة الطفل في لحظة لا يتوقعها، لكي تعرفوا كيف يتصرف. فإذا استطاع التحكم بنفسه، عليكم الثناء على ما حققه من تقدّم، وجعله يشعر بالمتعة التي يحققها الإنسان حينما

يتجاوز ذاته. ثم ينبغي تكرار الاختبار نفسه مرة أخرى؛ فإذا لم يقبل الطفل، فلا بدّ من معاقبته بلطف، وتنبيهه إلى ضرورة أن يكون متماسكاً في المرة القادمة. لكن يجب ألا نبدو قساة في هذه الحالة. وإذا كنا إزاء عدّة أطفال، ينبغي أن نجعل ممن تجاوزوا الاختبار بشكل جيد قدوةً للآخرين.

لكن ينبغي مساندة الأطفال بمقدار ما نستطيع في هذه الاختبارات. يجب أن نقول لهم كيف يحذرون. وأن نثير عندهم الرغبة في هذا الأمر، بكل ما أوتينا من إمكانية، حتى لا ترعبهم الصعوبة، إذ تجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من الاختبارات يتطلب استعداداً إيجابياً من جانب الطفل، وإلا فإن التجربة تكون عقيمة تماماً. هذا ما بدا لنا من الواجب قوله حول هذا التدريب (**J.Sulzer,1748**, عن **K.R.,p. 362** وما بعدها).

إذا كان لهذا النضال ضد الحياة العاطفية **affectivité** مثل هذه الآثار المشؤومة، فهذا ما يُشرع به لدى الرضيع، أي قبل أن يتمكن أنا الطفل من التطور.

هناك أيضاً قاعدة أخرى تفضي إلى نتائج هامة تقول بوجوب إشباع الحاجات المسموح بها للطفل فقط حينما يبدو ليناً، وغير ضارّ أو هادئ على الأقل، وليس حينما يصرخ أو غير مطيع. عليه أولاً أن يعود إلى السلوك الهادئ، حتى حينما تبدو الحاجة إلى الطعام منطقية ومشروعة تماماً - وبعد هذا فقط يجب إشباع حاجته أي بعد فترة انتظار قصيرة. هذا الانتظار الوسيط ضروري أيضاً، إذ يجب أن نُبعد عن الطفل أقلّ شكل من الشكّ الذي من شأنه أن ينتزع أي شيء من محيطه عبر الصرخات بسلوك لا يُحتمل. بل بالعكس، سرعان ما يفهم الطفل أنه يبلغ غاياته بالسلوك المعاكس فقط، وبالسيطرة على الذات (حتى وإن كانت ما تزال غير واعية). العادة السليمة تتوطد بسرعة غريبة (بالسرعة نفسها التي تتوطد بها العادة المضادة في الحالة المعاكسة). وهذا أكثر من المطلوب؛ لأن نتائج توطيد هذا الأساس الجيد لها تفرعات متنوعة ولا متناهية في المستقبل. لكننا نرى جيداً هنا أيضاً إلى أي درجة يمكن لهذه المبادئ، ومبادئ أخرى من النوع نفسه والتي ينبغي اعتبارها بوصفها الأهم، أن تكون صعبة التطبيق حينما يترك أمر الأطفال من العمر نفسه، وهذا هو الحال غالباً، تقريباً تماماً بين أيدي خدم لا يملكون الإدراك الكافي، إلا في ما ندر، لمثل هذا النوع من التصورات.

يكون الطفل قد حقّق تقدماً واضحاً في فن الانتظار من خلال الاعتياد الذي فرغنا من الحديث عنه، وأصبح جاهزاً لتحقيق مكسب آخر أكثر أهمية لما سيأتي، أي فنّ التنازل. وفقاً لكل ما أتينا على قوله سيتضح حتماً أن أي رغبة ممنوعة - سواء كانت ضارة للطفل نفسه أم لا - سيقابلها رفضٌ غير مشروط بثبات مطلق. لكن الرفض وحده غير كافٍ؛ إذ يجب الحرص في الوقت نفسه على أن يقبل الطفل هذا الرفض بهدوء، أو أن نوجّه إليه كلاماً قاسياً، أو تهديداً أو أي شيء آخر إذا احتاج الأمر ليصبح هذا الإذعان عادةً مستقرّة. المهمّ ألا تكون هناك استثناءات! - ويتم هذا بأسرع وأسهل مما نظن بشكل عام. لكن، أيّ استثناء يلغي القاعدة ويجعل الاعتياد صعباً لفترة طويلة. في المقابل، ينبغي تحقيق جميع رغبات الطفل بسرعة تقوم على المحبة.

هذه هي الطريقة الوحيدة لتسهيل الاعتياد السليم واللازم على الطفل للهيمنة على إرادته والتحكم بها، وتثبيت ما هو مسموح وغير مسموح والتمييز بينهما، وهو ما لا نستطيع فعله إذا خفنا من إلغاء جميع الأحاسيس التي توقظها رغبةٌ ممنوعة لديه. يجب أن تكون أسس القوة ذات الطابع الضروري موضوعة بشكل مبكر إلى حد ما، ولا تترسخ هذه القوة مثلها مثل القوى الأخرى إلا بالتدريب. إذا قرّرنا عدم البدء إلا في مرحلةٍ متأخرة، سيكون النجاح صعباً نوعاً ما، وسيتعرّض ذهن الطفل غير الجاهز إلى تكوين انطباع بالمرارة.

التمرين الجيد على فنّ التنازل المتكيف تماماً مع هذه المرحلة من العمر ينطوي على توفير الفرصة في أغلب الأحيان للطفل ليتعلم النظر إلى الأشخاص الموجودين في محيطه المباشر وهم يأكلون ويشربون، من دون أن يطلب أي شيء (**D.G.M. Schreber,1858** عن **K.R**.، ص.354 وما بعدها).

إذاً، ينبغي أن يتعلم الطفل منذ البداية «إنكار نفسه»، وخنق كلّ «ما لا يرضي الله» في أبكر وقت ممكن.

الحب الحقيقي مصدره قلب الله، الذي منه تُسمّى كل عشيرة في السموات (رسالة بولس إلى أهل أفسس، 15،3)، ويأتينا بريقه ومثاله من حب المخلِّص، ويصدر عن روح المسيح، فينمو ويحفظ في قلب الإنسان. بهذا الحب الآتي من علٍ يتطهر الحب

الطبيعي للوالدين، ويتقدّس، ويتضح، ويتعزز. لهذا الحب المقدس غاية قصوى، وخافية على الطفل، ونعني بها تفتّح الكائن الداخلي، لا يرى منها الطفل سوى حياته الروحية، وتحرّره من سلطة الجسد، وارتفاعه فوق متطلبات مجرد الحياة الطبيعية للأحاسيس، واستقلاله الداخلي بالنسبة لدوامات العالم المحيط. ومن ثم فهذا الحب يحرص منذ البداية على أن يتعلم الطفل إنكار نفسه، وتجاوزها والسيطرة عليها، وألا تكون طاعته لغرائز الجسد والحواس عمياء، بل لغرائز الروح العليا وإرادتها. ومن ثم يمكن لهذا الحب المقدس أن يكون قاسياً أو ناعماً، كما يمكنه الرفض أو الموافقة عليه، حسبما يقتضي الوقت، ويمكنه أن يحوّل الشرّ إلى خير، ويفرض تضحيات كبيرة كطبيب يصف أدوية مُرّة الطعم، والجراح الذي يعرف تماماً أن الجرح الذي تحدثه أداته مؤلم، ومع ذلك يجرح لأنه لازم لإنقاذ الحياة. «تضرب الطفل بالعصي، لكنك تنقذ روحه من الجحيم». وكلام سليمان هذا يبين مدى القسوة التي يمكن أن يبلغها الحب الحقيقي. ليست الصرامة الشديدة ولا التشدّد الأحادي للقانون هو الذي يعجب بذاته ويفضل التضحية بالفاعل على أن يبتعد قيد أنملة عن قاعدته؛ لا، إن طيبته العميقة تظهر رغماً عن كل قسوة، من خلال اللطف، والشفقة، والصبر المفعم بالأمل، كما تظهر الشمس من خلال الغيوم. إنه يبقى حراً على الرغم من صلابته ويعرف دائماً ما يفعل، ولماذا. (مقتطف من **K.A.Schmidt** [المشرف على التحرير]: الموسوعة الكاملة لنظام التعليم والتدريس، **Enzilkopädie des gezamten Erziehungs- und Unterrichtswesens** 1887 **1887** عن **K.R**. ص.25 وما بعدها).

ولاعتقادنا الدقيق المشاعر الصحيحة والجيدة بالنسبة للطفل (والبالغ) فإننا نقف أيضاً ضد العنف الذي يعدّ مصدر الطاقة الحقيقي:

ينبغي عدّ العنف عند الطفل من بين المظاهر التي تقع عند حدّ الحالة السويّة **normalité**، وهو سلوك يتجلى في عدة أشكال، لكنه يبدأ عموماً بأن عدم تحقيق الرغبة المتيقظة بشكل مباشر يعني بداية نشاط يتّسم بشدّة غير معتادة في قسم العضلات الإرادية، وينجم عنه نتائج إضافية واضحة إلى حد ما. ثمة أطفال لم يتعلموا سوى بضع كلمات، وتنطوي أعلى كفاءاتهم على امتلاك أشياء تقع في متناول أيديهم، لكنهم مستعدون لتطور ذي طبيعة عنيفة، ويحتاجون فقط إلى عدم الحصول على شيء أو يرون

أنفسهم ممنوعين من النظر إليه، لـكي يشرعـوا في إطـلاق صرخـات متوحشـة ويعـتريهم اضطراب لا يمكن السيطرة عليه. من هنا تنشأ الخباثة بطبيعة الحـال، هـذه الخصوصـية التي تنطوي على أن الشعور البشري لا يعود خاضعاً للقوانين العامـة للرغبـة والألم، لكنـه منحلّ في طبيعتها العميقـة إلى درجـة يسـتمتع معهـا بالاسـتياء وبـآلام الآخـرين، لأنـه لا يطيب له المشاركة فيها على الإطلاق. الاستياء المتنامي الذي يعانيه الطفل بسبب فقـدان الشعور بالمتعة التي يحققها لـه إرضـاء رغباتـه ينتهـي إلى عـدم القبـول إلا بالانتقـام، أي الانطباع المريح الذي تولده معرفة أن شبيهه خاضع لمثل هذا الشعور بالاسـتياء أو بـالألم. وكلما تكرّر الإحساس بالارتياح من الشـعور بالانتقـام، أصـبحت لـه قيمـة حاجـة يمكنهـا استخدام سُبل إرضائه في أي لحظة من لحظات العطالة. في هذه المرحلة يتسـبّب الطفـل بعنفه في جميـع الإزعاجـات، والمضـايقات الممكنـة والتـي يمكـن تخيلهـا للآخـرين لغايـة واحدة هي إيقاظ الشعور لديه القـادر عـلى التخفيـف مـن ألم الرغبـات غـير المتحقّقـة. ينجم عن هذا الخطـأ بطبيعـة الحـال، الخطـأ التـالي، أي أن الخـوف مـن العقـاب يـدفع للحاجة إلى الكذب، واتباع الحيلة والخداع، واللجوء إلى المغامرات التي لا يتطلب اكتمالها سوى التدريب. تتشكل الرغبة في الأذى تدريجياً كما قلنا، بالطريقة نفسـها التـي تتشـكل بها السرقة والهوس بها. وينجم عن الخطأ الأولي خطأ لاحق لا يقلّ أهمية عنه يتبدّى من خلال تطور التعنّت أيضاً.

[...] الأمهات اللاتي يوكل إليهنَّ عمومـاً تربيـة الأطفـال، نـادراً مـا يعـرفن كيفيـة مقاومـة العنف.

[...] وكـما هـو حـال الأمـراض الصـعبة التـي تـعصى عـلى العـلاج، فلابـد، بالنسـبة لهـذا الاضطراب النفسي من إيلاء الأهمية للوقاية **prophylaxie**، أي الوقاية من الشر. وأفضـل طريقة لهذا هي تأسيس التربية على مبدأ نحرص عليه بشدة يقول إنه لا بد مـن إخضـاع الطفل بقدر الإمكان لجميع الأعمال التي مـن شـأنها إيقـاظ أيّ شـعور لديـه سـواء كـان محبّبـاً أم مؤلمـاً. (**S.Landmann, Über denKinderfehler der Heftigkeit, 1896** حول خطأ العنف فـي الطفولة، عن **K.R**. ص.364 وما بعدها).

هنا ثمة التباس لـه دلالتـه الكـبرى بـين السـبب ونتيجتـه، نحـن نقـف في وجـه شيء خلقنـاه بأنفسنا بوصفه مصدراً للشرّ. هذا النوع من الظواهر لا يحدث في التربية فقـط، بـل في مجـالات

الطب النفسي وعلم الجريمة. فما إن نخلق «الشرّ»، بقمع ما هو حيّ فينا، حتى تصبح جميع الوسائل لمكافحته لدى الضحية جيدة.

[...] يجب أن يتقدم الانضباط على التعليم في المدرسة بنحو خاص، ولا يوجد مبدأ تربوي أكثر أهمية من المبدأ القائل بوجوب تربية الأطفال قبل التعليم. فلا انضباط بلا تعليم، كما رأينا سابقاً، لكن لا وجود لتعليم من دون انضباط.

ومن ثم علينا الحرص على الآتي: التعليم بذاته ليس انضباطاً، وليس اجتهاداً في البحث الأخلاقي، بل يفترض الانضباط.

على هذا النحو أيضاً تتحدّد وسائل الانضباط. وقد رأينا أن التربية لا تتقدم على شيء بالكلام بل بالفعل، وحينما تتحول إلى كلمات، فيجب ألا تكون دروساً بل أوامر.

[...] لكن ينجم فضلاً عن هذا كله أيضاً أن الانضباط بالأساس عبارة عن عقوبة كما تعني كلمة **musur** في العهد القديم. الإرادة السيئة (سوء النية) ليست، لسوء حظها وحظ الآخرين، سيدة نفسها لذا يجب كسرها. الانضباط كما يقول شليرماخر **Schleiermacher**، هو الحرمان من الحياة، وفي كل الأحوال هو تضييق النشاط الحيوي، لأن هذا النشاط لا يستطيع التطور كما يشاء بل ينبغي إبقاؤه ضمن حدود معينة، وخاضعاً لبعض القواعد؛ وتبعاً للحالة، يمكن أن يكون أيضاً تضييقاً، أي إلغاء جزئياً للرغبة في الوجود، ومتعة الحياة، بل المتعة الروحية كما في حالة فرد من جماعة دينية مثلاً، يرى نفسه محروماً بشكل مؤقت، وحتى بلوغ حماسة دينية جديدة مصدرها المناولة **communion** بوصفها أعلى لذّة ممكنة في هذا العالم. ولأن ترسيخ الانضباط السليم في عملية التربية، لا يستغني أبداً عن العقوبة الجسدية، فذلك يعود إلى تعريف مفهوم العقوبة نفسه. واستخدامها المبكر والشديد، لكن بدراية، يعدّ أساساً للانضباط الحقيقي، لأن المطلوب تحطيم سلطة الجسد قبل كل شيء [...]

حينما لا تعود المؤسسات البشرية كافية للحفاظ على الانضباط، ينبغي على المؤسسة الدينية التدخل بشكل قوي وإخضاع الأفراد والشعوب لنير دناءتهم. (الموسوعة الكاملة لمنظومة التدريس والتعليم: **Enzyklopädie des gesamten Erziehungs- und unterrischtswesen, 1887** عن **K.R**., ص.381 وما بعدها.)

هنا نجد تأكيداً على مقولة «الحرمان من الحياة» التي تحدّث عنها شلايرماخر، من دون مواربة، والثناء عليها، لكننا ننسى، ككثيرين من الواعظين الأخلاقيين، أن المشاعر الجيدة الحقيقية لا يمكن أن تتطور إلا على أساس «العنف». يجب على اللاهوتيين الواعظين، والتربويين أن يتمتعوا بكثير من الخيال، أو العودة إلى الإمساك بالعصي إذا احتاج الأمر، لأن حب القريب فوق هذه الأرض، التي جفّفها الانضباط المبكر جداً، لن يتفتّح بسهولة كبيرة. لكن تبقى إمكانية حب القريب من باب الواجب والطاعة، أي الكذب أيضاً.

تصف روث ريهمان **Ruth Rehmann**، وهي ابنة كاهن، الجو الذي كان الأطفال يكبرون فيه أحياناً في كنف تلك العائلات.

> كانوا يقولون لهم إن قيمهم تتجاوز جميع القيم الحسية من حيث فوريتها. وينشأ عن الشعور بامتلاك القيم الخفيّة اعتزاز بالنفس وغرور سرعان ما يختلطان بشكل وثيق بالإذعان المطلوب الذي لا يمكن لأحد تخليصك منه، حتى أنت نفسك. في كل أفعالك وحركاتك لا تجد نفسك في مواجهة والديك الطبيعيين فقط، بل في مواجهة الأب الأعلى كليّ الحضور الذي لا يمكنك إهانته من دون أن يكون الشعور بالذنب ثمناً لذلك. من المؤلم أن يكون المرء خاضعاً: أي لطيفاً! في تلك البيوت، لا أحد يتحدث عن فعل «أحبَّ» بل عن واجب «العطف» أو أن يكون الإنسان «لطيفاً». وإحلال اسم أو صفة وفعل مساعد محلّ هذا الفعل، يعني قطع رأس سهم الإله الوثني وحَنْيِه لجعله خاتماً أو دائرة عائلية. ومن شعر بالدفء مرة سيناله البرد في كل مكان من العالم.

بعد أن تروي روث ريهمان قصة والدها من وجهة نظرها، تلخص ابنته هذه مشاعرها بالعبارات الآتية:

> ما يخيفني في هذه القصة هو هذا النوع الخاص من العزلة التي لا تشبه العزلة، لأنها محاطة تماماً بأناس عطوفين، باستثناء أن الكائن المنعزل لا يملك خيارات أخرى للاقتراب منهم إلا بحركة من الأعلى نحو الأسفل، كالانحناء مثل القديس مارتان وهو ينحني نحو الرجل المسكين من فوق حصانه. يمكن أن نطلق على هذا أسماء مختلفة: عمل الخير، مساعدة، إعطاء، نصح، مواساة، تعليم، وحتى تقديم خدمة، لكن التسميات لا تغيّر شيئاً لأن الأعلى يبقى دائماً هو الأعلى والأسفل دائماً هو الأسفل، وأن من يجد نفسه مرة واحدة في الأعلى لا يمكنه طلب المساعدة، أو تقديم النصح أو

المواساة، أو تعليم أي شيء، مهما كان بحاجة إليه، لانعدام إمكانية التبادلية ضمن هذه الجماعة المجمدة أو حتى الحديث عن التضامن على الرغم من الحب كله. لا بؤس أكثر بؤساً يعيشه مثل هذا الكائن حينما ينزل من أعلى اعتزازه الذليل بالنفس.

قد يكون هذا هو النوع الخاص من العزلة الذي نخطئ من خلاله بحقّ الكلمة وأمر الله على الرغم من دقة المراقبة اليومية، من دون أن ندرك بأننا مذنبون، لأن إدراك بعض الخطايا يفترض معرفة تُكتسب بالنظر، والسمع والإدراك، وليس عبر حوار يدور في الفضاء الداخلي (العزلة). لا بد أن كاميلو توريس **Camillo Torres** درس علم الاجتماع بعد دراسته اللاهوت لكي يفهم بؤس شعبه ويتصرف على هذا الأساس. لكن الكنيسة لم تكن مرتاحة لهذا الأمر. فقد بدت لها أخطاء من يريد المعرفة دائماً أخطر من أخطاء عدم إرادة المعرفة، ووجدت دائماً أن من كانوا يبحثون عن الأساسي في ما لا يُرى ويهملون ما يُرى باعتباره ثانوياً، هم أحبُّ الناس إليها.(ص.213، وما بعدها.)

على المربّي أن يوقف تطور المعرفة بشكل مبكر جداً، وجزئي أيضاً حتى لا يلاحظ الطفل سريعاً ما نفعل به.

الطفل: من أين يأتي الأطفال يا سيدي؟

المُربي: إنهم ينمون في بطن أمهم. وحينما يكبر حجمهم كثيراً، ولا يبقى لهم مكان في جسمها، لا بد أن تطردهم تقريباً كما نفعل حينما نأكل كثيراً فنتوجه إلى التواليت. لكن الأمر مؤلم جداً للأمهات.

الطفل: هل هكذا يولد الطفل؟

المربي: نعم.

الطفل: لكن، كيف يصل الأطفال إلى جسم الأم؟

المربي: لا نعرف هذا، كل ما نعرفه هو أنهم ينمون هناك.

الطفل: لكن هذا الأمر غريب.

المربي: لا، تماماً لا. انظر تلك الغابة هناك. لقد نمت هناك. ولا يخطر في بال أحد أن يدهش من هذا، لأننا نعرف أن الأشجار تنبت في الأرض. ليس ثمة ما يدهش في أن

الأطفال ينمون في جسم أمهم. لأن الأمر كان دائماً على هذا النحو منذ أن وجد البشر فوق الأرض.

الطفل: ويجب أن تكون هناك قابلات في لحظة ولادة الطفل؟

المربي: نعم، بالضبط لأن الأمهات يعانين آلاماً شديدة لا تمكنهن من الولادة وحدهن. وبما أن النساء لسن صلبات وشجاعات بما يكفي لمساعدة أناس يعانون من آلام رهيبة، هناك في كل مكان نساء يدفع لهن أجرة في مقابل البقاء إلى جانب الأمهات حتى زوال الآلام، كما توجد ندابات أو نساء يغسلن الموتى، لأن غسيل الميت أو إلباسه ليس أمراً يحب الجميع القيام به، لهذا يتفق الناس على التكسّب من ورائه.

الطفل: أودّ لو أرى ولادة طفل ذات يوم.

المربي: لكي تكون لديك فكرة عن آلام ومعاناة الأمهات، لستَ بحاجة لحضور ولادة طفل، لأننا نادراً ما نعرف بهذا مسبقاً، والنساء نفسهن لا يعرفن أبداً لحظة بداية الآلام. سأصحبك لرؤية الدكتور ر. حينما تكون لديه عملية قطع ساق، أو يستخرج بحصة من الجسم. هؤلاء الناس يتأوهون ويطلقون صرخات تشبه تماماً تأوهات الأمهات حينما يضعن مولوداً [...]

الطفل: قالت لي أمي منذ فترة قصيرة إن القابلة ترى مباشرة إذا كان الطفل ولداً أو بنتاً. فكيف تعرف القابلة هذا؟

المربي: سأخبرك بهذا. في كل الأحوال يكون الأولاد عريضي الكتفين، وعظمهم أقسى من عظم الفتيات: يد الولد وقدمه أعرض من يد البنت وقدمها وأقل تشكلاً. ما عليك إلا أن تنظر مثلاً إلى يد أختك مع أنها تكبرك بعام ونصف تقريباً، وسترى يدك أعرض من يدها بكثير، وأصابعك أغلظ، وأكثر سمنة. وتبدو أقصر مع أنها ليست كذلك (**J.Heusinger,1801** عن **K.R**. ص.232 وما بعدها.)

بعد إفساد عقل الطفل بأجوبة من هذا النوع، يمكن السماح لأنفسنا بفعل أيّ شيء معه:

نادراً ما يكون مفيداً، وغالباً ضاراً أن نفسر لهم [الأطفال] الأسباب التي تمنعكم عن تلبية رغباتهم؛ وحتى لو عزمتم على تلبية مطالبهم، يجب أن تعوّدوهم من وقت إلى آخر على الانتظار، والاقتناع بجزء مما طلبوا، وأن يكونوا ممتنّين لتقديمكم لهم مكرمة

أخرى مختلفة عن تلك التـي طلبوهـا. واشـغلوهم عـن الرغبـة التـي تجـدون أنفسـكم مضطرّين إلى معارضتها، إما بتكليفهم بعمل معين، أو بالاستجابة لطلب آخـر. وفي لحظـة تناولهم الطعام، أو الشراب أو اللعب، قولوا لهم من وقت إلى آخـر بنـبرة تـنم عـن إصرار حنون بأن يتوقفوا عن متعتهم لدقائق للقيام بعمل آخر. ولا تستجيبوا لطلـبٍ رفضـتموه في البداية. وابذلوا جهدكم في إقناع الأطفال بكلمة «ربّما» في بعض الأحيان؛ لأن هـذه الــ «ربّما» قد تتحقق في بعض الأحيان، لكن ليس دائماً. وفي كل الأحوال ليس حينما يكـرّرون طلباً ممنوعاً. إذا كانوا يكرهون بعض أنواع الطعام، عليكم بتمييز ما إن كانت كـراهيتهم ذات طبيعة عامة أو خاصة؛ فإن كانت خاصة، لا تجهدوا أنفسكم كثيراً في تجاهل قرفهم؛ وإذا كانت عامة، عليكم أن تروا ما إن كانوا يفضلون تحمّل الجوع والعطـش خـلال فـترة معينة بدلاً من استيعاب ما يكرهونه. فإذا كان الأمر عـلى هـذا النحـو اخلطـوا الأطعمـة المعنيـة قلـيلاً بـأخرى مـن دون أن يشـعروا بـذلك: فـإن استحسـنوها وهضـموها جيـداً، أقنعوهم من خلال هذا بخطأ تصورهم. إذا تقيّؤوا، أو إذا لاحظـتم آثـاراً جسـدية أخـرى مؤسفة، لا تقولوا شيئاً، وراقبوا ما إن كانت طبيعتهم ستعتاد على هـذه الحيلـة تـدريجياً أم لا. وإن لم يكن هذا ممكناً فـلا طائـل مـن السـعي إلى إرغـامهم؛ لكـن إذا لاحظـتم أن الخيال هو السبب الوحيد وراء هذا النفور، حاوِلوا أن تشـفوهم منـه بجعلهـم يصـومون لفترة أطول، أو بوسائل عقابية أخرى. سيكون نجاحكم أكثر صعوبةً إذا لاحظ الأطفـال أن والديهم أو مراقبيهم يبدون في بعض الأحيان نفـوراً مـن هـذا الطعـام أو ذاك. [...] إذا لم يكن الأهل والمراقبون قادرين مثلاً عـلى تنـاول الأدويـة مـن دون تكشـير أو تـذمر، إذ لا ينبغي أن نُري الأطفال ذلك، بل بالعكس عليهم أن يتصرفوا غالباً، كما لو كـانوا يتنـاولون هم أنفسهم هذه الأدوية ذات المذاق السيّئ، لأن الأطفال يمكنهم استيعاب هذا الأمر إن عاجلاً أم آجلاً. هذه الصعوبات وغيرها تتبدّد عموماً بالاعتياد أيضاً على الطاعـة المطلقـة. وتتخذ هذه الصعوبات أبعاداً أكثر مأسـاوية في العمليـات الجراحيـة. إذا كانـت العمليـة لازمة للطفل الصغير، فلا ينبغي الحديث عنها مسبقاً أبداً، بل القيام بجميـع التحضـيرات بشكل سرّي، ثم الانتقال إلى التنفيذ، وبعدها نقول: لقد انتهينا يا بني، ها قد شفيت الآن وسينتهي الألم؛ لكن إذا كـان لا بـد مـن إجـراء عمليـة ثانيـة لـه، فلـيس بوسـعي تقـديم

نصيحة صالحة دائماً، ولا القول ما إن كان يجب اللجوء إلى بعض التصورات، أو بالعكس التصرف من دونها، لأن الحل الأول هو الأفضل في بعض الحالات، والثاني يصلح في حالات أخرى.

- حينما يخاف الأطفال من العتمة، فنحن السبب في هذا. إذ علينا منذ الأسابيع الأولى، لا سيما في مرحلة إرضاعهم ليلاً، إطفاء النور من وقت إلى آخر. فإن عوّدناهم منذ البداية على عادات سيئة، يجب أن نشفيهم من هذا الضرر تدريجياً. بعد إطفاء النور، نعود إلى إشعاله ببطء، ثم نجعل ذلك أكثر بطئاً بعد ذلك، أخيراً لا بد من أكثر من ساعة لبلوغ ذلك، وفي هذه الأثناء نتبادل حديثاً مرحاً حولهم، ونقوم بأشياء يحبها الأطفال. بعد ذلك نكفّ عن إضاءة غرفتهم ليلاً؛ ونمسك الطفل من يده ونجعله يعبر غرفاً مظلمة تماماً، ثم نرسله إلى غرفته وحيداً للبحث عن شيء يعجبه. لكن إذا كان الوالدان أو الأشخاص المسؤولون هم أنفسهم يخشون العتمة، فلا يمكنني تقديم أيّ نصيحة سوى التستّر على خوفهم هذا (**J.B.Basedow, 1773** عن **K.R**. ص. 258 وما بعدها.)

يبدو أن التستّر، حتى في علم التربية، وسيلة عامة لفرض الهيمنة. هنا أيضاً يُقدّم الانتصار النهائي، كما يقدم في مجال السياسة، بوصفه «الحل الأفضل» للنزاع.

[...]. كما ينبغي على الطفل تعلم التحكّم بنفسه من خلال التمرين. ويندرج في إطار هذا الجهد ما برع ستوي **Stoy** بقوله في موسوعته حول واجب الطفل في ملاحظة نفسه، ليس بهدف الإعجاب بها، بل لمعرفة العيوب التي عليه أن يستخدم قوّته ضد تجلياتها؛ بعد ذلك يمكن أن نطلب منه عدداً معيناً من التحسينات. يجب على الولد الصغير أن يتعلّم التخلي عن شيء معين، وكيف يحرم نفسه، ويسكت عند توبيخه، ويذعنُ أمام ما يزعجه؛ ويتعلم كيف يكتم السر، ويوقف متعته.[...]

4. فضلاً عن هذا، فإن الخطوة الأولى هي المهمّة في ما يتعلق بالتدرّب على الهيمنة على الذات، وأحد المبادئ التربوية الأكثر تكراراً في أغلب الأحيان، هو ذلك الذي بمقتضاه تكون المحاولة الناجحة مصدراً لإرادة كهذه: فكل انتصار دقيق جديد يزيد من قدرة إرادة الهيمنة ويقلّل من قدرة الإرادة المراد مكافحتها حتى تستسلم. وقد رأينا أطفالاً

غضوبين لا يدركون، كما قلنا، مدى إفراطهم في الغضب، وهم ينظرون بعد سنوات قليلة بدهشة إلى نوبات الغضب التي تنتاب أطفالاً آخرين، وسمعناهم يشكرون مربّيهم (**Enzyklopädie**... الموسوعة...1887، عن **K.R**. ص.374 وما بعدها.)

للتيقّن من الإفادة من هذا الامتنان، يجب البدء بتكييف الطفل في وقت مبكر جداً.

ليس عيباً توجيه شجرة صغيرة في الاتجاه الذي ينبغي أن تنمو فيه، بينما يستحيل هذا الأمر بالنسبة لسنديانةٍ عتيقة [...]

الطفل الصغير يحب الشيء الذي يمكنه اللعب به، ويقضي وقته معه. انظروا إليه بلطف، وانتزعوا هذا الشيء منه بابتسامة من دون أي عنف، أو حركة قاسية، واستبدلوا به فوراً من دون أن تجعلوه ينتظر، لعبةً أخرى، أو أي شيء آخر يتلهى به، بحيث ينسى الشيء السابق ويأخذ الآخر برضاه. يجب أن يتخلّل تكرار هذا التمرين بشكل مستمر ومبكر جداً، ما أمكن من انفراج الأسارير الذي يتيح ملاحظة أن الطفل ليس صلباً كما يُتهم، بل يمكن أن نجعله كذلك بمعاملته بطريقة مخالفة للصواب. لن يكون سهلاً على الطفل أن يبدو مزاجياً إزاء شخص يعرف كيف يعتاد عليه مسبقاً وكسب ثقته من خلال الحب، واللعب والمراقبة العطوفة. في الأصل، لا يتكدّر الطفل أو يتمرّد لأننا ننتزع منه غرضاً معيناً، أو لا نخضع لإرادته، بل لأنه بحاجة إلى تسلية، ويريد التمكّن من إلهاء عدوّه. التسلية الجديدة المقدمة له تجعله ينفصل عن الغرض الذي رغبه سابقاً بعنف شديد. وفي حال أبدى ضيقه من الحرمان من الغرض الذي يعجبه فبكى وصرخ، فيجب ألّا نعيره اهتمامنا، بل مواساته بالمداعبات، أو إعادة الغرض الذي انتزعناه لتوّنا منه، بل علينا الاستمرار في صرف انتباهه نحو غرض آخر أو تسلية جديدة (**F.S. Block , Lehrbuch der Erziehungskunst zum Gebrauch für christliche Eltern und künftige Junglehlehrer ,1780**، ف. بلوك، كتاب مدرسي عن فن تربية الأطفال يستخدمه الآباء المسيحيون ومعلّمو الغابة المحتملون عن **K.R**. ص.390 وما بعدها.)

تذكّرني هذه النصائح بمريض أمكن «تخليصه من عادته» بالشعور بالجوع من خلال «إلهاءات تقوم على الحنان». وهو ترويضٌ اقترنت به لاحقاً مجموعة مركبة من الأعراض التي لا يمكن

مقاومتها، وكانت تخفي عدم شعوره بالأمان. لكن الإلهاء لم يكن طبعاً سوى أحد الأشكال المتعدّدة لقمع حيويته. النظرة والنبرة طريقتان غالباً ما يتم استخدامهما بشكل غير واعٍ.

من هذه الطرق، ينبغي إيلاء مكانة خاصة ومتطورة، وهامة بنحو خاص للعقوبة الصامتة، أو التوبيخ الصامت الذي يُعبّر عنه بنظرة أو حركة مناسبة. فللصمت أحياناً قوة أكبر من كثير من الكلمات، وللنظرة قوة أكبر من الكلام. صحيح ما يقال إن الإنسان يروض الحيوانات المفترسة بالنظرة؛ لذلك ينبغي ألا تكون هناك صعوبة كبيرة في السيطرة على الغرائز السيئة والحركات المشؤومة الصادرة عن كائن صغير. إذا قمنا بحماية حساسية أطفالنا وشكّلناها منذ البداية، فإن لنظرة واحدة تأثيراً أكبر من تأثير العصا. ويجب أن يكون شعار العقوبة «العين ترى والقلب يحترق». لنفترض أن أحد أطفالنا قد كذب ولم نستطع إثبات ذلك. سواء كنا مجتمعين حول طاولة الطعام أو في أي مكان آخر، يجب توجيه النقاش كما لو كان مصادفة، نحو الناس الذين يكذبون، وتوضيح ما يبعث على الخجل، ويعبر عن الجبن وما هو ضارّ في الكذب، من خلال توجيه نظرة قاسية نحو المذنب. فإن لم يكن منحرفاً بعد، فإنه، كما في التعذيب، سيفقد حتماً الميل إلى أن يكون غير صادق. لكن العلاقة التربوية المضمرة بيننا وبينه ستزداد قوة. ويجب أن نضيف الحركات المناسبة إلى عدد الوسائل الصامتة في فعل التربية. حركة خفيفة من اليد، أو هزّة رأس، أو مجرد هزّ الكتفين يمكن أن يكون لها تأثير دفق من الكلمات. - إضافة إلى التوبيخ الصامت، يمكن أن نلجأ إلى التوبيخ الملفوظ. هنا أيضاً، لا نحتاج دائماً إلى الكثير من الكلمات، ولا حتى إلى كلمات قصيرة. لأن النبرة هي التي تصنع الموسيقا حتى في فن التربية. فمن حظي بصوتٍ نبرته تعبّر عن أكثر الحالات النفسية أو الانفعالات تنوعاً تكون الطبيعة الأم قد حبته بوسيلة عقابية رائعة. وهو ما يمكن ملاحظته لدى جميع الأطفال الصغار؛ فتشعّ وجوههم حينما يتحدث الأب أو الأم إليهم بطريقة لطيفة، ويحبس الطفل صرخاته حينما يأمره الصوت الأبوي بنبرة صارمة وعالية بالصمت. وليس من النادر أن يعود الطفل الصغير إلى رضاعته بعد أن يكون قد رفضها حينما نأمره بذلك بنبرة توبيخية. [...] لأن تفكير الطفل ليس بعد فكراً متطوراً، فلا يستطيع النفاذ إلى أعماق مشاعرنا ليفهم بوضوح أن ما نلحقه به من ألم العقوبة إنما هو بدافع حبنا له، وعطفنا عليه؛ لذلك يبدو له تكرار تأكيد حبنا له

كاذباً أو متناقضاً. حتى نحن الكبار لا نفهم دائماً ما يعنيه الكتاب المقدّس بقوله: من يحبّه الرب يعاقبه. إن التجربة الطويلة وحدها، والملاحظة الطويلة للحياة، والقناعة بأنه ينبغي وضع النفس الخالدة فوق جميع القيم الأخرى، كل هذا يتيح لنا الإحساس بعمق هذا الكلام وحكمته. - كما ينبغي أن يخلو التوبيخ المعنوي من الانفعال؛ لكن هذا لا يمنع من أن يكون قوياً ونشيطاً؛ فالانفعال يقلّل من شأن الاحترام ولا يُظهرنا بأفضل مظهر. في المقابل، ينبغي عدم الخوف من إظهار الغضب، أي الغضب النبيل الذي يخرج من أعماق الشعور الأخلاقي المُهان والرافض. كلما قلّ اعتياد الطفل على ملاحظة المواقف الانفعالية لدى من يعلّمه بقي الغضب خالياً من الانفعال، وازدادت قوة الانطباع حينما ينفجر الرعد والبرق هناك حيثما ينبغي أن يكون الهواء نقياً. (**A.Matthias , Wie erziehen wir unseren sohn Benjamin? 1902** كيف نربي ابننا بنيامين؟، عن **K.R**.، ص. 426 وما بعدها.)

كيف يمكن أن يخطر في بال طفل صغير أن الحاجة إلى البرق والرعد تنشأ من الأعماق اللاواعية لنفس المربي، ولا علاقة لها بالنفس الطفولية؟ المقارنة مع الله تمنح الشعور بالقوة: وكما أن المؤمن حقاً بالله لا يطلب منه تفسيرات (سفر التكوين)، فإن على الطفل أن يخضع للبالغ من دون السؤال عن الأسباب.

يجب أن نضيف إلى ما ينجم عن العطف غير المفهوم جيداً، الرأي القائل بأن متعة الطاعة تفترض فهم أسباب الأمر المُعطى، لأن الطاعة العمياء مخالفة للكرامة البشرية. ومن يسعى إلى نشر هذا النوع من الأطروحات في البيوت أو المدرسة ينسى أننا، نحن البالغين، إيماناً منا بالحكمة الأسمى، علينا أن نخضع للترتيب الإلهي للكون، وأن العقل البشري لا يمكنه التهرّب من هذا الاعتقاد. وينسى أننا نعيش جميعاً، ما دمنا في هذه الدنيا حصرياً في الإيمان وليس في الملاحظة. وبالطريقة نفسها التي ينبغي علينا من خلالها التخلّي عن الإيمان بالحكمة الأسمى وبالحب اللامتناهي لله، ينبغي أن يعيش الطفل في حكمة والديه ومعلّميه، وإخضاع أفعاله لهم وأن تكون له بمثابة مدرسة تحضيرية لطاعة الآب الإلهي. وتغيير هذه العلاقة يعني ارتكاب خطيئة وضع الزعم الفكري للشكّ محلّ الإيمان، وفي الوقت نفسه إنكار طبيعة الطفل التي تحتاج إلى الإيمان. فإذا أخبرنا الطفل بأسبابنا، لا أرى ما إن كان يمكن الحديث عن الطاعة بعد

ذلك. الحقيقة، أننا بهذا نسعى إلى إقناع الطفل، والطفل الذي يقتنع في نهاية المطاف لا يطيعنا، بل يطيع تلك الأسباب تحديداً؛ ويحلّ الخضوع المدروس المكتفي بذاته محلّ احترام الذكاء العلوي. المربّي الذي يعطي أوامره، ويقدّم مسوّغاتها، إنما يشرعن في الوقت نفسه صياغة الاعتراضات عليها، فيفسد بهذا علاقته بالطفل؛ فيدخل في مجال المساومات، ويظن نفسه مساوياً للمربي، لكن هذه المساواة لا تتفق مع الاحترام الذي لا يمكن من دونه القيام بتربية ناجحة. إضافةً إلى أن من يعتقد أن الحب لا يُكتسب إلا بالطاعة القائمة على المسوّغات، يرتكب خطأ جسيماً، لأنه يتجاهل طبيعة الطفل وحاجته للخضوع إلى القوة. يقول أحد الكتّاب: حينما تقوم النفس على الطاعة، لا يمكن أن يكون الحب بعيداً.

في الحلقة العائلية نرى أن الأم، بوصفها ضعيفة، هي التي تدافع عن مبدأ العطف، بينما يطلب الأب الطاعة المطلقة بسبب طبيعته القاسية. كما أن الصغار يتعسّفون بأمهم، لكنهم يكنّون الاحترام للأب، ولهذا فهو على رأس الجميع ويحدّد للفرد توجّهه (**L.Kellner, 1852**، عن **K.R**، ص. 172 وما بعدها.)

يبدو أن الطاعة أيضاً مبدأ مطلق ولا نقاش فيه في التربية الدينية. وهي عبارة تتكرّر في المزامير وترتبط دائماً بالتهديد بفقدان الحب إذا وقع خطأ بحقّ مبدأ الطاعة. ومن يفاجئه هذا «ينكر طبيعة الطفل وحاجته إلى الخضوع للقوة». (**L.Kellner**، ينظر الشاهد السابق).

كما يستخدم الكتاب المقدس لإدانة أكثر الغرائز الأمومية طبيعيةً ووصفها بالمتكلّفة.

أليس من التكلف هدهدة الطفل وتغنيجه منذ المهد؟ بدلاً من تعويده، منذ اليوم الأول لوجوده فوق هذه الأرض، على احترام الانضباط والوقت في متعة طعامه، ووضع العناصر الأولى من الرزانة، والصبر والسعادة البشرية بهذا، لأن الحب المتكلَّف يبدأ مع صرخات الرضيع. [...]

الحب المُتكلف لا يعرف القسوة، أو المنع، ولا يعرف أن يقول لا من أجل مصلحة الطفل، إنه لا يعرف سوى الاستجابة له على حساب مصلحته؛ إنه يستسلم للهيمنة بطيبة عمياء وغريزة طبيعية؛ إنه يسمح حيث ينبغي المنع، ويرحم حينما يجب أن يعاقب، ويتساهل حيث ينبغي أن يعارض. الحب المُتكلف لا يقوم على أيّ وعي

واضح لما ينبغي أن تكون عليه أهداف التربية؛ إنه لا يرى إلا على المدى القصير، ويريد مصلحة الطفل لكنه يستخدم وسائل سيئة، لأنه ينقاد بالانطباعات العابرة، بدلاً من أن يقوده الحذر والتفكير الهادئ. وبدلاً من قيادة الطفل فهو يترك الطفل يقوده. وهو لا يملك قوة مقاومة حقيقية هادئة، ويستسلم لاضطهاد معارضة المُضطهِد الصغير، وتعنّته، ونزواته أو تضرّعاته، ومداعباته. إنه عكس الحب الحقيقي الذي لا يخشى حتى فرض العقاب. يقول العهد القديم في سفر القضاة (30، 1): «من يحبّ ابنه يغدق عليه السوط، لأنه سيكون له عزاء في المستقبل»، وجاء في موضع آخر من السفر نفسه (9،30): «باسط طفلك، فيروّعك، ولاعِبه فيبكيك.[...] وقد يحدث أن يرتكب الأطفال الذين تربّوا على هذا الحب المُتكلّف وقاحاتٍ كبيرة إزاء والديهم (**A.Matthias 4**, عن **K.R., p. 53** وما بعدها.)

والأهل يخافون جدّاً من هذه «الوقاحات» بحيث تبدو لهم جميع الوسائل مناسبة لمنعها في بعض الأحيان. وهم يملكون لهذا مجموعة كبيرة من الإمكانيات، منها يلعب الحرمان من الحب بجميع أنواعه دوراً أساسياً، لأن الطفل غير قادر على تحمّل أخطاره.

يجب أن يشعر الطفل بالنظام والانضباط قبل أن يعيهما، حتى يكتسب عادات جيدة ويكبت الحاجة إلى هيمنة أنانية الأحاسيس في لحظة يقظة الوعي. [...]

ومن ثمَّ، لا بدّ من إيلاء مكانة أساسية لطاعة الطريقة التي يمارس فيها المربّي سلطته، وهو ما يمكن القيام به عبر نظرات قاسية، وكلمات آمرة، وربما اللجوء إلى الإكراه الجسدي الذي يقهر الشرّ حتى وإن لم يكن كافياً للتحريض على الخير، وإلى العقوبة التي لا ينبغي أن تصل حدّ الإيلام الجسدي بالضرورة، ولكن يمكن، تبعاً لحجم العصيان وتكراره، أن تبدأ بالحرمان من المكافآت إلى التقليل من التعابير المعبّرة عن الحب؛ إذا كان الطفل ذو طبيعة حسّاسة، وبدا متمرّداً إلى حد ما، فإن رفض الأم لوضعه فوق ركبتيها، ورفض الأب الإمساك بيده، وما إلى ذلك يمكن أن يكون بمثابة عقوبة حقيقية. فإذا استطاع التعبير عن الحب دفع الطفل إلى الطاعة، يمكن لهذا أن يجعله أكثر اهتماماً بالانضباط.

[...] لقد عرّفنا الطاعة بوصفها خضوعاً لإرادةٍ أخرى مشروعة. [...]

ينبغـي أن تكـون إرادة المـربي كالقلعـة، لا تنهـار أمـام التحايـل أو الوقاحـة، ولا تسـمح بولوجها إلا حينما تقرع الطاعةُ بابها (**Enzyklopïdie..., 1887**، عن **K.R**. ص.168 وما بعدها.)

يتعلم الطفل الطريقة التي يقرع بها باب الحب بالطاعةِ «منذ المهـد»، ولسـوء الحـظ أنـه لا يتمكن من نسيانها طيلة حياته.

[...] إذا أردنا الآن الانتقال إلى النقطة الأساسية الثانيـة، أي الاهـتمام بالطاعـة، لا بـدّ أولاً من تعريف ما يمكن أن يجري بخصوص هذا الأمر في السـنوات الأولى مـن عمـر الطفـل. ومن الصواب أن يشدّ علم التربية اهتمامنا إلى أن للطفل إرادة خاصة منذ المهد، ومن ثم لا بد من التعامل معها على هذا الأساس. (المرجع السابق. ص. 167).

إذا بكّرنا بهذه المعاملة، وتابعناها بشكل معقول، فـإن جميـع الشروط تجتمـع لـكي يـتمكن المواطن المعني من العيش تحت دكتاتورية من دون أن يعاني منها، أي أن يتماهى معها بطريقة مثيرة للبهجة كما كان الحال في ظل حكم هتلر:

لأن صحّة الجماعة السياسية وحيويتها تقوم على الطاعة التامة للقانون والسـلطة العامـة كما تقوم على الطاقة المعقولة لمن بيده السـلطة. وهـذا يصـحّ عـلى العائلـة فـيما يخـص قضايا التربية، إذ لا ينبغي أبداً اعتبار الإرادة التي تـأمر وتلـك التـي تطيـع هـذه القيـادة بوصفهما كيانين متعارضين: إنهما في حقيقـة الأمـر تعبـيران عضـويان عـن الإرادة نفسـها وحدها. (المرجع السابق)

مثلما تقوم مرحلة «الطفل في المهد» على التكافل، فليس ثمة انفصال بين الفاعـل والموضـوع. وإن دُفع الطفل إلى عدّ العقوبات الجسدية بصفتها «إجراءات ضرورية» ضد «الآثمـين»، فإنـه في سن البلوغ سيفعل كل شيء لحماية نفسه من أي عقوبة من خلال الطاعة، ولن يتوانى أبـداً عـن المشاركة في المنظومـة القمعيـة. في الدولـة الشـمولية التـي تعكـس تربيتـه لا تجعلـه أيّ صـيغة للتعذيب أو الاضـطهاد يشـعر بـأيّ تأنيـب للضـمير، لأن «إرادتـه» تصـبح مشـابهة تمامـاً لإرادة الحاكم.

من مخلّفات القرون الوسطى ذلك الاعتقاد بأن «الجماهير الجاهلة» وحدها هي التـي تتـأثر بالدعاية، إذ رأينا أكثر من مرة أنه يسهل على المثقفين تبنّي قضية الديكتاتوريات المختلفـة. فقـد

تبع هتلر وستالين كثيرٌ من المثقفين الذين كانوا يكنّون لهما إعجاباً شديداً. لأن قابلية عدم رفض الواقع المُدرك لا ترتبط أبداً بالذكاء بل بالعلاقة بالأنا الحقيقي. وهو ما عرفه المُربّون دائماً واستخدموه لغاياتهم تبعاً لمقولة إن الأذكى يخضع والأكثر حماقة يتعنت. في إحدى الدراسات التربوية كتب غرونوالد **1899(Grünewald)** على سبيل المثال: «لم أرَ قطّ تعنّتاً لدى متفوّق عقلياً أو يتمتع بصفات عقلية عالية» (ينظر، **K.R**. ص.423). ما إن يبلغ الطفل الذي يتمتع بهذه المواهب في سن الرشد حتى يبدي بُعدَ نظرٍ استثنائياً في انتقاد الإيديولوجيات المختلفة - بل ينتقد، في مرحلة البلوغ حتى التصورات الحقيقية لوالديه -، لأنه في هذه الحالات، يحافظ على سلامة قواه العقلية. لكن هذا الكائن سيحافظ، في الجماعة التي ينتمي إليها (تيار إيديولوجي، أو مدرسة نظرية مثلاً) التي تعكس الحالة العائلية للطفل، على أن يبقى منقاداً بسذاجة، ويفقد القدرة النقدية اللتين يبدو أنهما تناقضان الصفات اللامعة التي اتسم بها في أماكن أخرى؛ لأن التبعية القديمة جداً لوالديه المتعسّفين مستمرّة، وتبقى خفيّة - كما تقول «التربية السوداء» -. لهذا استطاع مارتن هايدغر الابتعاد عن الفلسفة التقليدية والتخلّي عن معلميه أثناء المراهقة، لكنه لم يستطع استخلاص تناقضات الإيديولوجيا الهتلرية مع أنها بدت واضحة لعقله، بسبب انبهاره إبان فترة الطفولة بهذه الإيديولوجيا، ووفائه الذي لا يسمح بالنقد (أليس ميلر، 1979).

كان تمتّع المرء بالإرادة والرأي يعدّ علامة على التعنّت، ولهذا فهو ممنوع. وحينما ننظر إلى العقوبات التي اختُرعت لمعالجة هذا التعنّت، يمكن فهم إرادة الطفل الذكي في التهرّب من هذه التبعية المخيفة وتمكّنه منها بلا عناء، ودون معرفة الثمن الذي سيترتب عليه دفعه لاحقاً.

الأب يتلقّى سلطته من الله (ومن والده)، كما يجد معلّم المدرسة أرضاً خصبة للطاعة، فيحصد مَن بيده السلطة السياسية ما جرى زرعُه.

> نجد في أعلى مراتب العقوبات ذلك النهج العقابي الشديد، أي العقاب الجسدي. ومثلما تكون العصا في البيوت رمزاً للانضباط الأبوي، فإن المسطرة في المدرسة تشكل أقصى رمز للانضباط المدرسي. مرّ وقتٌ يوم كانت المسطرة دواء لجميع الشرور المرتكبة في المدرسة، تماماً كما هو حال العصا في البيت. «هذه الطريقة في تنمية كلام النفس» قديمة قدم العالم ومعروفة من جميع الشعوب. وهل هناك أسهل من المبدأ القائل بأن من لا يسمع يجب أن يحسّ؟ العقوبة الجسدية التربوية عامل حيوي يرافق

الكلام، وينبغي أن يعزّز تأثيره. ويتجلى هذا الفعل في أكثر أشكاله طبيعية بالصفعة التي ما نزال نتذكر منذ أيام الشباب أنها كانت مسبوقة بشدّ الأذن. لا شك أن هذه طريقة لشدّ الانتباه نحو عضو السمع واستخدامه. وتكتسي حتماً دلالة رمزية مثلها مثل الصفعة التي تلامس عضو اللغة وتدفع إلى استخدامه بأفضل وجه. هاتان الطريقتان في العقوبة الجسدية هما الأكثر سذاجة، والأكثر تميّزاً كما يدلّ اسماهما عليهما. لكن عقوبات أخرى توجه من وقت إلى آخر تحمل شكلاً من الرمزية.[...] التربية المسيحية التي لا تنظر إلى الكائن البشري كما ينبغي أن يكون، بل كما هو عليه لا يمكن أن تتخلّى أساساً عن أي عقوبة جسدية. هذه العقوبة الجسدية هي المناسبة في الحقيقة: فهي تُذلّ، وتبرهن بشكل ملموس على ضرورة الانقياد لأمرٍ أعلى، وتبيّن تماماً في الوقت نفسه فاعلية الحب الأبوي.

[...] قد نفهم معلّماً يقول: «أفضّل ألا أكون معلّماً قبل أن أتخلّى عن قدرتي على اللجوء إلى العصا إذا احتاج الأمر، ».[...] «الأب يعاقب طفله، ويشعر هو نفسه بالضربات؛ تكون القسوة فضيلة حينما يكون قلبك عطوفاً»، كما يقول روكيرت **Rükert**؛ «إذا كان المعلّم أباً حقيقياً لتلاميذه، فهو يعرف كيف يحبّ بالعصا وقت الحاجة، وهو في أغلب الأحيان حبٌّ أعمق وأصفى من حبّ الآباء الطبيعيين. وعلى الرغم من قولنا إن القلب الشاب هو قلب الخطيئة، إلا أننا نعتقد أنه بإمكاننا التأكيد أن هذا القلب الشاب يفهم هذا الحب بشكل عام، حتى وإن لم يكن فورياً.» (عن **K.R**.، ص.433 وما بعدها).

هذا «الحبّ المُستبطن»، أو المخفيّ يرافق «القلب الشابّ» أحياناً حتى عمرٍ متقدّم، فيصبح عرضةً لتضليل وسائل الإعلام، لأنه اعتاد على أن تكون جميع «ميوله » مُضلَّلَة، ولم يعرف بوجود أيّ شيء آخر.

ينبغي أن ينصبّ همُّ المربّي الأول والأساسي على العمل بكل الوسائل على إعاقة تطور هذه الميول التي تعاكس وتناقض الإرادة الحقيقية العليا بدلاً من إيقاظها وتغذيتها بالتربية الأولى (كما هو الحال عموماً)، أو على الأقل القضاء عليها في أبكر وقت ممكن. [...] كلّما عملنا على ألا يعرف الطفل هذه الميول التي تضر بالتربية العليا، وجب أن يعتاد في المقابل، على أعمق الطرق وأكثرها اختلافاً عن الميول الأخرى، على الأقل بعد بدايات نموها. ومن ثم، ينبغي على المربي أن يثير لدى الطفل ميولاً أكثر ديمومة

وتعدّداً من هذا النوع. وعليه أن يحثّه بطرق مختلفة على الفـرح، والافتتـان، والانشراح، والأمل، وما إلى ذلك، وفي حالات نادرة، وقصيرة إلى الحزن، والخشية، وجميع المشاعر مـن هذا النوع. لأن إشباع الحاجات، ليس الجسدية فقط، بل أيضاً وخاصة الروحيـة منهـا، أو الحرمان من هذا الإشباع ومن مختلف مكوناتهما، تمنح المربي ما يكفي من الفـرص. لكـن عليه أن يرتّب كل شيء بحيث يكون ذلـك مـن تـأثير الطبيعـة ولـيس ناشـئاً مـن إرادتـه العشوائية، أو جعل الأمر يبدو كذلك على الأقل. لا سيما في ما يتعلق بالأحـداث الكريهـة التي ينبغي أن يعرف سببها حينما يكون هو من أثارَهـا (**K.Weiller, Verducheines Lehrggebäudes der Erziehungskunde, 1805**, دراسة في البنية التدريسية للعلوم التربوية، عن **K.R**. ص. 469 وما بعدها.)

يجـب ألا نكتشـف المسـتفيد مـن التضـليل بعـد تـدمير القـدرة عـلى اكتشـافه أو إفسـاده بالتخويف.

نعرف جيداً أن الشباب يتسم بالفضول حول هذه النقطة، لا سيما حيـنما يـدخل سـنّ البلوغ، ويسلك غالباً أغلب الدروب والوسائل ليكتشف الفرق الطبيعي بـين الجنسـين. ويمكن أن نكون متأكدين من أن أي اكتشاف يقع عليه وحده، سيغذّي خيالـه المتوقـد ويعرّض براءته للخطر. ولهذا قد يبدو النصح بـه ضرورياً. قـد يكـون السـماح بعـرض الجنس عارياً هتكاً للحشـمة. لكـن، عـلى الولـد الصـغير أن يعـرف كيـف هـو الجسـم الأنثوي؛ ولا بد أن تعرف البنت الصغيرة كيف هـو الجسـم الـذكري، وإلا فلـن يتكـون لديهما تصوّرٌ تامّ عنه، لا سيما أن الفضول لا حدّ له. ولهذا ينبغي عليهما معرفته جدّياً. من هذه الناحية يمكن للوحات التشريحية أن تفي بالغرض؛ لكن هل من شأنها تمثيـل الأمر بشـكل واضـح؟ ألا يمكنهـا أيضـاً إثـارة الخيـال؟ ألا يمكـن أن تبعـث عـلى الرغبـة الجنسية بالمقارنة مع الطبيعة؟ هذه المخاوف تختفي كلها إذا اسـتخدمنا لهـذه الغايـة جسماً بشرياً لا روح فيه. فرؤية الجثة تفرض الجدية والتأمل، وهـذا أفضـل جـوٍّ يمكـن أن يوجد الطفل فيه في مثل هذه الحالة. وبأثرٍ رجعي، ستتخذ الذكريات التـي يكوّنهـا عن هذا المشهد منعطفاً خطيراً أيضاً، من خلال تداعي أفكار طبيعية تماماً. ولـن يكـون للصورة التي تبقى مستقرّة في النفس الإغراء المثير نفسـه للصـور الناجمـة عفويـاً عـن الخيـال، أو عـن رؤيـة أشـياء أخـرى أقـل خطـورة. إذا تمكّـن جميـع الشـباب مـن

استخلاص العبر من شكل الرجل خلال درس التشريح، فلن يحتاج إلى المزيد من الاستعدادات. لكن، نظراً لندرة هذه الحالة، يمكن لأيٍّ كان تقديم هذه العبرة الضرورية بالطريقة التي أتينا على ذكرها. ورؤية الجثة فرصة ممكنة. (**J.Ouest ,1787**، عن **K.R**، ص. 238، وما بعدها.)

تعدّ مقاومة الغريزة الجنسية عبر رؤية الجثث وسيلة مشروعة لحماية «البراءة»، لكنها أيضاً وسيلة لتهيئة الأرضية لنشوء الانحرافات. زد على هذا، أن تعليم الفرد النفور من جسده يضطلع بهذه الوظيفة أيضاً:

يبدو من بعيد أن الجهد المبذول لتعليم الحشمة أكثر فاعلية من التعرّي بكل ما ينطوي عليه من عدم اللياقة، وطريقة لإهانة الآخرين، إذ من المُهين أن تطلب من أحد لم يقبض ثمن فعله هذا، أن يفرغ دلو الليل. لهذا أقترحُ أن تكلّف امرأةٌ عجوز قميئة وقذرة بغسل قدم الطفل ورأسه كل أسبوعين أو أربعة أسابيع، شريطة أن يقوم الوالدان أو المسؤولون بمراقبة العملية جيداً ليتأكدوا بأن هذه المرأة العجوز لا تتوقف عند أيّ جزء بشكل غير مفيد. ويجب أن تقدم هذا الأمر للأطفال بوصفه شيئاً كريهاً، بالقول لهم إن هذا هو السبب الذي يجعلنا ندفع أجراً لهذه السيدة لتقوم بهذا العمل اللازم للصحة والنظافة، لكنه عملٌ كريه جداً بحيث لا يودّ شخصٌ آخر القيام به. وهذا بهدف استدراك الشعور الذي قد يثيره الاحتشام المرتاع. (عن **K.R**. ص.329 وما بعدها)

كما يمكن استخدام تأثير الخجل في التصدّي للتعنّت.

«وكما أسلفنا، يجب تحطيم النزوة والتعنّت (بدءاً من السنوات الأولى) من خلال الشعور بسلطة عليا واضحة». لاحقاً، يكون للخجل أثرٌ أكثر ديمومة على الطبائع القوية، لا سيما من لديه نزوة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالشجاعة والإرادة. وحينما تبلغ التربية غايتها، يجب توجيه إيحاء خفيّ أو واضح إلى الوجه الكريه والضارّ لهذا العيب لإعادة الرواسب الأخيرة للتعنّت إلى مكانها الحقيقي. بحسب خبرتنا، يتضح أن النقاش «المباشر» في هذه المرحلة الأخيرة مناسب تماماً. في ما يتعلق بالعنت الطفولي، يبدو مدهشاً جداً أن ميادين علم نفس الطفل لم تدرس تجلّي وطبيعة ومعالجة هذه الظاهرة النفسية غير الاجتماعية (**H. Grünewald , Über den Minderfehler des Eigensinns** حول الخطأ البسيط في التعنت، عن **K.R**.، ص.425).

وينبغي استخدام جميع هذه الوسائل في وقتٍ مبكر جداً.

حتى لو صحّ القول إننا لا نبلغ أهدافنا في أغلب الأحيان بهذه الطريقة، لا بد من تذكير الأهل الأذكياء أن عليهم جعل طفلهم منصاعاً ومطيعاً، ومرناً في وقت مبكر جداً وتعويده على السيطرة على إرادته. إنه أحد العناصر الأساسية للتربية الأخلاقية، ويُعدّ إهماله أخطر الأخطاء التي يمكن ارتكابها. الإنجاز الصحيح لهذه المهمة التي لا تخالف تلك التي تحتّم علينا جعل حياة الطفل سعيدة، هي أكبر فنّ يمكن ممارسته في بدايات التربية (**F.S.Bock,1780**، عن **K.R**.، ص.389).

المشاهد الثلاثة الآتية تبين تطبيق المبادئ الواردة أعلاه. أسوق هذه المقاطع كاملةً ليشتمّ القارئ الهواء الذي يتنشقه هؤلاء الأطفال يومياً (وهو ما بقي حقيقياً حتى جيل أهلنا). فلربما تساعد هذه القراءة في فهم أصل مرض العُصاب الذي لا يعود إلى حدث خارجي، بل إلى كبت المراحل العديدة التي تتكون منها الحياة اليومية للطفل الذي لا يستطيع وصفها أبداً لأنه لا يعرف أصلاً بوجود شيء آخر فيها.

علّمتُ كونراد حتى الرابعة من عمره أربعة أشياء هي: الانتباه، والطاعة، وتحمُّل الآخرين، والاعتدال في رغباته.

الشيء الأول، علَّمتُه إياه من خلال عرض صور لجميع أنواع الحيوانات والنباتات، وأشياء أخرى من غرائب الطبيعة، وعلّقتُ عليها؛ والثاني، بجعله يقوم بأشياء تتفق مع إرادتي حينما يكون قريباً مني: والثالث من خلال دعوة بعض الأطفال من وقتٍ لآخر إلى اللعب معه بحضوري دائماً؛ وإذا وقع خلاف، كنت أبحث عن مسبّبه بالتحديد، فأستبعد المذنب من اللعب لفترة معينة؛ أما الشيء الرابع فمن خلال رفض تلبية ما كان يرغب فيه بشدة. وبهذا أكون قد اقتطعت قطعة من العسل وحملت قسماً كبيراً منه إلى الغرفة. عسل! عسل! كان يصيح بفرح. أعطني يا أبتِ شيئاً من العسل. فيقرّب كرسيه من الطاولة وينتظر مني أن أصنع له لفافات من الخبز والعسل؛ لكني لا أعطيه شيئاً؛ وضعتُ قطعة العسل أمامه قائلاً: لن أقدّم لك العسل الآن؛ يجب أن نجلب البازلاء من الحديقة أولاً؛ وبعد أن نقوم بهذا سنأكل قطعة صغيرة من الخبز بالعسل. نظر إليَّ ثم إلى العسل وبعدئذٍ رافقني إلى الحديقة. وحينما نجلس إلى الطاولة، كنتُ أعمل على أن يحصل على العسل بعدي. ذات يوم، كان

والداي مدعوّين مع كلايستيلشن عندنا لتناول الطعـام، وكـان لـدينا حلـوى بـالرزّ، وهـو طبق كان يحبه كثيراً، فصاح مسروراً وهـو يتشـبّث بأمـه. قلـت، نعـم هـي حلـوى بـالرزّ وسينال كونراد حصته منها؛ سنسكب للكبار أولاً، وبعدهم يأتي دور الصغار. هل تريـدين حلوى أيتها الجـدّة؟ وهـا هـي ذي قطعـة للجـد؛ وأنـت أيتهـا الأم هـذا نصـيبك! وهـذه القطعة للأب، وهذه لكريستيلشن؛ لمن هذه القطعـة؟ مـن نصـيب مـن يمكـن أن تكـون هذه القطعة؟ ردّ كونراد بفرح. ولم يرَ شيئاً من عـدم الإنصـاف في هـذا التوزيـع، وبـذلك أكون قد وفرتُ على نفسي جميع المشكلات التي تعترض الأهـل الـذين يعطـون الأولويـة لأطفالهم كلما وضـع طبـق جديـد فـوق الطاولـة (**C.G.Salzmann, 1976**، عـن **K.R**.، ص.352 وما بعدها.)

يجلس «الصغار» إلى الطاولة برصانة وينتظرون؛ وليس في هذا إهانة بـالضرورة؛ الأمـور رهـنٌ بالطريقـة التـي ينظـر بهـا البـالغ إلى هـذه العمليـة، فيتبـين هنـا بوضـوح أنـه يتمتـع بسـلطته و«عظمته» أمام «الصغير».

ينجم شيءٌ مشابه في القصة الآتية حيث الكذب وحده يؤمّن للطفل إمكانية القراءة خفيةً.

الكذب أمرٌ يبعث على السخط؛ وهو كذلك بالنسبة لمن يمارسه، ولا يوجـد كـذّاب يحـسّ بالاحترام إزاء نفسه. ومن لا يحترم نفسه لا يحترم الآخـرين، وبهـذا يجـد الكـذّاب نفسـه مستبعداً من المجتمع البشري.

هذا ما يُفسّرُ أن الطفل الكذّاب يجب أن يُعامَـل بكثـير مـن الدقـة وبحيـث أن تصـحيح خطئه لا يجرح احترامه لنفسه بشكل عميق بعد أن عانى من وعيه بأنه قد كذب؛ وهـذه قاعدة ليس لها استثناء: «لا ينبغي توبيخ الطفل الكاذب أو معاقبته أمام الآخرين بسبب هذا الخطأ، بل لا ينبغي الإشـارة إليـه بشـكل علنـي إلا إذا اقتضـت الحاجـة.» - يحسـن المربي بأن يبدو مندهشاً ومتفاجئاً من قول الطفل ما يغاير الحقيقة، وليس سـاخطاً لأنـه كذب، وينبغي أن يتصرف قدر الممكن كما لو أنه يعدّ الكذب (الذي تم الـتلفظ بـه عـن وعي) على أنه مخالفة للحقيقة (أو جاء من باب الغفلة). وهذا هو مفتاح المـنهج الـذي استخدمه ويليش **M.Willich** بعد اكتشافه لآثار هذه الرذيلة في ورشته.

كانت كاتشن تعدّ نفسها مذنبة بهذه الجنحة.[...] مرة، واتتها الفرصة للتخلص مـن هـذا الأمر بقول ما يخالف الحقيقـة، فوقعـت في الفـخ: ذات مسـاء، قامـت بالخياطـة بشـكل

جيد بحيث كانت قادرة فعلاً على جعل الآخرين يظنون أن قطعة النسيج التي خاطتها جاءت نتيجة أمسيتين من العمل. وفضلاً عن هذا، شاءت المصادفة أن تنسى الأم ذاك المساء أن تلقي نظرة على العمل الذي قامت به الفتيات الصغيرات.

في مساء اليوم التالي، هربت كاتشن خلسةً من الورشة، وأمسكت بكتاب وقع بين يديها خلال النهار، وأمضت السهرة كلّها في قراءته. وكانت من التحايل بحيث أخفت عن إخوتها وأخواتها الذين كان يرسل بهم من وقت إلى آخر للبحث عنها، وعما تفعله، وعما تقرؤه، فلم تُرِهم سوى الخياطة في يدها، أو انشغالها بشيء آخر.

لكن، ذاك المساء، نظرت الأم إلى عمل الأطفال، وأظهرت كاتشن جوربها؛ وكان فعلاً قد استطال؛ لكن الأم اعتقدت أنها رأت شيئاً غريباً لم يكن صادقاً تماماً في سلوك كاتشن. نظرت إلى العمل، وصمتت ثم قررت الاستعلام حول كاتشن. وبعد أن طرحت عدة أسئلة حولها في اليوم التالي أدركت أنه لم يكن بإمكان كاتشن أن تخيط في العشية. لكن بدلاً من توجيه تهمة الكذب إليها بشكل طائش، انتظرت اللحظة المناسبة لتستجرّ البُنيّة إلى محادثة رسمت أن تنصب لها فيها بعض الفخاخ.

تحدثتا عن أعمال النساء. قالت الأم إن أجور العمل كانت خلال السنوات الماضية متدنية جداً بشكل عام، وأضافت أنها لم تكن تعتقد أن بنتاً بعمر كاتشن بما لديها من براعة في العمل، يمكن أن تكسب ما من شأنه سدّ حاجاتها اليومية من طعام، وملبس، ومسكن. أما كاتشن فكانت تظن العكس، وعبّرت عن هذا بالقول إنها من خلال الحياكة، على سبيل المثال، كانت تعمل ضعفَي عمل أمها في ساعة. عند هذه النقطة خالفتها أمها بشدة. فاغتاظت الفتاة بدورها، وقالت إنها قبل العشية خاطت قطعة أطول بضعفين مما اعتادت عليه.

عندئذٍ، قالت الأم: «ما الذي يعنيه هذا؟» «لقد قلتِ لي البارحة مساء أنك حِكت نصف الطول الذي زاد جوربكِ.»

احمرَّ وجه كيتشن، ولم تعد قادرة على التحكّم بعينيها اللتين كانتا تدوران في كل جانب.

استأنفت الأم قولها بنبرة قاسية لكنها شفوقة: «الشريط الأبيض في الشعر لم يؤدّ المطلوب؟ - أتركك وأنا حزينة.»

وهنا نهضت من مقعدها، واتجهت بهيئة مهيبة نحو الباب من دون أن تستدير نحو كيتشن التي ودّت لو تلحق بها، وخرجت من الغرفة حيث تركت البُنيّة باكية، والغيظ يملأ صدرها.

سيفهم القارئ أنه ليست هذه المرة الأولى التي ترتكب فيها هذه الغلطة منذ وجودها في بيت والديها بالتبنّي. وكانت الأم قد وبّختها لذلك وطلبت منها أن تربط شعرها في المستقبل بشريط أبيض. وأضافت «الأبيض، هو لون البراءة والنقاء، كما يقال. تحسنين فعلاً لو نظرت إلى نفسكِ في المرآة أن تفكري وأنتِ تنظرين إلى عصابتك البيضاء بالنقاء والحقيقة اللتين ينبغي أن تهيمنا على تفكيرك وكلماتكِ. الكذب قذارة يلوث روحك.» برهنت هذه الوسيلة عن فاعليتها خلال فترة من الزمن. لكن هذه الانتكاسة الجديدة حطمت الأمل في أن تبقى غلطة كاتشن سراً بينها وبين أمها. كانت أمها في الحقيقة قد أكدت لها أنه لو ارتكبت كاتشن هذا الغلط مرة أخرى، فستشعر بأنها مضطرة للجوء إلى مساعدة الأب، ومن ثم كشف الأمر أمامه. هذه هي النقطة التي تم بلوغها حتى الآن، ونجم عنها فعلاً ما وعدت به الأم. لأن أحد مبادئها أيضاً عدم التلفظ بأيّ تهديد إذا لم تتبعه بالتنفيذ إذا لزم الأمر.

قضى ويليتش نهاره كله مكدّراً جداً، ومنزعجاً ومتأملاً. ولاحظ الأولاد ذلك، لكن كانت كاتشن هي الوحيدة التي شعرت بنظراته المكفهرّة الشبيهة بطعنات خنجر في القلب. وكانت الخشية من العواقب هي التي ظلت تعذّب الصبية طيلة فترة بعد الظهر.

في المساء، طلب الأب كاتشن للحضور إلى مكتبه ليتحدث معها وحدهما؛ ورأت أنه ما يزال محافظاً على هيئته نفسها.

بدأ كلامه بالقول: «لقد حدث معي اليوم أمرٌ سيئ يا كاتشن؛ لقد اكتشفت وجود كذّابة بين أطفالي»

كانت كاتشن تبكي، ولم تستطع التلفّظ بكلمة واحدة.

السيد ويليش: «صعقتُ اليوم عندما أخبرتني الأم بأنك أنزلت من قدر نفسك بارتكاب هذه الرذيلة عدة مرات. قولي لي، حباً بالله، يا طفلتي، كيف أمكنك أن تضلّي إلى هذا الحد؟!» ثم أردف بعد توقف قصير: «الآن جفّفي دموعك، فالدموع لا تحل شيئاً. بل

اشرحي لي ما جرى بالأمس لكي نتمكن من إيجاد حلّ من أجل التخلص من هذا الشر. قولي لي ما الذي حدث مساء أمس؟ أين كنتِ؟ ماذا فعلتِ، أو ما الذي لم تفعليه؟»

عندئذٍ قصّت كاتشن الأشياء كما جرت، وكما نعرف. لم تُخفِ شيئاً، ولا حتى الحيلة التي استخدمتها لتصرف نظر إخوتها وأخواتها عما كانت بصدد القيام به.

هنا، استأنف السيد ويليش قوله بنبرة تبعث على الثقة: «لقد حدثتني يا كاتشن عن أشياء لا يمكنك الدفاع عنها. لكن حينما فحصت الأم ما قمت بحياكته مساء أمس قلت لها إنكِ قمتِ بالحياكة بتعقل. لا شك أن الحياكة أمر جيد؛ ومن ثم فقد قلتِ للأم بأنكِ قمت بعمل جيد؛ الآن، قولي لي متى شعرت بارتياح الضمير؟ في هذه اللحظة، وأنتِ تروين لي ما قمت به من فعل سيّئ، هل هي الحقيقة، أم البارحة حينما قلتِ إنك قمت بعمل جيد وإنها لم تكن الحقيقة؟».

اعترفت كاتشن بأن الاعتراف الذي أدلت به للتو يريح قلبها وأن الرذيلة أمرٌ مقيت.

[...] كاتشن: «صحيح، لقد كنتُ بالغة الحماقة، لكني ألتمس عفوك أيها الأب الطيب.»

السيد ويليش: «ليست المسألة مسألة عفو، فأنت لم تسبّبي لي ضرراً كبيراً، بل وقع الضرر الكبير عليك، وعلى أمّك بنحو خاص. فضلاً عن هذا، سآخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، وحتى لو كذبتِ أيضاً عشر مرّات، فلن تخدعيني بهذا. حينما يكون ما تقولينه مغايراً للحقيقة، سأتعامل مع كلماتك كما أتعامل مع النقود التي لا نكون متأكدين من أنها غير مزورة. سأتحقّق، وسأسأل، وأنظر؛ وستكونين بالنسبة لي كالعصا التي لسنا واثقين من إمكانية الاتكاء عليها؛ وسأنظر دائماً إليك بنوع من الحذر.»

كتنشن: «آه يا أبي، هذه القسوة...»

السيد ويليش: «لا تظني يا صغيرتي المسكينة أني أبالغ أو أمزح. إذا لم أكن قادراً على الركون إلى صدقك، من يضمن لي بأني لا أخاطر إذا استندتُ إلى ما تقولينه لي؟ أرى يا طفلتي العزيزة أنك إزاء عدوّين عليكِ مقارعتهما إذا أردتِ القضاء على ميلك نحو الكذب. هل تريدين معرفتهما يا كاتشن؟»

كاتشن: (وقد التصقت بي، بهيئة مغالية في حنوّها ولامبالاتها) «نعم يا أبي العزيز.»

السيد ويليش: «لكن، هل أنتِ مستعدة لهذا إلى حدٍّ ما، وهل روحك صلبة؟ لا أودّ قول شيء لا يبقى محفوراً في نفسك، وتنسيه غداً صباحاً».

قالت كاتشن بعد أن اتخذت هيئة جدية: «لا، سأتذكّره بالتأكيد».

السيد ويليش: «ستكونين محلّ شفقة، يا ابنتي المسكينة، إذا استمررتِ في النظر إلى هذا الأمر بخفة!»، وأردف بعد توقف: «عدوّك الأول يحمل اسماً هو عدم التفكير، وخفّة العقل- ففي اللحظة التي وضعتِ الكتاب في جيبك، وهربت لكي تقرئيه سرّاً، في تلك اللحظة كان ينبغي عليكِ التفكير. كيف؟ كيف أطاعك قلبك بأن تفعلي أقلّ الأشياء من دون أن تخبرينا به؟ وكيف خطرت هذه الفكرة في ذهنك؟ إذا كنتِ تعتقدين أن القراءة مسموحة، حسناً، ما كان عليك إلا أن تقولي: «هذا المساء، أودّ أن أقرأ هذا الكتاب، وأن عملي البارحة في الحياكة ممكن أيضاً هذا المساء - فهل تعتقدين أننا كنا سنرفض ذلك؟ هل كان بذهنك أن تقومي بعمل ممنوع من دون علمنا؟ حتماً لا. فأنت لست بهذا السوء.

[...] عدوكِ الثاني، يا طفلتي العزيزة، هو الخجل الزائف. فحينما تفعلين أمراً سيئاً، فإنكِ تخجلين من الاعتراف به. عليكِ التخلّص من هذا الخوف، فتقهرين بهذا عدوكِ. لا تسمحي لنفسك بالحذر أو التحفّظ، حتى بالنسبة لأصغر الأخطاء التي ترتكبينها. يجب أن نقرأ مع إخوتك وأخواتك ما في قلبك، كما تقرئين ما فيه أيضاً. فأنت لم تنحرفي بعد لكي يصبح واجباً عليك فعلياً الخجل من الاعتراف بما قمت به. كل ما في الأمر، عليك ألا تخفي شيئاً عن نفسك وأن تكفّي عن الحديث عن الأشياء بطريقة مختلفة عما هي عليه. حتى بالنسبة لتفاهات الحياة اليومية، والمزاح، لا تسمحي لنفسك بقول غير ما هو كائن.

أرى أن أمك قد أخذت منك الشريط الأبيض الذي كنت تضعينه فوق شعرك. فأنت لم تكوني تستحقّينه فعلاً، لأنكِ دنّستِ روحك بالكذب؛ لكنك تداركتِ نفسك، بعد أن اعترفتِ لي بخطئك بأمانة، ولا يسعني أن أصدق بأنك أخفيتِ عني أي شيء. وهذا أيضاً برأيي برهان على نزاهتك وصدقكِ. هاكِ، هذا شريط آخر لقصة شعرك، إنه أقل جمالاً من السابق، إذ إن نوعية الشريط ليست هي المهمة، بل قيمة من تضعه. فإذا زادت قيمة من تضعه، فهل في هذا سبب للبرهان على اعترافي بها وأنا أقدم لها شريطاً ثميناً منسوجاً بخيوط من فضة؟».

وهنا ترك الطفلة قائلاً لنفسه بشيء من القلق، إن حدّة مزاجها قد تدفعها إلى الوقـوع في الخطأ مرة أخرى من جهة، لكن في الوقت نفسه، فإن ذكاءهـا وطريقتهـا في التفكـير مـن جهة أخرى قد يمدّان كيانهـا بمزيـد مـن التـوازن، فتـتخلّص مـن المصـدر الحقيقـي لهـذه الرذيلة البشعة.

بعد فترة تكرّر الخطأ بالفعل. [...] فذات مساء سئل جميع الأطفال الآخرين كيف أنجزوا مهامهم، وكانت ردودهم ممتازة؛ وحتى كاتشن استطاعت التعبير عن الأشياء التي قامت بها زيادة على ما طُلب منها. لم تنسَ سوى شيء واحـد لم تتحـدث عنـه، بـل أجابـت عـن سؤال أمّها وكأن الأمر قـد تـم. كانـت هنـاك بعـض المراجعـات التـي كـان ينبغـي عليهـا إجراؤها على جوربها، وهو ما نسيته كاتشن. لكـن في اللحظـة التـي كانـت تتحـدث عـما قامت به وحيث فكرت فيه، تذكّرت أيضاً أنها، قبل عدّة أيام، كانت تـنهض صـباحاً أبكـر من الصـباحات الأخـرى، أمـلاً منهـا في أن تسـير الأمـور عـلى هـذا النحـو في ذلـك اليـوم، وتعهّدت باستدراك ما نسيته بسرعة.

لكن الأمور جرت بشكل مختلف عمّا كانت كاتشن تفكر فيه. تركـت جوربيهـا مـن بـاب الإهمال مُلقيَين في مكانٍ آخر غير مكانهما المعتاد، ووضعتهما أمها جانباً منذ فـترة طويلـة بينما كانت الطفلة تظن أنهما في المكان الذي وضعتهما فيه. كانت الأمّ على وشـك إعـادة طرح السؤال على كاتشن وهي تنظر مباشرة في عينيها. لكنّها تذكّرت فوراً منع زوجها لهـا من توجيه الاتهام إلى الطفلة بخطئها أمام الآخرين. لكنها شعرت بجرح عميـق في نفسـها وهي ترى الخفّة التي تتلفّظ الطفلة من خلالها بالكذب.

في صباح اليوم التالي، نهضت الأم باكراً أيضاً خشية مـما يمكـن أن يجـول في رأس كاتشـن. طبعاً كانت كاتشن قد ارتدت ملابسها لكنها بصدد البحث، ويبدو القلق إلى حدّ مـا عـلى وجهها. مدّت الطفلة يدها إلى الأم لتقول لها صباح الخير، وقد بذلت جهداً لتحـافظ عـلى هيئتها الودودة المعتادة.

رأت الأم أنها اللحظة المناسبة. وقالـت: «لا تُجـبري نفسـك عـلى الكـذب بيـديك أيضـاً!»، وأردفت: «لقد فعلت ذلك مساء أمس بفمك. جورباك في الخزانة، منذ ظهـر البارحـة، ولم تفكّري برتقهما؛ كيف أكدتِ لي مساء أمس أنهما كانا مرتوقين؟».

كاتشن: «يا إلهي، يا أمي، لقد هلكت!».

قالت الأم بنبرة باردة تماماً وغريبة: «لا شأن لي بك اليوم: ولا يهمّني ما إن أتيت إلى ساعات الدراسة أم لا: فأنت طفلة وضيعة».

هنا، خرجت الأم، بينما جلست كاتشن باكية لتستدرك ما نسيته في العشية. لكن ما إن بدأت عملها حتى دخل السيد ويليش إلى الغرفة بهيئة قاسية وكئيبة، وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً.

السيد ويليش:«أنت تبكين، يا كاتشن، ماذا أصابك؟».

كاتشن: «آه يا أبي، إنك تعرف هذا».

السيد ويليش: «أريد أن تقولي لي أنت ما أصابكِ».

قالت كاتشن وهي تخفي وجهها بيديها: «لقد كذبت اليوم مرة أخرى».

السيد ويليش: «يا للطفلة التعيسة! ألا يمكنك السيطرة على خفّة عقلك؟!».

الحزن والنحيب منعا كاتشن من الردّ.

السيد ويليش: «لا أريد أن أغرقك بالكلمات، يا طفلتي. أنت تعرفين منذ وقت طويل أن الكذب أمر مشين، واللحظات التي يفلت الكذب خلالها من فمك هي التي لا تنجحين فيها من استجماع أفكارك، وهو ما يبدو لي واضحاً أيضاً. فما العمل إذاً؟ لا بد من التصرف يا طفلتي، وأنا على استعداد لمساعدتك في هذا الأمر بصفتي صديقاً.

ليكن هذا النهار لك بداية يوم حداد على الخطأ الذي ارتكبته بالأمس؛ ويجب أن تكون الأشرطة التي ستضعينها فوق شعرك اليوم سوداء؛ هيّا، اذهبي وضعيها قبل أن يستيقظ إخوتك وأخواتك!».

بعد أن عادت كاتشن من إنجاز ما أُمرت به قال لها السيد ويليش: «هدّئي من روعك، ستجدين فيَّ سنداً وفيّاً في حالتك التعيسة هذه. ولكي تكوني أكثر تنبّهاً لنفسك كلّ مساء، قبل أن تذهبي للنوم، عليكِ أن تأتي إلى مكتبي وتسجّلي في دفتر سأعده لهذا الغرض: كذبتُ أو لم أكذب.

ليس عليكِ أن تخشي أيّ تأنيب من جانبي، حتى في حال سجّلتِ ما لا يسرّك. أتمنى أن تكون ذكرى الكذب الذي تلفّظت به كافية لحمايتك من هذه الرذيلة لأيام طويلة. لكن، لكي أقوم بمساعدتك خلال النهار لكي تسجّلي في الدفتر شيئاً جيداً وليس شيئاً سيئاً،

سأمنعك من وضع أيّ شريط. بدءاً من هذا المساء ستتخلّين عن الشريط الأسود الذي تضعينه، وسيستمرّ هذا المنع لمدّة غير محدّدة، حتى يقنعني سجلّك المسائي بأن الجدية والصدق أصبحا لديك عادة، ولا أعود أخشى بعد ذلك من أنك ستكرّرين أخطاءك. فإذا سارت أمورك على النحو الذي أتمنّاه، يمكنك بعد ذلك أن تختاري بنفسك لون الشريط الذي ستضعينه فوق شعرك (مقبوس من: عائلة فيرثهايم **J.Heusinger,Die Familie Wertheim,1880** أورده **K.R**.، ص.192 وما بعدها).

لا شكّ أن الصبية كاتشن مقتنعة بأنه ما كان لمثل هذه الرذيلة أن تستقرّ فيها، إلا لأنها مخلوقة شرّيرة. ولكي تتصوّر الطفلة كاتشن أن مربّيها النبيل والكريم يعاني من بعض الصعوبات إزاء الحقيقة، وهو سبب تعذيبه لها بهذه الطريقة، لا بدّ أن يملك خبرة في التحليل النفسي. ومن ثم لا بدّ أن تشعر بأنها بالغة السوء مقارنة بالبالغين الطيبين.

وماذا نقول عن والد كونرادشن؟ ألا يمكن أن نرى فيه انعكاساً لبؤس الكثيرين من آباء عصرنا؟

كنتُ قد عاهدت نفسي على أن أربّيه بلا ضرب أبداً. لكن الأمور لم تجرِ كما وددت. إذ سرعان ما وجدت نفسي مضطرّاً لاستخدام العصا.

جرى الأمر على هذا النحو: كانت كريستيلشن تزورنا مع دميتها. وما إن رأى كونرادشن الدمية حتى أراد الاستيلاء عليها. طلبت من كريستلشن أن تعطيها له فاستجابت. بعد أن احتفظ كونرادشن بها لفترة معينة، أرادت كريستلشن استرجاعها، لكن كونرادشن رفض. فما العمل؟ لو ذهبت أبحث عن كتاب الصور قائلاً له أن يعيد الدمية إلى كريستلشن، فلربما فعل ذلك من دون احتجاج. لكني لم أفكر بالأمر؛ وحتى لو كنت قد فكرت فيه، فلا أعرف ما إن كنت سأفعل ذلك. قلت لنفسي ربما حان الوقت لكي يعتاد الطفل على طاعة أول كلمة يتلفظها والده. ومن ثم قلتُ له: ألا تريد ياكونرادشن أن تعيد الدمية إلى كريستلشن؟ فأجاب بعنف:

لا.

لكن ليس لدى المسكينة كريستلشن دمية!

لا، أجاب باكياً، وهو يضمّ الدمية إليه، ثم أدار لي ظهره.

عندئذٍ، قلت له بجدّية بالغة: كونرادشن، عليك أن تعيد الدمية إلى كريستلشن، أنا من يريد هذا.

ماذا فعل كونرادشن عندئذٍ؟ ألقى بالدمية عند قدمي كريستلشن.

يا إلهي كم خفت. ظننتُ أن السقف وقع فوق رأسي، لم يسبق أن شعرت بمثل هذا الرعب. كادت كريستلشن أن تلتقط الدمية، لكني منعتها من القيام بذلك.

ثم استأنفتُ قولي: التقط الدمية فوراً وناولها لكريستلشن!

لا، لا! صاح كونرادشن.

ذهبت للبحث عن عصا، وأريتها له ثم كرّرت قولي: التقطْ الدمية أو سأضربك بهذه العصا!

لكن الطفل تعنّت، وصاح: لا، لا!

رفعت العصا وتهيّأت لضربه.

لكن، في هذه اللحظة تدخّلت أمه: أرجوك، حبّاً بالله!

وجدتُ نفسي بين نارين؛ لكني اتخذت قراراً سريعاً وجيداً؛ أمسكتُ بالدمية، والعصا، وبذراع الطفل وانتقلتُ إلى غرفة أخرى، وأغلقت الباب خلفي بالمفتاح حتى لا تتمكن الأم من اللحاق بنا، وألقيت بالدمية أرضاً وقلت: التقط الدمية أو أضربك! لكن ابني كونراد بقي على موقفه الرافض.

عندئذٍ لم أتردّد في ضربه، قائلاً: هل ستلتقط الدمية الآن؟ فجاء جوابه أيضاً:

لا!

عندئذٍ ازدادت ضرباتي قوة، وكرّرت قولي: التقط الدمية فوراً!

أخيراً، التقَطَها. أمسكت بيده واقتدته إلى الغرفة الأخرى قائلاً: أعطِ الدمية إلى كريستلشن، ففعل. بعد ذلك، توجّه باكياً نحو أمه ليخفي رأسه في حضنها. لكنها كانت من الذكاء بحيث دفعته عنها قائلة: ابتعد عني، فأنت لست ولداً لطيفاً!

بينما كانت تقول له هذا الكلام، كانت الدموع تسيل فوق خدّيها. وحينما رأيت ذلك رجوتها أن تخرج من الغرفة. بعد ذلك، ظل كونرادشن يصرخ لمدة ربع ساعة تقريباً ثم هدأ.

يمكنني القول إن هذا المشهد قد قلب كياني بعمق، لإشفاقي على الطفل، ولأن عناده أزعجني في الوقت نفسه.

بعد أن جلسنا إلى طاولة الطعام، لم أستطع تناول أي شيء، وتركت الوجبة كلّها، وتوجّهت إلى الكاهن لأفضي بمكنونات صدري عنده. وهناك وجدت ما يريحني، بعد أن قال لي: حسناً فعلت يا سيد كييفر، فما دامت نبتة القراص صغيرة يسهل اقتلاعها، لكن إن تركناها تنمو لفترة طويلة، فإن جذورها تتطور، وحينما نريد اقتلاعها عندئذٍ، تبقى جذورها في الأرض. وهذا أشبه ببعض العادات الرذيلة عند الأطفال، وما دمنا سمحنا بها سيصعب علينا التخلص منها في المستقبل. وكنتَ محقّاً أيضاً في معاقبة هذا العنيد، وهو لن ينساها حتى ستة أشهر. إن لم تضربه إلا بشكل خفيف جداً، فلن يكون الضرب من دون جدوى هذه المرة فقط، لأن عليك لاحقاً أن تضربه دائماً، فيعتاد الطفل على الضرب بحيث لا يعود مبالياً به. لهذا لا يهتمّ الأطفال تماماً إن ضربتهم أمهاتهم؛ لأن الأمهات يفتقرن إلى شجاعة الضرب بقوة إلى حدّ ما. وهذا أيضاً هو سبب وجود أطفال تصلّب عودهم لدرجة أن أسوأ العقوبات لا تعود تؤثر فيهم.

بما أن ذكرى هذه الضربات، كما هو الحال بالنسبة لصغيرك كونراد، قريبة العهد، فإني أنصحك باستغلال هذه المرحلة. بعد وصولك إلى البيت اطلب منه أن يفعل مجموعة من الأشياء، مثل حذائك أو غليونك، أو تبغك ويحمله إليك؛ اطلب منه أن يحمل حجارة من مكان إلى آخر في باحة البيت. سينفّذ هذا كله، وبذلك يعتاد على الطاعة (**C.G.Salzmann,1976**، عن **K.R**.، ص 158 وما بعدها)

هل يمكن القول إن كلمات الكاهن قد عفا عليها الزمن؟ ألم يخبرونا في عام 1979 أن ثلثي الشعب الألماني كانوا مؤيّدين للعقوبات الجسدية؟ وأنها في إنجلترا غير ممنوعة، وتعدّ جزءاً من المعايير المُطبّقة في المدارس الداخلية. من سيتحمّل في المستقبل ردّ الفعل على هذه الإهانات، حينما لا تعود المدارس الداخلية موجودة. لا يمكن لجميع التلاميذ القدامى أن يصبحوا معلّمين ليكونوا واثقين من العثور على الوسائل التي تمكّنهم من الانتقام.

ملخّص:

جاء اختيار المقبوسات السابقة لتمييز موقف يتجلّى بتواتره إلى حدٍّ ما ليس في الفاشية فقط، بل في إيديولوجيات أخرى أيضاً. فاحتقار الطفل واضطهاده في ضعفه، إضافة إلى قمع ما فيه من حياة، وروح إبداعية وحساسية كما نقمعها في أنفسنا، تشمل عدة ميادين متعددة جداً لم نعد نلاحظها تقريباً. وتتنوّع درجات الشدّة والعقوبات، لكنّنا نجد في كلّ مكان تقريباً إلغاء العنصر الطفلي بأسرع ما يمكن، أي الكائن الضعيف، لكي يتطور أخيراً العنصر الأقوى، المستقل والفاعل الذي يستحقّ الاحترام. وحينما نصادف هذا الكائن نفسه لدى أطفالنا، فإننا نتابعه بوسائل مشابهة لتلك التي استخدمناها للقضاء عليه في أنفسنا، ونسمّي هذا تربية.

فيما سيأتي، سأستخدم فكرة «التربية السوداء» كلما سنحت الفرصة، للإشارة إلى هذا الموقف المعقد جداً، أي السياق الذي يسمح بفهم أيّ مظهر أقدّمه على غيره. المظاهر المختلفة المميزة تتضح من المقبوسات السابقة التي تخبرنا بالمبادئ الآتية:

1. أن البالغين هم سادة الطفل الذي ما يزال تابعاً (وليسوا الخدم!)؛
2. وهم من يحسم أمر الخير والشر كالآلهة؛
3. وأن غضبهم ناجم عن صراعاتهم الخاصة؛
4. وأنهم يجعلون الأطفال مسؤولين عنها؛
5. وأن الوالدين يحتاجان دائماً إلى الحماية؛
6. وأن المشاعر الحادّة التي يحسّ بها الطفل إزاء معلمه تشكل خطراً؛
7. وأنه لا بدّ من العمل باكراً على «انتزاع إرادة الطفل»؛
8. وأنه ينبغي القيام بهذا كلّه بشكل مبكر جداً بحيث «لا يتنبّه الطفل لأيّ شيء»، ولا يستطيع خيانة البالغ.

وسائل قمع الحيّ هي الآتية: الفخ (الكمين)، الكذب، الاحتيال، الإخفاء، التلاعب، الإخافة، الحرمان من الحب، العزل، الحذر، الإهانة، الاحتقار، التهكم، الخجل، استخدام العنف الذي يبلغ حدّ التعذيب.

أحد مناهج «التربية السوداء» ينطوي أيضاً على نقل معلومات وآراء مزيفة منذ البداية إلى الطفل. وهي معلومات تتناقلها أجيال، ويتقيد بها الأطفال، مع أن صلاحيتها ليست غير مثبتة فحسب، بل جرى البرهان على خطئها أيضاً. ومن بين الآراء الخاطئة نذكر مثلاً المبادئ القائلة:

1. الشعور بالواجب يولّد الحب.

2. يمكن قتل الكراهية بالممنوعات.

3. يستحقّ الوالدان الاحترام المسبق لكونهما كذلك.

4. الأطفال لا يستحقّون أيّ احترام مسبق.

5. الطاعة تمنح القوة.

6. شعور الطفل بقيمته ضارّ؛

7. الشعور المتدنّي بالقيمة يؤدّي إلى حبّ الأقربين.

8. علامات الحنان ضارّة (لأنها متكلفة)؛

9. لا يجوز الاستسلام لحاجات الطفل؛

10. القسوة والبرودة تهيئة جيدة لمواجهة الحياة.

11. الاعتراف الخفيّ أفضل من غياب الاعتراف؛

12. الظاهر أهمّ من الكائن؛

13. الله والوالدان لا يستحقّون الشتيمة؛

14. الجسد شيء وسخ ومثير للقرف؛

15. حيوية المشاعر ضارّة؛

16. الأهل كائنات تخلو من الغرائز، ولا يطولهم أيّ ذنب.

17. الأهل محقّون دائماً.

إذا فكرنا في الرعب المنبثق عن هذه الإيديولوجيا ومعرفتنا بأنها بقيت في ذروة قوتها عند بداية القرن، لن يدهشنا أن يقوم سيغموند فرويد بتغطية المعرفة التي توصّل إليها عبر

تصريحات مرضاه بنظرية قدّمت له فهماً غير متوقع للانحراف الجنسي الذي يمكن أن يسبّبه موقف البالغ إزاء الطفل. فقد كان يمنع على الطفل في زمنه، تحت طائلة عقوبات رهيبة، إدراك ما يفعله البالغون به، ولو توقف فرويد عند نظرية الانحراف، لما انتابته الخشية من والديه المُتماهيين **introjectés** فحسب، بل كان يمكن أن يعاني مضايقات حقيقية ورأى نفسه معزولاً ومرفوضاً من المجتمع البورجوازي. وكان عليه، من باب الحرص، أن يصيغ نظرية تحافظ على السرية، وفيها كل ما هو «سيّئ» ومذنب، وغير عادل، منسوب إلى هوى الطفل، ولا يظهر الوالدان إلا بوصفهما شاشتي إسقاط لهذه الأهواء. لم تقل هذه النظرية إن الوالدين، غير المسرورين من إسقاط أهواء جنسية وعدوانية على طفلهما، يحقّقانها عليه لأنهما يمسكان بزمام السلطة. وهذا الإلغاء هو الذي سمح لكثير من المتخصصين المحكومين بالتربية بالانضمام إلى نظرية الغرائز، من دون أن يضطروا إلى مراجعة أمثلة الأهل. كانت النظرية الغريزية والبنيوية تسمح بالحفاظ على القيادة مُستبطنة في الطفولة الأولى: «عليك ألا تدرك ما يفعله بك والداك».[1]

يبدو لي تأثير «التربية السوداء» على نظرية التحليل النفسي وممارسته مهماً بحيث أردت أن أعكف على دراسة هذه المسألة بشكل أطول.

سأكتفي هنا ببعض الملاحظات: أودّ فقط أن أبيّن في البداية بطريقة عامة جداً، أن المبدأ الذي رسخته التربية فينا القائل بأنه ينبغي عدم التعرّض للوالدين يعني أساساً إخفاء حقائق حيوية، أي إلباسها قناعاً يخالفها، وهو ما يسبّب للكثيرين منا أمراضاً عصابية خطيرة.

ما الذي يحدث لجميع الذين توّجت لديهم جهود المربّي بالنجاح؟

من غير الممكن أن يعيشوا مشاعرهم الحقيقية ويطوروها، لوجود الغضب الممنوع والتمرد العاجز بين هذه المشاعر -لا سيما حينما يكون الأطفال قد تعرّضوا للضرب والإهانة،

1- لم أتمكن من بلوغ هذه النتيجة إلا خلال السنوات الأخيرة استناداً إلى تجربتي التحليلية النفسية فقط، ودهشت من العثور على التعبير عن فكرة متفقة تماماً مع فكرتي في الكتاب المبهر الذي وضعته ماريان كرول (**Marianne Krüll** 1979). ماريان كرول هذه عالمة اجتماع لا تكتفي بالنظريات، بل تسعى إلى فهم المعيش، وإلى أن تعيش ما فهمته. فقد توجهت إلى حيث ولد سيغموند فرويد، وزارت الغرفة التي كان يتقاسمها فرويد مع والديه خلال السنوات الأولى من حياته، وبعد أن قرأت عدة كتب حول الموضوع، حاولت تصوّر التجربة التي عاشها الطفل سيغموند فرويد والتجربة التي سجلها في هذه الغرفة، والشعور بها.

والكذب والخداع. لكن ما مصير هذا الغضب الممنوع وغير المعيش؟ إنه لا يتلاشى بل يتحول مع الوقت إلى كراهية واعية إلى حد ما للذات، أو لأشخاص آخرين بدلاء، ويسعى بوسائل مختلفة إلى التحرّر، وهي وسائل يسمح بها للبالغ وتلائمه تماماً.

لقد اتفق أمثال جماعتي كاتشن وكونرادشن عبر الزمن للقول إن طفولتهم كانت أسعد فترات حياتهم. وتغيير هذا الأمر منوط اليوم بجيل الشباب. يعدّ لويد دو موز **Lloyd de Mause** أول عالم قام بتحليل عميق لتاريخ الطفولة من دون تجميل الوقائع، ولم يعمل لاحقاً على تلطيف نتائج أبحاثه عبر تغطيتها بتعليقات مثالية. لقد عرف مؤرّخ علم النفس هذا كيف يشعر تماماً بالحالة التي يدرسها، ومن ثم لا حاجة به لإخفاء الحقيقة. والحقيقة التي يكشف عنها كتابه (1977) محزنة وتشدّ الانتباه، لكنها تحمل معها أملاً في التغيير: فمن يقرأ الكتاب، وينتبه إلى أن الأطفال الذين يصفهم فيه أصبحوا، هم أنفسهم في ما بعد، بالغين، لا يمكن أن يدهش من أكثر فظاعات تاريخنا بؤساً؛ وسيكتشف مكان بذور القسوة، وعندئذٍ يمكنه أن يستخرج من هذا الاكتشاف الأمل بأن البشرية لم تُترك أبداً لهذا الرعب: بعد إلقاء الضوء على القواعد غير الواعية للعبة السلطة ومناهجها التشريعية، علينا أن نكون قادرين على تغيير الأشياء بشكل جوهري. لكن ما دمنا لم ندرك عنق الزجاجة للطفولة الأولى، التي تنتقل فيها إيديولوجيا التربية وتتأبّد، لا يمكننا فهم جميع أبعاد قواعد هذه اللعبة بشكل حقيقي.

لا شكّ أن المُثُل غير الواعية لدى الأهل الشباب قد تغيّرت اليوم. فلم تعد الطاعة، والإكراه، والقسوة، وانعدام الإحساس، قيماً مطلقة. لكن غالباً ما يعترض سبيل تحقيق هذه المثل ضرورة الاستمرار في كبت معاناة الطفولة، وهو ما يفضي إلى غياب التعاطف. العائلات القديمة الشبيهة بعائلتي كاتشن وكونرادشن بالتحديد هي التي لا تريد الحديث عن التعامل السيّئ مع الأطفال (أو تقلّل من أخطاره)، لأنها هي نفسها عاشت على ما يبدو «طفولة سعيدة». لكن قلّة تعاطفها تعبّر تماماً عن العكس: فقد عرفت باكراً جداً كيف تغضب. الأشخاص الذين حالفهم الحظّ في النشوء في بيئة تفهمهم (وهو أمر نادر جداً، إذ منذ فترة ليست بعيدة كنا ما نزال نجهل مقدار ما يعانيه الطفل) أو أولئك الذين خلقوا لاحقاً في داخلهم موضوعاً للتعاطف سيكونون أكثر تفهّماً لمعاناة الآخرين، أو لا يسعون في كل الأحوال إلى إنكارها. من شأن هذا أن يكون شرطاً ضرورياً لشفاء الجراح القديمة، ولا تحتاج إلى تغطية من الجيل اللاحق.

ثم إنها متعة خفيّة، وخاصة تماماً، تنطوي على رؤية الناس الذين يحيطون بنا لا يدركون ما يصيبهم فعلاً.

(أدولف هتلر، عن هيرمان روشنينغ.)

لا شكّ أن الأشخاص الذين شبّوا في منظومة قيم «التربية السوداء» ولم يعيشوا التجربة التحليلية النفسية، سيشعرون إزاء موقفي المناهض للتربية (**anti-pédagogique**) بقلقٍ واعٍ، أو يواجهونه بمعارضة فكرية. فهم يأخذون عليَّ لا مبالاتي بالقيم المقدّسة، أو أني أبدي تفاؤلاً ساذجاً من دون معرفة إلى أيّ حدٍّ يمكن أن يكون الأطفال سيّئين. ليس في هذه المآخذ ما يدهشني لمعرفتي التامة بأسبابها. لكنّي أودّ أن أقول شيئاً يتعلق باللامبالاة إزاء القيم: فالتربويّ **pédagogue** يجزم بأن الكذب شرّ، والإساءة للآخر أو إزعاجه، وردّ الفعل القاسي على القسوة الأبوية بدلاً من فهم النوايا الحسنة التي تخفيها، وما إلى ذلك. وفي المقابل، على الطفل أن يقول الحقيقة، وأن يكون مديناً لنوايا والديه الحسنة، وألا يتوقف عند قسوة أفعالهما، وأن يتبنّى أفكار والديه، ويعرف كيف يتبنّى موقفاً نقدياً إزاء أفكاره، وألا يستصعب الخضوع لما يُطلب منه. ولتلقين الطفل هذه الأفكار المعترف بها عالمياً إلى حد ما ليس في التقاليد اليهودية-المسيحية فحسب، بل في تقاليد أخرى أيضاً، ينبغي على البالغ اللجوء في بعض الأحيان إلى الكذب، والإخفاء، والقسوة، والمعاملات السيئة، والإهانة، لكنها لا تعود بالنسبة له «قيماً سلبية» لأنه تلقّى تربية، وليس مضطراً لاستخدام هذه الوسائل إلا لبلوغ أهداف مقدّسة، أي أن يكفّ الطفل عن الكذب، والإخفاء، والأذى، والقسوة، والأنانية. نجم عمّا أتينا على ذكره وجودُ قياسٍ نسبيّ حتمي للقيم التقليدية في منظومة القيم: في الحقيقة، الترتيب الهرميّ والسلطة هما اللذان يحدّدان في المقام الأخير ما إذا كان الفعل جيداً أو سيئاً. وهذا المبدأ نفسه يحكم مسيرة العالم كلّها. رأي الأقوى هو الأفضل دائماً؛ وينتهي الآخرون عاجلاً أم آجلاً إلى الاعتراف بمن يربح الحرب؛ ومهما كانت الجرائم التي ارتكبها لبلوغ هدفه.

أودّ أن أضيف إلى هذا القياس النسبي **relativisation** للقيم المرتبط بمواقف السلطة، وهي ظاهرة معروفة جيداً، قياساً آخر ناتجاً عن منظور التحليل النفسي. ما إن نتوقف عن فرض القواعد على الأطفال، حتى يضطرّ المرء بذاته إلى ملاحظة أنه يستحيل قول الحقيقة دائماً من دون جرح شخص آخر، والتعبير عن الامتنان بلا كذب هناك حيث لا يشعر المرء بأيّ امتنان، واصطناع التغاضي عن قسوة والديه، ويصبح في الوقت نفسه ناقداً مستقلاً. تظهر هذه الشكوك بالضرورة بعد تخلّينا عن منظومة القيم المجرّدة للأخلاقيات الدينية أو حتى الفلسفية للعودة إلى الواقع النفسي الملموس. القرّاء الذين لم يعتادوا هذه الطريقة في التفكير الملموس سيرون حتماً في قياسي النسبيّ لهذه القيم التقليدية، وإعادة النظر في التربية بوصفها قيمةً في حدّ ذاتها، صادمة، وعدمية وخطيرة، وربما ساذجة. وهذا كلّه يرتبط بقصّتهم. أما أنا، فيمكنني القول من وجهة نظري إنّ هناك حتماً قيماً لا أحتاج إلى قياسها نسبياً، والتي لا شكّ أن إمكانيات تحقّقها من شأنها تحديد فرص بقائنا على المدى الطويل: منها على سبيل المثال: احترام الضعفاء، ومن ثم احترام الأطفال بنحو خاص، واحترام الحياة وقوانينها، وإلا مات الإبداع. الفاشية لا تعرف كيف تحترم أياً من هذه المتغيّرات، فإيديولوجيتها تُشيع الموت النفسي، وخصاء الروح. من بين جميع شخصيات الرايخ الثالث لم أجد واحداً لم يتعرّض لتربية قاسية وعنيفة. أليس في هذا ما يثير القلق إلى حدٍّ ما؟

أولئك الذي توفّرت لهم منذ الطفولة إمكانية التصرف، بوعي أو بلا وعي، بطريقة مناسبة إزاء المعاناة، والمضايقات، والإخفاقات التي أصيبوا بها، أي تصرّفوا إزاءها من خلال الغضب، تراهم يحتفظون في مرحلة نضجهم بهذه القابلية على التصرف من خلال الغضب بطريقة مناسبة. فهم يدركون وهم بالغون بشكل جيد جداً، ويعرفون كيف يعبّرون عن الألم الذي يصيبهم؛ لكنهم، لا يشعرون بالحاجة إلى الإمساك برقاب الآخرين. هذه الحاجة لا تظهر إلا لدى الأشخاص الذين يجب عليهم دائماً الحرص على ألا تنهار المعوّقات؛ وإذا انهارت يصبح كلّ شيء ممكناً. ومن ثم يمكن فهم أن يؤدّي الخوف من تبعات غير متوقعة لدى قسم منهم إلى اختناق أيّ ردّ فعل عفويّ، بينما يؤدّي عند الآخرين، إلى تفريغٍ عرَضيّ على أشخاصٍ بُدلاء عبر نوبات من الغضب المفاجئ وغير المفهومة، أو إلى أفعال عنف منتظمة تؤدي إلى القتل أو الإرهاب. الفاعل القادر على فهم غضبه بوصفه جزءاً لا يتجزّأ منه لا يصبح عنيفاً؛ ولا يشعر بالحاجة إلى ضرب الآخر، لعجزه بالتحديد عن فهم غضبه، ولأنه لم

يستطع التآلف مع هذا الشعور خلال الطفولة الأولى، ولم يعِشه بوصفه جـزءاً منـه؛ لأن التفكـير في هذا الأمر لم يكن وارداً في بيئته.

ولمعرفتنا بهذه الديناميكية، لن تدهشنا ما تقول الإحصائيات بأن 60% من الإرهابيين الألمان خلال السنوات الأخيرة ينحدرون من عائلات قساوسة. لا شك أن مأساوية الحالـة تعـود إلى أن الأهل كانوا يكنّون لأطفالهم أفضل النوايا. وكل ما كانوا يريدونه مـن هـؤلاء الأطفـال أن يكونـوا لطيفين، ومتفهّمين، وعاقلين، وظريفين، وعدم المبالغة في متطلباتهم، والتفكير بالآخرين، والابتعاد عن الأنانية وتقلّب المزاج، والتعنّت، بل ممتنّين، وأن يصبحوا أتقياء بنحو خاص. أرادوا أن يعلّموا هذه القيم لأطفالهم بجميع الوسائل، بل مستعدّين، إن اقتضى الأمر إلى استعمال القوة لتحقيـق هذه الأهداف التربوية النبيلة. وبمجرّد أن يكـبر هـؤلاء الأطفـال ويرتكبـوا أفعـالاً عنيفـة، فـإنهم يعبّرون بهذا في الوقت نفسه عن الجانب المقموع وغير المعـيش في طفـولتهم وفي حيـاة أهلهـم، والذي لم يكن يعرفه أحدٌ غيرهم.

حينما يستولي الإرهابيون على رهائن من النساء والأطفال الأبرياء بـزعم خدمـة قضـية نبيلـة ومثالية، ألا يطبّقون ما سبق أن تعرّضوا له هم أنفسهم في الماضي؟ باسم العمل التربوي العظـيم، وأرفع القيم الدينية، تمّت التضحية بالطفل الصغير الحيّ من خلال الشعور بـأنهم ينجـزون شـيئاً عظـيماً وخـيّراً. هـذه الكائنـات الصـغيرة، التـي لم يُسـمح لهـا أبـداً بـالوثوق بمشـاعرها الخاصـة، «استمرّت» إلى حدّ ما في كبت مشاعرها خدمة لإيديولوجيا معيّنة. هذه الكائنات الذكيّـة والتـي تتمتع غالباً بحساسيّات متنوّعة جدّاً، وتمت التضحية بها فوق مذبح ما يسـمّى بـأخلاقٍ «عُليـا»، هي أيضاً ضحّت بنفسها بعد أن بلغت سن الرشد من أجل إيديولوجيا أخرى - غالباً ما تتعـارض مع الإيديولوجيا السابقة - خضعوا لها تماماً خلال طفولتهم السابقة.

إنـه قـانون التكـرار القهـري **compulsion de répétition**[1] المأسـاوي والمثـير للشـفقة المتعلق باللاوعي. لكن، يجـب ألا نغفـل وظيفتـه الإيجابيـة. أوّلا يكـون الأمـر أسـوأ، إذا نجـح العمل التربوي تماماً، وأمكن اقتراف جريمة مكتملة لا يمكن الرجوع عنها بحقّ النفس الطفولية من دون أن يعرف الرأي العام أيّ شيء أبـداً؟ حيـنما يهـاجم الإرهـابي، باسـم مُثلـهِ، كائنـاتٍ لا تستطيع الدفاع عن نفسها، تنفيذاً لأوامر القـادة الـذين يتلاعبـون بـه وشرطـة المنظومـة التـي

1- نزوع غير واعٍ يدفع الفرد إلى تكرار بعض الأفعال، أو الحالات السـابقة سـواء كانـت مؤلمـة أو تدميريـة [م].

يقاومها، فهو يروي بشكل غير واع من خلال التكرار القهري ما عاناه في الماضي باسم المثل النبيلة للتربية. وقد يفهم الرأي العام هذه القصة التي «يرويها » بوصفها علامة إنذار على أنها تجلٍّ للحياة التي يمكن إنقاذها أيضاً.

لكن ماذا يحدث حينما لا يبقى أيُّ أثر لهذه الحياة، بعد نجاح التربية تماماً وحتى النهاية، كما هو حال رجال مثل أدولف أيخمان **A.Eichmann**[1] أو رودولف هوس **R.Höss**[2]. فقد تربّى كلاهما تماماً على الطاعة، وتم تأهيلهما لهذا في وقت مبكر بحيث لم تفشل هذه التربية قطّ ولم يُصَب هذا الصرح بأي صدع، وبقي دائما كتيماً، ولم يهزّه أيّ شعور؛ وقد نفّذت هذه الكائنات جميع الأوامر التي أعطيت لها حتى ساعاتها الأخيرة من دون أن تعترض على مضمونها أبداً. إنهم لم ينفّذوها لأنهم كانوا يعتبرونها أوامر صحيحة، بل لأنها كانت أوامر فقط، تماماً كما يريد «صاحب التربية السوداء».

هذا ما يفسّر كيف استطاع أيخمان طيلة محاكمته الإصغاء من دون أن يبدي أيّ علامة تأثر إزاء تصريحات الشهود المؤثرة، لكنه احمرّ خجلاً لأنه ذُكِّر بواجب النهوض لحظة النطق بالحكم.

تربية رودولف هوس قامت على الطاعة المطلقة منذ نعومة أظفاره، وقاومت أيضاً جميع تبدّلات الزمن. لا شك أن والده لم يشأ أن يجعل منه قائداً لمعسكر أوشفيتس؛ وبصفته كاثوليكياً صارماً فقد وجّهه ليعيش حياة المبشرين. لكنه أقنعه مبكراً جداً بمبدأ وجوب طاعة السلطات دائماً، مهما طلبت منه.

> لم يكن والداي يخرجان من البيت إلا لماماً، لكنهما كانا يستقبلان أناساً كثراً، لا سيما من رجال الدين. وازداد رسوخ مشاعر والدي الدينية أكثر. وحينما تسمح له أعماله ببعض أوقات الفراغ كان يسافر معي إلى الحجّ: فزرنا جميع الأماكن المقدسة في ألمانيا، وآينسيدلن في سويسرا، ولورد في فرنسا. وكان والدي يطلب لي بحماسة المباركة السماوية بصفتي كاهناً مستقبلياً. أما أنا فقد كنتُ ولداً تقياً جداً: أمارس واجباتي الدينية بجدّية، وأحب خدمة القدّاس بصفتي أحد صبيان جوقة الكنيسة، وأؤدّي

1- 1906-1962: عضو في الحزب النازي الألماني في وقت حكم هتلر. ارتكب جرائم عديدة بحقّ اليهود وغيرهم، وأعدم شنقاً في فلسطين المحتلة [م].

2- [م] 1901- 1947: ضابط في المخابرات الألمانية النازية، كان مشرفاً على إبادة اليهود في أوشفيتز[م].

صلواتي بإيمان طفولي عميق. التربيـة التـي تلقّيتهـا مـن والـديّ فرضـت علـيّ احـترام البالغين لا سيما الأشخاص المسنّين جداً منهم، بمعزل عن الوسط الذي ينتمون إليه. كنـتُ أعتبر بمثابة واجبي الأول المساعدةَ إذا دعت الحاجة، وأن أنفّذ جميع أوامر والدي وأنفّـذ جميع رغبات معلميَّ، والسـيد الخـوري، وجميـع البـالغين، وحتـى الخـدم؛ لأنهـم برأيـي محقّون في كل ما يقولون.

هذه المبادئ التي تربّيت عليها استحوذت على كينونتي كلها (**R. Höss**، **1979**، ص.19)

كيف لرجل مثل هوس أن يقاوم حينما تطلب السلطات منه أن يقوم بدور آمر آلة الموت في معسكر أوشفيتس؟ وحتى في فترة لاحقة، أي بعد اعتقالـه، حيـنما طلـب منـه تقريـر مصـيره، لم يكتف بتبرئة نفسه بأمانة ووعي فقط، بل عبّر أيضاً بصدقٍ عن امتنانـه باختصـار زمـن الاعتقـال (الذي شغله بطريقة مفيدة). هذه العلاقة تقدّم لنا معلومة بالغة العمق حـول أصـل جريمـة لا يمكن تصوّرها، أودت بأرواح الآلاف من الضحايا.

يتحدث رودولف هوس في أقدم ذكرياته عن حاجته القسرية خلال طفولته للاغتسال، والتـي كانت ترتبط حتماً بالسعي إلى التخلّص مما كان يراه والداه فيه مـن دنـسٍ أو وسـاخة. وبمـا أنـه افتقد لحنان والديه، فقد كان يبحث عنه لدى الحيوانات لأنها لم تكن تتعرّض للضرب مـن أبيـه، كما كان يتعرّض له هو نفسه، ولهذا فهي تبلغ مرتبة أعلى من مرتبة الأطفال.

ونجد منظومة قيم شبيهة عند هينريش هيملر **H. Himmler**، الذي يقول مثلاً:

«كيف يمكن أن تستمتع بإطلاق النار فجـأةً عـلى حيوانـات مسـكينة بريئـة لا معـين لهـا وهي ترعى العشب بسلام عند طرف الغابة؟ لو فكّرنا في الأمر لوجدنا أننـا بكـل بسـاطة إزاء جريمة قتـل... الطبيعـة بالغـة الروعـة، بحيـث يحـقّ لكـلّ حيـوان أن يعـيش فيهـا» (**J.Fest**، **1963**، ص.164).

ويضيف هيملر قوله:

تقـوم كتيبـة الحمايـة **SS** عـلى مبـدأ مطلـق يقـول: علينـا الـتصرف بطريقـة مخلصـة، وصحيحة، وأمينة، وودّية إزاء من ينتمون إلى دمنا، لكن ليس إزاء الآخرين. فلا يعنينـي أبـداً معرفـة مـا سـيؤول إليـه الـروس أو التشـيكيون. إننـا نسـتحوذ عـلى دم الشـعوب

الأخرى النقي إذا اقتضت الحاجة من خلال سرقة أطفالهم، وتربيتهم عندنا. ولا يهمّنا سواء عاشت الشعوب الأخرى في الرخاء أو هلكت جوعاً، ولا أكترث لهذا الأمر إلا إذا احتجتُ إليهم كعبيد يخدمون حضارتنا. ولا يهمّني أن تهلك عشرة آلاف امرأة روسية من التعب وهنّ يحفرن خنادق مضادة للدبابات ما دُمن سينجزن هذه الخنادق للدفاع عن ألمانيا... لن نعبّر أبداً عن شراستنا أو عن غياب الرحمة من قلوبنا إن لم يكن هذا ضرورياً، بطبيعة الحال. نحن الألمان، الوحيدون في العالم الذين نعبّر عن إنصافنا للحيوانات، وسنكون كذلك إزاء تلك المخلوقات البشرية، لكننا نرتكب جريمة بحقّ دمنا إذا قلقنا بشأنها، وحملنا إليها مُثلنا... (**J.Fest**، **1963**، ص.155).

هيملر، مثل هوس منتوجٌ مثاليّ لأبيه تقريباً، الذي كان مربّياً محترفاً. وكان هينريش هيملر يحلم أيضاً بتربية الرجال والشعوب، كما يقول فيست **Fest**:

أكد فيليكس كيرستن، الطبيب الذي طالما عالج هيملر منذ عام 1939، ولعب دور الرجل الموثوق لديه، أن هيملر كان يودّ لو علّم الشعوب الأجنبية بدلاً من إبادتها، وبينما كان خلال الحرب يفكر بالسلام الذي قد يعمّ، كان يحلم بإنشاء وحدات عسكرية «مؤهلة بعناية ومتعلمة» مهمتها القيام بالتعليم أيضاً. (فيست، 1963، ص.177)

وخلافاً لما جرى لرودولف هوس، الذي نجحت تربيته على الطاعة بشكل تامّ، يتضح أنّ هيملر لم يتوصل تماماً إلى إظهار متطلبات القسوة الداخلية التي فُرضت عليه. وقد فسّر جواشيم فيست بطريقة مقنعة جداً، الفظاعات التي ارتكبها هيملر بوصفها محاولة دائمة لكي يبرهن لنفسه وللآخرين عن قسوته، فيقول:

في التشوّش التامّ الذي يكتنف جميع المعايير الناجمة عن الأخلاقيات الشمولية، تجد القسوة إزاء الضحايا بالتحديد ما يسوّغ افتراضها للقسوة إزاء الذات نفسها. أي «أن نكون قساةً إزاء أنفسنا وإزاء الآخرين، والتسبّب بالموت وقبوله». ذلك كان أحد شعارات كتيبة الموت **SS** الذي لم يكفّ هيملر عن تكراره بقوله إن القتل كان جيداً ومشروعاً لأنه كان صعباً. وللسبب نفسه، طالما أشار هيملر باعتزاز، كما لو أن الأمر يتعلق بدليل على الانتصار، وأن كتيبة الموت لم تكن «تعاني من ضرر داخلي» في أعمالها الإجرامية، أو تتوقف عن القول بأن ما تقوم به كان «صحيحاً». وعندئذٍ، كان من

المنطقي أن يبدأ المستوى الأخلاقي لكتيبة الموت بالتنامي مع عدد ضحاياها (**J. Fest**، **1963**، ص.164).

ألا نجد في هذه الكلمات صدى لمبادئ «التربية السوداء»، والعنف الذي يُمارس ضد حركات النفس الطفولية؟

لم تكن تلك سوى أمثلة ثلاثة من بين أمثلة أخرى لا حصر لها حول كائنات اتّبعت سبيلاً مشابهاً، وأفادت حتماً من تربية جيدة، وقاسية. فلم يظهر خضوع الطفل المطلق لإرادة البالغين على شكل خضوعٍ سياسيّ لاحق (كما في المنظومة الشمولية للرايخ الثالث) فقط، بل قبل هذا عبر الاستعداد المسبق الداخلي لأيّ خضوع جديد أيضاً، أي عندما يغادر الشاب البيت العائلي. كيف لكائنٍ لم يستطع أن يطوّر في نفسه سوى القابلية الوحيدة لطاعة الأوامر التي تلقّاها أن يعيش بطريقة مستقلّة مع هذا الفراغ الداخلي؟ لا شكّ أن المهنة العسكرية كانت أفضل وسيلة للاستمرار ليصف المرء لنفسه ما ينبغي عليه فعله. حينما برز شخصٌ مثل أدولف هتلر الذي كان يزعم، على غرار أبيه، أنه يعرف تماماً الأفضل، والصحيح والضروري للآخرين، ولا يدهشنا أن كثيراً من الناس قد احتفوا بقدوم هذه الشخصية أو تلك، وقدّموا لها العون للاستيلاء على السلطة تعبيراً عن حنينهم للخضوع. فقد وجد هؤلاء الشباب في بقية حياتهم أخيراً تعويضاً عن شخصية الأب التي لولاها لما تمكّنوا من العيش. في كتاب جواشيم فيست **Das Gesicht des Dritten Reiches, 1963** (سادة الرايخ الثالث) نرى جيداً الانقياد، والغياب التام للروح النقدية والسذاجة الطفولية تقريباً في حديثهم بعد أن أصبحوا أسماء كبيرة في الجمهورية الثالثة (الرايخ الثالث) عن الحضور الطاغي لأدولف هتلر، وطبيعته الإلهية، وعصمته. هكذا يرى الطفل الصغير والده. وهؤلاء الرجال لم يتجاوزوا هذه المرحلة أبداً. سأسوق بعض المقاطع، لاعتقادي أنه لولاها ما كان للجيل الحالي أن يتصور درجة افتقار هؤلاء الرجال، الذين سيصنعون تاريخ ألمانيا اللاحق، إلى المرتكزات الداخلية. فقد كان هيرمان غويرنغ **H. Goering** يقول:

> إذا كان أحد الكاثوليكيين مقتنعاً بأن البابا معصومٌ في كلّ ما يتعلق بالإيمان والأخلاق، فإننا نحن القوميين - الاشتراكيين نعلن القناعة الصادقة نفسها أن الفوهرر بنظرنا معصوم أيضاً في كل ما يتعلق بالقضايا السياسية والمسائل الخاصة بالمصلحة القومية والاجتماعية للشعب... لقد أنعم الله على ألمانيا (وهو أمر نادر!) بأدقّ الأفكار وأكثرها

منطقية، وبفلسفة عميقة فعلاً من جهة، وبإرادة ديناميكية لا تتراجع أمام أيّ هدف من جهة ثانية.

كما صرّح:

لا أطيع إلا أدولف هتلر والله! (**J. Fest**، **1963**، ص.93).

أو قوله:

كل من يعرف الحالة عندنا، يعرف تماماً أن ليس لأحدٍ منّا سلطة إلا تلك التي يريد الفوهرر منحه إياها. فمع الفوهرر فقط وخلفه نحصل على السلطة والوسائل القوية التي تتمتع بها الدولة. فإذا عملنا ضد إرادته، أو حتى من دونه فإننا نجد أنفسنا مباشرة عاجزين. كلمة من الفوهرر تكفي لإزالة من لا يرغب فيه. إن مكانته، وسلطته بلا حدود... (**J. Fest**، **1963**، ص.94).

ما نقرؤه هنا هو بالفعل، وصفُ حالِ طفلٍ صغير إزاء أبٍ سلطويّ، إذ يعلن غيورنغ بصراحة:

«لستُ أنا من يرى، بل هتلر هو من يرى من خلالي!»...«كلما وجدت نفسي أمامه أبول في سروالي»...

«... حوالي منتصف الليل فقط أستطيع تناول شيء من الطعام؛ كنت في حال من العصبية بحيث أتقيّأ ما أكلته؛ وحينما كنتُ أعود إلى كارينهال نحو الساعة التاسعة، كان عليّ أن أرتاح أولاً لبضع ساعات في مقعدي لتهدئة أعصابي. لقد أصبحت هذه العلاقات بالنسبة لي نوعاً من البغاء الأخلاقي». (**J. Fest**، **1963**، ص.94).

في الخطاب الذي ألقاه رودولف هيسه **R.Hesse** في 30 حزيران من عام 1934، اعترف صراحةً بهذا الموقف أيضاً، ومع أنه كان يتحدث أمام الملأ، فإنه لم يُبدِ أيّ شعور بالخجل أو الضيق - وهي ظاهرة نكاد لا نتخيّلها بعد مرور نحو خمسين عاماً إلا بصعوبة. يقول في هذا الخطاب:

«نلاحظ بكلّ اعتزاز أن فرداً واحداً يبقى بمعزل عن أيّ انتقاد، ونعني به الفوهرر. وسبب هذا أن كلّاً منا يعرف ويشعر بأنه دائماً على حقّ، وسيكون دائماً على حقّ. وحزبنا القومي-الاشتراكي راسخ بوفائه وإخلاصه للفوهرر؛ وفاء وإخلاص لا يسألان عن سبب هذا الشيء أو ذاك، بل يكتفيان بتنفيذ الأوامر المعطاة بصمت. إننا

مقتنعون بأن الفوهرر يلبّي نـداء علوياً يـأمره بإمسـاك أقـدار ألمانيـا، وهـذه القناعـة لا تحتمل النقد. (J. Fest، **1963**، ص.268).

كتب جواشيم فيست حول هذا الموضوع:

يشبه هسه بشكل مثير من خلال علاقاته الواضحة قـادةً نـازيّين آخـرين، تلقّـوا مثلـه في طفولتهم تربية قاسية. كلّ شيء يدعو إلى الظن بـأن هتلـر أفـاد بشـكل كبـير مـن نقـاط ضعف مجتمع راح يبحث عن الإرشادات في دروس الثكنات، وأنشأ أبناءه وفـق مقـولات المدرسة الحربية الصارمة. هذا المزيج الغريب مـن العدوانيـة والخضـوع الـذي غالبـاً مـا يتميز به المحاربون القدماء، والحاجة العميقة للتبعية، يعكس هذا العالم الخاص للقيـادة العسكرية التي تركت أثرها على طفولتهم. لا شك أن رودلف هسه قـد عـانى في طفولتـه مشاعر التمرّد ضد سلطة الأب الذي، من دون أن يأخذ بعـين الاعتبـار رغبـات ابنـه ورأي أساتذته، رفض أن يكمل دراسته تعبـيراً عـن هيمنتـه عليـه، وأجـبره عـلى ممارسـة مهنـة تجاريـة، لـكي يـتمكن في المسـتقبل مـن وراثتـه عـلى رأس الشركـة التـي كـان يـديرها في الإسـكندرية؛ فبحـث عندئـذٍ عـن بـديل للسـلطة الأبويـة أيـنما كـان: لا بـدّ مـن مشـيئة الفوهرر! (J.Fest، **1963**، ص.269)

حينما كان الأجانب يرون أدولف هتلر في نشرات الأخبار المصورة، لم يكونوا قادرين على فهم حماسة الجماهير، أو انتخابات عام 1933. ولم يصـعب علـيهم اكتشـاف نقـاط ضـعفه البشريـة، وثقته المصطنعة، وحججه الزائفـة؛ ولم يـروا فيـه شخصـية الأب. لكـن هـذا الأمـر أشـدّ صـعوبة بالنسبة للألمان. فالطفل غير قادر على تسجيل المظاهر السلبية لشخصية والده، مع أنها موجودة في مكان ما، لأنه يشعر من خلال هذه المظاهر السلبية تحديـداً، والمرفوضـة، أنـه مشـدودٌ نحـو بُدلاء الأب بعد أن يصبح بالغاً. وهو أمرٌ يصعب فهمه إذا نظرنا إليه من الخارج.

غالباً ما نسأل أنفسنا كيف يمكن لزوجين أن يكونا معاً، أو لهذه المرأة أن تعـيش مـع هـذا الرجل، وبالعكس؟ قد لا تكون الزوجة المعنية لا تطيق الحيـاة المشـتركة إلا في مقابـل معانـاة كبيرة، والإذعان لحياتها. لكن لديها الانطباع بأنها ستموت من الخوف إن تخـلّى زوجهـا عنهـا. في الحقيقة، قد تكون هذه القطيعة فرصة حياتها. لكنها لا تدرك ذلك مـا دامـت تعـيش مـرة أخرى معاناتها القديمة التي عاشتها مع والدها، وكبتتها بشـكل غـير واعٍ. ولـدى تفكيرهـا بـأن هذا الرجل سيهجرها، لا تشعر بالوضـع الحـالي، بـل تعـود لتعـيش ألم الهجـران الـذي عاشـته

خلال طفولتها الأولى، وفي الفترة التي كانت تابعة فعلياً لوالدها. هنا تحضرني قصة امرأة حقيقية، ابنة موسيقي حلّ بالتأكيد محلّ أمها المتوفاة، لكنه غالباً كان يغيب عنها بسبب جولاته الموسيقية. ومن ثم فقد كانت صغيرة جداً لتتحمّل مشقّة هذه الانفصالات المفاجئة من دون أن ينتابها الرعب. رأينا بعضنا بعد فترة طويلة في إطار التحليل، لكن خوفها من ترك زوجها لها لم يخفّ إلا بعد أن أفرج لا وعيها عبر الأحلام عن ذلك الجانب الآخر، أي الجانب الشرس والقاسي إلى جانب صورة والدها الناعمة والحنونة. وبنتيجة هذه المواجهة مع هذا الواقع، أصبحت تدين بتحرّرها الداخلي وتطورها نحو الاستقلالية التي أصبحت ممكنة من الآن فصاعداً.

قدمتُ هذا المثال، لأنه يلقي الضوء على الآليات التي لعبت دوراً أيضاً في انتخابات عام 1933. إذ لا يمكن تفسير الحماسة إزاء هتلر بناءً على وعوده (ومن لا يقدّم الوعود قبل الانتخابات؟) أو بمضمونها، بل بطريقة عرضها. إنها بالتحديد حركاتٌ مسرحية، وهي مضحكة بنظر أيّ أجنبي، وأصبحت مألوفة من الجماهير، مما منحه تلك السلطة من الإيحاء. ونرى أيّ طفل صغير يخضع تماماً للإيحاء نفسه حينما يتحدث أبوه الكبير إليه ويحبه ويعجب به، وليس لما يقوله أيُّ دور عملياً؛ المهمّ هو الطريقة التي يتكلم بها. كلما أضفى أهمية على هيئته، ازداد الاعجاب به، لا سيّما من طفلٍ نشأ تبعاً لمبادئ «التربية السوداء». حينما يتنازل الأب البعيد الذي لا يمكن بلوغه ويكلّم الطفل، فهذا يبعث البهجة في نفسه، وليس هناك أيّ فعل تضحية وإيثار مهما بلغ شأنه يستحقّ هذا الشرف. وأن يكون هذا الأب، هذا الرجل العظيم والقويّ، شرهاً للسلطة، وسيّئ النيّة، وغير واثق في أعماقه، فهذا أمرٌ يعصى على إدراك الطفل الصغير. وهذا ينطبق على كل شيء. فالطفل الذي يجد نفسه في مثل هذه الحالة يصعب عليه أن يتعلم في هذا المجال، لأن الطاعة التي فرضها قمع المشاعر العفوية بشكل مبكر جداً أوقفت قدرته على التعلم.

الحظوة التي يتمتع بها الأب تتغذّى غالباً على صفات لا يملكها (مثل الحكمة، وطيبة القلب، والشجاعة)، لكن يتمتع بها أيُّ أبٍ أيضاً حتماً (من وجهة نظر أطفاله): مثل الشخصية الفريدة، والعظمة، وأهمية السلطة. إذا أفرط الأب في استخدام سلطته وقمع الروح النقدية لدى الطفل، فإن نقاط ضعفه تبقى مخفيّة خلف تلك الصفات الأكيدة. فيمكنه أن يقول لأطفاله، كما كان يقول هتلر لمعاصريه بلهجة تخلو من المزاح: «أنتم محظوظون بي!».

ما إنْ نفهم هذا، حتى لا يعود التأثير الأسطوري لهتلر على محيطه غامضاً؛ وهو ما يتضح من المثالين الآتيين المأخوذين عن هيرمان راوشنينغ **H. Rauschning**:

> أدخل غيرهارت هاوبتمان على الفوهرر، فهزّ يده ونظر في عينيه. تلك النظرة الشهيرة التي يتحدث عنها الجميع، هذه النظرة التي تجعلك ترتعد والتي حدّثني أحد المشرّعين الرفيعين والراشدين ذات يوم، بعد أن حظي بها بأنه لم تعد لديه بعدها سوى رغبة واحدة، هي أن يعود إلى بيته للصلاة واستيعاب هذه الذكرى الفريدة. هزّ هتلر يد هاوبتمان مرة أخرى. وهنا ظنّ الحاضرون أنه سيتلفّظ بكلمات خالدة ستدخل التاريخ. فكّر هاوبتمان «هي هذه اللحظة». وهنا هزّ فوهرر الرايخ [قائد الجمهورية] يد الشاعر للمرة الثالثة، ثم انتقل إلى الزائر التالي. وهو ما لم يمنع غيرهارت هاوبتمان من القول لأصدقائه لاحقاً، بأن هذه المحادثة كانت أعلى ذروة في حياته وتتويجاً لها (ص.285).

وفي موضع آخر كتب راوشنينغ:

> طالما سمعت من يقول في سرّه إنه يخاف منه، ولا يقابله بالغٌ حتى يخفق قلبه. وينتابك الشعور بأن هذا الرجل سيمسك بعنقك فجأة ويخنقك، أو يرمي بمحبرة في وجهك، أو يقوم بأيّ حركة لا تتوقعها. فيما يرويه «من حظوا بمعجزة لقائه» كثيرٌ من الحماسة المصطنعة، والتواضع المرائي، والتلميح في أغلب الأحيان أيضاً. غالبية زوّاره كانوا يريدون أن يحظوا بمثل هذه اللحظة المهيبة. إنها أشبه بقصة تيل الماكر **Till L'espiègle**[1] وصورته غير المرئية التي لم يشأ أحدٌ الاعتراف بأنه لم يرها. لكن هؤلاء الزوار أنفسهم الذيم لم يريدوا فتح أعينهم، ينتهون إلى الاعتراف بخيبة أمل حينما يحرجهم أحد.«نعم، صحيح، إنه لم يقل شيئاً مهمّاً. لا، إنه لا يتمتع بهيبة رجل مرموق... على الأقل، لم يترك عندي هذا الانطباع.» إذاً، ما هو مصدر هذا التوهّم؟ والمكانة، والهالة؟ نعم، إنها الهالة التي تصنع كل شيء (286).

حينما تبرز شخصية تتحدّث وتتصرّف بطريقة مشابهة لأبيها، ترى حتى البالغ نفسه ينسى حقوقه الديمقراطية، أو يكفّ عن استخدامها ومن ثم يخضع لهذه الشخصية، ويهلّل لها، ويوليها ثقته كلّها، وفي النهاية يسلّم نفسه لها تماماً ولا يرى العبودية التي يقع فيها، لأنه لا

1- شخصية شعبية مشهورة من الأدب الألماني القديم [م].

يلاحظ ما يندرج في استمرارية طفولته. وبدءاً باللحظة التي نجعل أنفسنا فيها تـابعين لأحـدهم كما كنّا تابعين للأبوين خلال الطفولة الأولى، فلن تعود أمامنا إمكانية للتخلص من هذه التبعيـة. الطفل لا يستطيع الهروب، كما لا يمكن للمواطن في النظام الشمولي أن يحظى بحرّيته. ولا يبقى أمام الفرد أيّ متنفّس سوى الاعتناء بتربية أطفاله. فكان على مواطني الجمهورية الثالثة [الـرايخ الثالث] المحرومين من حريتهم أن يصنعوا من أطفالهم كائنات محرومـة مـن الحريـة، ليشـعروا بأنهم ما يزالون يملكون شيئاً من السلطة.

لكن هؤلاء الأطفال، الذين أصبحوا أهلاً توفرت لـديهم إمكانيـات أخـرى. فعـددٌ كبـير مـنهم فهموا أخطار إيديولوجيا التربية، وبحثوا بكثـير مـن الشـجاعة والجهـود عـن سـبل جديـدة لهـم ولأطفالهم. فعثر بعضهم، لاسيما الكتّاب، على درب تجربة حقيقة الطفولة الذي كان مسـدوداً في وجه الأجيال السابقة؛ وفي هذا كتبت بريجيت شويغر **B. Schwaiger** تقول:

> أسمع صوت أبي. يتلفّظ باسمي. إنه ينتظر شيئاً مني. إنه بعيد، في غرفـة أخـرى. وينتظـر شيئاً مني، هذا هو سبب وجودي. يمرّ أمامي، من دون أن ينبس ببنت شفة. ليسـت ثمـة فائدة تُرتجى مني. يجب ألا أكون موجودة. (شويغر، 1980، ص.27) لـو ارتـديتَ بـدلتك العسكرية التي كنـت ترتـديها أثنـاء الحـرب، فلربمـا اتضـحت أشـياء كثـيرة. - الأب، الأب الحقيقي رجل لا يمكن معانقته؛ رجل ينبغي أن نردّ عليـه، حتـى لـو كـرّر سـؤاله خمـس مرات، ولدينا الانطباع بأنه يطرحه للمرة الخامسة للتأكد مـن أن بناتـه مسـتعدّات للـردّ على أبٍ يحقّ له أن يقاطعك حينما تتكلم (المرجع السابق، ص.24 وما بعدها).

ما إن تتمكن عيون الأطفال من اكتشاف لعبة سلطة التربية، حتـى يحـدوهم الأمـل بـالتحرّر من أغلال «التربية السوداء»، لأنهم يعيشون مع الذكريات.

بعد أن تصبح هذه المشاعر مقبولـة، يتوقـف الصـمت، ولا يعـود هنـاك عـائقٌ أمـام انتصـار الحقيقة. حتى النقاشات الفكرية حول معرفة «ما إذا كانت الحقيقة موجـودة»، «وأن كـل شيء نسبيّ»، وما إلى ذلك، تظهر على حقيقتها وما تضطلع به من وظيفة الحماية، بعـد أن يقـوم الألم بإظهار الحقيقة. ويقدّم لنا كريستوف ميكيل **Ch. Mekel** مثـالاً رائعـاً عـلى طريقتـه في وصـف والده (**Suchbild**، **1980**):

> في داخل كلّ بالغٍ طفل يريدُ أن يلعب.
>
> وفيه أيضاً آمرٌ يريد أن يُعاقب.

في هذا البالغ الذي أعني به أبي، كان ثمّة طفلٌ يشارك الأطفال لعبهم في فردوس الأرض، لكن في جلده يلتصق أيضاً ضابطٌ يريد فرض العقاب بحجّة الانضباط.

لا جدوى من تدفّق حنان هذا الأب السعيد. فخلف الأب المعطاء الذي يوزّع الخبز المُحلى بالسكر يقبع ضابطٌ حامل سوطه؛ يوقع سلسلة من العقوبات بأطفاله. عنده منظومة العقوبات المتسلسلة. يبدأ بالتوبيخ، ثم انفجار الغضب - وهو غضب محتمل لأنه كان يمرّ كالرعد. بعد ذلك، يستخدم أشكالاً مختلفة من العقوبات كالقَرص، وليّ الذراع، وشدّ الأذن، والصفع، والضرب خلف الأذنين. ثم يلي هذا منع البقاء في الغرفة، ثم الحبس في القبو. بعد ذلك يُنسى شخص الطفل، ويُهان بطريقة مخجلة من خلال صمت يدلّ على التنديد، ويُطلب منه الذهاب لشراء أي غرض، أو الذهاب إلى السرير، أو يؤمر بإحضار الفحم. وأخيراً، تأتي العقوبة، العقوبة الحقيقية، العقوبة النموذجية أمام الآخرين. وهي عقوبة الأب، اختصاصه الحصري الذي يستخدمه بلا هوادة، ويفرضها باسم الانضباط، والطاعة، والإنسانية حتى تتحقق العدالة، ولكي يتم تلقين هذه العدالة إلى الطفل بشكل صحيح، فلا بدّ من العصا. يمسك الضابط بخيزرانته وينزل أولاً إلى القبو، وخلفه الطفل الذي لا يعرف أبداً ذنبه. وكان عليه أن يمدّ يديه (الراحتان نحو الأعلى) أو يميل نحو ركبتي الأب. وكانت الضربات لا ترحم، ودقيقة، يعدّها بصوت مرتفع، أو منخفض أو من دون مدّة. يعبّر الضابط عن أسفه لقيامه بهذا الإجراء، ويزعم أنه يتألم لذلك فعلياً. بعد الصدمة، يأتي الرعب الطويل: يأمر الضابط بأن يتّخذ الطفل هيئة مرحة. وببهجة تفاخرية يسير في المقدمة، ليكون المثال الجيد في جوٍّ كتيم، وكان ينزعج إذا لم يشأ الطفل معرفة أيّ شيء يجعله مرحاً. عدّة أيام متتالية، قبل الإفطار تحديداً، كانت العقوبة تتكرّر في القبو. فأصبحت طقساً حقيقياً، والبهجة إزعاجاً.

خلال ما تبقّى من اليوم، لا بد من نسيان العقوبة. لم تكن المسألة مسألة خطأ أو خطيئة، ولا يعود يتطرق أحدٌ إلى موضوعي الخير والشر. يغيب الفرح عن وجوه الأطفال؛ وجوه بيضاء كالطباشير؛ صامتون، أو يمسحون دموعهم؛ فخورون، وحزينون، ومجروحون، ومتألمون، ومُحاصرون - حتى في الليل - بوطأة العدالة. كانت العقوبة تهبط عليكم ويكون له الضربة الأخيرة، والكلمة الأخيرة. كان الضابط يعاقب حتى

لو كان في إجازة، ويشعر بالإحباط إذا سأله ابنه ما إذا كان سيذهب إلى الحرب (ص.55-57).

لا شك أن التجربة التي ورد وصفها أعلاه مؤلمة جداً، وواضحة من خلال الحقيقة الذاتية التي تتضمّنها كلُّ جملة من الجمل المذكورة. أما في ما يتعلق بحقيقتها الموضوعية، فعلى من يشكّ فيها بسبب وقائعها الفظيعة، ما عليه إلا أن يغوص في نصائح «التربية السوداء» ليتحقّق من واقعيتها. ثمة نظريات تحليلية متطورة جداً تقول إنه بوسعنا النظر بجدية إلى إدراك الطفل كما يصفه كريستوف ميكيل هنا بوصفه إسقاطاً «لغرائزه العدوانية أو المثلية» وتفسيراً للواقع المعروض علينا بصفته تعبيراً عن توهّم الطفل. فالفاعل، الذي جعلته هيمنة «التربية السوداء» غير متيقّن مما يشعر، يستسلم بسهولة لهيمنة الاضطراب الناجم عن مثل هذه النظريات بعد أن يصبح بالغاً، حتى لو كانت متناقضة بشكٍّ صارخ مع تجربته الشخصية.

ومن ثم قد يكون هذا النوع من المسرودات العجائبية، كما جاء على لسان كريستوف ميكيل، ممكناً، ومن باب أولى أن يكون كذلك على الرغم «من التربية الجيدة» التي تتوفر للمرء. ربما سبب ذلك يعود إلى انقطاع هذه التربية، من جانب الأب على الأقل، خلال سنوات الحرب والأسر. الأشخاص الذين طالما عوملوا على هذا النحو خلال فترة طفولتهم وشبابهم لم يحالفهم الحظ أبداً في كتابة أشياء حقيقية تتعلق بآبائهم، لأنهم تعلموا يومياً كيف يقاومون، في السنوات الحاسمة، تجربة الآلام التي تفضي إلى الحقيقة. فينتهي الأمر بهم إلى الشكّ في ما كانت عليه حقيقة طفولتهم، ويتبنّون نظريات تقول إن الطفل ليس ضحية إسقاطات البالغ، بل الفاعل الوحيد الذي يبثّ الإسقاطات.

غالباً ما تكون الضربات المفاجئة التي يوجّهها إنسانٌ غاضب تعبيراً عن يأس عميق؛ لكن وظيفة إيديولوجيا العقاب الجسدي والاعتقاد بأن هذا العقاب قد لا يكون ضاراً، تقوم على إخفاء نتائج الفعل وجعلها غير محسوسة؛ والطريقة التي تجعل الطفل أصمَّ إزاء الألم تمنعه طيلة حياته من بلوغ حقيقته الشخصية. المشاعر المعيشة وحدها أقوى من هذه العقبات، لكن لا يُسمح لها بالظهور.

الآلية الرئيسة التي تقوم عليها
«التربية السوداء»:
التفكيك والإسقاط

ألقى هملر في عام 1943 خطابه الشهير باسم «خطاب بوزنـان» تحـدّث فيـه باسـم الشـعب الألماني أمام الحزب النازي **S.S**. واعترف بإبادة اليهود. سأسـوق هنـا القسـم مـن ذلـك الخطـاب الذي ساعدني أخيراً، في عام 1979 على فهم الظاهرة التي طالما بحثت عن تفسيرٍ نـفسيّ لهـا منـذ ثلاثين عاماً:

«أود الحديث هنا بكل صراحة عن موضوعٍ مؤلم ينبغي أن نناقشه بيننـا بأمانـة؛ لكـن لا نتحدث عنه أمام الناس... أو عن إبعاد اليهود، أي عن إبادة الشعب اليهودي. وهذا جـزء من الأشياء التي نتناقش فيها بسهولة. «الشعب اليهودي سيُباد، كما يقـول أي عضـو مـن أعضاء الحزب، وهذا واضح ويتضمنه برنامجنا. تحييـد اليهـود، أو إبـادتهم، حسـناً، نحـن نسير في هذا الاتجاه». وهكذا يأتي كل واحد من بواسـلنا الثمانـين مليـون ألمـاني بيهـودي. نعم، طبعاً، الآخرون قذرون، لكن هذا اليهودي رائع. أيٌّ من هؤلاء الذين يتكلمـون عـلى هذا النحو لم يرَ، ولم يفهم شيئاً. أغلبكم يعرف ما الذي يعنيه، مئة، أو خمسـمئة أو ألـف جثة ممدّدة. من رأى هذا وبقي سويّاً، باسـتثناء بعـض النفـوس الضـعيفة، هـذا هـو مـا جعل روحنا فولاذية. وهو صفحة مجيدة في تاريخنا؛ صفحة لم تكتب أبـداً، ولا ينبغـي أن تُكتب. لقد اسـتولينا عـلى ثـروات اليهـود؛ لم نأخـذها لنسـتخدمها بشـكل شـخصي. مـن ارتكب أخطاء سيعاقب، طبقاً للأوامر التي أعطيتها منذ البداية: من يتملـك حتـى ماركـاً واحداً، سيُحكم عليه بالإعدام. بعض النازيين أذنبوا، مع إنهم قلة، لـذلك سـيُحكم علـيهم بالموت بلا شفقة. يحقّ لنا، من الناحية الأخلاقية، بل من حق شعبنا علينـا أن نبيـد هـذا الشعب الذي كان يسعى إلى إبادتنا. لكن لا يحقّ لنا الإثراء حتى بمعطـف مـن الفـرو، أو بسـاعة أو بمـارك، أو بسـيجارة أو بـأي شيء آخـر... لـن أسـمح أبـداً للفسـاد أن يسـتقرّ فينـا مهـما صـغر حجمـه. وسـنداويه بـالكيّ حيـثما ظهـر. لكـن، يمكـن القـول عمومـاً

إننا أنجزنا هذه المهمة الصعبة جداً بروح من الحب إزاء شعبنا. ولم نلحق الضرر بنفسنا، أو بشخصيتنا (**J.Fest**، **1963**، ص.160-161)

يتضمن هذا الخطاب جميع عناصر الآلية الديناميكية النفسية المركبة، التي يمكن تسميتها عموماً بتفكيك **dissociation** وإسقاط **projection** أقسام الأنا، الذي نجد انعكاسه في أغلب الأحيان في نصوص «التربية السوداء»؛ أي التربية على قسوة خرقاء تتطلب قمع الضعف الكامن في الأنا «بطريقةٍ لا رحمة فيها» (أي الانفعال، والبكاء، والشفقة، وفهم المرء لحساسيته وحساسية الآخرين، ومشاعر العجز، والألم، واليأس). لتسهيل هذا الصراع ضد كلّ ما هو إنساني في داخل الأنا يقدم لمواطن الرايخ الثالث موضوعاً يشكل سنداً لجميع ردود الفعل غير المرغوبة (لأنها ممنوعة في طفولة الفاعل وخطيرة): أي الشعب اليهودي. الآريّ «المزعوم» يمكن أن يحسّ بأنه نقيّ، وقويّ، وجيد، ويعرف نفسه، ولا غبار عليه من الناحية الأخلاقية، ومتحرّر من الغرائز «السيّئة» لأنها ناجمة عن ردود فعل ضعيفة منفلتة، تبدأ باللحظة التي يعزو فيها كل ما يخشاه في أعماق نفسه منذ طفولته إلى اليهود، وحيث يمكن ويجب خوض نضال جماعي لا هوادة فيه ودائم ضدّهم.

يبدو لي أن خطر مثل هذه الجرائم سيبقى موجوداً حولنا، ما دمنا لم نفهم أسبابه، ولم نحلّل آلياته النفسية. وكلّما تقدم العمل التحليلي في وصف ديناميكية الانحراف **perversion**، تصبح الأطروحة التي تم تبنّيها منذ نهاية الحرب والقائلة بأن المحرقة (الإبادة الجماعية) كانت عملاً قامت به بعض الشخصيات المنحرفة، موضعَ شكّ. فالعناصر التي تتميز بها اضطرابات الانحراف، كالعزل، والوحدة، والخجل واليأس، كانت موجودة تماماً عند القائمين على الإبادة: فهم لم يتصرفوا من تلقاء أنفسهم بل بمساندة جماعة، ولم يكونوا يشعرون بالخجل، بل يفاخرون بأفعالهم، ولم يكونوا يائسين، بل سعيدين أو متشبّثين بما يفعلون.

التفسير الآخر الذي يقول إنهم كانوا رجالاً يؤمنون بالسلطة، ومعتادون على الطاعة، ليس خاطئاً، لكنه غير كافٍ لتفسير ظاهرة كالمحرقة، إذا كانت الطاعة تعني تنفيذ أوامر يرونها إكراهاً مفروضاً من الخارج.

لا يمكن لأشخاص مرهفين أن يتحوّلوا بين عشية وضحاها إلى ماحقين. لكن حينما طُبّق «الحلّ النهائي»، لم يتأثر الرجال والنساء بمشاعرهم، لأنهم نشؤوا منذ المهد على عدم الشعور

بانفعالاتهم، بل على تحقيق رغبات أهلهم بوصفها رغباتهم. وكاوا يفخرون بقسوتهم حينما كانوا أطفالاً، ولا يبكون، وينجزون مهامهم «بفرح»، ولا يخافون، أي أنهم في حقيقة الأمر بلا حياة داخلية.

يصف بيتر هاندكه **P.Handke**[1] في كتابه «التعاسة اللامبالية» أمّه التي انتحرت في الحادية والخمسين من عمرها. شفقة المؤلف على أمّه وتفهّمه لها يجعلان من الكتاب خيطاً هادياً يتيح للقارئ فهم سبب بحث هذا الابن الدائم عن ساعة الإحساس الحقيقي (وهو عنوان كتاب آخر)، في جميع أعماله. في مكانٍ ما، في مقبرة طفولته، دفن جذور مشاعره، ليحافظ على هذه الأم الهشّة في أوقات خطيرة. يصف هاندكه جوّ القرية التي شبَّ فيها على النحو الآتي:

> لا شيء يرويه المرء عن نفسه؛ حتى في الكنيسة، في اعتراف عيد الفصح، إذا كان لدى أحدنا شيء يقوله عن نفسه، فهو ليس سوى شعارات دينية نتمتم بها، وحيث يبدو الأنا غريباً فعلاً غرابة قطعة من القمر. حينما يتحدث أحدهم عن نفسه، ولا يكتفي بالحديث مازحاً عن بعض الأمور، يوصف بـ «المبدع». المصير الشخصي، هذا إذا افترضنا أنه يتوفر على شيء «مبدع»، منزوع الشخصية حتى في بقايا الأحلام، إذ تستهلكه طقوس الدين، والعادات، والأخلاق الحميدة، بحيث لا يبقى في الأفراد أيُّ شيء تقريباً من الإنسان؛ وتجدر الإشارة إلى أن كلمة «فرد» لم تكن معروفة إلا بوصفها «شتيمة».
>
> العيش بشكل عفوي.. كان يعني الاندفاع وراء نوع من التهتّك.. ولأن الفرد محرومٌ من تاريخه الشخصي ومن مشاعره، يصبح شيئاً فشيئاً «جامحاً»، وهي عبارة تستخدم للحيوانات المنزلية، كالخيول مثلاً: كان المرء يصبح متوحشاً، ولا يعود يتحدث عن أي شيء، أو يفقد صوابه، ويروح يصرخ في كل مكان (**P. Handke**، ص.62-64).

نجد هذا الشكل من عدم الإحساس الذي يشترك فيه كثيرٌ من المؤلفين حتى عام 1975 تقريباً في التيار الهندسي للرسم التجريدي، وهو ما يتبدّى في لغة كارين ستروك **K. Struck** الخاصة على النحو الآتي:

1- كاتب ومسرحي نمساوي (1942-).

دييتغر لا يقوى على البكاء. يبدو أن موت جدّته هزّ كيانه كثيراً، لأنه كان يحبها كثيراً. لدى عودته من الدفن، قال في نفسه ما إذا كان عليه أن يسحق بعض الدموع. قال يسحق... قال دييغتر: أنا لا أحلم أبداً، وأنام بشكل جيد. يرفض دييغتر ردود فعله ومشاعره اللاواعية، كما يرفض أحلامه. (**K.Struck، 1973**، ص. 279).

دييغتر طفل ولد بعد الحرب. لكن بمَ كان يشعر به والداه؟ ليس لدينا سوى القليل من الشهادات لأن هذا الجيل بقي أقلّ تعبيراً عن مشاعره الحقيقية من جيل اليوم.

في كتابه **Suchbild** يسوق ميكيل ملاحظات تتعلق بوالده الذي كان كاتباً ليبرالياً خلال الحرب العالمية الثانية:

في المقصورة امرأة... تتكلم...، عن... مناهج يستخدمها الألمان في الإدارة. فساد، أسعار ممنوعة، وهكذا دواليك، مثل الحديث عن معسكر الاعتقال أوسفيتش، الخ. - الجندي بعيد جداً عن هذه الأمور، والحقّ يقال إننا لم نكن نهتم بها أبداً؛ إننا جزء من ألمانيا مختلفة تماماً، ولاحقاً في هذه الحرب، لم يكن بودّنا الإثراء، بل أن يكون ضميرنا مرتاحاً. ليس عندي سوى الاحتقار لهؤلاء المدنيين الشبيهين بالحشرات الطفيلية. ربما نكون حمقى، لكن الجنود هم دائماً الحمقى الذي يجعلونهم يدفعون ثمن هذا كله. ما يعوضنا عن هذا هو تمتّعنا بشرفٍ لا يمكن لأحد أن ينتزعه منا. (24.1.1944).

أثناء جولة لكي نذهب ونتناول طعام الإفطار، شهدنا إعدام ثمانية وعشرين بولونياً على رؤوس الأشهاد، أمام سياج أرض بوار. كان هناك الآلاف منهم على أطراف الطرقات، منثورين فوق ضفتي النهر. كومة من الجثث، بكل ما ينطوي عليه هذا المنظر من رعب، ومع ذلك فقد بقيت أعصابي في منتهى البرود.

أولئك الذين رأيتهم كانوا قد هاجموا وقتلوا جنديين ومدنياً ألمانياً من رعايا الرايخ. مثال على مشهد شعبي في العصر الجديد (27.1.1944)

إذا خُنق الإحساس لدى الفرد الخاضع فإنه يعمل بشكل مثالي وبطريقة موثوقة، حتى حينما لا يخشى أيّ رقابة خارجية:

أستدعي عقيداً كان لديه شيئاً يريد قوله لي؛ خرج من السيارة واقترب. اشتكى، ومعه ملازم كان يبرطم بأنهم تُركوا خمسة أيام من دون خبز، وقال إنه أمر ليس جيداً.

فأجبت لأنه ليس جيداً أيضاً أن يكون المرء جندياً تحت إمرة بادوغليو، وكان كلامي موجزاً جداً. شغّلتُ السيارة مع مجموعة أخرى من الضباط الفاشيين المزعومين بعد أن قدّموا لي الأوراق الممكنة والتي يمكن تخيلها، وتصرفت بتهذيب. (27.10.1943؛ **Christoph Mekel**، ص.62-63).

هذا التكيّف التام مع معايير المجتمع، أي مع ما يسمّى «الحالة الطبيعية السليمة»، يتضمّن حتماً خطر أن يُستخدم الفاعل المعني لغايات متعددة. وما ينتج هنا ليس فقدان الاستقلالية، لأنها غير موجودة أصلاً، بل قلبٌ للقيم التي لا تضيف في حد ذاتها أية أهمية للفرد المعني ما دام مبدأ الطاعة بقي مهيمناً على منظومته القيمية. فقد بقينا عند إضفاء المثالية على الوالدين ومتطلباتهما، والذي يمكن تطبيقه على الفوهرر [الزعيم] أو الإيديولوجيا المرتبطة به. وبما أن الوالدين محقّان دائماً في ما يطلبان، فلا ضرورة في أن نُتعب أنفسنا دائماً لمعرفة ما إذا كان طلبهما الدقيق صحيحاً أم لا. ثم كيف لنا أن نحكم، وأين نجد المعايير حينما نستسلم دائماً لمقولة الخير أو الشر، ما دمنا لم نحظَ أبداً بفرصة اختبار مشاعرنا، إضافة إلى أن جميع رغباتنا النقدية التي لا يحتملها الأهل تمثّل خطراً قاتلاً؟ إذا لم يتمكن البالغ من بناء ما يخصّه، فسيجد نفسه في كل الأحوال، بين أيدي السلطات، تماماً كما يجد الرضيع نفسه بين أيدي والديه؛ لأن قول «لا» لمن بين أيديهم السلطة يبدو له دائماً خطيراً للغاية.

الشهود على الانقلابات السياسية المفاجئة يتحدثون دائماً عن السهولة المدهشة التي ينجح من خلالها كثيرٌ من الناس في التكيّف مع الحالة الجديدة. فيستطيعون بين عشية وضحاها تبنّي معتقدات متعارضة جذرياً مع العقيدة التي كانوا يؤمنون بها في العشية - من دون أن يرفّ لهم جفن، لأنهم يرون أن تغيّر السلطة يمحو واقع الأمس.

لكن، حتى لو كانت هذه الملاحظة مهمّة للكثيرين، أو لغالبيتهم، إلا انها ليست كذلك بالنسبة للجميع. فلطالما وجد أفراد معزولون لا يتغيّرون بمثل هذه السرعة، أو لا يتغيّرون أبداً. قد تسعفنا معارفنا التحليلية النفسية في محاولة التعرف على هذا الفرق الجوهري والحاسم، أي السبب الذي يجعل بعض الأفراد قابلين للقيام بدور «القائد» أو «التابع»، بينما نرى غيرهم محصّنين تماماً ضد هذا الأمر.

إننا نبدي إعجابنا بمن يقاومون في الدول الشمولية، ونقول لأنفسنا: إنهم شجعان، أو يملكون «أخلاقاً متينة»، «لقد استمرّوا على وفائهم لمبادئهم»، أو أيّ شيء من هذا القبيل. كما

يمكن أن نسخر من سذاجتهم بقولنا: «ألا يدركون أن كلامهم لا يجدي نفعاً أمام هذه السلطة الساحقة؟ وأنهم سيدفعون غالياً ثمن تمردهم؟!».

لكن من المؤكد أن الموقفين، أيْ موقف المُعجب وموقف المُزدري، يجانبان الحقيقة: فالفرد الذي يرفض التكيّف مع النظام الشمولي، لا يفعل هذا بدافع الواجب، ولا بسبب سذاجته، بل لأنه لا يستطيع إلا أن يكون صادقاً مع نفسه. كلما ازداد عكوفي على هذه المسائل يزداد ميلي إلى التفكير بأن الشجاعة، والصدق والقدرة على محبّة الآخرين يجب ألا تُعدّ بمثابتها «فضائل»، ولا حتى مقولات أخلاقية، بل نتائج قدرٍ رحيم إلى حد ما.

الأخلاق والإحساس بالواجب بديلان **prothèses** يجب اللجوء إليهما حينما نفقد عنصراً أساسياً. وكلما تعمَّق قمع المشاعر خلال فترة الطفولة، ازدادت أهمية ترسانة الأسلحة الفكرية واحتياطي البدائل الأخلاقية، لأن الأخلاق والإحساس بالواجب ليسا مصدرين للطاقة، ولا أرضية مناسبة للمشاعر البشرية الحقيقية. البدائل ليست عناصر حيّة، نشتريها ويمكن أن يستخدمها أشخاص مختلفون. ما كان يستخدم للخير بالأمس يمكن أن يستخدم اليوم للشرّ والفساد، والعكس صحيح، وذلك تبعاً لقرارات الحكومة والحزب. بينما الفرد الذي يتوفر على مشاعر حيّة لا يمكن إلا أن يكون هو نفسه. ليس أمامه حلٌّ آخر إذا لم يُرد أن يخسر نفسه. لا يهتمّ بالرفض، والنبذ، وفقدان الحب والإهانات، ومن ثم فهو يخشاها، لكنه لا يريد أن يخسر ذاته، بعد تكوّنها. وحينما يشعر أنه يُطلب منه شيء ما، تقول كينونته كلّها له: «لا» فإنه لا يفعله. كل ما في الأمر أنه لا يستطيع فعله.

الأمر نفسه بالنسبة للأشخاص الذين حالفهم الحظ بحبّ أهلهم، حتى لو قالوا «لا» لمطالبهم. أو أشخاص لم يحظوا بمثل هذه الفرصة، لكنهم تعلّموا لاحقاً، في إطار التحليل مثلاً، المخاطرة بفقدان الحب في مقابل العثور على ذواتهم الضائعة، وهو ما لن يتنازلوا عنه مرة أخرى مهما بلغ الثمن.

يظهر طابعٌ بديل للقوانين الأخلاقية وقواعد السلوك في العلاقة بين الأم والطفل بشكل أفضل من أيّ مكان آخر، حيث لا تأثير للأكاذيب والمداهنات. وبطبيعة الحال لا يُعدُّ الإحساس بالواجب أرضيةً مناسبة لتطور الحب، بل لتطور المشاعر المشتركة بالذنب. من خلال مشاعر الذنب والامتنان الذي يعطّلها يرتبط الطفل بأمه طيلة الحياة. يقول الكاتب

روبيرت فالسر **R.Walser**: «هناك أمهات يخترن أحد أطفالهن ليكون محظيّاً، فيصلّبنَ عوده بالقبلات إذا احتاج الأمر، وبذلك يعملن على دفن... وجوده». فإذا عرف، وهو واعٍ على الصعيد العاطفي، بأنه يرسم بهذا مصيره، فلا شكّ أنه لن يكون عليه قضاء بقية حياته في مصحّ للأمراض النفسية.

قد لا يكون العمل التحليلي والفهم على الصعيد الفكري المحض الذي يبدأ في سن الرشد كافياً لإزالة ما تربّى الطفل عليه مبكراً جداً. فالطفل الذي تعلم منذ طفولته الأولى تطبيق القوانين غير المكتوبة، والتخلّي عن مشاعره بوصفها ضرورة حيوية، يكون خضوعه للقوانين المكتوبة سريعاً، ولن يجد في نفسه ما يحميها نفسه منها. لكن بوصفه كائناً بشرياً لا يمكنه العيش من دون مشاعر تماماً، فينضمّ إلى مجموعات يتم فيها قبول المشاعر التي كانت ممنوعة عليه حتى ذلك الوقت، أي أنها تتشجّع، ومن ثم يمكن أن تُعاش في كنف الجماعة.

ما من إيديولوجيا إلا وتقدّم إمكانية التفريغ الجماعي للغرائز المتراكمة المرتبطة بالتعلق بأشياء أولية مؤمثَلَة **idéalisés** وينتقل إلى شخصيات قيادية جديدة أو إلى مجموعة بأكملها، كبديل عن التعايش الجيد مع الأم التي يتحسّر عليها الفاعل. وأمثلة الجماعة المستمّرة بطريقة نرجسية تضمن الطابع الجماعي الكبير. بما أن الإيديولوجيا تشكّل في الوقت نفسه ضحية كل ما يوجد خارج الجماعة الكبيرة، فإن الطفل المُحتقر دائماً والضعيف، والذي هو جزء من الأنا، لكن من دون أن يحقّ له الإقامة فيها أبداً، يمكن أن يتعرض فيها للاحتقار ويشتبك معها مرة أخرى. يبيّن خطاب هيملر حول «بكتريا الضعف»، التي ينبغي إزالتها وحرقها، بشكل واضح جداً، الدور الذي آل إلى اليهود في عملية ازدواجية العظمة **grandiose** هذه.

وبالطريقة نفسها التي يمكن للمعرفة التحليلية النفسية لآليات الانشطار والاسقاط مساعدتنا في فهم ظاهرة المحرقة، فإن تاريخ الرايخ الثالث يظهر لنا نتائج «التربية السوداء» بوضوح أكثر: فعلى خلفية القمع المتراكم للطابع الطفولي في تربيتنا يسهل علينا فهم، أو تقريباً، فهم أن بعض الرجال والنساء قد تمكّنوا بسهولةٍ ظاهرة من اقتياد مليون طفل إلى غرفة الغاز وهم يحملون هذه الأجزاء من نفسيّتهم التي يخشونها كثيراً. بل يمكننا تصور أنهم كانوا يصيحون بهم، ويضربونهم أو يصورونهم، وأنهم وجدوا بهذا متنفساً لكراهيتهم للطفولة المبكرة. كانت تربيتهم، منذ البداية تهدف إلى اجتثاث كل ما يتعلق بالطفولة، واللعب، وما

هو حيّ في الإنسان. كان لا بدّ لهم من إعادة إنتاج الفظاعة المرتكبة بحقهم تماماً وبالطريقة نفسها، أي قتل النفس كما مورس عليهم يوم كانوا أطفالاً: لدى هؤلاء الأطفال اليهود الذين كانوا يرسلونهم إلى غرف الغاز، لم يكونوا يفعلون سوى الاستمرار في إعادة إنتاج قتل وجودهم كأطفال.

تتحدث جيزيلا زينس **Gisela Zens** في كتابها المعاملات السيئة وحقوق الطفل **Kindesmisshandlung Kindesrechte** عن العلاجات النفسية التي أنجزها كل من ستيل **Seele** وبولوك **Pollock** للأهالي الذين كانوا يسيئون معاملة الأطفال في مدينة دنفر **Denver**. أي معالجة الأطفال في الوقت نفسه الذي عولج فيه الأهالي. ويمكن لوصف هؤلاء الأطفال أن يساعدنا على فهم أصول سلوك الماحقين **exterminateurs** الذين كانوا حتماً أطفالاً.

هؤلاء الأطفال لم يكونوا عملياً قادرين أبداً على إقامة علاقات خارجة عن إرادتهم **objectales** تناسب أعمارهم. العلاقات المفتوحة والعفوية مع المعالجين النفسيين كانت نادرة مثلها مثل التعبير المباشر عن الحنان أو الغضب. لم يكن سوى عدد قليل من الأطفال يبدون اهتماماً مباشراً بشخص المُعالج النفسي. بعد ستة أشهر من العلاج بمعدّل جلستين أسبوعياً، كان يتضح أن الطفل غير قادر على تذكّر اسم المعالجة النفسية. ومع أن اهتمام الأطفال كان يزداد بالمعالجة تدريجياً، ويزداد تعلّقهم بها، فإن العلاقة كانت تتوقف فجأة مع نهاية كل جلسة، وكان الأطفال يتركون المُعالجة كما لو أنها لم تكن تمثّل أيّ شيء بنظرهم. فظنّ المعالجون أن السبب يعود جزئياً إلى ضرورة إعادة التكيّف مع الوسط العائلي الذي كان لا بد من العودة إليه، وفي جزء آخر عن نقص في استمرار العلاقة الموضوعية التي كان يبدأ استشعارها خلال انقطاع العلاج الذي اعتاد العطل أو المرض. وكان جميع الأطفال تقريباً ينكرون أهمية فقدان الموضوع الذي كانوا يملكونه، وعاشه أغلبهم عدة مرات. ولم يتمكن بعض الأطفال إلا ببطء شديد من الاعتراف بأن ابتعاد المُعالجة خلال العطل يمثّل شيئاً بنظرهم، أي كان يبعث الحزن والضجر في نفوسهم.

يرى هذان المؤلفان أن الظاهرة الأكثر وضوحاً تكمن في عجز هؤلاء الأطفال عن الترويح عن أنفسهم والتسلية. فمنهم من قضوا عدة أشهر لم يضحكوا خلالها مرة واحدة،

وينظرون إلى القاعة التي تجري فيها الجلسات كأنهم «بالغون صغار بائسون» يبدو عليهم الكثير من الحزن والإحباط. حينما كانوا يشاركون في ألعاب معينة، ينتابك الانطباع أنهم لا يفعلون هذا إلا لبعث السرور في نفس الطبيبة المعالجة وليس من أجل تسلية أنفسهم. كان يبدو على كثير من الأطفال عدم معرفة الدمى أو اللعب على الأقل مع البالغين. كانوا جميعاً مندهشين من رؤية المعالجة وهي تستمتع باللعب، بل باللعب مع أطفال. واستطاعوا من خلال التماهي معها الشعور بمتعة اللعب من دون مساعدة أحد.

كان غالبية هؤلاء الأطفال ينظرون إلى أنفسهم بشكل سلبي، ويصفون أنفسهم بأنهم أطفال «أغبياء»، «لا أحد يحبّهم»، و«لا يحسنون القيام بأيّ شيء»، وأنهم «بغيضون». لم يكونوا قادرين على الاعتراف لأنفسهم بالاعتزاز بشيء يحسنون صنعه؛ ويتردّدون في الشروع بأيّ عمل جديد، وخائفون دائماً من القيام بأي شيء سيئ، وينتابهم الخجل بسرعة. وكان يبدو على بعضهم عدم الوعي بأنفسهم. يمكن أن نرى في هذا انعكاساً لتصور الأهل الذين لا ينظرون أبداً إلى الطفل بوصفه شخصاً مستقلاً، اللهم إلا إذا أرضى حاجاتهم. ويبدو أيضاً أن تغيّر المأوى يلعب دوراً هاماً. ويمكن هنا ضرب مثل فتاة صغيرة في السادسة من عمرها، تبنّتها عشرُ عائلات بالتتابع، لم تفهم سبب احتفاظها بالاسم نفسه على الرغم من اختلاف البيت الذي تقيم فيه. رسوم الشخصيات كانت بدائية تماماً، وكان بعض الأطفال عاجزين تماماً عن رسم أنفسهم، بينما كانت قدرتهم تتناسب تماماً مع أعمارهم حينما يتعلق الأمر برسم الأشياء الثابتة.

الوعي، أو لنقل بشكل أفضل، منظومة القيم لدى الأطفال كانت بالغة الصرامة والبدائية. فقد كانوا يبدون شديدي الانتقاد لأنفسهم، والآخرين، ويتمردون أو ينتابهم غضبٌ شديد حينما يخالف أطفال آخرون قواعدهم المطلقة المتعلقة بالخير والشر.[...]

كانوا عاجزين تماماً عن التعبير عن الغضب من الآخرين أو العدوانية إزاءهم. في المقابل، اتسمت الألعاب والقصص التي كانوا يروونها بالعدوانية والفظاظة، فتتعرّض الدمى والشخصيات المُتخيَّلَة للضرب الدائم، والتعذيب والقتل. وكان بعض الأطفال يعيدون، في ألعابهم، تصوير المعاملات السيئة التي سبق أن وقعت عليهم.

فالطفل الذي شُجَّ رأسه خلال طفولته الأولى مرّتين أو ثلاث مرّات، كان يمثّل دائماً قصصاً تتحدث عن بشر أو حيوانات أصيبت بجروح في رأسها. وطفل ثالث حاولت أمه إغراقه حينما كان صغيراً، بدأ جلسته العلاجية الأولى باللعب بإغراق طفل صغير في مغطس الحمام، ثم يجعل الشرطة تقتاد أمه إلى السجن. بمقدار ما كانت هذه الأحداث الماضية تلعب دوراً قصيراً في الآلام التي يعبّر عنها الأطفال بشكل واضح، بمقدار ما ينشغل بها لا وعيهم. لأنهم لم يكونوا عملياً قادرين أبداً على التعبير عن هذا الانشغال كلامياً؛ كما لاحظنا كراهية شديدة وحاجة إلى الانتقام متجذّرتين في أعماقهم، لكنهما كانتا مرتبطتين بخوف كبير مما يمكن أن يحصل في حال ظهور هذه الغرائز **pulsions**. ومع تطور علاقات التحويل **transfert** في إطار العلاج، كانت مشاعر من النوع نفسه تتّجه أيضاً ضد المُعالجة، لكنها تتخذ دائماً تقريباً شكلاً سلبياً - عدوانياً غير مباشر: فتصبح الحوادث التي كانت تصاب المعالجة خلالها بطلقة تصبح متواترة تدريجياً، أو يقوم الطفل بإفساد أغراضه «من دون أن يريد ذلك».[...]

على الرغم من قلة احتكاك المعالجين بالأهل، إلا أن انطباعهم كان واضحاً جداً بأن العلاقات بين الأطفال والأهل تتميز في جزء كبير منها بالانحراف واتخاذ الطابع الجنسي **sexualisation**. وفي هذا الصدد يمكن ضرب مثال الأم التي تنام في سرير ابنها البالغ سبعة أعوام، حينما كانت تشعر بالوحدة أو التعاسة، وكثير من الأهل كانوا يعبّرون لأطفالهم، في عزّ المرحلة الأوديبية، عن حاجات شديدة ومتنافسة في أغلب الأحيان إلى الحنان. أمٌّ أخرى تقول عن ابنتها البالغة الرابعة من عمرها، إنها «جذّابة جنسياً **sexy**» ومغناجاً، وتتوقع لها خوض مغامرات أكيدة فاشلة مع الرجال. يمكن القول إن هؤلاء الأطفال كانوا موجودين، بشكل عام، لإرضاء حاجات أهلهم، ولم يكونوا بريئين من إرضاء حاجاتهم الجنسية التي تنعكس في أغلب الأحيان على الأطفال بشكل متطلبات مُقنَّعة ولا واعية. (**G.Zens**، **1979**، ص.279 وما بعدها).

يمكننا اعتبار أن «سمة العبقرية» لدى هتلر قد انطوت على تقديم اليهود بوصفهم موضوعات لإسقاطاتهم إلى الألمان الذين نشؤوا في وقت مبكر جداً على القسوة، والطاعة، وكبت المشاعر. وهي آلية ليست جديدة. فقد لاحظناها في غالبية حروب الفتوحات عند الصليبيين، ومحاكم التفتيش، بل في التاريخ الأقرب إلينا. لكننا لم نكلّف أنفسنا أبداً، حتى

الآن عناء رؤية أن ما نطلق عليه اسم تربية الطفل يقوم في جزء كبير منه على هذه الآلية وبالعكس. إن استثمار هذه الآلية لغايات سياسية ما كان يمكن أن يكون ممكناً لولا هذه الطريقة في التربية. السمة المميزة لهذا الاضطهاد تعود إلى النرجسية. فنحن نصارع جزءاً من الأنا، ولا نصارع عدواً خطيراً فعلاً، كما نكون في حال مواجهة حقيقية مع خطر الموت. ومن ثم، لا بدّ من التمييز جيداً بين هذا النوع من الاضطهاد ومهاجمة شخصٍ أجنبي، خارجي عنا بالمعنى الموضوعي للكلمة.

تُستخدم التربية في كثير من الحالات لمنع استيقاظ الحياة التي قتلناها في أنفسنا لدى طفلنا. وقد بيّن مورتون شاتزمان **M.Schatzmann** في كتابه الخوف من الأب **Die Angst vor dem Vater**، بوضوح، أن المنظومة التربوية التي وضعها العالم التربوي دانييل غوتلوب **D.Gottlob Mortitz Schreber** الذي كان مشهوراً في زمنه، كانت ترتبط بالحاجة إلى مقاومة بعض مظاهر أناه. مثله مثل كثير من الأهل، فإن شريبر كان يتابع لدى أطفاله ما يشعر هو نفسه بالخوف منه.

> تتفتح بذور سموّ الطبيعة البشرية تقريباً من تلقاء نفسها وبكل ما فيها من نقاء إذا أبعدنا عنها العشب الضارّ وأزلناه في الوقت المناسب، أي النجيل. يجب أن نقوم بهذا من دون كلل، وبكل ضراوة. ومن الخطأ الضارّ والشائع جداً الاستسلام للأمل بزوال عادات الأطفال السيئة، وعيوب شخصيتهم من تلقاء نفسها مع تقدّمهم في العمر. لا شك أن رؤوس وزوايا هذا العيب أو ذاك ستستدير تبعاً للظروف، لكن إذا تركنا الشرّ يفعل فعله، سيبقى متجذراً بشكل عميق، ويستمر إلى حد ما في إنتاج الغرائز المسمومة، ويعيق ازدهار شجرة الحياة النبيلة. وما كان يعود في نشأته لدى الطفل إلى أساليب سيئة يصبح لدى البالغ عيباً حقيقياً في شخصيته، ويفتح باب الرذيلة والضلال... اقمع كلّ شيء لدى الطفل، وأبعده عن كل ما لا ينبغي أن يكون ملكاً له؛ بل خذ بيده نحو ما ينبغي أن يعتاد عليه (عن شاتزمان، 1978، ص. 24 وما بعدها.).

الحنين إلى «السموّ الحقيقي للنفس» يسوّغ الفظاظة إزاء الطفل وعيوبه، والويل له إن اكتشف النفاق.

المبدأ التربوي القائل بوجوب «توجيه» الطفل منذ البداية في اتجاه معين يعود إلى حاجته إلى فصل العناصر المثيرة للقلق في ذاته عن لا وعيه **intériorité** وإسقاطها على شيء في متناول اليد، لأن شخصية الطفل اللينة والمرنة، والعاجزة عن الدفاع، والمتوفرة تجعل منه موضوعاً مثالياً لهذا النوع من الإسقاط. وأخيراً، يمكن قهر العدو الداخلي في الخارج.

ازداد المتخصصون في البحث المتعلق بالسلام وعياً بهذه الآليات، لكن ما دمنا لا نرى مصدرها في تربية الأطفال، أو نخفيها، فلا يمكن فعل الشيء الكثير لمعالجتها. لأن أطفالاً نشؤوا وهم يحملون عناصر من شخصيات أهلهم، وكان عليهم مقاومتها، لا يمكن أن يأملوا في تحويل (نقل) هذه العناصر إلى آخر لكي يشعروا من جديد بأنهم طيّبون، و«أخلاقيون»، ونبلاء وقريبون من الآخرين. بينما يمكن تطبيق هذا النوع من الإسقاط بكلّ سهولة على أيّ إيديولوجيا.

هل توجد «تربية بيضاء»؟

العنف الناعم

لا ترتبط وسائل قمع ما هو حيّ عند الطفل دائماً بمعاملات سيئة ملموسة خارجياً. إذ يمكن ملاحظة هذا في مثال عائلةٍ تابعتُ تاريخها لعدّة أجيال.

عند نهاية القرن التاسع عشر توجّه مبشّر شابّ مع زوجته إلى إفريقيا لكي يحوّل أتباع عقائد أخرى إلى المسيحية. وهو ما جعله ينجح في التخلّص من شكوكه حول معتقده الذي طالما عذّبه طيلة فترة شبابه. في نهاية المطاف، أصبح هو نفسه مسيحياً حقيقياً يستخدم جميع قواه من أجل أن يجمع حول معتقده أناساً آخرين، كما فعل والده قبله في الماضي. رزق الزوجان بعشرة أطفال، أرسل ثمانيةً منهم إلى أوروبا عند بلوغهم سن الدخول إلى المدرسة. كان أحدهم والد السيد **A** ولم يكفّ عن الحديث أمام ابنه الوحيد، عن حظّه في أنه نشأ في البيت. وهو نفسه، لم يتمكن من رؤية والديه مرّةً ثانية إلا بعد بلوغه الثلاثين من العمر. انتظر هذين الوالدين اللذين لا يعرفهما بقلقٍ بالغ في محطة القطار، وبطبيعة الحال لم يتمكن من التعرف عليهما. كان يكرّر دائماً حديثه عن هذا المشهد ببسمة تخلو الحزن. السيد **A** وصف والده بالرجل اللطيف، والحنون والتقيّ، والمتفهّم. وهي صفات كانت موضع إعجاب جميع الأهل والأصدقاء؛ ولهذا لم يفهموا في البداية سبب معاناة الابن من وسواسٍ عصابيّ خطير على الرغم من وجود أبٍ طيّب كهذا.

كان السيد **A** يناضل منذ طفولته ضدّ أفكار وسْواسيّة مُغرّبة [تدفع إلى الشعور بالاغتراب] **aliénantes** وذات طابع عدواني، لكنه لم يكن عملياً قادراً على عيش مشاعر الإثارة، أو الانزعاج، من دون الحديث عن الغضب أو السخط بوصفها ردود فعل تتناسب مع رفض معيّن. كما كان يعاني منذ طفولته من أنه لم «يرِث الشفقة التي تبعث السكينة في النفس، والطبيعية، والهادئة» التي كان يتمتع بها والده، ويبذل جهده لبلوغها عبر قراءة النصوص الدينية، لكن كانت تحول بينه وبينها أفكار «سيئة»، لأنها انتقادية تثير في نفسه رعباً مفاجئاً. استغرق السيد **A** وقتاً طويلاً لكي ينجح في إطار تحليله، للمرة الأولى في صياغة انتقاد من دون الشعور بالحاجة إلى إخفاء تلك الشفقة تحت ستار استيهام (توهم) **phantasme** مثير

للقلق لكي ينكرها لاحقاً. وقد ساعده في هـذا انتسـاب ابنـه في تلـك الفـترة تحديـداً إلى حركـات الطلاب الماركسيين. عندئذٍ لم يجد السيد **A** أيّ صعوبة في أن يكتشف لدى ابنـه تناقضـات هـذه الإيديولوجيا، وحدودها وتعصّبها، وهو ما أتاح له لاحقاً فرصة توجيه نظـرة نقديـة إزاء التحليـل النفسي بوصفه «ديانة» يؤمن بها القـائم عـلى تحليلـه. خـلال مراحـل التحويـل المختلفـة، صـار الطابع الدرامي لعلاقته بالأب يـزداد وضـوحاً في تجربتـه المعيشـة. تضـاعفت الخيبـات بالنسـبة لإيديولوجيات بعض الشخصيات، وهي إيديولوجيات راحـت وظيفتهـا الدفاعيـة تتكشـف شـيئاً فشيئاً. وانفجرت غرائز تمرّد عنيفة ضدّ جميـع أنـواع التـدليس الممكنـة. مـا إن اسـتيقظ غضـب الطفل المخدوع، حتى أصبح في نهاية المطاف يشكّ في جميع الأديان، والإيديولوجيات السياسـية. صحيح أن وساوسه تقلّصت، لكنها لم تختفِ تماماً إلا بعد إدراكه بأن هذه المشاعر مرتبطة بالأب الذي عرفه خلال طفولته، وتوفّي منذ فترة طويلة، بعد أن استبطنه.

عندئذٍ عاش السيد **A** في تحليله الغضب غير المعقول، العاجز عن تحديد حياته، والناجم عن موقف والده. ولأن هذا لطيف، وطيّـب وشـكور، لا ينبغـي طلـب أيّ شيء، وذرف الـدموع، بـل النظر دائماً إلى «الجانب الإيجابي» للأشياء، وعدم توجيه أيّ نقد، وعدم الامتعاض أبـداً، والتفكـير دائماً بمن لا تزال حياتهم «تسير بشكل أسوأ». إن مشاعر التمرد التي بقيت غير معروفة بالنسـبة للسيد **A** حتى ذلك الحين كشفت له فضاء طفولته الكامن، فاسـتبعد كـلّ مـا لا ينـدرج في هـذا العالم «البهيج» والورع. وكانت تلك هي المرّة الوحيدة التي عاش خلالهـا هـذا التمـرّد في داخلـه (الذي فصله أولاً عن أناه وأسقطه على ابنه، لكي يقضي عليه فيه) وتحدّث عنه، واكتشـف جانبـاً آخر من شخصية والده. وجاء اكتشافه هذا له في خضمّ غضبه وحزنه؛ ما مـن أحـد كـان بوسـعه أن يكشفه له، لأن هذا الجانب الهشّ من الأب لم يكن موجوداً إلا في نفسـية ابنـه، وفي وسواسـه العصابي، فهَيمن عليه وشلَّ حركته طيلة اثنين وأربعين عاماً. وكان الابن يسـاهم في الحفـاظ عـلى شفقة والده.

ما إن استعاد **A** حساسية طفولته، حتى استطاع أيضاً اختبار ما كان يشعر بـه الطفـل الـذي كانه أبوه، فسأل نفسه: كيف تمكّن والدي من تجاوز انفصال والديـه عنـه وهـو في الثامنـة مـن العمر وإرساله بعيداً عنهما، ومن دون أن يسـعى الأب لرؤيـة أولاده أبـداً، بهـدف الـوعظ حـول حبّ القريب في إفريقيا؟ أما كان يمكن له أن يشكّ بهذا الحب، وبمعنى مثل هذا النشـاط الـذي يتطلـب في الوقـت نفسـه القسـوة إزاء الأبنـاء. لكـن، لـيس مـن حقّـه التشـكيك وإلا لمـا قبلـت

العمّة التقيّة والقاسية التي عُهد به إليها الاحتفاظ بـه قربهـا. ومـا الـذي يمكـن أن يفعلـه طفـلٌ صغير وحيد، في السادسة من عمره، يعـيش والـداه عـلى بعـد آلاف الكيلـومترات منـه؟ عليـه أن يؤمن بهذا الإله الذي يطلب تضحيات غير مفهومة كهذه (التي من خلالها يـبرهن الوالـدان عـن كونهما خادمين وفيّين لقضية خـيّرة)، عليـه أن يصـبح ورعـاً، ومرتـاح البـال، لـكي يكـون محبوبـاً، وليتمكّن من الاستمرار في الحياة، يجب أن يبدو راضياً، وممتنّاً، الخ، ويتمتع بالسماحة، وضحوكاً، حتى لا يُتعب الآخرين أو يزعجهم.

حينما يصبح من نشأ على هذا النحـو أبـاً، يصـطدم بظـواهر مـن شـأنها أن تهـزّ أركـان هـذا الصرح الذي بُني بعناء كبير: فأمام عينيه طفلٌ حيّ، ويـرى كيـف يتكـون الكـائن فعليـاً، وكيـف يمكن أن يكون إذا لم نمنعه من أن يكون كذلك. لكن ههنا تنشأ معاناته: يجب ألا يعاني. إذا تُـرك الطفل يعيش كما هو، هل يعني هذا أن تضحياته وإنكاره لذاتـه قـد ذهـب سـدىً؟ هـل يمكـن للطفل أن يتطور لما فيه نفعه مـن دون قيـد الطاعـة، وقمـع الإرادة، ومحاربـة النـزوة والأنانيـة المعمول بها منذ قرون؟ وهي أفكار لا يمكـن للأهـل قبولهـا إلا إذا غرقـوا في أعـماق الاضـطراب، وفقدوا حسن التصرف أيضاً، وهم محرومون من الإيديولوجيا التقليديـة القائلـة إن قمـع الحـيّ والتلاعب به يشكّلان القيم العليا. على هذا النحو سارت الأمور بالفعل بالنسبة للأب **A**.[1]

حاول السيد **A** الوصول إلى الرقابة المطلقة عـلى جميـع الوظـائف الطبيعيـة، لـدى الرضـيع، وتمكّن من استبطان هذه الرقابة في وقت مبكـر جـداً. فقـد سـاعد الأم عـلى تربيـة الطفـل عـلى النظافة، وعلّم الطفل الانتظار «بلطف» حتى يُقدّم له الطعام من خلال صرف انتباهه من أجـل التقيد التام بجميع التعليمات المتعلقة بإيقاع الوجبات. حينما كان السيد **A** وهو صـغير جـداً لا يحب شيئاً ما، كان يلتهم الطعام بشراهة، أو يجلس «بطريقة سيئة»، فيرسلونه إلى الزاوية، وكـان عليه أن ينظر إلى أبيه وأمه وهما ينهيان وجبتهما بهدوء. هذا الطفل الذي وُضع في الزاويـة، هـو الذي أُرسل إلى أوروبا، وبقي يتساءل دائماً عن الذنب الذي ارتكبه لكي يُستبعد عـن والديـه عـلى هذا النحو.

السيد **A** لا يتذكر أن والـده ضربـه عـلى الإطـلاق، ومـع ذلـك فقـد كـان الأب يـتصرّف، مـن حيث لا يعرف أو لا يريـد، بالطريقـة القاسـية نفسـها التـي تصرف بهـا مـع الطفـل الـذي كـان

1- الأم أيضاً نشأت على هذه الإيديولوجيا. لكني سأكتفي برسم لوحة الأب، لأن الشـك والحاجـة القسريـة للإيمان في الوقت نفسه يلعبان دوراً خاصاً، ولأن هذه الإشكالية كانت مرتبطة أساساً بشخص الأب.

داخله ليجعله «سعيداً». لقد كان يتصرف دائماً بحيث يقتل كلّ ما هـو حـيّ لـدى طفلـه الأول. ولو لم يلجأ هذا الابن إلى الوسواس العصابي ليعبّر من خلاله عن بؤسه، لمات نفسياً، لأنـه تحـول في الحقيقة إلى مجرّد ظلٍّ للآخر؛ فلا حاجات خاصة به، ولا يعـرف أيّ عاطفـة عفويـة، ولم يعِـش سوى فراغ الإحباط والقلق من وساوسـه. لم يكتشـف الطفـل الفضـولي، وحـاضر الـذهن، والـذكي والمفعم بروح الدعابة كما كان عليه سابقاً يوم كان يعبّر عن قواه الإبداعية، إلا في إطـار التحليـل وهو في الثانية والأربعين من عمره. أدرك السيد **A**. أن أعراضه الخطيرة ناشئة عن قمـع العنـاصر الحيوية الأساسية لأناه من جهة، وأن هذه الأعراض تعكس الصراعـات اللاواعيـة والمكبوتـة التـي كان يعيشها والده من جهة أخرى. الوساوس المؤلمة التي كان يعيشها الابن كانت تفضح هشاشة إيمان الأب وشكوكه غير المعيشة والمرفوضة. ولو عرف الأب كيف يعيشها بشكل واعٍ، ويعبّر عنها ويتمثّلها، لتمكّن ابنه من أن يكبر بعيداً عن هذا العائق، ولعاش حياته في وقـت أبكـر مـن دون اللجوء إلى تحليل حياته بكلّ ما فيها من ثراء.

المربّي هو من يحتاج إلى التربية وليس الطفل

لا بدّ أن القارئ فهم منذ زمن بعيد أن «مبادئ» «التربية السوداء» تضمّ التربيـة كلّهـا، مهـما بـدت اليـوم محجوبـة. بمـا أن بعـض الكتـب مثـل كتـاب إيكهـارد فـون برونموهـل **E. von Braunmühl** ترفض تماماً عبثية عقيدة التربية في الحياة الحالية وقسـوتها، أعتقـد أنـه بوسـعي الاكتفاء بإحالة القارئ إليه (تُنظر قائمة المراجع). إن كان يصـعب عـليّ مشـاركته في تفاؤلـه، فـلا شكّ أن السبب يعود إلى أن أمثلة **idéalisation** الأهل لطفولتهم [رسم صورة مثالية لهـا] تبـدو لي عائقاً ضخماً غير واعٍ أمام عملية تربيتهم.

كما أن موقفي المناهض للتربية النظرية **anti pédagogique** ليس موجّهـاً ضـد نـوع معـيّن من التربية بل ضد التربية في حدّ ذاتها، حتى لو كانت مناهضة للسلطوية. وهذا الموقـف يسـتند إلى تجارب سـأتحدث عنهـا لاحقـاً. في البدايـة، أودّ الإشـارة إلى أنـه لا علاقـة لـه بالتفـاؤل الـذي يتحدث عنه روسو حول الطبيعة «الخيّرة» للبشر.

أولاً، لا أرى أن الطفل يكبر ضمن كيان مجرد هو «الطبيعة»، بل في البيئة الملموسة لأشخاصه المرجعيين، الذين يمارس وعيُهم تأثيراً كبيراً على تطوره.

بعد ذلك، فإن تعاليم روسو التربوية تضليلية إلى أقصى درجة. يبـدو أنـه عـلى الـرغم مـن أن بعض المُربّين لم يتنبهوا إلى ذلك، إلا أن إيكهارد فون بروغوهل قد درسها وبـرهن عليهـا بطريقـة بالغة الذكاء. من بين الأمثلة العديدة التي يقدمها، سأسـوق المقطـع الآتي مـن دراسـته إميـل، أو حول التربية:

اسلك طريقاً معاكسة لتلك التي يسلكها تلميذك؛ دعه يعتقد دائماً أنه المعلم، وأنك أنـت من يتبع خطاه. ليس ثمّة خضوعٌ على الإطلاق كذلك الـذي يتخـذ مظهـر الحريـة، فبهـذا نستحوذ على الإرادة نفسها. وبهذا، يجب ألا يقع الطفل المسكين الذي لا يعرف شيئاً، ولا حول له، ولا يعلم شيئاً، تحت رحمتك؟ ألا تملكون كلّ ما يحيط بـه؟ ألسـتَ القـادر عـلى التأثير فيه كما يحلو لك؟ أليست أعماله، وألعابـه، ومتعـه، وآلامـه ملـك يـديك مـن دون علمه؟ لا شك في أنه ينبغي أن يفعل ما يريد؛ لكن عليه ألا يريد إلا ما تريد له أن يفعـل؛ عليه ألا يخطو أي خطوة لم ترسمها له، وألا يفتح فمه من دون أن تعرف ما يريـد قولـه. (منقول عن بروغوهل، إميـل، الفصـل الثـاني، ص. 362، منشـورات **La Pléade**، الأعـمال الكاملة، الجزء الرابع).

قناعتي بضرر التربية **Éducation** تستند إلى الملاحظات الآتية:

فقد اتضح أن جميع النصائح التي تُسدى بغرض تربية الأطفال لا تلبّي حاجات البالغ إلى حدٍّ ما، وهي عديدة ومتنوعة وتحقيقها غير ضروري لتطوّر الطفل ولما فيه من حيويّة، بل فضلاً عـن هذا فهي تُعيق هذا التطور. بل يصحّ هذا على الحالات التي يكون البالغ فيها صـادقاً في قناعتـه بأنه يتصرف من أجل مصلحة الطفل.

من تلك الحاجات لا بدّ من ذكر: أولاً، الحاجة اللاواعية إلى إحالة الإهانات التـي تعرّضـنا لهـا نحن بالذات في الماضي، إلى آخر؛ وثانياً، الحاجة إلى إيجاد متنفس للغرائز المكبوتة؛ وثالثاً، الحاجة إلى امتلاك شيء حيّ في متناول اليد يمكن التلاعب به؛ ورابعاً الحاجة للحفـاظ عـلى القـدرة عـلى الدفاع عن النفس، أيْ رسم صورة مثالية لطفولتنا ولأهلنا ما دامـت قيمـة مبـادئ التربيـة تؤكـد القيمة التي قامت عليها مبادئ الأهل؛ وخامساً، خوفنا من الحرية؛ وسادسـاً الخـوف مـن عـودة انبثاق المكبوت لدينا ولدى الطفل الذي ينبغي مقاومته لديه بعـد أن نقتلـه في أنفسـنا؛ وسـابعاً وأخيراً، الانتقام للآلام التي عانينا منها. بما أن التربية تتضمن أحد هذه البواعـث، فهـي تصـلح في أحسن الأحوال لأن تجعل من الطفل مربّياً صـالحاً. لكنهـا غـير قـادرة في أيّ حـال مـن الأحـوال،

على مساعدته لبلوغ حرية الحياة. حينما نربّي الطفل، فإننا نعلمه كيف يُربّي. حينما نعظه، فهو يتعلم الوعظ؛ وحينما نُحذّرهُ، يتعلم التحذير؛ وحينما نؤنّبه، يتعلم التأنيب، وحينما نسخر منه يتعلم السخرية، وحينما نهينه، يتعلم الإهانة، وحينما نقتل لا شعوره، يتعلم القتل. وعندئذٍ لا يبقى أمامه سوى اختيار من يقتل: نفسه، أم الآخرين، أم الاثنين معاً؟

لكني لا أعني هنا أن الطفل يمكن أن يكبر في الحالة الطبيعية تماماً؛ فهو يحتاج في تطوره إلى أن نحترم شخصه المرجعي، والتسامح مع مشاعره، والإحساس بحاجاته وقابليّته للتأثر، والطابع الأصيل لوالديه، الذي تفرض حريته الحدود الطبيعية على الطفل - وليس الاعتبارات التربوية.

النقطة الأخيرة تحديداً هي التي تخلق صعوبات كبيرة أمام الوالدين والمربّين للأسباب الآتية:

1. حينما يتعلم الأهل مبكراً خلال حياتهم تجاهل مشاعرهم، وعدم النظر إليها بجدّية، وحتى ازدرائها والسخرية منها، فهذا يعني أنهم يفتقدون إلى حسٍّ أساسيّ في علاقاتهم بأطفالهم؛ ولاستكمالها يلجؤون إلى مبادئ تربوية يرون فيها أنواعاً من البدائل. لهذا تراهم يخافون من التعبير عن حنانهم، خشية إفساد الطفل، أو بالعكس يخفون شعورهم بالإهانة مثلاً خلف الوصيّة الرابعة [من الكتاب المقدس].

2. الأهل الذين لم يتعلّموا الإحساس بحاجاتهم، والدفاع عن مصالحهم يوم كانوا أطفالاً، لأن أحداً لم يعطهم هذا الحقّ، يوجّهون أنفسهم، ومن ثم يلتزمون بقواعد تربوية صارمة جداً. هذا العجز عن توجيه النفس يؤدي، على الرغم من هذه القواعد، إلى قدرٍ كبير من عدم الشعور بالأمان لدى الطفل الذي يمكن أن يتخذ شكلاً ساديّاً أو مازوشياً؛ كذلك ذلك الأب الذي تم ترويضه في وقت مبكر جداً على الطاعة، فيكون في بعض الحالات قاسياً أو عنيفاً ليجبر ابنه على الطاعة، ليحقّق بهذا حاجته إلى الاحترام الذي لم يحظَ به حياته. لكن هذا السلوك لا يستبعد تقاطع مراحل من التصرفات المازوشية التي يتحمل هذا الأب نفسه خلالها كلّ شيء، لأنه لم يتعلم قطّ الدفاع عن حدود تسامحه. وبتأثير مشاعر الذنب التي يعاني منها، بعد فرضه عقوبة ظالمة، يصبح متساهلاً على غير عادته: فيوقظ بها قلق الطفل الذي لا يطيق عدم معرفة وجه أبيه الحقيقي، ويعتمد سلوكاً يزداد عدائية وإثارة لكي يُفقده صبره. بهذا يقوم الطفل، في نهاية المطاف، بدور الشريك الساديّ الذي يحلّ محلّ الجدّين، مع فارق أن

الأب يمكنه الهيمنة عليه. هذا النوع من الحالات - «التي بلغت فيها الأمور إلى أقصى حد» - يستخدمها المربّي براهين إضافية على ضرورة الانضباط والعقاب.

3. بما أن الأهل غالباً ما يستخدمون الطفل بديلاً عن أهلهم، فإنه يكون موضوعاً لعدد غير محدود من الرغبات والآمال المتناقضة التي لا يمكنه تحقيقها بأيّ شكل من الأشكال. في الحالات القصوى، يصبح الذهان **psychose** [الاختلال الذهني]، والإدمان أو الانتحار هي الحلول الوحيدة. لكن هذا العجز يؤدّي في أغلب الأحيان إلى عدوانية متنامية ما تزال تؤكد، برأي المربّي، ضرورة اتخاذ أقسى الإجراءات.

4. ثمة حالة مماثلة في إطار التربية «المناهضة للسلطوية» التي شهدتها سنوات الستينيات، حينما كان الأطفال يربّون على تبنّي سلوكٍ معيّن سبق للأهل أن تمنّوه في الماضي لأنفسهم فأحبّوه بشكل عام. وهي فترة يمكن تجاهل الحاجات الحقيقية للطفل خلالها. في إحدى الحالات التي عرفتها، كان يجري تشجيع الطفل المسكين على تحقيق حلمه في تسلّق ركبتَي أمّه. حينما يشعر الأطفال بأنهم غير مفهومين دائماً ويتم تضليلهم، يُصابون بهلع يؤدّي إلى نزعة عدوانية مفهومة.

خلافاً للرأي الشائع عموماً أقول، حتى لو أثرت الهلع في صدور المربّين، إني لا أرى أيّ دلالة إيجابية يمكن أن يتضمنها مصطلح «تربية - **éducation**». إني لا أرى فيه سوى حماية للبالغين، وتضليل للهروب من شعورهم بعدم الأمان، وافتقادهم للحرية، وهو أمرٌ يمكنني فهمه طبعاً، لكن لا يسعني تجاهل أخطاره. يمكنني، مثلاً فهم سبب إيداع الجانحين السجن، ولكن لا أؤمن بأن الحرمان من الحرية، والحياة في السجن التي لا تقوم إلا على المواءمة والانضباط، يمكن أن تساهم فعلياً في التفتّح الذهني لدى المُعتَقَل. تتضمن كلمة «تربية» تصوّراً لعددٍ معيّن من الأهداف التي ينبغي على الطفل تحقيقها - وهو ما يؤثر على إمكانيات تطوره. لكن التخلّي الصادق عن التضليل، وتصوّر هذه الأهداف لا يعني التخلّي عن الطفل نفسه؛ لأن الطفل بحاجة قصوى إلى مرافقة البالغ له مادياً ومعنوياً. ولكي تسمح هذه المرافقة بالنموّ التامّ للطفل، لا بدّ أن تتصف بالخصائص الآتية:

1. احترام الطفل؛

2. احترام حقوقه؛

3. التسامح إزاء مشاعره؛

4. العمل على أخذ العبرة من سلوكه حول:

أ) طبيعته بنحو خاص؛

ب) وحول طبيعة الأطفال بوصفهم أطفالاً، وهو ما يسمح للأهل بالشعور بفقدان شيء عزيز **travail de deuil**؛

ت) حول قوانين الحساسية التي تظهر بشكل أوضح لدى الطفل منها لدى البالغ، لأن الطفل يعيش مشاعره بشكل أكثف، وفي أفضل الحالات، بطريقة أكثر مباشرة منها لدى البالغ.

تبرهن تجارب الجيل الجديد على إمكانية الاستعداد حتى لدى الكائنات التي وقعت هي نفسها ضحية التربية.

لكن، لا يمكن توقّع أن يتحقق التحرّر من قيود مغرقة في قدمها خلال جيل واحد. وتبدو فكرة أن مجرّد كوننا أهلاً تمكّننا من أن نتعلّم أكثر من الطفل المولود حول قوانين الحياة ما لم نتعلّمه من أهلنا، فكرةً خرقاء من دون شكّ ومثيرة للضحك بالنسبة لبعض الأشخاص من عمرٍ معيّن. بل يمكن أن تثير حتى لدى الشباب نوعاً من الحذر، لأن كثيراً منهم كانوا غارقين في غياب الأمان رسّخه فيهم خليطٌ من كتابات نفسية و«تربوية سوداء». وسأضرب مثلاً ذلك الأب الذكيّ والحسّاس جداً للقول ما إن كان السعي إلى استخلاص العبرة من الطفل يعني الإساءة إليه. هذا السؤال الذي طرحه رجلٌ ولد عام 1942، وتجاوز كثيراً محرّمات جيله جعلني أتنبّه إلى أهمية الحذر حينما نكتب في مجال علم النفس، لأننا نخاطر بالوقوع في تأويلات خاطئة، وخلق شعورٍ إضافيّ بعدم الأمان.

هل يمكن عدّ أخذ العبرة من الطفل إساءة؟ إذا غاب الانفتاح على الآخر الذي يتواصل معنا تغيب العاطفة الحقيقية أبداً. فنحن نحتاج إلى معرفة كيفية تكون شخصية الطفل لكي نتمكن من فهمه، ومساندته ومحبّته. الطفل بحاجة إلى حرية الحركة لبناء شخصيته بطريقة ملائمة. لكن هذا لا يعني اختلاف الأهداف عن الوسائل، بل نحن إزاء عملية حوارية وجدلية، لأننا نتعلم بالإصغاء؛ ونفهم الآخر بشكل أفضل مما نتعلم ونحن نصغي إليه. أو نقول بتعبير آخر، لكي نعرف ما هو الطفل، نحتاج إلى نوع من التعاطف معه، فيزداد

التعاطف مع ما عرفناه عنه. في المقابل هناك موقف المربّي الذي يريد الاستحواذ على الطفل، أو يعتقد أنه قادر على ذلك، ويبذل جهده لتحقيق هذه الغاية السامية لقولبته بما يتوافق مع صورته؛ لكنه بهذا يمنع الطفل من تكوين شخصيته بحرية، وتفوته في الوقت نفسه فرصة التعلُّم. لا شك أن هذا يعدّ بمثابة إساءة غالباً ما تكون غير إرادية، ولا ترتكب بحقّ الأطفال فقط، لكنها، إذا نظرنا إليها عن كثب، تشمل جميع العلاقات البشرية، لأن الشركاء غالباً ما تعرّضوا لمثل هذه الإساءة في طفولتهم، ويُخرجون ما احتملوه عندئذٍ بطريقة لا واعية.

الكتب المناهضة للتربية (مثل كتاب برونموهل) من شأنها تقديم مساعدة كبيرة للأهل من خلال الشباب، إذا نُظر إليها بمثابتها «تربية لفنِّ أن يكون الأهلُ أهلاً»، بل كمساهمة تتضمّن معلومات إضافية، وتشجّع تجارب جديدة، وتحرّراً يتيح التعلّم بمعزل عن الأحكام المسبقة.

القسم الثاني

الفصل الأخير

من المسرحية الصامتة:

العالم يبقى مرتاعاً

مقدّمة

ليس سهلاً الحديث عـن المعاملـة السـيئة للأطفـال مـن دون الوقـوع في الخطـاب الـوعظي. التمرّد ضد البالغ الذي يضرب الطفل، والشفقة على الطفل الذي لا حول لـه، أمـرٌ طبيعـي جـداً، لدرجة أننا نميل دائماً إلى الحكم عـلى البـالغ وإدانتـه لفظاظتـه وقسـوته مهـما اتسـعت المعرفـة بالطبيعة البشرية. لكن أين نجد هذين الإنسانين الطيّبين فقط، بيـنما الآخـرون سـيّئين فقـط؟ لا تنشأ معاملة الفرد لأطفاله بشكل سيّئ عن طبعه وشخصيته، بل لأنه عومل بهذه الطريقة خلال طفولته، ولم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه. ثمة أخاص كثر مثل السيد **A**، لطيفون، وعطوفـون، ومرهفو الحسّ، لكنهم يعاملون أطفالهم بقسوة يومياً باسم ما يطلقـون عليـه اسـم التربيـة. مـا دامت العقوبـات الجسـدية عُـدّت ضروريـة ومفيـدة، تبقـى هـذه العقوبـات مشروعـة. هـؤلاء الأشخاص يتألمون اليوم لأن حاجة قاهرة، ويأساً غير مفهوم دفعاهما إلى تعنيـف الطفـل وزجـره، وإهانته، وضربه، وعلى الرغم من رؤيتهم لدموعه، فهم يشعرون في الوقت نفسه أنهم مجـبرون على ذلك، وهو أمر سيتكرّر ما دامت قصة حياتهم مؤمثلة [مُضفى عليها طابع المثالية].

يُعرف عن بول كليه **P. Klee** أنه رسّام رائع للوحات بالغة الشاعرية؛ لكـنّ لشخصـيته وجهـاً آخر ولوجوده وجهاً آخر قد لا يعرفه سوى ابنه الوحيد. قال ابـن الرسـام فيلـيكس كليـه، البـالغ اليوم الثانية والسبعين من عمره في مقابلـة مـع أحـد الصـحفيين (بروكنبـاور، 29 شـباط 1980): «كان لأبي وجهان، وجه المازح كثيراً، ووجه من يستخدم العصـا بقـوة في التربيـة.» يبـدو أن بـول كليه قد صنع لابنه دمى، احـتفظ بثلاثـين منهـا. ويـروي الابـن: «في شـقّتنا الصـغيرة، كـان يقـوم بعملية مسرحية في فتحة الباب. حينما أكون في المدرسة يعترف بأنه يلعب هذه اللعبة من أجـل القطط...» لكن الأب لم يكن يلعب من أجل القطط فقط، بل من أجل ابنه أيضاً. كيف كان هـذا الأب يريد أن يضرب ابنه؟

أضرب هذا المثال لمساعدة القارئ عـلى الـتخلّص مـن كليشـيهات الآبـاء الجيـدين والسـيّئين. هناك آلاف الأشكال من القسوة التي لا نعرفها بعد، لأننا لم نعكـف قـطّ حتـى الآن عـلى دراسـة آلام الطفل، أو نتائجها.

عقدت هذا القسم من كتـابي للحـديث عـن هـذه النتـائج. إذ إن المراحـل الأساسـية لغالبيـة الأشخاص تنطوي على:

1. تعرّض الإنسان خلال طفولته لإهانات لا يرى أحدٌ أنها كذلك؛

2. عدم الردّ على الألم بالغضب؛

3. الامتنان لهذه الأفضال المزعومة؛

4. نسيان كلّ شيء؛

5. إفراغ ما نراكمه من غضب على الآخرين، أو الارتداد ضدّ الذات.

تكمنُ أشد أنواع القسوة التي نلحقها بالأطفال في منعهم من التعبير عـن غضـبهم، أو ألمهـم، لكيلا يفقدوا حبّ الوالدين وحنانهما. ومن ثم فإن غضب الطفولة الأولى يتراكم في اللاوعي؛ وبما أنه يمثل مخزوناً سليماً من الطاقة الحيوية، يجب أن يبذل الفاعل طاقة مساوية لإبقائه مكبوتـاً. ليس مـن النـادر أن تـؤدي التربيـة التـي نجحـت في خنـق الجانـب الحـي، بهـدف عـدم إزعـاج الوالدين، إلى الانتحار أو إلى درجة مـن الإدمـان تعـادل الانتحـار. حيـنما يُسـتخدم المخـدّر لسـدّ الفراغ الذي خلقه كبت المشاعر واغتراب الذات، فإن علاج إزالة السموم يعيد إظهاره مرّةً أخرى، وحينما لا يترافق علاج إزالة السموم باستعادة القدرات الحياتية يمكننا توقع حـدوث انتكاسـات. تبيّن لنا كريستيان ف. **Christiane F**. في كتابها: أنـا، كريسـتيان ف. عمـري 13 سـنة، تعاطيـت المخدرات، ومارست الدعارة... بوضوح شديد مأساة هذا النوع من الحياة المثير للقلق.

فشل فترة البلوغ

ينجح الأهل عموماً بما يملكون من وسائل الهيمنة في ترويض الطفل الصغير بحيث لا يخلق لهما المشكلات حتى سن البلوغ **puberté**. «برود» المشاعر والغرائز في مرحلة الكمون تناسب هذه الرغبة عند الطفل ولا تسبب مشكلة. في كتاب هيلدا بروخ **H.Bruch** الموسوم **Der goldene Käfig** (القفص الذهبي)، يشرح أهالي فتيات فقدن شهية الطعام **anorexiques** مقدار موهبة طفلاتهم الناضجات، والعاقلات، والمتكيّفات، واللاتي يحترمن الغير، بقولهم إنهن كن ناجحات، وأنهم لا يفهمون سبب هذا التغيّر الذي طرأ عليهن؛ فانتابتهم الحيرة أمام مراهقة أبدت رفضها لجميع المعايير، وأن سلوكها في تدمير ذاتها يعصى على التفسيرات المنطقية ولا ينتمي إلى آداب «التربية السوداء».

في مرحلة البلوغ يواجه المراهق شدّة مشاعره الحقيقية من حيث لا يتوقع في أغلب الأحيان، بعد أن تمكّن من تحييدها في مرحلة الكمون **latence**. ومع تفجّر نموّه البيولوجي، فإن هذه المشاعر (سخط، تمرّد، حبّ، رغبات جنسية، تعصّب، فرح، استعجاب، شعور بالفقدان) تبحث عن الحياة، لكن لو حدث هذا في أغلب الأحيان، فقد تفسد صحة الوالدين النفسية. فالمراهق الذي يعبّر عن مشاعره الحقيقية حينما لا تكون مصقولة قد يُعتقل بوصفه إرهابياً خطيراً، أو يحجز في مشفى الأمراض النفسية. لو عاش هاملت في مسرحية شكسبير، وويرذر عند جوته لانتهى بهما الأمر في مصحّة نفسية، كما كان يمكن لكارل مور **K. Moor** أن يتعرّض للخطر نفسه. هكذا يحاول المُدمن التكيّف مع المجتمع، من خلال مقاومته لمشاعره الحقيقية؛ لكنه كما في عاصفة المراهقة لا يستطيع التخلّي عنها تماماً، فيسعى لإبعاد انفعالاته عبر المخدرات، وهو ما يبدو ناجحاً -في البداية على الأقل. لكن لا بد للمجتمع من الحفاظ على موقفه من حقوقه: عيش المشاعر الكثيفة والعنيفة يؤدي إلى الاحتقار، والعزلة، والرفض، وخطر الموت، أي باختصار إلى التدمير الذاتي.

ينتهي الحنين إلى الذات الحقيقية، المُسوّغ والضروري من الناحية الحيوية، بالمخدّرات نفسها، كما كانت تنتهي الانفعالات الحيوية خلال الطفولة الأولى في الماضي - بقتل الجانب

الحيّ. يقول جميع متعاطي الهيرويين تقريباً إنهم عاشوا في البداية، مشاعر تتسم بشدة لم يشهدوها من قبل، ويصبحون أكثر وعياً ببلادة حياتهم وفراغ عاطفتهم المعتادة.

ولعجزهم عن تصور ما إن كان هذا ممكناً من دون هيرويين، فهم يشعرون بالحاجة إلى تكرار التجربة؛ وهو أمرٌ مفهوم. لأن الشاب في مثل هذه الحالات الاستثنائية يعيش ما ينبغي أن يكون، فيتواصل مع أناه؛ وهذا التلاقي لا يترك له وقتاً للراحة طبعاً. فلا يعود قادراً على أن يعيش حياته مع أناه، كما لو أن هذا الأنا لم يكن موجوداً قطّ إلى حدٍّ ما. وبعد أن يعرف من الآن فصاعداً بوجود هذا الأنا، لكن في الوقت نفسه، فهو يعرف منذ نعومة أظفاره أنه ليس لهذا الأنا الحقيقي أي فرصة الاستمرار؛ فيعقد صفقة مع مصيره: يلتقي بأناه من وقتٍ إلى آخر من دون علم أحد؛ بل لا ينبغي أن يعرف هو نفسه ذلك، لأن المخدّر «يقوم بهذا»، وبما أن التأثير «يأتي من الخارج» فيصعب الحصول عليه، ولن يندمج أبداً بوصفه جزءاً لا يتجزأ من الأنا، فلا يستطيع الفاعل تحمّل مسؤولية مشاعره، ولا ينبغي له ذلك. وهذا ما تبيّنه حالته خلال الفترة الفاصلة بين حقنتي المخدر: كالخمول التام، والتبلّد [غياب الوعي]، والإحساس بالفراغ أو الاضطراب والقلق - وتمرّ النشوة كأنها حلمٌ منسيّ، وليس له أدنى تأثير على مجمل الوجود.

حتى الاعتياد على وسواسٍ أخرق له قصته. إذ بعد أن يستحوذ هذا الوسواس على مجمل الوجود، فإن الفاعل لا يلاحظه منذ بداياته. تحدّثت سيدة في الرابعة والعشرين أنها بدأت بتعاطي الهيروين وهي في السادسة عشرة من عمرها أمام كاميرا التلفزيون عن طريقة حصولها على المخدّر وهي تجوب الشوارع، وعن ضرورة الحصول عليه «للتمكن من احتمال تلك الحيوانات». كانت لهجتها صادقة تماماً، وبدا ما تقوله مفهوماً؛ لكن الهيئة الطبيعية التي تعرض بها هذه الحلقة المفرغة باعتبارها الشكل الوحيد الممكن للحياة أثارت انتباهنا. لا شك أن هذه المرأة عاجزة تماماً عن تصور أيّ شكل للحياة المستقلة عن هذه الحلقة المفرغة، لأنها لم تعِش أبداً أيّ شيء يشبه الاختيار الحر. ومن ثم فإن الشكل الوحيد للحياة التي عاشتها هو هذا الوسواس المُدمِّر مما جعلها عاجزة عن التعبير عن هُرائها. ومن ثم لن تدهشنا ملاحظة أن الشخصيتين الأبويتين تبقيان مؤمثلتين **idéalisées** - كما هو الحال عند جميع المدمنين. الشابّة هي التي شعرت بضعفها، وسبّبت العار لأهلها، وخيّبت أملهم فيها، فذهبت بها ظنونها إلى تحميل «الذنب للمجتمع» - وهو لا شكّ أمرٌ صحيح. لكن المأساة الحقيقية هي أن الصراع

بين الحنين للأنا الحقيقي، وضرورة التكيف مع حاجات الوالدين، لم يحدث ما دام الفاعل يريد حماية والديه من مآخذه. هذه المأساة تظهر بوضوح بالغ، على سبيل المثال، عبر ما سردته كريستيان ف. عن حياتها.

البحث عن الذات وتدميرها بالمخدر

(حياة كريستيان ف.)

أمضت كريستيان ف. السنوات الست الأولى من حياتها في الريف، حيث كانت تقضي يومها كلّه في المزرعة، تُطعم المواشي وتتسلّى «مع الآخرين في الحشيش الجاف». بعد ذلك انتقلت العائلة للاستقرار في برلين حيث عاشت مع والديها وأختها الأصغر في شقّة من غرفتين أو ثلاث غرف في الطابق السابع من أحد أبنية مجمع غروبيوس. فصعُب على الطفلة فقدان البيئة الريفية المفاجئ، والرفاق الذين اعتادت اللعب معهم، وحرية الحركة؛ وما يبعث على الأسى في نفسها هي هذه الحياة التي راحت تعيها في جوّ من العزلة، وتوقّع الضرب والعقوبات العشوائية غير المنتظرة.

> أكون سعيدة مع حيواناتي إلى حدٍّ ما حينما لا تسوء الأمور مع والديّ. فأمي مشغولة بعملها. أما أبي فرهين البيت بانتظار أن يُعرض عليه عمل يناسبه؛ فتراه يقضي نهاراه منتظراً فوق أريكة بالية، ومعها راحت تتكرّر نوبات غضبه.
>
> لدى عودة أمي من عملها مساء كانت تساعدني في حلّ واجباتي المدرسية. مرّت فترة لم أكن قادرة فيها على تمييز حرف الهاء من حرف الكاف، فتشرع أمي بتفسير ذلك بصبر ملائكي؛ لكني كنتُ أسمعها بصعوبة، بعد أن أرى الغضب يتصاعد في وجه أبي. والبقية أعرفها: يذهب للبحث عن المكنسة الصغيرة في المطبخ ليضربني بها. بعد ذلك عليَّ أن أشرح له الفرق بين الهاء والكاف. وبطبيعة الحال كنت أخلط كل شيء، فأتلقّى صفعةً على قفاي، ثم يدفع بي إلى السرير.
>
> تلك كانت طريقته في مساعدتي على حلّ واجباتي المدرسية. يريد مني أن أكون تلميذة جيدة، و«ذات شأن». زد على هذا أن جدّه كان يملك الكثير من المال، ومطبعة وصحيفة وأشياء أخرى. بعد الحرب طُرد من جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وكان يغضب حينما لا تسير أموري على ما يرام في المدرسة.

كما أتـذكر اليـوم أقـلّ التفاصـيل التـي كانـت تقـع في بعـض الأمسـيات. ذات مـرة، كـان الواجب المدرسي يتطلب أن أرسم بيوتاً في دفتر الحساب: سـتّة مربّعـات عرضـية وأربعـة عمودية. رسمت واحداً، وكنت أعرف ماذا أفعل. فجأةً جلس والـدي إلى جـانبي وسـألني من أين وأين يبدأ البيت القادم. خفت كثيراً بحيث لم أحسب المربعـات، فأجبـت بشـكل عشوائي. حينما أخطئ يصفعني. وبعد أن تنهمر دموعي أصـبح عـاجزة عـن صـياغة أدنى جواب. فينهض عندئذٍ، ويتجه نحو الكاوتشوك. أعرف ما الـذي يعنيـه. يمسـك بـالخيزران الذي يشكل سنداً للكاوتشوك ويبدأ بضربي ضرباً مبرحاً فوق مؤخّرتي.

ما إن يجلس إلى مائدة الطعام حتى أبدأ بالارتجاف. إن سقطت وسخة فهي مأسـاة، وإن أوقعت شيئاً فالويل لقفاي. أمسك بكاس الحليب بصعوبة، لخوفي من أن أقـع في مصـيبة مع كل وجبة، أو تقريباً.

في المساء، أسأل أبي بلطفٍ بـالغ مـا إن كـان سـيخرج مـن البيـت. غالبـاً مـا كـان يخـرج، فنتنفس، نحن النساء الثلاث الصعداء. كانت تلك الأماسي تمرّ هادئة. حينما يعـود، الحـقّ يقال، إن الأمور كانت تسوء أحياناً. في أغلب الأحيان، يحتسي الكحول. ولـدى أيّ ذريعـة- كأن تكون الملابس أو الدمى غير مرتبة -، إنه الانفجار. إحدى جمـل أبي المفضـلة هـي أن المهمّ في الحياة هو أن يكون الإنسـان مـنظّماً. وإذا عـاد في منتصـف الليـل ورأى أغـراضي مبعثرة، يسحبني من فراشي ويشرع في ضربي. بعد ذلك يأتي دور أختي. ثم يلقي بأغراضنا فوق الأرض ويمهلنا خمس دقائق لترتيبها بشكل ممتاز. لم نكن نقـوم بـالأمر كـما ينبغـي فيمطرنا بالضربات من جديد.

في أغلب الأحيان تراقب أمي المشهد وهي واقفة عند عتبة الباب باكية. وينـدر أن تنـبري للدفاع عنا حتى لا ينالها نصيبٌ من الضرب. كلبتي هي الوحيدة التـي تعترضـه في أغلـب الأحيان. فتبدأ بالتأوّه، بنظرات مفعمة بالحزن. وهي الوحيدة القادرة على إعـادة والـدي إلى رشده، لأنه كان مثلنا جميعاً يحب الكلاب. أحياناً يوبّخ الكلبة أجـاكس، لكنـه لم يكـن يضربها قطّ.

على الرغم من هذا، فإني أحب أبي وأحترمه، إذ أرى أنه متفوق عـلى الآخـرين إلى حـد كبير. أخافه، لكني أرى أن تصرّفه طبيعيّ تماماً. الأطفال الآخرون في مجمـع غروبيـوس السـكني ليسـوا أفضـل حـالاً منـا، فـنرى أحيانـاً الكـدمات فـوق وجـوههم، ومـثلهم

الأمهات. ترى بعض الآباء راقدين في الشارع أو فوق أرض بور وقد تعتعهم السكر. لم يكن والدي يشرب قطّ إلى هذا الحد. كما كنا نرى أحياناً أثاثاً يتطاير من إحدى النوافذ ليتحطم فوق أرض الشارع، ونساء يطلبن النجدة، وأحدهم يستدعي الشرطة. ومن ثم، لم يكن الحال في بيتنا بمثل هذه الخطورة.

كان أبي يأخذ دائماً على أمي كثرة إنفاقها، مع أننا نعيش بفضل ما تتقاضاه من أجر. أحياناً تراها تقاوم وتقول له إن مجالس شربه، ونساءه والسيارة، هي أكثر ما يستهلك نقودنا. عندئذٍ يبدأ العراك بينهما.

كان أبي يحب سيارته البورش جداً. فيقوم بتلميعها كلّ يوم. لا شكّ أنها سيارة البورش الوحيدة في مجمّع غروبيوس السكني. لكنني لم أرَ آخرين عاطلين عن العمل وهم يتنقلون في سيارة بورش.

بطبيعة الحال، لم أكن أفهم ما يحدث لوالدي، وسبب نوباته المتكررة. في فترة لاحقة فقط، حينما بدأت بالحديث عن هذا الأمر أكثر مع أمي، استشعرتُ التفسير، إذ كان يحسّ بأنه لم يكن في المستوى المطلوب، بكل بساطة. كان الطموح يفترسه، فيفشل في كل شيء مما جعل والده يزدريه. حذّر جدّي والدتي قبل زواجها، واصفاً ابنه بالوضيع لأنه خيّب الآمال الكبيرة التي كان يعقدها عليه: كواجبه في إعادة أمجاد العائلة الماضية التي كانت عليها قبل النزوح (ص. 23.25).

... أعزّ أمنية عندي هي أن أكبر بسرعة، وأصبح راشدة مثل أبي وأمارس سلطتي فعلياً على الآخرين. وبانتظار ذلك اليوم، كنت أدرس ما لديّ من هذه السلطة. [...]

كنا نلعب تقريباً كل يوم، أنا وأختي، اللعبة التي تعلمناها. إذ كنا أثناء المسافة التي تفصلنا بين المدرسة والبيت ننبش طفايات السجائر، وسلال القمامة، بحثاً عن أعقاب السجائر، فنملّسها بقفا اليد ثم ندخنها. حينما كانت أختي تطلب نفثة، كنا نضربها فوق أصابعها، ونلقي عليها بأوامرنا: لتقوم بالجلي، ومسح الغبار، أي القيام بالمهام المنزلية التي أوكلها أهلنا إلينا. بعد ذلك نأخذ دُمانا، ونحبس البنيّة في الشقة ونخرج للتنزّه. ولم نكن نفك أسر الصغيرة إلا بعد إنجاز العمل المطلوب منها. (ص.27-28)

لقد انتهى الأمر بكريستيان التي كانت تتعرض للضرب من أبيها، لأسباب ما تزال تجهلها، إلى أن تتصرّف بحيث «تضع أمامه سبباً وجيهاً يدفعه إلى ضربها»، ظنّاً منها أنها بهذه

الطريقة ترفع من شأنه، وتجعل من الأب الظالم الذي لا يمكن توقّع ما يمكـن أن يقـوم بـه، عـلى الأقل أباً يعاقب بحقّ. إنها الإمكانيـة الوحيـدة التـي بقيـت لـديها لإنقـاذ صـورة الأب المحبـوب والمؤمثَل **idéalisé**. وبدأت تستثير أيضاً رجالاً آخرين لتجعل منهم أيضـاً آبـاء معـاقبين، كحـرّاس البناء أولاً، ثم الأساتذة، وأخيراً رجال الشرطة في مرحلـة تعاطيهـا المخـدرات لتحويـل الصراع مـع الأب نحو أشخاص آخرين. ولعجز كريستيان عن التكلّم إلى أبيها حول هذه الصراعـات، أو حلّهـا معه، راحت تكبت كراهيتها الأولى للأب في لاوعيهـا فتـتراكم فيـه، وعوضـاً عـن مجابهتـه تحـوّل نضالها ضد السلطات الذكوريـة الأخـرى؛ وأخـيراً تحـوّل الغضـب الـذي راكمتـه الطفلـة المُهانـة، والمُحتقَرة، وغير المفهومة، والمتروكة، إلى العزلـة نحـو الأنـا عـبر تعـاطي المخـدرات. خـلال الفـترة التالية من تطور كريستيان بدأت تحمّل نفسها ما كان والـدها يحمّلهـا إيّـاه في المـاضي: فراحـت تدمّر في نفسها كلّ كرامتها، وتضلّل حساسيّتها بالمخدرات، وتحكم عـلى نفسـها بـالتخلّي عـن أي تعبير كلامي (وهي الطفلة الموهوبة خصوصاً في تعلم اللغات)، والانزواء، وفي نهاية الأمـر راحـت تدمّر جسدها ومعه روحها.

يذكّرنا وصف عالم الطفولة كما تعرضه كريستيان أحياناً ببعض أوصاف الحيـاة في معسـكرات الاعتقال [أيام النازية]، كما في المشاهد الآتية:

> طبعاً، كان لا بدّ من إزعاج الأطفال الآخرين في المقام الأول. فنمسـك بأحـدهم، ونحبسـه في أحد المصاعد، ثم نضغط على جميع الأزرار بينما نقوم بإيقاف المصعد الآخـر. فيضـطر السجين إلى بلوغ الطابق الأخير بعد توقفه عند كلّ طابق. غالباً ما كان هذا يحدث معـي لا سيما حينما أنتهـي مـن نزهتـي مـع كلبتـي وأسـارع إلى الصـعود حتـى لا أتـأخر عـلى العشاء. كان ذلك يدوم طويلاً إلى أن نصل إلى الطابق الحادي عشر، وتصبح أجاكس بالغة العصبية.
>
> هنا، يصبح الأمر مقرفاً حينما تبدأ «عملية المصـعد» في لحظـة يريـد فيهـا أحـد الأطفـال الذهاب إلى التواليت، لكنه بشكل عام لا يستطيع منع نفسه. لكن الأشـدّ قرفـاً مـن هـذا أيضاً هو الاستيلاء على ملعقة الصغار الخشبية، لضرورتها بالنسـبة لهـم: ذراعهـا الطويلـة تسمح لهم ببلوغ أزرار المصعد، والتي لولاها يضيعون، فلا يبقـى أمـامهم سـوى الصـعود إلى الطابق الثامن، أو التاسـع، أو العـاشر، أو الثـاني عشر مشـياً. ذلـك طبعـاً لأن الأطفـال الآخرين لا يساعدونهم، بينما يظن الكبار أنهم يلعبون فقط بالمصـعد وأنهـم سـيكسرونه (ص.33).

... في بعد ظهر أحد الأيام هرب فأر نحو العشب الممنوع، ولم نعثر عليه. كنت حزينة قليلاً، لكني عزّيتُ نفسي بالظن أنه سيكون حتماً سعيداً هناك أكثر من القفص.

... في ذلك المساء بالتحديد دخل أبي غرفتنا ونظر إلى قفص الفئران، فصاح قائلاً: «لكنهما ليسا سوى فأرين! أين الثالث؟». لم أتنبّأ بأي شيء لأن سؤاله كان غريباً، فهو لم يكن يحب أبداً الفئران، ويطلب مني دائماً التخلص منها. قلت له عن الفأر هرب نحو أرض الملعب.

نظر إليّ أبي بهيئة جنونية؛ ففهمت أنه سيفقد السيطرة على نفسه بعد ثلاثين ثانية. راح يصيح ويخبط، وأنا محشورة في السرير، وليس أمامي أيّ مهرب؛ لم يسبق له أن ضربني بمثل هذه القوة، حتى ظننت أنه سيقتلني. حينما استدار ليهجم على أختي، قفزت بشكل غريزي نحو النافذة. اعتقدت بأني سأقفز منها. من الطابق الثاني عشر.

لكن أبي أمسك بي وألقاني فوق السرير. كانت أمي واقفة عند عتبة الباب وهي تبكي. حتى إني لم أرها. لم أرها إلا حينما رمت نفسها بيني وبين أبي، وراحت تضربه بقبضتيها.

فقد أبي توازنه تماماً؛ جرّ أمي إلى الممرّ وهو مستمرّ في ضربها. فجأةً ازداد خوفي عليها وعلى نفسي. حاولتْ التخلص منه لتحبس نفسها في الحمّام، لكنه أمسك بشعرها. وكما في كل مساء كان هناك ملابس في المغطس، لأننا لم نكن نملك ثمن غسّالة. أغرق أبي رأس أمي في المغطس المليء بالماء. لم أعرف كيف تخلّصتْ منه. هل تركها، أم حرّرت نفسها، لا أتذكر.

اختفى أبي غاضباً في غرفة الجلوس. فتحت أمي الخزانة وأخذت معطفها، ثم رحلت بصمت.

بقيت هذه الدقيقة من أكثر لحظات حياتي رهبة، الدقيقة التي رأيت أمي ترحل خلالها، من دون أن تنطق بكلمة، وتتركنا وحيدين. بقيت للحظات عاجزة عن التفكير إلا في شيء واحد هو أنه سيعود إلى الضرب. لكن لم يتحرك شيء في غرفة الجلوس. الصوت الوحيد المسموع كان صوت التلفزيون. (ص.42)

لا يمكن لأيّ شخص أن يشكّ جدّياً في أن حبيبي معسكر الاعتقال قد عانوا أشياء مريعة. لكن حينما يحدّثنا أحدهم عن سوء معاملة الأطفال، يأتي ردّ فعلنا رخواً يدعو إلى

الدهشة، فنقول وفقاً لانتمائنا الإيديولوجي: «هذا أمر طبيعي جداً»، «يجب تربيتهم بشكل جيد»، «كان هذا سائداً في تلك الفترة»، «إذا رفضوا الانصياع، فلا بد من جعلهم يشعرون به»، وما إلى ذلك. سمعت ذات يوم رجلاً متقدماً في العمر إلى حد ما وهو يتحدث مسروراً في مجلس صغير أنه حينما كان طفلاً كانت أمّه تؤرجحه فوق قشٍّ مشتعل تم تحضيره خصوصاً لهذه المناسبة: أي لتجفيف بنطاله وتعويده على ذلك. «كانت أمي أفضل شخص يمكن تخيّله فعلاً»، ويضيف قوله: «لكن تلك كانت إحدى عاداتنا في تلك الفترة». ما يعني أن انعدام الإحساس لدينا إزاء ما نعانيه من آلام خلال طفولتنا يجعلنا غير مبالين بآلام الأطفال الآخرين. فإذا كان ما لحق بي ضرورياً لمصلحتي، فينبغي قبول هذه المعاملة بوصفها جزءاً لا يتجزأ من الحياة، ولا يمكن إعادة النظر فيها.

يعود انعدام الإحساس هذا إلى المعاملات السيّئة التي تعرّض لها الطفل واحتفظت ذاكرته بها، لكن مضمونها الانفعالي، وتجربة الضرب العميقة، والإهانة، تبقى حالات مكبوتة تماماً في أغلب الأحيان.

هنا يكمن الاختلاف بين تعذيب البالغ، وتعذيب الطفل. فالأنا عند الطفل ليس متكوناً بعد بما يكفي للاحتفاظ بالأثر في ذاكرته مع المشاعر التي ترتبط بها. لا شكّ أننا نعرف - ليس دائماً - أننا تعرّضنا للضرب من أجل مصلحتنا، كما يقول الأهل، لكن الألم الناجم عن هذه المعاملة السيئة يبقى في اللاوعي ويمنع الشعور بآلام الآخرين لاحقاً. لهذا يصبح الأطفال الذين تعرضوا للضرب في الماضي آباء وأمهات يضربون أطفالهم، ويجري من بينهم تجنيد الجلادين، ومراقبي معسكرات الاعتقال، ورجال العصابات، وحراس السجون، والقائمون على التعذيب. فهم يضربون، ويسيئون المعاملة ويعذّبون لإشباع حاجتهم القهرية **compulsionnels** إلى تكرار قصتهم، وتراهم يقومون بهذا بلا أدنى تعاطف مع الضحية لأنهم يتماهون تماماً مع العامل العدواني. هؤلاء الأشخاص كانوا، هم أنفسهم، قد تعرّضوا للضرب والإهانة في عمر مبكر بحيث لم تترك أمامهم أبداً إمكانية الإحساس الواعي بالطفل الذي سبق الاعتداء عليه فيهم من دون أن يتمكن من الدفاع عن نفسه، لأن هذا الأمر كان يقتضي وجود شخصٍ راشد إلى جانبهم، وهو ما لم يحدث. بهذا الشرط فقط يمكن للطفل أن يعيش ذاته لما هو عليه في الوقت الراهن، أي أن يعيش طفلاً ضعيفاً لاحول له ولا قوة، ويُضرب فلا يستطيع الدفاع عن نفسه، ودمج هذا القسم من نفسه في أناه.

يمكننا، أن نتخيّل نظرياً أن الطفل تعرّض للضرب من أبيه، وتمكّن لاحقاً من أن يشكو قرفه لعمّته، ويروي لها ما حدث معه، وأن هذه العمّة لم تحاول جعل الطفل ينسى آلامه، أو أنها تبرّر ما فعله الأب، أو بالعكس تتدخل بكل ثقلها. لكن الطفل لا يحظى دائماً بمثل هذه الفرصة. فإما أن يكون الشريك الزوجي لمن يضرب الطفل متفقاً مع مبادئه التربوية أو ضحيةً لها، وفي كل الأحوال لا يمكنه أن يجعل من نفسه محامياً عن الطفل. و«العمّة» التي تخيّلناها في ما سبق هي استثناءٌ نادر، لسبب وجيه هو أن الطفل لا يعود أبداً قادراً على امتلاك الحرية الداخلية اللازمة للبحث عنها واللجوء إليها. والطفل يفضّل تحمل مسؤولية العزلة الداخلية المخيفة ومصارعة مشاعره بدلاً من «الوشاية» بوالديه. ويعرف المحلّلون النفسيون مقدار الزمن اللازم للطفل المكبوت منذ ثلاثين، أو أربعين، أو حتى خمسين عاماً، لكي يعيش التوبيخ ويعبّر عنه.

وهو واحدٌ من أسباب كثيرة تجعل حياة الطفل الصغير الذي يتعرض للمعاملة السيئة أسوأ وأكثر خطورة على المجتمع من حالة البالغ في معسكر الاعتقال. من المؤكد أن المعتقل السابق يجد نفسه أيضاً عاجزاً في بعض الحالات عن إفهام الآخرين مقدار ما عانى في فترة اعتقاله، فينظرون إليه نظرة باردة صمّاء، ولا مبالية، أي غير مصدّقة لما يقول[1]، أما هو فليس لديه أدنى شك في المأساة التي عاشها، ما خلا بعض الاستثناءات النادرة. إنه لا يحاول أبداً جعل الأهوال التي عاشها عبارة عن هِبات، ولا إقناع نفسه بأن عبثيات المعسكرات كانت عبارة عن إجراء تأديبي كان يحتاج إليه، ولا يسعى إلى الدخول في لعبة مبرّرات جلاديه. سيجد أناساً عاشوا تجارب مشابهة ويشاركونه مشاعر التمرد، والكراهية واليأس، لأنه عاش مثل هذه الأهوال.

أما الطفل الذي تعرّض لمعاملة سيّئة فلا يملك أيّاً من هذه الإمكانيات. وكما حاولت بيانه عبر مثال كريستيان ف. فإن الطفل يكون وحيداً مع آلامه، ليس في كنف العائلة فقط بل في داخل نفسه أيضاً. وبما أنه لا يستطيع مشاركة آلامه مع الآخرين، ولا يجد في نفسه مكاناً يذرف دموعه فيه ولا يخلق «عمّة طيّبة» مُتخيَّلة في أناه، تراه يلجأ إلى الإيديولوجيا: «يجب أن يكظم غيظه ويكون شجاعاً». الشخص اليائس الذي يفتقر إلى من يدافع عنه لا يجد مكاناً له في كنف الأنا، لأنه يكون مضطهداً بعد ذلك حيثما يكون في العالم من خلال تماهيه بالمعتدي.

1- يقدم كتاب ج. نييدرلاند **G.Niederland**: تبعات الاضطهاد **1980**(**Folgeg der Verfolgung**) إلى القارئ، عبر اختبار طبي نفسي وصفاً مؤثراً لبيئة المعتقل السابق وعدم تفهّم هذه البيئة لما يقول.

الشخص الذي أُرغم منذ البداية على خنق الطفل الحيّ فيه، سواء من خلال العقوبة أو من دونها، أو عبر استبعاده، أو رفضه واضطهاده سيظلّ مهموماً طيلة حياته بعدم السماح لهذا التهديد الداخلي بالظهور مرة أخرى. لكن القوى النفسية تملك قدراً من المقاومة بحيث يندر كبتها نهائياً، فتبحث دائماً عن متنفّس يمكّنها من البقاء بصورة مشوّهة لا تخلو دائماً من الخطر على المجتمع؛ ويتمثل أحد أشكالها في إسقاط العنصر الطفولي على الخارج، أي في الأنا الأسمى؛ أو في مقارعة «الشر» داخل الذات. وتبيّن «التربية السوداء» أن هذين الشكلين مرتبطان أحدهما بالآخر، وأن التربية الدينية التقليدية تجمع بينهما.

إن مقارنة المعاملات السيئة التي يتعرّض لها الطفل، بالمعاملات السيئة التي يتعرض لها البالغ، تجعل من الوفاء والعزلة مظهراً آخر لها، بمعزل عن درجة نضج الأنا. فلا شك أن المعتقل الذي يعامل بطريقة سيئة غير قادر على إبداء المقاومة، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه ضد الإذلال، لكنه يبقى حرّاً من الداخل في أن يكره سجانيه. وهذه الإمكانية في أن يعيش المعتقل مشاعره، بل حتى تقاسمها مع المعتقلين الآخرين، تمنحه فرصة عدم وجوب التخلي عن أناه. لكن الطفل لا يملك تلك الفرصة تحديداً، إذ لا يُسمح بكراهية والده، لأن الوصية الرابعة [من الوصايا العشر] تمنعه من هذا بعد أن تعلمها في صغره؛ لا يمكنه كرهه لأن عليه أن يخاف من فقدان حبه؛ ولا يريد كرهه، لأنه يحبه. ومن ثم يجد الطفل نفسه لا أمام جلّاد يمقته، بل أمام جلاد يحبه، وهذا التعقيد الدرامي تحديداً، هو الذي سيكون له أكبر تأثير على بقية حياته. كتبت كريستيان ف:

> في الحقيقة لم أكرهه قطّ، بل أخافه فقط. وكنتُ دائماً فخورة به: لأنه يحب الحيوانات، ولأنه كان يملك تلك السيارة القوية من نوع بورش 1962. (ص.44).

هذه الجمل تثير القلق لأنها صحيحة قطعاً: ولأن هذا ما يشعر به الطفل تماماً. تسامحه بلا حدود، وهو دائماً وفيّ وحتى فخور لأن والده، الذي يضربه بكل غلظة، لا يسيء أبداً إلى الحيوان؛ ومستعدّ ليغفر له كلّ شيء، وتحمّل المسؤولية دائماً، وعدم الشعور بأي كراهية إزاءه، ونسيان ما حدث بسرعة، ويجهد عبر سلوكه في تحاشي التعرّض لأيّ ضربة، ومحاولة معرفة سبب استياء والده، وتفهّمه، الخ. في المقابل، يندر أن يتصرف البالغ - إلا إذا كان طبيباً نفسياً - إزاء الطفل، بينما عملياً هذه هي القاعدة بالنسبة لطفل حسّاس وتابع. لكن، ما الذي تؤول إليه جميع الانفعالات المكبوتة؟ بكل بساطة، لا يمكن القضاء عليها. ومن ثم، لا بدّ أن تتحول

إلى أشياء بديلة من أجل عدم إحراج الأب. تقدّم لنا سردية كريستيان حول هـذه النقطـة صـورة واضحة تماماً حينما تتحدث عن حياتها مع أمّها وصديقها كلاوس، بعد طلاق الأمّ:

انتهى الأمر بينهما إلى الشجار حول بعض التفاصيل التي أتسبّب بها أحيانـاً. في الأغلـب بسبب أسطواناتي، بعد أن أهدتني أمي قارئاً لهـا بمناسـبة عيـد مـيلادي الحـادي عشر. في المساء أضع أسطوانة - لديّ بعض الأغاني الناجحة، والقليل من موسيقا الديسكو. وأتركهـا تعمل حتى تصمّ الآذان. ذات مساء، دخل كلاوس غرفتنا وطلب مني خفض الصوت فلـم أستجب له. عاد ورفع ذراع قـارئ الأسـطوانة. فأعدتـه وجلسـت أمـام قـرئ الأسـطوانات لأقطع عليه الطريق. دفعني كلاوس. لم أحتمل أن يلمسني هذا الرجل، فتفجّرت غضباً.

هذه الطفلة نفسها التي احتملت، وهي غير قادرة على الدفاع عن نفسها، أشرس معاملة من أبيها «تتفجر غضباً» مباشرة حينما «يلمسها هذا الرجل». غالباً ما نلاحظ عملية مشابهة في إطار التحليل. نساء يعانين الـبرود، أو يعـبّرن خـلال التحليـل عـن إحسـاس بـالقرف لـدى أيّ احتكـاك بأزواجهن، لأن ذلك يعيد إليهن ذكريات قديمة جداً من الاعتداء الجنسي عليهن من الأب، أو من رجل آخر من العائلة. هذه الذكريات لا تعود عموماً إلى الظهور إلا عـلى شـكل انفعـال مخفّـف جداً، ويبقى الانفعال العنيف مرتبطاً بالشريك الحالي حتى يبدأ. ولا تتكشف مجموعـة الخيبـات من هذا الأب المحبوب إلا مع الزمن: كالخجل، والإذلال، والغضب والتمرّد.

في إطار التحليل النفسي، لا تندر رواية ذكريات ساترة **souvenirs- écrans** لمشاهد مشـابهة مع أشخاص أقلّ قرابةً، قبل أن تعود معرفة الاعتداء الذي ارتكبـه الأب بنفسـه إلى الظهـور عـلى مستوى الوعي.

من كان إذاً ذاك «الرجل» لو لم يكن الأب نفسه؟ ولِمَ لم تدافع الطفلـة عـن نفسـها؟ أو تخـبر والديها بأيّ شيء؟ ألم تعِش في السابق شيئاً مماثلاً مع أبيها، واعتبرت عندئذٍ واجب السكوت أَمراً بديهياً؟ إن تحويل الانفعالات «السيّئة» إلى أشخاص أكـثر حياديـة يسـمح بالإبقـاء عـلى العلاقـة بالأب التي تعدّ، بشكل غير واعٍ، بوصفها علاقة «جيدة ». ما إن تمكّنت كريسـتيان مـن مواجهـة كلاوس، حتى لم يعد والدها «يبدو لها» «سوى الرجـل نفسـه. [...] وهـو يـتصرف معنـا في غايـة اللطف. وأهداني كلبة أخرى.» وتقول بعد ذلك:

بدا والدي رائعاً، ولاحظتُ أنه يحبّني- بطريقته. ويعاملني الآن كبالغة تقريباً. بل كان يصحبني أحياناً حينما يخرج مع صديقته مساء.

أصبح متعقلاً تماماً. وصار لديه الآن أصدقاء من عمره، ولم يكن يخفي عنهم أنه كان متزوجاً. لم أعد أناديه بالعم ريشارد. فأنا ابنته. وكان يبدو فخوراً بي. لكن كان هناك ثمة عيب واحد: فقد اختار - هو بالذات - تاريخ العطل تبعاً لما يناسبه وأصدقاءه. عند نهاية عطلتي، وهو ما جعلني أتأخر عن مدرستي أسبوعين. (ص.48-49).

ومن ثم فإن عدم مقاومتها بتاتاً ضدّ عنف الأب، تحوّل نحو الأساتذة:

لا أشعر أني «متميّزة» في هذه المدرسة. فالآخرون يتقدمونني بأسبوعين. وهذا كثير بالنسبة لمدرسة جديدة. أجرّب ما كنت أمارسه في المدرسة الابتدائية: فأصيح، وأُقاطع الأساتذة، وأناقضهم. لأنهم برأيي يخطئون أحياناً من حيث المبدأ. فبدأت حرباً على الأساتذة والمدرسة. أريد أن أصبح متميزة. أن أكون.(ص.49).

اتسعت مقاومتي لتشمل رجال الشرطة. طوى النسيان العميق انفجارات غضب الأب، ما دفع كريستيان إلى القول:

لم أعرف حتى الآن ممثلين كريهين للسلطة أكثر من حرّاس البناء؛ لأنهم يهجمون عليك حينما تريد أن تتسلى. رجال الشرطة يجسدون عالماً لا يُطال. وها قد عرفت أننا في مجمع غروبيوس نعيش في عالم بوليسي. وأن رجال الشرطة أخطر من حرّاس المبنى. لئن قال كل من بييت وشارلي هذا، فهذه هي الحقيقة تماماً (ص.55).

اقترح عليها الآخرون تعاطي الحشيش في وقت وجدت فيه نفسها «غير قادرة على الرفض، بطبيعة الحال»:

بدأ شارلي يلامسني، لكني لم أعد أعرف ما إذا كنت ما أزال مسرورة أم لا. (ص.56).

لا ينبغي على الطفل المطيع اختبار ما يشعر به فعلياً، بل ما ينبغي عليه هو الشعور به:

لم أقاوم، وبدوت كالمشلولة. شعرت بخوف هائل. رغبت في الهروب، لكن قلت لنفسي: «هذا هو ثمن قبولك في الجماعة يا كريستيان». لم أتحرك ولم أقل شيئاً. زد على هذا، أن هذا النمط يثير إعجابي بشكل رهيب. لكن حينما طلب مني مداعبته بدوري وأمسك بيدي ليسحبها نحوه، تخلّصت منها، وشبكتُ يديّ فوق ركبتي. (ص.58)

لا بدّ أن كريستيان عرفت مبكراً جداً أن اكتساب الحب والاحترام يتم عبر إنكار الإنسان لحاجاته، وانفعالاته ومشاعره (كراهية، قرف، نفور، الخ.) أيْ التضحية بالذات. ويبذل جهده كله لبلوغ هذه التضحية، أي أن يكون هادئاً **cool**. وكلمة «هادئ» هذه نجدها في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب. ولبلوغ هذه الحالة وحتى لا نعيش انفعالات غير مرغوبة، لا بدّ من الحشيش:

> [...] بينما كان الكحول يقود بعض الشباب إلى النادي ليتخلصوا من كآبتهم، وينتهي بهم إلى العدوانية، كان شباب مجموعتنا قادرين على الانطلاق. فما إن ينتهي عملهم، حتى يقوموا بكل ما يعجبهم: تعاطي المخدرات، والاستماع إلى الموسيقا الهادئة... فيخيّم الهدوء. وننسى جميع أوساخ النهار.
>
> لا أشعر بعد أني كالآخرين تماماً. فأنا صغيرة على ما أظن. لكنهم يمثلون النماذج التي أحبها. أريد أن أشبههم، وأتعلم منهم كيف أكون هادئة، ولا أعير الحمقى وهذا الوسخ كله اهتمامي. (ص.59)
>
> أحتاج دائماً إلى البلادة إلى حد ما. أرغب في هذا، وينبغي ألّا يشكّ أحدٌ بأني لست هادئة كما أسعى إلى أن أبدو كذلك. (ص.61). لا تشكو جماعتي من أي مشكلات؛ فنحن لا نتحدث أبداً عن مشاكلنا. لا أحد يزعج الآخر بهمومه البيتية أو المتعلقة بالعمل. حينما نكون معاً، لا تعود وساخة العالم الخارجي موجودة. (ص.73).

الفاعل يعي أناه المزيّف ويكونهُ ويحسّنهُ بصعوبة كبيرة، وهو جهدٌ تظهره بعض الملاحظات الآتية:

> [...] شبابٌ من أروع ما يكون.[...]. أجده أكثر روعةً من فتيان مجموعتنا. (ص.77).
>
> جمعٌ من الناس من دون أيّ تواصل بينهم (ص.78).
>
> جماعة رائعة جداَ (ص.82).
>
> اصطدمت بفتىً في درج الساوند [...] هيئته بالغة الهدوء. (ص.81).

لكن تحقيق هذا النموذج من الهدوء الكامل هو تحديداً الأصعب على المراهق. ففي سنّ البلوغ يعيش الإنسان أشد أشكال مشاعره، ومقاومة هذه المشاعر بالمخدّرات يعادل قتل

النفس. ومن ثم، لكي يتمكّن هذا الفاعل من الاستمرار في إنقاذ حيويّته وحساسيّته، لا بدّ له من مخدّر آخر لا يهدّئه، بل بالعكس يثيره، أي «ينشّطه»، ويعيد إليه الشعور بأنه حيّ. المهمّ هو القدرة على ضبط كل شيء، والسيطرة على الذات والتعامل معها. وبالطريقة نفسها التي يضبط الأهل بها ردود الفعل الانفعالية عند الطفل من خلال العقوبات الجسدية تبعاً لحاجاتهم الخاصة، فإن الطفل في سن الثانية عشرة يستعين بالمخدّر لكي يستخدم انفعالاته:

في الساوند يتوفر المخدّر بكثرة. لكني لا أتعاطى الهيروين بل كلّ شيء آخر كالفاليوم، وإيفيدرين، والماندراك. فضلاً عن هذا أدخّن الكثير من السجائر، بطبيعة الحال، وأسافر مرّتين في الأسبوع على الأقل. نبتلع المنشّطات، والمنومات (باربيتوريك) بكميات، فتتصارع مع بعضها بقوة في الجسم، وهو ما يثير فينا هذه الأحاسيس الرهيبة. يمكن أن يختار الواحد منا مزاجه، أو المزيد من المهدئات. حينما أرغب في الاحتفال في الساوند، وأريد بلوغ حالة الهيجان ألجأ إلى الإيفيدرين. وإذا فضّلت البقاء هادئة في زاويتي، أو مشاهدة فلم في سينما الساوند، أزدرد الفاليوم والماندراك، فأسبح في السعادة خلال بضعة أسابيع. (ص.84).

وتتابع كريستيان ف. قولها:

في الأيام التالية أبذل جهدي لقتل أيّ مشاعر إزاء الآخرين؛ فأقلع عن تناول العقاقير، أو حبوب **LSD** المهلوسة. أدخن سيجارة تلو الأخرى، وأقضي يومي في شرب الشاي المخلوط بالحشيش. وبعد بضع أيام، أجد نفسي هادئة من جديد. لقد نجحت في الكفّ عن حبّ أيٍّ كان باستثناء نفسي. أظن أني صرت من الآن فصاعداً قادرة على التحكم بمشاعري. (ص.89).

أصبحتُ بالغة الهدوء بعد إقلاعي عن تناول المنشطات، والاستعاضة عنها بالمهدّئات، فقدت حيويّتي؛ ولم أعد أرقص. وأشعر بقليل من الاضطراب حينما لا أجد الفاليوم.

أفترض أني أصبحت أكثر ظرفاً للعيش مع أمي وصديقها. لم أعد أردّ، أو أتشاجر، أو أعترض على أي شيء. لأني تخلّيت عن تغيير أي شيء في حياتي وفي البيت؛ فلاحظت أن هذا يبسّط الحالة. (ص.90).

ذات يوم سبت، توفر لديّ بعض النقود، فبالغت. ولشعوري بالإنهاك، وضعت حبتي كابتاغون، وثلاث حبات إفيدرين، وبعض حبات الكافئين، في كأسٍ من البيرة

وشربت هذا الخليط. بعد أن استعدتُ نشـاطي تمامـاً، شـعرتُ بعـدم الرضـا عـن نـفسي، فازدردت حبوب الماندراك، وجرعةً لا بأس بها من الفاليوم (ص.93-94).

لم تكن فرحةً بحضور حفلٍ موسيقيّ يحييه المغني المعروف دافيد بوي **D.Bowie**، وشـعرت أنها مضطرة لتناول جرعة لا بأس بها من الفاليوم قبل الذهاب إلى الحفل. «ليس لتحلّق، بل لـكي تبقى هادئة وهي تستمع إلى دافيد بوي.» (ص.96).

بدأ دافيد بوي بالغناء. إنه رائع كما تخيلته تقريباً. لكن لدى سماعي المقـاطع الأولى مـن أغنيته «**It is to late**= تأخر الوقت كثيراً» انهارت قواي. وفجـأة وجـدت نـفسي منهكـة كالحمقاء. خلال الأسابيع الماضية، حينما لم أعد أعرف شيئاً، أو كيف تسير الأمـور، بعثـت هـذه الأغنيـة الملـل في نـفسي. وجـدت أنهـا تصـف حـالتي تمامـاً. وشـعرتُ بالحاجـة إلى الفاليوم. (ص.97).

لم تعد الوسائل القديمة كافية لكي تسيطر كريستيان على نفسـها وهـي في الثالثـة عشرة مـن عمرها، انتقلت إلى الهيروين؛ فسارت الأمور في البداية كما كانت تشتهيها:

في البداية، خطرت في بالي فكرة: «اللعنة! ما زلت في الثالثـة عشرة مـن العمـر، وهـا أنـذا أتعاطى الهيروين»، لكني طردتها من ذهني فوراً. شعرت بـأني في حالـة جيـدة تسـمح لي بـالتفكير. في البدايـة لم أُصـب بنوبـات مـن الاهتيـاج. وشـعرت بالهـدوء في نـفسي طيلـة الأسبوع. لا شجار في البيـت. وفي المدرسـة كنـت أنظـر إلى الأمـور بأعصـاب هادئـة جـداً، وصرت أدرس قليلاً، وأحصل على علامات جيدة، وازداد معدلي. شعرتُ فعلاً بأني هادئة في حياتي، ومتصالحة مع الناس والأشياء (ص.101).

الأشخاص الذين لم يتعلموا خلال طفولتهم كيف يتآلفون مع ما يشعرون به فعلاً، ويتصرفون إزاءه بحرية، يصطدمون بصعوبات كبيرة في مرحلة البلوغ:

[...] لكني كنت دائماً أعاني من مشكلات، حتى من دون أن أعرفهـا. لكنهـا تـتلاشى حيـنما أشمّ، لكن منذ فترة طويلة لم يعد الشمّ يكفيني أكثر من أسبوع. (ص.111).

فقدت الإحساس بالأشياء الواقعية. ولم أعد أهتمّ بالباحة أو بالغـد. لـيس لـديّ مشـاريع، الـلـهمّ سوى الأحلام. موضوع الأحاديث المفضّل لـديّ يقـوم عـلى تخيّـل مـا سـنفعله أنـا وديتليف، هذا إذا كنا نملك الكثير من المال. قد نشتري بيتاً كبـيراً، وسـيارة فارهـة، وأرقـى أنواع الأثاث. نحلم بأشياء كثيرة - عدا الهيروين. (ص.114).

مع أول توقف مفاجئ عن تعاطي المخدرات **cold turkey** [الفطام] تختفي إمكانية التعامل مع المشاعر والاستقلال إزاءها. إنه نكوص تامّ إلى مرحلة الرضيع:

ها قد أصبحت مدمنة على الهيروين وديتليف. أكثر ما يثير الهلع في نفسي هو التعلق بديتليف. ما هذا الحب الذي يقوم على التعلق التامّ بالآخر؟ ما الذي سيحدث إن كنت مضطرّة إلى التوسل إلى ديتليف ليعطيني القليل من المخدر؟ سبق أن رأيت متعاطي مخدرات في حالة من الحاجة إلى المخدر. رأيتهم يتسوّلون، ويحطّون من قدرهم، ومستعدّون لتحمّل كل أنواع المهانة. أما أنا فلم يسبق لي أن طلبت ولن أبدأ هذا مع ديتليف. هو بالذات. إذا جعلني أتوسّل إليه، ستنتهي العلاقة بيننا. (ص.135).

بدأت أفكر بطريقة تعاملي مع مدمني الهيروين **Junkies**، فلاحظتُ مقدار حساسيتهم، وضعفهم وعدم قدرتهم على المقاومة. حينما يحتاج المدمن إلى المخدر يصبح بلا شخصية تماماً بحيث أنه لا يقدر على معارضتك. وقد سبق لي أن مارست عليهم شهواتي في القوة. وبشيء من حسن التصرف، يمكن تدميرهم نهائياً. يكفي أن تضرب في المكان المناسب، وإذا أصررنا على إيلامهم، تراهم ينهارون. حينما ينقصنا المخدر، يكون ذهننا صافياً إلى حدٍّ ما لندرك أننا في حالة يرثى لها. تنهار الواجهة الهادئة، ولا نعود نرى أنفسنا فوق أي شيء، أو فوق الجميع. (ص.136).

قلتُ لنفسي: «الآن جاء دوري لأعاني هذه الحالة حينما ينقصني المخدر؛ وسيدركون أني قبيحة ومثيرة للضحك». (ص.136).

في هذه الحالة من القلق الذي ينتاب كريستيان حينما يعوزها المخدر، فهي تفتقد من يمكنها التحدث إليه؛ لأن أمها «ستجد نفسها في حالة صعبة لو حدثتها بهذا الأمر.» وتقول كريستيان لنفسها وهي تحتمل وحدتها المأساوية كطفلة، وتجنيب أمها ذلك: «لا يمكنك أن تفعلي هذا بها».

فتعود إلى التفكير بأبيها بعد فترة طويلة من «ممارستها الدعارة» وإخفاء هذا الأمر عن صديقها ديتليف.

«من أين أتيتِ بهذا؟ هل بعتِ نفسكِ»، فأجبتُ بصوتٍ عالٍ: «هل تحلم، أمثلي من يقوم بذلك؟ لقد توقفت عن تعاطي الإبر. أبي هو من أعطاني مصروفي، بعد أن تذكّر فجأةً أن لديه ابنة.»

إذا كان الحشيش ما يزال يبعث الأمل في التحرّر من الإدمان «الهادئ»، سرعان ما يبدو أن الهيروين يدفع إلى توقع الإدمان التام. «أصبح المخدّر؛ المخدر القويّ الذي يضطلع، في نهاية المطاف، بوظيفة الأب الغضوب، والعنيف، وعانى منه في طفولته، يشبه الهيروين حالياً. وبالطريقة نفسها لا بد أن يبقى أنا الأهل مخفيّاً، حيث الحياة الحقيقية تعاش هناك سراً، وغير مشروعة؛ مخفيّة في البداية عن المدرسة أو عن الأم.

ازدادت عدوانيتنا جميعاً شيئاً فشيئاً. أُرهقت أعصابنا من الهيروين، والصخب الذي كنا نعيش فيه، والمعركة اليومية من أجل المال، وحول الهيروين، والكآبة المنزلية - حيث ينبغي دائماً أن نختبئ، أو نخترع أكاذيب جديدة على الأهل-.راكمنا الكثير من العدوانية فلم نعد نسيطر على أنفسنا، حتى بيننا. (ص.156).

هنا تتضح عودة الأب إلى الديناميكية النفسية، ربما ليس بالنسبة لكريستيان فقط بل لأي مراقب، حينما تصف لقاءها الأول مع ماكس - بيغ. هذا السرد البسيط والصادق يثير لدى القارئ مزيداً من الفهم لطبيعة المأساة والانحراف اللذين لا يمكن لأي دراسة تحليلية نفسية القيام بها. تقول كريستيان:

روى لي ديتليف قصة حزينة عن ماكس-بيغ الأربعيني تقريباً والعامل في مدينة هامبورغ. وقد اعتادت أمه البغيّ مع قوّاديها، والمؤسسات التي أُلحق بها، على ضربه بشكل مبرح جعله يخفق في تعلّم الكلام بشكل صحيح، وازدادت حاجته إلى الضرب لتلبية حاجته الجنسية.

ما غن زرناه حتى طلبتُ منه مالاً، مع أنه كان معتاداً على ما ليس ضرورياً اتخاذ مثل هذه الحيطة. أعطاني بالفعل مئةً وخمسين ماركاً كانت بحوزته، فسررتُ للحصول على هذا المبلغ الكبير بطريقة سلسة.

رفعت قميصي ثم ناولني السوط، كما لو كنا في السينما. انتابني الانطباع بأنني خرجت من جلدي. في البداية لم تكن ضرباتي قوية. لكنه توسّل إليّ لكي أوجعه. ففعلت. راح يصرخ: «أمي!» ثم لم أعد أعرف ما يتلفظ به، ثم توقفت عن الإصغاء إليه، وأحاول ألا أنظر إليه؛ ومع ذلك كنت أرى آثار الضرب فوق جسمه الذي بدأ بالتورّم، بل تشقّق جلده في بعض المواضع. أصبح منظره مقرفاً بعد قرابة الساعة من الضرب المتواصل.

بعد أن انتهيت أخيراً، ارتديتُ قميصي وهربت راكضة فوق السلم بكل سرعة. وحينما صرت في الخارج، لم تعد معدتي تريد أن تعرف شيئاً، فتقيّأت أمام البيت تماماً. ثم انتهى الأمر. لم أبكِ، ولم أشفق على نفسي. أعرف تماماً أنه إذا كنت غارقة في الوحل، فلن ألوم إلا نفسي.

ذهبت إلى ميترو زو **zoo** حيث كان ديتليف هناك. لم أقل له الشيء الكثير، اللهم إلا أني تصرّفت وحدي مع ماكس لوبيغ، وأريته المئة وخمسين ماركاً. (ص.147).

ماكس لو بيغ زبوننا المفضل المشترك، أنا وديتليف. نذهب إليه تارةً معاً، وطوراً منفصلين. الحقيقة أنه شخص شهم، يحبنا كثيراً. لا شك أن أجره كعامل لا يسمح له بالاستمرار في دفع مائة وخمسين ماركاً. لكنه كان دائماً يتدبّر أمره لإعطائنا أربعين ماركاً ثمن إبرة مخدر، بل ذات مرة، كسر حصالته ليعدَّ لي أربعين ماركاً قرشاً بقرش بعد أن أضاف إليها قطعاً متناثرة موجودة فوق صحون الكؤوس. كنت أقصده كلما كنت على عجلة من أمري وأطلب منه سلفة من عشرين مارك؛ فيناولني المبلغ إذا كان متوفراً لديه.

كان لدى ماكس لوبيغ دائماً ما يقدمه لنا، فأتناول كأساً من عصير الدراق مشروبي المفضل. أما ديتليف فيأكل البودينغ (أمعاء غليظة محشوة باللحم) مع السميد، يحضّره ماكس لوبيغ بنفسه، ويضعه دائماً في الثلاجة؛ ولمعرفته برغبتي في أن أتناول شيئاً من الطعام بعد إنجاز العمل، فقد كان يشتري تشكيلة من اللبن بالشوكولا من نوع دانون. أصبح الجَلد [الضرب بالسوط] بالنسبة لي شأناً روتينياً محضاً. وما إن أنتهي من هذه الحملة حتى أبدأ بالأكل، وأشرب وأثرثر مع ماكس.

بعد فترة قليلة، فقد عمله. لم يكن يتعاطى المخدرات قطّ، ولو على سبيل التجربة، وها هو ذا الآن منهك؛ بعد أن دمره الكوكائين. كان يتوسل إلينا لنقوم بزيارته. لكن لا ينبغي أن يُطلب هذا الأمر من متعاطي المخدرات، لأنه ليس من هذا النوع. فهو أولاً لا يستطيع القيام بأيّ حركة إزاء الآخرين. ثم، وربما لا سيما أنه لا وقت لديه؛ لأنه يبحث طيلة نهاره عن المال الذي يحتاجه ليتعاطى المخدرات. شرح ديتليف هذا كله لماكس لوبيغ الذي أقسم إنه سيعطينا الكثير من المال الذي سيتوفر عليه. فقال له ديتليف بجفاء: «المدمن كرجل الأعمال». لأنه يحرص كل يوم على أن تكون حساباته متوازنة. لا يمكنه أن يقدّم قرضاً بذريعة تعاطفه أو صداقته.» (ص.150).

كريستيان وصديقها ديتليف يتصرفان كوالدين يعملان، ويستغلّان حب طفلهما (الطامح) وتبعيته لهما، وينتهي بهما الأمر إلى تدميره. فمن جهة نرى أن اختيار اللبن عند ماكس- لو بيغ يشبه حتماً «إبراز السعادة أثناء الطفولة». يمكن أن نتخيل أن أمها كانت تهتم كثيراً بأن تقدم لها ما تأكله بعد أن تضربها. لكن في ما يتعلق بكريستيان - التي لولا ما عاشته مع أبيها، ما كان لهذا اللقاء الأول مع ماكس لو-بيغ أن «يكون» على هذا النحو. هنا، نرى أن الأب هو الذي يضرب زبونه ليس بناء على أمرٍ فقط، بل للبؤس الذي راكمه طفلٌ تعرّض للضرب. هذا التماهي مع المعتدي يساعدها أيضاً على كبت ضعفها، والإحساس بأنها قوية على حساب الآخر، وعلى البقاء، بينما كينونة كريستيان الحقيقية، كينونة الطفلة المتيقظة، والحساسة، المفعمة بالحيوية والتابعة ترفضه شيئاً فشيئاً:

حينما يشعر أحدنا بحاجة إلى المخدر، لا يصعب على الآخر أن يدمره تماماً حتى إن وجد كلٌّ منا نفسه لاطياً بين ذراعي الآخر كطفلين، فهذا لا يغير في الأمر شيئاً كثيراً. لأن كلّاً منا صار يرى في الآخر صورة سقوطه. نخيف بعضنا لأننا وجدنا نفسينا قبيحين، فيقع أحدنا على الآخر الذي يفعل الشيء نفسه، من أجل أن نثبت لنفسينا أننا لسنا قبيحين إلى هذا الحد.

هذه العدوانية كنا نفرغها طبعاً على المجهولين. (ص.160).

في الماضي، كنت أخاف كلّ شيء. من أبي، ثم من صديق أمي، وتلك المدرسة القذرة والأساتذة، وحراس البناء، وشرطة المرور ومراقبي الميترو. الآن أشعر بأن لا شيء يؤثر فيّ. حتى رجال الشرطة بملابسهم المدنية الذين يسيرون فوق أرصفة الميترو لا يؤثرون فيّ، وقد أفلتت من جميع عمليات الاعتقال حتى الآن. (ص.190).

هذا الفراغ الداخلي، وجمود المشاعر ينتهي إلى جعل الحياة عبثية تماماً ويقود إلى أفكار الانتحار:

مدمنو المخدرات يموتون وحيدين، غالباً في المراحيض العفنة. تحدوني الرغبة في الموت فعلاً. في الحقيقة، لا أنتظر غير ذلك. لا أعرف سبب وجودي في العالم. أنا في هذا العالم. في السابق أيضاً لم أكن أعرف هذا جيداً. لكن لماذا يعيش المُدمن؟ ليدمّر نفسه، وليدمر الآخرين؟ بعد ظهر هذا اليوم، قلت لنفسي، من الأفضل لو أموت، لا لشيء إلا لحبّي لأمي. على كلّ حال، لم أعد أعرف ما إن كنتُ موجودة أم لا.(ص.213).

أرغب في أن أموت، لكن ينتابني هلعٌ مخيف قبل كل حقنة. ربما لأن منظر قطّي يؤثر فيّ. ما أبشع أن يموت الإنسان حينما لا يكون قد عاش (ص.215).

إنها لفرصة عظيمة أن قام الصحفيّان في صحيفة **Stern** كاي هيرمان **K.Hermann** وهورست رييك **H.Rieck** بإجراء مقابلة طويلة مع كريستيان استمرّت شهرين. ولأن هذه المقابلة قد أُجريت في مرحلة حاسمة من سنّ البلوغ بعد الأهوال التي عاشتها، فإن فرصة خروجها من العزلة النفسية، والعثور على أشخاص مستعدّين للاستماع إليها، وفهمها، والاهتمام بها، وإتاحة الفرصة لها لتعبر عن نفسها وتسرد قصتها، قد يكون له أهمية حاسمة على بقية حياتها.

المنطق المستور للسلوك العبثي

لا بد أن تثير قصة كريستيان ف. لدى القارئ العاطفي أملاً كبيراً وشعوراً عميقاً بالعجز بحيث تجعله يحلم بنسيان هذا كلّه بأسرع ما يمكن، لشعوره بأن ما يروى له حقيقة محضة. لو تركنا القصة في حد ذاتها جانباً وطرحنا طيلة قراءتها سؤال «لماذا»، فإننا سنجد فيه تفسيراً دقيقاً ليس لطبيعة الإدمان فحسب بل لطبيعة الأشكال الأخرى للسلوك البشري التي تصدمنا عبثيتها، ويعجز منطقنا عن فهمها أيضاً. حينما نجد أنفسنا أمام شخص مدمن على تعاطي الهيروين وهو بصدد تدمير حياته، لا نميل كثيراً إلى ذرائع معقولة، والأسوأ من هذا، إلى الرغبة في التدخل عبر اتخاذ إجراءات تربوية معينة. حتى إن كثيراً من معالجي الجماعة يعملون في هذا الاتجاه، فينتقلون من سيّئ إلى أسوأ من دون ان يوقظوا لدى الفاعل أدنى اهتمام بالدور الذي يلعبه المخدر فعلاً في حياته، أو سعيه غير الواعي لنقله إلى محيطه. سنوضح هذا الأمر بالمثال:

خلال برنامج بثّته القناة الثانية في التلفزيون الألماني (**Z.D.F.**) بتاريخ 23 آذار 1980، تحدث أحد مدمني الهيروين سابقاً عن حياته الراهنة بعد أن شفي منه بعد خمس سنوات من تعاطيه له. ولمسنا بوضوح كبير مزاجه المحبط، بل الانتحاري. قال إنه كانت له صديقة يوم كان في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً؛ وقد سُمح له آنذاك بتحويل إحدى غرف الطبقة الثانية من بيت والديه إلى شقّة، وجهّزها بأسباب الراحة البورجوازية بما تعنيه من تحسينات ممكنة يمكن تخيّلها. والداه اللذان لم يفهماه أبداً، وعدّا إدمانه نوعاً من المرض القاتل، صارا يحتاجان إلى المساعدة، كما يقول، وحرصا على أن يبقى ساكناً معهما. تتمسك هذه الشخصية

بجميع قيم الأشياء الشخصية القادرة على امتلاكها، بل قد تضحّي باستقلاليتها من أجلها للعيش في قفص ذهبي، وكانت دائمة الكلام عن خطر الانتكاسة التي يتعرض لها مدمن الهيروين. لو خضع هذا الشاب لعلاج أتاح له فرصة اختبار ما تراكم عنده من كراهية تراكمت خلال طفولته ضد والديه المتسلطين، اللذين كانا يحدّان من مشاعره ويقمعانها، لما حبس نفسه في قفص، ولقدّم لوالديه على الرغم من ذلك مساعدة أكثر واقعية وأكثر حقيقيّة. لكنها مساعدة مشروطة بتبعية الطفل لهما. لكن إذا أصبحنا تابعين للأهل، فثمة احتمال كبير لأن نسعى إلى معاقبتهم من خلال الإدمان على المخدرات أو الانتحار. هذه السيناريوهات تروي في الحقيقة قصة الطفولة المسكوت عنها طيلة الحياة.

على الرغم من ضخامة السلطة التي يتمتع بها الطب النفسي، لكنه يبقى عاجزاً بشكل أساسي لأنه يسعى إلى معالجة الأضرار الناشئة عن التربية في مرحلة الطفولة الأولى بإجراءات تربوية جديدة. إن منظومة العقوبات المتبعة في المشافي النفسية، وأشكال الإهانة المتقدمة الموجّهة إلى المريض، تهدف مثلها مثل التربية، إلى خلق صيغ تعبيرية مُشفَّرة لدى المريض. وهو ما يتضح في حالة فقدان الشهية للطعام **anorexie**. ترى ما الذي ترويه طفلة فاقدة الشهيّة للطعام، وشبّت في عائلة ميسورة ومحاطة بأدوات ومثقفين، وفجأةً تزعم أن وزنها لا يزيد عن ثلاثين كيلو؟ ولدى سؤال الوالدين، يؤكدان تجانس حياتهما الزوجية، ويعترفان بانزعاجهما من رفض الأكل مع أنهما لم يجدا أيّ صعوبة مع هذه الطفلة التي كانت، بالعكس تلبي دائماً رغباتهما. أميل إلى الاعتقاد بأن هذه الطفلة لا تعود، في زوبعة انفعالات سن البلوغ، قادرة على التصرف كالإنسان الآلي، لكن نظراً إلى ما كان عليه تاريخها حتى ذلك الوقت، لم يبقَ أمامها فرصة أيضاً لتعيش المشاعر التي تنمو فيها فجأة. ومن ثم، فهي تروي من خلال الطريقة التي حوّلتها إلى العبودية، وقيّدت نفسها ثم سارت في طريق الانتحار البطيء، ما جرى لها في طفولتها المبكرة. هذا لا يعني أن الوالدين كانا سيّئين تماماً؛ بل أرادا فقط تربية طفلتهما بطريقة جعلتها ما أصبحت عليه لاحقاً بالفعل: الطفلة الصغيرة التي تعمل وظائفها بشكل جيد، ويُعجب الجميع بها. في أغلب الأحيان يأتي هذا الإعجاب من المربّيات وليس من الوالدين. في كل الأحوال، لا يعود سبب فقدان الشهية للطعام إلى عناصر التربية الصارمة: كالعناد، والديكتاتورية، ومنظومة الرقابة، والتحكم، وعدم الفهم، ونقص الإحساس بالحاجات الحقيقية للطفل. يضاف إلى هذا الإفراط في الحنان الذي يتناوب مع الرفض والهجران (غزارة الطعام، والإقياء). يقول القانون

الأعلى لهذه المنظومة البوليسية: جميع الوسائل صائبة لتصبح كما نحتاج إليك، وعندئذٍ يمكن أن نحبّك. وهوما ينعكس على شكل الرعب من فقدان الشهية، لأن الوزن يجب أن يحسب بخمسة غرامات تقريباً، ويعاقب المذنب كلّما تجاوز الحدّ.

حتى أفضل الأطباء النفسيين مضطرّ لزيادة وزن أولئك المرضى المهدّدين إلى أقصى حدّ لكي يكون الحوار معهم ممكناً. لكن المشكلة كلها تكمن في معرفة ما إذا كان ضرورياً القول للمريضة إن عليها استعادة وزنها على أساس فهم أناها بوصفه هدف العلاج، أو ما إذا كان يعتبر زيادة الوزن هدفاً وحيداً للعلاج. في هذه الحالة الأخيرة، يأخذ الطبيب منظومة الضغط الاجتماعي على عاتقه، وقد يتوقع انتكاسة في الأعراض أو تغيّراً فيها. فإذا لم يظهر أيٌّ من هذين الأثرين، تكون التربية ناجحة، وغابت الحياة بشكل دائم.

ما من تصرّف أخرق إلا وتعود جذوره إلى الطفولة المبكرة، ولا يمكن الوقوف على سببه ما دام البالغ لا يحسب التلاعب بالحاجات الجسدية والنفسية للطفل بوصفها قسوة، بل إجراء تربوياً ضرورياً. بما أن المتخصصين أنفسهم ليسوا بمنأى عن هذا الخطأ، الذي يطلقون عليه لاحقاً اسم العلاج، فهو يصبح ليس في بعض الأحيان استمرارية لا إرادية للقسوة الأولية. وليس من النادر أن تعطي الأم حبّة فاليوم لطفل يبلغ عاماً من عمره لينام بهدوء حينما تريد الخروج مساء. ربما كان الأمر ضرورياً لمرة واحدة، لكن إذا أصبح الفاليوم وسيلة للتلاعب بنوم الطفل، فهذا يعني تدمير التوازن الطبيعي، ويؤدي إلى اضطراب الوظائف الخاملة **végétatives** في وقت مبكر جداً. كما يمكن تخيل أن الوالدين، حينما يعودان إلى البيت تراهما يرغبان في اللعب مع طفلهما، لأنهما لم يعودا بحاجة إلى الخوف. الفاليوم لا يشوّه قدرة الطفل على النوم بشكل طبيعي فقط، بل قدراته الإدراكية أيضاً. ويمنع الطفل في وقت مبكر جداً من معرفة أنه وحيد في الشقة ولا يمكنه الشعور بالخوف. وقد لا يعرف كيف يفكّ رموز الخطر في نفسه بعد أن يصبح بالغاً.

ولتحاشي اتباع سلوك أخرق ومدمّر للذات لدى البالغ، لا يحتاج الوالدان إلى التعمّق في دراسة علم النفس. فإن أفلحوا في تحاشي التلاعب بالطفل بما يتفق مع حاجاتهما، وبعض الاضطراب في توازنه الخامل، فسيجد الطفل في عضويته أفضل حماية من متطلبات غير ضرورية، كما يألف لغة جسده وإشاراته منذ البداية. إذا نجح الوالدان، فضلاً عن هذا، في احترام طفلهما والتسامح معه كما فعلا مع والديهما، فإنهما بهذا يخلقان أفضل الظروف لبقية

حياته. لأن الشعور الذي سيكوّنه لديه حول قيمته [أهميته] ليس رهناً بهذا الاحترام فحسب، بل يمنحه حرية تطوير قدراته الفطرية أيضاً. وكما قلنا، لا نحتاج إلى كتب علم النفس لتعلّم هذا الاحترام، بل إلى مراجعة الإيديولوجيا التي تقوم عليها التربية.

إننا نعامل أنفسنا، وحياتنا كلها بالطريقة نفسها التي عوملنا بها خلال طفولتنا المبكرة. وغالباً ما يكون أشد أنواع العذاب هو ذلك الذي نفرضه على أنفسنا لاحقاً، ولا نعود نملك وسيلة للتخلص من الجلاد المتخفّي فينا في أغلب الأحيان بشخص المربّي. وتراه يمارس هيمنة مطلقة في الحالات المَرَضية، كفقدان الشهية للطعام على سبيل المثال؛ فينجم عن هذا عبودية تامة للعضوية، واستغلالاً رهيباً للإرادة. يبدأ الإدمان بمحاولة التخلص من هيمنة الأهل برفض تلبية مطالبهم، لكنه في نهاية المطاف، يقود من خلال التكرار القسري، إلى بذل جهد دائم لجمع مبالغ ضخمة والحصول على «المخدّر **dope**» اللازم: وهذه في حقيقة الأمر هي العبودية «البورجوازية» تماماً.

جعلتني قراءة قصص كريستيان ف. مع الشرطة، أعود فجأة لأعيش في برلين خلال عام 1945 الوسائل المتعددة غير المشروعة للتزوّد بالمؤن، وآلاف الجنود المحتلين، والسوق السوداء- «مهرّبو» تلك الفترة. لا أدري ما إن كنت الوحيدة التي أعقد هذه المقارنة.. ينظر كثير من أهالي الشباب المدمنين اليوم، إلى أن هذا العالم هو الوحيد الممكن، لأن عيون أطفالهم لا تعرف عوالم أخرى. ليس من المستبعد أن يكون ديكور الإدمان مرتبطاً أيضاً بالسوق السوداء خلال سنوات الأربعينيات بسبب الفراغ الداخلي الناشئ عن قمع المشاعر. خلافاً لكثير من الأشياء التي أقولها هنا، فإن هذه الفكرة لا تقوم على معطيات قابلة للتحقّق علمياً بل على استنتاج شخصي ومقارنة ذاتية، لم أتحقّق من صلاحيتها عن كثب. أذكرها فقط لظهور دراسات تحليلية نفسية في كل مكان تتعلق بنتائج متأخرة للحرب والنظام النازي في الجيل الثاني، فنجد أنفسنا دائماً أمام حقيقة مدهشة هي أن الأطفال، سواء كانوا أولاداً أم بناتاً، يعيدون النظر من حيث لا يدرون في إبراز مصير أهلهم بشدة لمعرفتهم الجيدة به. فقد كوّنوا، انطلاقاً من بعض المعلومات الصغيرة التي تمكّنوا من جمعها خلال طفولتهم حول الألم الذي عاشه الأهل بسبب الحرب تبعاً لواقعهم، أوهاماً تحرّرت غالباً في سن البلوغ. تروي جوديت كستنبرغ **J.Kestinberg** حالة مراهقين اختفوا في الغابة إبّان سنوات الستينيات، أي في عزّ مرحلة السلام والازدهار؛ وقد بيّن العلاج النفسي في وقت لاحق، أن أهاليهم عاشوا الحرب

كمناصرين للجيش في بلدان أوروبا الشرقية، لكنهم لم يتحدثوا بتفاصيلها إلى أطفالهم (**Psyche 28**، الصفحات 249- 265).

ذات يوم، استقبلت في عيادتي فتاةً فاقدة للشهية تبلغ العاشرة من عمرها، وتفتخر بأن وزنها يساوي وزن أمها حينما تحرّرت من معسكر الاعتقال في أوشفيتز. تمخضت المحادثة عن أن هذا التفصيل هو الوحيد الذي عرفته البنت عن ماضي أمها، لأن الأم كانت ترفض الحديث عن هذه المرحلة، وطلبت من باقي أفراد العائلة ألا يطرحوا عليها أي سؤال عنها. ما بقي غامضاً بالتحديد، وما سكتت عنه العائلة هو ما له علاقة بمشاعر الخجل عندهم، والإحساس بالذنب، والألم هو ما يثير القلق لدى الأطفال. إحدى الإمكانيات الرئيسة للهروب من هذا التهديد هو النشاط الاستيهامي أو اللعب؛ لأن اللعب بقصص الأهل يخلق لدى المراهق شعوراً بقدرته على أن يكون شريكاً في ماضيهم.

ألا يمكن أن يكون عالم كريستيان النفسي المُدمَّر يعود إلى ما وقع من خراب عام 1945؟ إذا كان الأمر كذلك، فكيف تمكّنت من تكراره. قد يكون الرابط بينهما يتمثل في الواقع النفسي للأهل الذين نشؤوا في فترة شهدت عوزاً مادياً شديداً، وكانوا يرون في تأمين الحياة المادية مبدأ أعلى للوجود. طالما استُخدم الغنى المتنامي للدفاع ضد الخوف لكيلا يجد المرء نفسه فوق حقل من الخرائب كطفل جائع وعاجز. لكن، في حقيقة الأمر، ليس ثمة ما يمكن أن يخلّصنا من هذا الخوف المُستمر ما دام غير واعٍ. الأطفال يهجرون تلك الشقق الفاخرة التي لا يشعرون بأن فيها من يفهمهم، لأن المشاعر والآلام غير مقبولة فيها؛ فينتقلون إلى أوساط المخدرات ليشغلوا هناك وظيفة المهرّب، كوالدهم الذين كان يشغلها في إطار الاقتصاد الرسمي؛ أو يجلسون فوق الرصيف ويبقون هناك كأولئك الأطفال الصغار المعوزين والمعرّضين للخطر فوق حقل من الخرائب؛ أولئك الذين كان أهلهم عليه في الماضي، لكنهم لا يملكون الحق في الحديث عن هذا الواقع فعلياً إلى أيّ شخص. لأن طفل حقول الخرائب كان مستبعداً دائماً من شققهم الفاخرة، وهاهم يعودون للظهور كروح شريرة بالنسبة لأبنائهم وبناتهم المنحرفين، بملابسهم البالية، ووجوههم الباهتة، ويأسهم، وغرابتهم، وكراهيتهم لهذه الرفاهية المتراكمة.

ما من شكّ في عدم قدرة الأهل على فهم أدنى شيء لدى هذا المراهق الذي يجدون أنفسهم أمامه فجأة، لأن أيّ إنسان يمكنه الخضوع لأكثر القوانين صرامة، والقيام بأصعب

المهام، ويمارس أكثر المهن نجاحاً، ويبذل جهوداً لا تصدّق، وفي المقابل لا يبدي شيئاً من الحب والفهم إزاء الطفل المعوز والتعيس الذي كان عليه في الماضي، ثم طرده من نفسه إلى الأبد. حينما يعود هذا الطفل إلى الظهور رغماً عنه بصورة ابن أو ابنة فوق الأرضية الخشبية اللامعة لغرفة جلوسه الفارهة، لا يمكنه أن يتوقع فهماً لحالته من الآخرين، بينما جلّ ما يأمله هو أن يكون مفهوماً، وغايته العثور هناك على الغرابة والتمرد، والنصائح أو العقوبات، وربما الكراهية أيضاً، وبالأخصّ ترسانة حقيقية من الإجراءات التربوية التي يمكن للأهل بمساعدتها الدفاع عن أنفسهم ضد انبثاق أيّ ذكرى تعود إلى طفولتهم التعيسة التي عاشوها خلال الحرب.

هناك أيضاً ثمة حالات تقع فيها مواجهة أطفال مع ماضٍ لم يتم تجاوزه ومن شأنها أن تترك في العائلة تأثيراً مفيداً:

بريجيت المولودة عام 1936، امرأة حسّاسة متزوّجة وأمّ لطفلين، لكنها كانت تعيش حالة اكتئاب، وتبحث عن محلّل نفسي ثانٍ. وكان لخوفها من الكوارث علاقة واضحة بموضوعات الهجمات الجوية التي شهدتها في طفولتها، لكنها استمرت، على الرغم من الجهود التحليلية، حتى ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه المريضة - بمساعدة أطفالها - نقطة حسّاسة؛ جرحاً لم يلتئم لسببٍ وجيه هو أن أحداً لم يره، فلم تتم معالجته.

حينما بلغ ابنها العاشرة من عمره، أي تحديداً العمر الذي رأت فيه والدها عائداً من جبهة الشرق، شرع مع بعض رفاق الصف برسم صلبان معقوفة فوق جدران المدرسة واللهو مع آخرين بما تبقّى من المأساة الهتلرية. تدلّ الطريقة، التي من خلالها كان هذا النوع من «الأفعال» مخفيّاً ومتكوّناً في الوقت نفسه لكي يُكتشَف مباشرةً، على طلب النجدة. كانت مأساة الطفل واضحة تماماً، غير أن الأم عانت صعوبة كبيرة في إدراكها وفهمها خلال حوارها مع ابنها. بعثت هذه العمليات (الألعاب) الرعب في نفسها، وهي لا ترغب في أن يكون لها علاقة بهذا كلّه؛ وباعتبارها مناضلة سابقة ضمن جماعة من الطلاب المناهضين للفاشية، فقد شعرت بالإهانة مما يقوم به طفلها، فراحت تتصرف من حيث لا تدري، بطريقة عدائية وسلطوية. غير أن الأسباب الإيديولوجية الواعية لموقفها لم تكن كافية لتفسير مشاعر الرفض العنيفة التي كانت تبديها إزاء طفلها. في العمق، كان ذلك استمراراً لشيء ما بقي غير مفهوم بالنسبة لها حتى ذلك الوقت- حتى خلال خضوعها للتحليل النفسي الأول. وبفضل القدرات المادية

التي تطورت خلال التحليل الثاني، استطاعت العثور على أصل هذه القصة كلّها من الناحية العاطفية. في البداية حدث ما يأتي: كلما أبدت الأم مزيداً من عدم الفهم والتمرّد أمام ألعاب طفلها، صار يصعب عليها «التخلّص منها»، فازدادت وتكرّرت. كان لدى الولد الصغير على الأقل ثقةٌ بأهله من جهة ويزداد ارتباطه شيئاً فشيئاً بشكل وثيق بجماعته، وهو ما كان يثير اليأس لدى أمه. وقد سمح التحويل باكتشاف جذور الغضب، وهو ما يغيّر مجمل الحالة العائلية. في البداية، تظاهرت المريضة كما لو أنها تتعرّض لأسئلة مؤلمة حول الشخص، وحول ماضي القائم على تحليلها. فتدافع عن نفسها بقوة، خوفاً من الخسارة لو عبّرت عنها، أو تخشى ردوداً قد تضطرّها إلى الازدراء به.

ترك لها المحلّل شأن صياغة أسئلتها بأناة ليفهم قيمتها، وأهميتها من دون أن يردّ عليها؛ ولأنه في الحقيقة لا يشعر بأن هذه الأسئلة تعنيه، فلم يكن لديه أسباب لرفضها بتفسيرات مبكرة؛ عندئذٍ تظهر البنت الصغيرة ذات العشر سنوات، يوم لم يكن يحقّ لها طرح الأسئلة على والدها. كانت المريضة تقول لنفسها إنها لم تكن تفكر في تلك الفترة. ومع ذلك يبدو واضحاً إلى حدٍّ ما أن طفلة في العاشرة من عمرها، قد انتظرت هذه السنوات الطويلة عودة أبٍ محبوب لتسأله: «أين كنت؟ وماذا رأيت؟ قُصَّ عليّ قصة! احكِ لي عما جرى فعلاً!». بحسب بريجيت، لم يحدث أيّ شيء من هذا كلّه، لأنها أمور تحرّمها العائلة؛ ولا يجوز الحديث بها مع الأطفال الذين كانوا يشعرون أيضاً بأنه لا يحقّ لهم معرفة ماضي أبيهم. عندئذٍ يظهر الإحساس بالفضول المكبوت بشكل واعٍ، لكنه كان مُعطَّلاً في المراحل السابقة بذريعة الحفاظ على «التربية الحسنة» بكلّ حدّته، وإلحاحه في العلاقة مع المُحلّل. قلنا إنه تعطّل، لكنّه لم ينتهِ تماماً. وحينما تمكّن من الظهور مرّةً أخرى، تلاشى الاكتئاب. وللمرّة الأولى، بعد ثلاثين عاماً، تمكّنت المريضة من الحوار مع أبيها عما عاشه خلال الحرب، وهو ما بعث في نفسها ارتياحاً كبيراً بسبب تغيّر الحالة: فقد أصبحت قوية إلى حدٍّ ما لكي تتمكّن من سماعه وهو يعبّر عن آرائه من دون أن يكون عليها إنكار نفسها، إضافة إلى أنها لم تعد تلك الطفلة التابعة. لكن ما كان لمحادثاتها في تلك الفترة أن تكون ممكنة. فهمت بريجيت أن خوفها من طرح الأسئلة حينما كانت طفلة، فطرحُها قد يؤدّي إلى خسارة أبيها المحبوب، هذا الخوف كان له ما يبرّره لعدم قدرته على الحديث عما عاشه في الجبهة، ويسعى جاهداً لإزالة آثار تلك الفترة كلّها بالنسيان؛ فتكيّفت ابنته تماماً مع هذه الحاجة واكتفت بالحصول على معلومة صغيرة فكرية محضة عن

فترة الرايخ الثالث [الجمهورية الثالثة]. وكانت تتبنّى النظرية القائلة بوجوب الحكم على تلك الفترة موضوعياً و«بمعزل عن أيّ انفعال»، كالحاسوب الذي يحصي الموتى من جميع الأطراف من دون أن تكون لديه صورة عنها، أو أن يعيش مشاعر الرعب.

لكن بريجيت لم تكن حاسوباً، بل شخصاً بالغ الحساسية وذا تفكير دقيق. وبما أنه كان عليها كبت هذا كلّه، فقد عانت الاكتئاب، وشعوراً بالفراغ الداخلي (كانت دائماً تشعر أنها أمام «حائط أسود تماماً»)، والأرق، والتبعية، والإدمان على الأدوية التي يفترض أن تقمع حيويتها الطبيعية. وتحوّل الفضول والحاجة إلى البحث عن هذا الطفل الذكي، إلى مشكلات فكرية محضة، عادا إلى الظهور تقريباً حرفياً بصورة «الشيطان الذي طُرد من حديقته فعاد للظهور في حديقة ابنه»[(1)*]، فسعت أيضاً إلى طردهما، فقط لأنها كانت، وهي في حالة من التكرار القسري تجهد نفسها دائماً في تحاشي الإساءة إلى والدها المتجسّد فيها ومعاناته لانعدام الأمان العاطفي. التصوّرات التي يكوّنها الطفل عن «الشرّ» سببها المواقف الدفاعية عن الأهل: فكلّ ما يضاعف شعور الأهل بعدم الأمان هو «الشر»، أو ما يمكن أن يصبح كذلك، فتنشأ مشاعر الإحساس بالذنب التي تقاوم أيّ تحليل لاحق ما دام الأهل لم يعيشوا قصتهم بشكل واع. كانت بريجيت محظوظة لأن الشيطان فيها، أي أن الطفل الحيّ، الفضوليّ، والمهتمّ، والناقد، كان أكثر قوةً من تكيّفها، واستطاعت دمج هذا العنصر الأساسي في شخصيتها.

في تلك الفترة، فقدت الصلبان المعقوفة سلطتها المبهرة على ابنها، وبدا واضحاً جداً أنها تضطلع بوظيفة متعددة. فمن جهة، استخدمت الطفل «لتحرير» إرادة المعرفة المكبوتة لديها، ومن جانب آخر نقلت إلى الطفل شعور الخيبة الذي انتابها إزاء الأب. وبمجرّد أن استطاعت عيش جميع هذه المشاعر في علاقتها بالمحلّل، لم تعد بحاجة إلى استخدام الطفل لهذه الغاية.

روت لي بريجيت قصتها بعد أن استمعت إلى محاضراتي، وحينما طلبت منها السماح بنشرها، وافقت بكل صدر رحب، لأنها، كما قالت لي كانت تشعر بالحاجة إلى إيصال تجربتها إلى آخرين و«عدم السكوت عنها بعد الآن».

كنا مقتنعتين بأن تعاستها كانت انعكاساً لحالة جيلٍ كامل تربّى في صمت يعاني منه بوعي (وأغلب الأحيان من دون وعي). في ألمانيا، لم يكن التحليل النفسي، حتى انعقاد مؤتمر بامبرغ

1- [نجمة بدلاً من الرقم أربعة]: يقول بيستالوزي: «اطرد الشيطان من حديقتك، فستجده في حديقة ابنك».

للمحللين النفسيين (1980)، يهتمّ بهذه القضايا، ولم يتسنَّ إلا لأفراد قليلين حتى الآن إمكانية التحرّر من تابو الصمت هذا، ليس من الناحية الفكرية فحسب، بل على الصعيد العاطفي أيضاً مثل حالة كلاوس تيفيليت **Cl.Theweleit** (أوهام ذكورية).

لهذا جاءت ردود فعل الجيل الثاني عنيفةً على الفيلم التلفزيوني هولوكوست [المحرقة] الذي عرض بصورة تمرّد في السجن... سجن الصمت، ومنع السؤال، والإحساس، والفكرة المضلّلة القائلة إنه يمكن تجاوز مثل هذه الفظائع «من دون انفعالات». فهل أريد تحويل أطفالنا إلى كائنات تسمع الحديث عن وضع مليون طفل في غرف الغاز من دون أن يسمح لمشاعر التمرّد والآلام بالانبثاق فيهم حول هذه المأساة؟ ما حاجتنا إذاً إلى علماء يدبّجون كتباً تاريخية حول هذا الموضوع تهتمّ بالدقّة التاريخية الموضوعية فقط؟ ومن ثم ما فائدة خدمة قدرة تتصف بالموضوعية الباردة أمام الرعب؟ ألا يمكن أن يتعرّض أطفالنا عندئذٍ لخطر الوقوع تحت نير أيّ سلطة فاشية لأنهم لا يملكون شيئاً يفقدونه إلا الفراغ الداخلي؟ بل بالعكس: فمثل هذه السلطة قد تمنحهم فرصة توجيه المشاعر المكبوتة في الموضوعية العلمية وغير المعيشة نحو ضحية جديدة، وفي نهاية المطاف تفريغ هذه المشاعر القديمة غير المُروَّضة في مجموعة أكبر لأنها محصورة في سجن.

الشكل الجماعي للسلوك العبثي هو الأخطر، لعدم القدرة على إدراك عبثيّته، ولأن الأمر ينتهي به إلى أن يصبح «عادياً». ومن البديهي بالنسبة للأغلبية العظمى لأطفال ما بعد الحرب في ألمانيا، ألا يكون صحيحاً أو على الأقل غير ملائم أن يطرحوا على أهلهم أسئلة محدّدة حول حقيقة الرايخ الثالث؛ وهو ما كان ممنوعاً بشكل قطعي. السكوت على هذه المرحلة، أي على ماضي الأهل، كان جزءاً من «اللباقة» الشبيهة بإنكار ما يتعلق بالحياة الجنسية في بداية القرن. ليس البرهان صعباً من الناحية التجريبية على تأثير هذا التابو الجديد على تطور الأشكال الحالية للعُصابات **névroses**، لكن منظومة النظريات التقليدية لا تتوقف عن مقاومة هذه التجربة، لأن المرضى ليسوا وحدهم ضحايا هذا التابو بل المحلّلين أيضاً. ومن الأسهل عليهم كثيراً متابعة الإكراهات **(compulsions)** والممنوعات الجنسية التي اكتشفها فرويد منذ فترة طويلة، والتي لم تعد ربما تلك التي نعانيها، ولا علاقة لها بممنوعات عصرنا، أي ممنوعات طفولتنا. لكن قد يعلّمنا تاريخ

الرايخ الثالث، من بين أشياء كثيرة أن الفظاعة تكمن غالباً في «العادي»، أي في ما تعدّه الغالبية العظمى «عادياً وطبيعياً تماماً».

الألمان من الأطفال والمراهقين الذين عاشوا مرحلة انتصارات الجمهورية الثالثة [الرايخ الثالث]، وأرادوا خلال ما بقي من حياتهم البحث بصدق عن حقيقتهم، واجهوا صعوبات كبيرة إزاء هذا الأمر. وبعد أن أصبحوا بالغين اكتشفوا الواقع المريع للمنظومة القومية- الاجتماعية وتمثّلوا هذه المعرفة فكرياً. لكن صدى الأناشيد، والخطابات، والحشود الهائجة المدركة في وقت مبكر جداً والمرتبطة بانفعالات الطفولة الكثيفة، تستمرّ حيّةً فيهم - ولا تفسدها المعرفة المكتسبة لاحقاً. في أغلب الحالات، كانت هذه الانطباعات مقترنة بمشاعر الفخر والحماسة والأمل بالسعادة.

كيف يمكن للمرء التوفيق بين هذين العالمين- المعرفة العاطفية الموروثة من عهد الطفولة، والمعرفة المضادّة المكتسبة لاحقاً - من دون إنكار جزء كبير من أناه؟ يبدو أن تعطيل المشاعر كما حاولت بريجيت، وفقدان المرء لجذوره في أغلب الأحيان، هو الحلّ الوحيد لهذا الصراع وعدم الإحساس بهذا التناقض المأساوي.

لا أعرف أعمالاً تعبّر عن هذا التناقض؛ تناقض جزءٍ كبير من جيل كامل في ألمانيا يمكنه أن يعبّر بأفضل مما عبّر عنه فيلم هانز- يورغن سيبربرغ: هتلر - فيلم من ألمانيا الذي بلغت مدّة عرضه سبع ساعات. لم يرد سيبربرغ سوى تقديم حقيقته الذاتية وأحلامه، فرسم استناداً إلى استيهاماته وأحلامه لوحة لتاريخ معاصر يتعرّف الكثيرون على أنفسهم من خلاله، لأنه يعرض المنظورين: منظور الكائن النبيه، ومنظور الوهم المبهر.

لقد بيّن هذا الفيلم انبهار الطفل الموهوب أمام موسيقا فاغنر، وفخامة الاستعراضات العسكرية، وصرخات هتلر عبر المذياع غير المفهومة لكنها مثقلة بالانفعال؛ رؤية هتلر كدمية قوية وغير عنيفة في الوقت نفسه. لكن لهذا كلّه مكانه إلى جانب التمرد، والرعب، لا سيّما الألم الحقيقي الذي يعانيه المراهق الذي لم يشعر به أحدٌ أبداً في الأفلام التي تناولت الموضوع نفسه، لأنه يفترض التخلّي عن النموذج التربوي للاتّهام والصفح. في كثير من المشاهد التي تضمّنها الفيلم نشعر بالألم - ليس من جانب ضحايا الاضطهاد فقط، بل ضحايا الوهم أيضاً، وربما عبثية الإيديولوجيات عموماً التي تحلّ محلّ الأهل الذين اضطلعوا بالإشراف على تربية الطفولة الأولى.

رجلٌ واحد فقط استطاع العيش بالطريقة التي استسلم من خلالها إلى الوهم، من دون أن ينكره، من شأنه تصويره بهذا القدر من الشعور بالأسى الذي شعرنا به عند سيبربرغ. هذا الفيلم يعيش تجربة الأسى، ويزيد المشاهد، على الصعيد العاطفي، معرفةً بفراغ الإيديولوجيا القومية - الاجتماعية - في بعض المشاهد القوية بنحو خاص - أكثر من كتب موضوعية وموثقة بشكل جيد جداً. وهي إحدى المحاولات النادرة لفهم ماضٍ غير مفهوم بدلاً من إنكار حقيقته.

طفولة هتلر:
من الرعب المخفيّ
إلى الرعب الصريح

«تربيتي قاسية. يجب التخلّص من الضعف. سنبني شبيبةً يخافهم العالم. أريد شبيبة عنيفة، مُهيمنة، وشجاعة لا ترحم. يجب أن تعرف كيف تتحمّل الألم. وعليها ألا تتصف بأي ضعف أو رحمة

- يجب أن يلمع في عينيه من جديد ألق الحيوان الشرس الحرّ والرائع.

أريد لشبيبتي أن تكون قوية وجميلة... بهذا يمكنني إشادة العالم الجديد.»

(أدولف هتلر)

مقدّمة

لم أدهش كثيراً حينما أتتني الرغبة بجمع معلومات أكثر دقّةً حول طفولة هتلر، بينما كنت بصدد تحرير هذا الكتاب فقط. أردت معرفة ما إن كان ممكناً تأكيد القناعة، التي اكتسبتها خلال ممارستي للتحليل النفسي، القائم أصلاً على ردّ فعل (وليس الغريزي) الشخصية التدميرية للإنسان من خلال حالة هتلر، أو إعادة النظر فيها بشكل تامّ، وما إذا كان إيريك فروم وغيره محقّين أم لا. بدا لي الرهان هامّاً إلى حدٍّ ما للسير في هذا الطريق، على الرغم مما انتابني من شكٍّ عميق في البداية، في أن أتعاطف قليلاً مع هذا الرجل الأشدّ إجراماً من جميع من عرفتهم. التعاطف، أو بعبارة أخرى محاولة أن أحيا قدر طفل، كما عاشه طفل، وليس الحكم عليه من وجهة نظر البالغ المتعلم جيداً، يشكل أداتي الوحيدة للفهم، والتي لولاها لكان بحثي كلّه من دون جدوى ولا معنى له. سعدت كثيراً بأني نجحت أخيراً في عدم فقدان هذه الأداة، والنظر إلى هتلر بوصفه كائناً بشرياً.

لهذا كان عليّ التخلص من المقولة التقليدية التي ترسم صورة مثالية **idéalisatrice** عن «البشري» تقوم على فصل الشرّ وإسقاطه، والنظر إلى أن الإنسان و«الحيوان» لا يستبعد

أحدهما الآخر بالضرورة (مقبوس من فروم ص.206). فالحيوان لا يحسّ بالحاجة إلى الانتقام أبداً، بعد عشرات السنين، من جراح الطفولة المبكرة، كما يمكن أن نرى في حياة فريدريك الكبير على سبيل المثال. على كلّ حال، ليست لديّ معرفة كافية بأهمية اللاوعي وتاريخانيتة **historicité** لدى الحيوان تمكّنني من الحديث عنهما؛ إذ لم أصادف حتى الآن البهيمية القصوى **bestialité** إلا في المجال البشري، ومن ثم لا يمكنني متابعة آثارها والبحث عن أسبابها إلا في هذا المجال؛ لكن ليس بإمكاني التخلّي عن هذا التساؤل، ما دمت لا أستطيع جعل نفسي أداة للرعب، أي لا أريد أن أكون حاملاً له ووسيطه غير العارف (ومن ثم بريئاً، بل أعمى).

إذا أدرنا ظهرنا لما هو غير مفهوم، ووصفناه بـ «بشريّ» ونحن منزوعو السلاح، فإننا نكفّ فعلياً عن فهمه. وفضلاً عن هذا، عن إيلائه دعمنا في المرة القادمة بكل براءة وسذاجة.

نُشر الكثير حول حياة أدولف هتلر خلال الأربعين السنة الماضية. وسمعت من يقول أكثر من مرّة إن هتلر كان عرضةً للضرب من أبيه؛ بل قرأت أيضاً منذ بضع سنوات دراسة مفصلة حول الموضوع بقلم هيلم ستيرلن **H.Stierlin** لكنني لم أهتمّ بهذه المعلومة. وبعد أن بدأ اهتمامي ينصبّ على قضية إذلال الطفل وإهانته خلال السنوات الأولى من حياته، ازدادت قيمة المعلومة المكتسبة سابقاً بالنسبة لي؛ فطرحت على نفسي السؤال الآتي: كيف كانت طفولة هذا الرجل لتجعله مهووساً بالكراهية طيلة حياته، ونجح بسهولة في جرّ الآخرين إليها معه؟ بفضل قراءة كتاب التربية السوداء، وما تركه فيّ من مشاعر عندئذٍ، وصلت فجأة إلى تصوّر ما كان يدور في بيت عائلة هتلر والإحساس به حينما كان طفلاً صغيراً، وتحوّل الفيلم الأبيض في ذاكرتي إلى فيلم ملوّن راح يختلط تدريجياً بما عشته عن الحرب العالمية الثانية، فلم يعد فيلماً بل الحياة نفسها: إنها ليست حياة جرت في لحظة معينة وفي إطار محدد فحسب، بل بدت لي أنها حياة لها علاقة بنا أيضاً من حيث نتائجها واحتمالات تكرارها أيضا هنا والآن. لأن الأمل بإمكانية قدرتنا على النجاح على المدى البعيد، لتجنّب موت البشرية بالأسلحة النووية عبر اتفاقيات معقولة، مجرّد وهم محض وغير عقلاني ومناقض لأيّ تجربة. فقد لاحظنا على الأقل في ظل الرايخ الثالث (الجمهورية الثالثة)، أو في عدة مرات في مراحل سابقة، أن العقل لم يكن يشكل جزءاً يسيراً من الإنسان بل الجزء الأقوى. فقد كان يكفي الزعيم (الفوهرر) ومعه بضعة ملايين من المواطنين المتعلمين جيداً لكي يدمّروا خلال بضع سنوات حياة عدد كبير من الأبرياء. إذا لم نفعل كل ما في وسعنا لفهم نشأة هذه الكراهية، فإن أفضل الاتفاقات الاستراتيجية صياغةً لا تستطيع إنقاذنا

أيضاً. ومراكمة الأسلحة النووية ليست سوى رمز لمشاعر الكراهية المتراكمة، والعجز الذي يرافقها عن فهم الحاجات الحقيقية والتعبير عنها.

لهذا فإن مثال طفولة هتلر يتيح لنا دراسة نشأة كراهية أودت نتائجها بحياة ملايين الضحايا. طبيعة هذه الكراهية المُدمّرة يعرفها المحلّلون النفسيون منذ زمن بعيد، لكن لا يمكننا توقع مساعدة كبيرة من التحليل النفسي ما دام لا ينظر إلى هذه الكراهية بوصفها تعبيراً عن غريزة الموت. حتى تلاميذ ميلاني كلاين **M.Klein** الذين يصفون كراهية الطفولة المبكرة بدقّة كبيرة، ويعدّونها غريزياً وليس مجرّد ردّ فعل ليسوا استثناء حول هذه النقطة. لا شك أن هاينز كوهوت **H.Kohut** أفضل من أدرك ظاهرة الكراهية هذه - من خلال مفهومه للنقمة النرجسية التي ربطها بردّ فعل الرضيع على عدم توفر الشيء الأولي (1979).

لكن، فهم نشأة كراهية لا حدّ لها، وتستمرّ طيلة الحياة، كما هي حياة هتلر، لا بد من التقدم خطوة إضافية، والتخلّي عما نعرفه عن نظرية الغرائز، لنطرح سؤالاً حول ما يدور في نفس الطفل المُهان والمحتقر من والديه من جهة، وعليه واجب محبة هذا الشخص الذي يهينه واحترامه، وعدم التعبير عن آلامه في أي حال من الأحوال. في الوقت الذي لا ننتظر من البالغ أمراً أخرق على الإطلاق (إلا في العلاقات السادية- المازوشية الملحوظة)، نرى أن هذا هو ما ينتظره الأهل في أغلب الأحوال من أطفالهم، كما لم يخيّب هذا التوقع آمال الأجيال السابقة. في السنوات الأولى من الحياة يمكن نسيان أسوأ أنواع القسوة وحيث ترسم صورة مثالية عمن يقف وراء الإهانة. لكن جميع الأشكال اللاحقة لا تتفق مع القول غن تاريخ اضطهاد الطفولة المبكرة قد كُتب في مكان ما؛ ومن ثم فهو يجري أمام المشاهدين ويروى لهم بدقة عجيبة، لكنه مسبوق بعلامة أخرى: أي أن الطفل الذي خضع للتعذيب يصبح جلاداً في النسخة الجديدة. هذه القصة تدور في إطار التحويل **transfert** والتحويل المضادّ في إطار المعالجة التحليلية النفسية.

إذا أراد التحليل النفسي التحرّر من تشبّثه بفرضية غريزة الموت بما يملك من أداة لتكييف [تطويع] الطفولة المبكرة، يمكنه المساهمة بشكل أكبر من أجل البحوث المتعلقة بالسلام. لكن، لسوء الحظ، يبدو أن غالبية المحلّلين لا يعيرون اهتمامهم لمعرفة ما فعل الأهل بأطفالهم، تاركين هذا الموضوع لمعالجي الجماعة العائلية. وبما أن هؤلاء، من جانبهم، لا يستخدمون ظاهرة التحويل، ويصرّون في الأساس، على تغيير التفاعل بين أفراد هذه الجماعة، فإنهم نادراً ما يتوصلون إلى معرفة أحداث الطفولة المبكرة، كما يتم التوصل إليه من خلال التحليل المُعمّق.

ولتبيين كيف يتضح الإذلال، والمعاملات السيئة والاغتصاب النفسي التي تمارس ضد الطفل في بقية حياته، يكفي أن نتحدث عن تحليل واحد بشكل دقيق، مع أنه غير ممكن أبداً لأسباب تتعلق بالسرية. في المقابل، تبيّن حياة هتلر وبقيت حتى آخر يوم من حياته حسبما تحدث عنها كثير من الشهود، أنه ليس صعباً العثور في هذه الوثائق على حالة طفولتة المبكرة. وبمعزل عن تصريحات الشهود والوقائع التاريخية التي أظهرت أفعاله، فإن تفكيره وحساسيته تتضح، ولو بطريقة مشفّرة في خطاباته العديدة، وكتابه (كفاحي). وقد يكون مفيداً جداً وهاماً محاولة تفسير مجمل النشاط السياسي الذي مارسه هتلر تبعاً لتاريخ معاناته خلال طفولته المبكرة. لكن هذه المهمة تتجاوز إطار هذا الكتاب الذي يهمنا فيه أساساً العثور على ما يبرهن على وجود آثار «التربية السوداء» في حياته. لهذا سأقف عند بعض النقاط في هذه السيرة الذاتية، مع إيلائي اهتماماً خاصاً بنحو خاص إلى بعض تجارب الطفولة التي لم يهتمّ بها أيّ كاتب سيرة حتى اليوم. بما أن المؤرخين يهتمّون بالوقائع الخارجية، والمحلّلون النفسيون بعقدة أوديب، يبدو أن القليل منهم سأل نفسه بجدّية عما يمكن أن يكون هذا الطفل قد قاساه، وخزّنه في نفسه، حينما كان والده يضربه ويذلّه بشكل يومي منذ يفاعته.

بحسب الوثائق المتوفرة لدينا، يمكن أن نكون صورة عن الجوّ الذي شبّ هتلر فيه، استناداً إلى تكوين العائلة التي تعطينا نموذجاً أولياً للنظام الشمولي، باعتبار أن سلطة الأب في العائلة هي السلطة الوحيدة والقاسية في الأغلب؛ فالمرأة والأطفال يخضعون تماماً لإرادته، ونزواته وتقلبات مزاجه؛ وعليهم تحمّل الإهانات والظلم بامتنان ومن دون أن يطرحوا أي سؤال، لأن الطاعة تعدّ المبدأ الأول الذي تقوم عليه الحياة. لا شك أن للمرأة دورها في رعاية البيت، فهي تلعب دور السلطة إزاء الأطفال في غياب الأب، أي يمكنها الانتقام ممن أضعف منها رداً على الإهانات التي تعرّضت لها. في الدولة الشمولية هذه الوظيفة هي تقريباً وظيفة قوى الأمن بوصفها حرّاس عبيدٍ هم أنفسهم عبيد ينفّذون رغبة الديكتاتور، ويمثلونه في غيابه، ويرهبون الآخرين ويعاقبونهم باسمه، ويهيمنون على كلّ من انتُزع حقّه منه.

ويبقى الأطفال هم المحرومين من حقوقهم. وإذا كان لهم إخوة أكبر منهم، يضاف عندئذٍ مجالٌ يمكنهم فيه التخفيف ممّا يلحق بهم من إهانات. عندما نكون أضعف أو أكثر خوفاً، عندئذٍ لا نكون آخر العبيد. لكن أحياناً نكون في مرتبة تقل شأناً عن مرتبة الكلب، كما في حالة كريستيان ف.، لأننا لا نشعر بالحاجة إلى ضرب الكلب إذا خلونا من هذا الطفل للقيام بذلك.

هـذه الهرميـة التـي يمكننـا دراسـتها بدقّـة في نظـام معسـكرات الاعتقـال (بوجـود الحـراس والسجانين) تشرّعه تماماً «التربية السوداء» التي لا شكّ أنها ما تزال قائمـة لـدى بعـض العـائلات؛ كما تظهر نتائجها الدقيقة عند طفل موهوب مثل أدولف هتلر.

قُدرُ الأب - وعلاقته بالابن

كتب جواشيم فيست **J.Fest** عن أصل أدولف هتلر وحياته قبل ولادة أدولف الآتي:

في 7 حزيـران 1837 أنجبـت آنـا شـيكلغروبر، العازبـة والعاملـة في بيـت الفـلاح يوهـان تروملشلاغر، رقم 13 في منطقة سترون، طفلاً تم تعميـده في اليـوم نفسـه باسـم آلـويس **Aloïs**. وبقيت خانة الأب في سجل أبرشية ديلرشايم فارغة؛ ولم تُعدّل هذ الوثيقـة حتـى زواج الأم، بعد خمس سنوات من العامل الطحان غيـورغ هايـدلر، «بعـد أن توقـف عـن العمل، ومعاناته ضنك العيش». في تلك السنة أوكلت أمـر ابنهـا لشـقيق زوجهـا، الفـلاح يوهان نيبوموك هوتلر **J.N.Hüttler** الذي كان يعيش في سـبيتال **Spital** ربمـا لخشـيتها من عدم قدرتها على تنشئة الطفل بشكل ملائم. مهما يكن الأمر، وبحسب الأقاويل، كـان الزوجان هايدلر فقيرين جداً «لدرجة أنهما كانا ينامان في مـذود للحيوانـات لعـدم تـوفر سكن لهما.»

كان كلٌّ من العامل الطحان يوهان غيورغ هايدلر وأخيه الفلاح يوهـان نيبومـوك هـوتلر من الآباء المفترضين لألويس شـيكلغروبر. وإذا أخـذنا بتأكيـد غـير موثـوق، لكـن مصدره يعود إلى محيط هتلر القريـب، يقـول ربمـا يكـون الأب الثالـث يهوديـاً مـن غـراز **Graz** يحمل اسم فرانكنبرغ الذي كانت ماريا آنا شيكلغروبر في منزله إبّان حملها.

مهما يكن، فقد أدلى هانز فرانك الذي عمل لسنوات طويلة محامياً لهتلر قبل أن يصـبح حاكماً عاماً لبولونيا، بشهادة تضمنتها إفاداته أمام محكمة نورنبرغ حـول هـذه النقطـة. قال إن هتلر تلقّى في عام 1930 رسالة ربما تكـون عمليـة ابتـزاز، مـن أحـد أبنـاء أخيـه بالدم. مُوقِّع الرسالة ضمّنها إيحاءات غامضة إلى «ظروف معيّنـة دقيقـة تتعلـق بتـاريخ العائلة». بعد أن تلقّى فرانك تفويضاً سرّياً لتوضـيح هـذا الأمـر عـثر عـلى حجـج تـدعم الفرضية القائلة إن فرانكنبرغر قد يكون جدّ هتلر لأبيه. لكـن غيـاب أي وثيقـة مكتوبـة تتعلق بهذه النقطة تجعل هذه الفرضية موضع شكّ كبير، حتى لو سعى فرانك ربمـا إلى

نسبة جدّ يهودي «لزعيمه **Führer**». زد على هذا أن ثمة أبحاثاً حديثة أضعفت هذه التخمينات وأصبح الدفاع عن هذه الفرضية أمراً غير ممكن اليوم، ولم تعد معقوليتها مهمة كثيراً؛ المهمّ، لا سيما على المستوى السيكولوجي، هو أنه بعد اكتشافات فرانك، اضطرّ هتلر إلى تشجيع الشكوك التي تحوم حول نسبه. ثم قام الجستابو بأبحاث جديدة بناء على أمر من هيملر في شهر آب من عام 1942 لكنها لم تحلّ القضية. الرواية التي تجعل من يوهان نيبوموك هوتلر هو الأب تتفق مع توليفات لها علاقة بالكبرياء، لكن يعتورها كثير من الثغرات مثلها مثل النظريات التي وضعت حول الجد. كلاهما يكتنفهما غموض ظروف مشوّشة تحمل بصمة الفقر، والفظاظة والتزمّت الفلاحي. وتبقى الحقيقة التي بحسبها أن هتلر لم يكن يعرف جدّه لأبيه.

بعد تسعة وعشرين عاماً على وفاة ماريا آنا شيكلغروبر في كلاين-موتن **Klein-Motten** بال قرب سترون **Strone** على إثر إصابتها «باستسقاء رئوي»، وتسعة عشر عاماً على موت زوجها يوهان نيبوموك هوتلر، أخو الأول، تقدم بصحبة ثلاثة شهود أمام كاهن دوليرشايم الخوري زانسشيرم ليطلب منه شرعنة ابنه «المُتبنّى» ألويس شيكلغروبر، العامل في مصلحة الجمارك بعد بلوغه الأربعين من عمره آنذاك. لكنه في الحقيقة، لم يكن هو الأب. لأن هذه الأبوّة تعود إلى أخيه المرحوم يوهان غيورغ، الذي اعترف بهذا تبعاً لشهادات أصحابه.

وافق الكاهن سواء كان مخدوعاً، أو مقتنعاً أمام إلحاح محادثيه. في سجلّ الأبرشية القديم، استبدل كلمة «غير شرعيّ» بتاريخ 7 حزيران 1873 بكلمة «شرعيّ»، وملأ الخانة المخصصة للأب بما طُلب منه، وأضاف في الهامش تزويراً: «إن غيورغ هتلر موجود بصفته أب، بعد أن أكد الشهود الواردة أسماؤهم أعلاه أن المعني قد اعترف بأنه والد ألويس، ابن آنا شيكلغروبر، وطلب تسجيل اسمه في السجل الحالي. +++ يوهان برايتندر، شاهد؛ +++ إنغلبرت بوخ **Paukh** ». وبما أن الرجال الثلاثة كانوا لا يعرفون الكتابة فقد وقّعوا بثلاثة صلبان، ثم أضاف الكاهن أسماءهم بعد ذلك لكنه أهمل كتابة التاريخ، حتى إن توقيعه لم يكن دقيقاً، كما هو توقيع الوالدين (المتوفّين منذ فترة طويلة). ومع أن هذه الشرعنة مخالفة للقانون إلا أنها أصبحت فعلية: وبدءاً من شهر كانون الثاني عام 1877 صار ألويس شيكلغروبر يسمّى ألويس هتلر.

لا شك أن هذه الحبكة القروية تعود جزئياً إلى يوهان نيبوموك هوتلر لأنه كان يفتخر بتربيته له. ارتقى ألويس وبلغ وظيفة لم يبلغها أحد من عائلة هوتلر أو هايدلر. ومن ثم، كان مفهوماً أنه أراد استمرار اسمه من خلال ابنه المُتبنّى. لكن ألويس كان يسعى إلى تغيير اسمه، بعد أن مارس عملاً محترماً خلال تلك الفترة. كان هذا الرجل النشيط والنظيف يبحث لنفسه عن مقام متين يستحقّ عليه صفة «محترم» بعد أن بدأ تدريبه في سن الثالثة عشرة، إلا إنه عقد العزم على ترك مهنته ليلتحق بالإدارة المالية النمساوية حيث حقّق تقدماً سريعاً؛ وأخيراً سمح له تعليمه الأول بالارتقاء في عمله ليصبح مراقباً في إدارة الجمارك ضمن أعلى الطبقات المتوفرة هناك. وكان سعيداً بنحو خاص بتمثيل السلطات في المناسبات الرسمية، ويعلق أهمية على أن يُمنَح لقبه بشكل عادل. صرح أحد زملائه في إدارة الجمارك بأنه كان «أميناً، ودقيقاً في عمله، بل وبليغاً»؛ كما أسدى نصيحة إلى أحد أقاربه يقول له فيها إن العمل في الجمارك يتطلب الطاعة التامة والحسّ بالمسؤولية، وهي مهنة لا تناسب «السكارى، والمقامرين، وذوي السلوك غير الأخلاقي». وقد تميزت صوره التي طلب التقاطها له لا سيما في لحظات ترقياته بصورة رجل جليل، وتعبّر عن حيوية صلبة ورغبة في التمتّع بالاحترام الذي تحظى به البورجوازية. وكان من خلال بزّته ذات الأزرار المصقولة، يقدّم نفسه للمراقب بوصفه شخصية لا تنقصها الهيبة وعزة النفس (**J.Fest**، ص. 7).

يجب أن يضاف إلى هذا أن ماريا شيكلغروبر قد تلقّت خلال أربعة عشر عاماً، بعد ولادة ابنها معونة غذائية من التاجر اليهودي الذي يتحدث عنه ج. فيست. في السيرة الذاتية التي كتبها عن هتلر ونشرت عام 1973، توقف فيست عن الحديث عن علاقة فرانك حرفياً، بل استشهد به في كتابه السابق المنشور عام 1963:

«كان والد هتلر ابناً غير شرعي لطبّاخة اسمها لينز تعمل عند زوجين يسكنان قرية غراز. هذه الآنسة شيكلغروبر، جدة أدولف هتلر كانت مستخدمة لدى عائلة يهودية تحمل اسم فرانكنبرغر حينما وضعت مولودها (تحديداً في وقت حملها) [ملاحظة من الكاتب]. أما ابنها البالغ آنذاك التاسعة عشرة من العمر (في ثلاثينيات القرن الماضي) استمر فرانكينبرغ بتقديم معونات غذائية إلى الفتاة شيكلغروبر منذ ولادة الطفل، حتى بلوغه سن الرابعة عشرة. وكانت بين عائلة فرنكبرغر وجدة هتلر مراسلات

يبدو منها أن جميع المعنيين كانوا يعرفون ويعترفون ضمناً أن شيكلغروبر قد حملت طفلها في ظروف أجبرت عائلة فرامكينبرغر على دفع معونة غذائية... (ج. فيست، 1965، ص.22.)

إذا كان ما يعرفه جميع سكان القرية بقي متداولاً منذ مئة عام، فمن غير المعقول ألا يعرف ألويس نفسه شيئاً عن هذا الأمر. كما لا يمكن لهم ألا يعرفوا سبب هذا السخاء.. في كل الأحوال، كان ألويس متأثراً بعدّة نقاط مخزية:

- فقره؛
- ولادته غير الشرعية؛
- انفصاله عن أمه وهو في الخامسة من عمره؛
- ودمه اليهودي.

ليس ثمّة شكّ حول النقاط الثلاث الأولى، أما الرابعة فقد تكون مجرد إشاعة وهو ما لا يسهّل الأمور. إذ كيف يمكن مقاومة إشاعة حول شيء لا يجرؤ أحد على الحديث عنه صراحةً أو بين الشفاه؟ ما أسهل العيش حتى مع أسوأ اليقينيات. يمكن للمرء الارتقاء في عمله المهني وأن يقضي على الفقر كما نجح فيه ألويس فعلياً. كما نجح في تحبيل شابّتين قبل الزواج بهما ليعيد بهذا إحياء مصير الطفل غير الشرعي الذي عانى منه وانتقم منه من دون وعي لدى أطفاله. لكن مسألة أصله بقيت بلا جواب طيلة حياته.

روى لي أحدهم منذ وقت غير بعيد قصة تسعينيّ هاجر من أوروبا الشرقية منذ خمسة وثلاثين عاماً إلى أوروبا الغربية مع زوجته وأطفاله ليعيش هناك. وانتابته الدهشة بعد تلقّيه رسالة من ابنه الطبيعي المقيم في الاتحاد السوفييتي والبالغ ثلاثة وخمسين عاماً بعد أن كان يعتقد طيلة ثلاثة وخمسين عاماً أنه ميت. كان الطفل مع أمه يوم أُعدمت رمياً بالرصاص. ثم اعتُقل الأب بوصفه سجيناً سياسياً؛ ولم تخطر في باله فكرة البحث عنه. لكن الابن الذي يحمل نسبة والدته كتب في رسالته إنه لم يتوقف عن البحث منذ خمسين عاماً، وينتقل من مكتب إعلامي إلى آخر إلى أن انهارت آماله واحداً بعد الآخر. وبعد خمسين عاماً نجح في العثور على هذا الوالد الذي كان يجهل في البداية حتى اسمه. يمكن تخيّل الصورة المثالية التي نكوّنها عن هذا الأب المجهول والآمال التي نعقدها على العثور عليه.

تبيّن هذه القصة أن قضية أصل الفرد واللقاء بأحد الوالدين تكتسي أهمية حيوية بالنسبة له. ربما لم يعِش ألويس هتلر هذا النوع من الحاجات بطريقة واعية؛ فضلاً عن هذا، لم يكن بوسعه أبداً تكوين صورة مثالية عن هذا الأب المجهول الذي قد يكون يهودياً، وهو أمر يعني بالنسبة لمحيطه الخزي والعزلة. وتبيّن إجراءات تغيير الاسم في الأربعين من العمر، بكل ما عاش من هفوات، كما وصفها جواشيم فيست، أن مسألة الأصل كانت بالغة الأهمية بالنسبة لألويس وتنطوي على صراعات نفسية.

الصراعات العاطفية لا تلغيها الوثائق الرسمية. وثقل هذا الاضطراب الداخلي الذي يقارعه الجهد، والمكانة، والوظيفة، والبدلة والسلوك المتغطرس، كلّها تنعكس على الأطفال. يقول جون تولاند **J.Toland**:

> لا بد أن ألويس اكتسب أكثر من عادة، فأصبح مُشاجراً وغضوباً، وضحيته ألويس الابن. ولم يعد الأب الذي يطلب الطاعة المطلقة قادراً على التفاهم مع الابن الذي راح يرفضها. ثم راح ألويس الابن يشكو بمرارة ضرب والده له «بسوط ضخم من دون شفقة في أغلب الأحيان، لكن في النمسا لم يكن ضرب الأطفال المبرح نادراً من أجل مصلحتهم» خلال تلك الفترة. ذات مرة هرب الولد من المدرسة طيلة ثلاثة أيام ليكمل بناء مركب على شكل لعبة. ومع أن الأب كان يشجّع هذا النوع من النشاطات، ضرب الشاب ألويس بالسوط، ثم ربطه إلى شجرة من جلد رقبته حتى فقد وعيه. كما يروى أيضاً أنه كان يضرب أدولف بالسوط لكن ليس دائماً، كما «كان يستمر في ضرب الكلب حتى يزحف فوق الأرض ويبلّل الخشب. إذا صدقنا كلام ألويس الابن » بأن هذا العنف كان يطول كلارا المطيعة، فلا شك أنه ترك في نفس أدولف انطباعاً لا يمحى. (ج. تولاند، 1979، ص.29).

من المهم ملاحظة أن تولاند يقول «إذا كانت هذه الإشارات صحيحة»، مع أن لديه شهادة من أخت هتلر: بولا، لم ينشرها في كتابه؛ لكن هيلم ستيرلين يعود إليها في دراسته ويرجعها إلى محفوظات ج. تولاند. جاء في هذه الشهادة:

> كان أخي أدولف هو من يثير قسوة والدي بنحو خاص، فيتلقّى كلّ يوم نصيبه من الضربات. كان مشاغباً فظّاً، ولم تُجدِ جهود أبيه الرامية إلى جعله يتخلّى عن وقاحته من خلال الضرب، وإقناعه بالعمل كموظف.» (هيلم ستيرلين، 1980، ص. 28)

إذا كانت أخت هتلر بولا روَت شخصياً لجون تولاند أن أخاها أدولف «كان يتلقّى كل يوم نصيبه من الضربات»، فلا سبب يدعونا للشكّ في قولها هذا. لكن صعوبة التماهي مع الطفل تواجه جميع كُتّاب السير الذاتية، فيقلّلون بشكل غير واعٍ من أهمية تعامل الأهل معه. المقطع الآتي المأخوذ من فرانز جيتزنجر **F. Jetzinger** يكتسب أهمية كبرى حول هذا الموضوع:

> كتبنا أيضاً إن الولد قد تعرّض لضرب مبرح. وشفيعنا في هذا تصريح مزعوم لأنجيلا قالت فيه: «تذكّر يا أدولف، كيف كنا نمسك بأهداب بدلة أبيك الرسمية حينما كان يريد ضربك!». لكنه تصريح يبقى عرضة للشبهة بشكل كبير، لأن الأب توقف عن ارتداء البدلة الرسمية بعد فترة طويلة على انقضاء فترة هافلد **Hafeld**، وآخر مرّة لبس زيّه الرسمي لم يكن ينتمي إلى العائلة؛ من ثم لا بدّ أن هذه المشاهد حدثت بين عامي 1892و 1894، حينما كان أدولف في الرابعة من عمره بينما لم تكن أنجيلا إلا في السادسة عشرة تقريباً؛ لذلك، ما كان لها أن تجرؤ على منع مثل هذا الأب المخيف بمجرد الإمساك بأهداب بذلته. ولا بد أن أحداً غير مطّلع على تسلسل الأحداث قد اختلق هذه القصة!
>
> اعتاد «الفوهرر» على أن يروي لبعض أمناء سرّه حكايات تافهة مثل ضرب والده له فوق خاصرتيه؛ لكن لا شكّ في أنه كان يقصّ أشياء غير حقيقية على دوائره الخاصة؛ وهذه القصة تفتقر إلى المصداقية من حيث قرنها بقصص حول الهنود زاعماً أنه كان مثلهم يتلقّى مثل هذه المعاملة بلا اعتراض. لا نستبعد أن يكون هذا الولد المطيع والمشاغب قد تلقّى تأديباً يستحقّه من وقتٍ إلى آخر؛ لكن لا يمكن القول في أي حال من الأحوال، أنه كان من بين الأطفال الذين يخضعون للضرب لأن والده من دعاة التقدم بشكل أساسي بل يزيده تعقيداً. لا يمكن حلّ لغز هتلر بمثل هذه النظريات المُختلقَة من أولها إلى آخرها، بل نظن أن والده الذي تجاوز الستين من عمره أثناء إقامته في ليونديغ، كان متساهلاً في كثير من الأمور، ولم يهتمّ قطّ بتربية الطفل (جيتزنجر، 1957، ص.94)

إذا صحّت الشهادات التاريخية التي ساقها جيتزنجر، والتي ليس لدينا أيُّ سبب يدعونا للشكّ فيها، نرى أنه لا يؤكد بحجّته هذه «سوى قناعتي العميقة بأن أدولف لم يعد عرضة للضرب بعد أن كبر، بل حينما كان صغيراً، أي دون الرابعة من عمره. في الحقيقة، قد لا نحتاج إلى هذه العناصر لأن حياة أدولف كلّها تشهد على هذا. وليس من باب المصادفة أن يتحدث في كتابه كفاحي في أغلب الأحيان عن الطفل («لنقل») ذي الثلاثة أعوام. فلماذا يظن

جيتزنجر أن هذا كله لم يكن ممكناً لماذا؟ كم مرة لم يكن فيها الطفل الصغير ضحية الألم الذي يقاومه الطفل في نفسه[1]. تقول الدراسات التربوية التي أشرنا إليها سابقاً، وكتب الدكتور شريبر ذات الشعبية الكبيرة آنذاك، إن العقاب الجسدي لم يكن مباحاً صراحة؛ وطالما قيل إن الوقت مناسب لاجتثاث الشرّ لكي «لا تقف المعوقات أمام تطور الخير». زد على هذا، أن قراءة الصحف كانت كافية لمعرفة أن بعض الأمهات كن يضربن أطفالهن الرضّع، ولو تحدّث أطباء الأطفال عما يلاحظونه يومياً بحرية لربما ازدادت معرفتنا حول هذه النقطة؛ لكن حتى تاريخ قريب (في سويسرا على الأقل) كان السرّ الطبي يمنعهم عن هذا بشكل قطعي، ولا شكّ أنهم مستمرّون حالياً بحكم العادة أو تحاشياً للعقوبة». إذا كان ثمّة من يشكّ بأن أدولف هتلر قد تعرّض للعقوبات الجسدية في عمر مبكر، فإن المقطع الذي قطفناه من السيرة التي كتبها جيتزنجر يقدم له معلومة موضوعية حول هذه النقطة، علماً أن جيتزنجر يسعى إلى اثبات العكس- على المستوى الواعي على الأقل. أما على المستوى غير الواعي فقد فهم شيئاً آخر كما نحسّه في التناقض الصارخ الذي يكتنف قصته. فإما أن أنجيلا كانت خائفة من هذا «الأب الرهيب»، وفي هذه الحالة لم يكن ألويس لطيفاً كما أراد جيتزنجر إظهاره، أو إنه كان كذلك ومن ثم ليس هناك ما يدعو أنجيلا إلى الخوف.

لئن أطلت الوقوف عند هذا المقطع، فلأنه يبين أن الرغبة في عدم التعرّض للأهل تشوّه السير الذاتية. مما له دلالة كبيرة جداً هو أن جيتزنجر يتحدث عن «قصص تافهة» في حين أن هتلر يتحدث عن حقيقة حياته المرة؛ ويؤكد أن هتلر لم يكن «في أي حال من الأحوال» واحداً من «الأطفال الذين تعرّضوا للضرب»؛ وأن هذا الولد الوقح والعاصي «استحقّ ما ناله من ضرب»؛ لأن أباه كان رجلاً «تقدمياً تماماً». يمكن مناقشة ما يعنيه جيتزنجر بكلمة «تقدمي». لكن بعيداً عن هذا هناك آباء كانوا يبدون ظاهرياً أنهم يحملون فكراً تقدمياً جداً ويكرّرون قصة طفولتهم على أطفالهم، أو يختارون واحداً منهم ليكون كذلك. قد يؤدي الموقف التربوي الهادف أساساً إلى حماية الأبوين من لوم الطفل إلى أكثر التأويلات النفسية غرابة. فقد اعتقد فيست مثلاً، أن تقارير فرانك حول أصول أبيه اليهودية هي التي أثارت الروح العدوانية لدى هتلر ضد الأب. فرضيّتي القائلة إن كراهية الأب القارّة في الطفولة ربما وجدت لدى هتلر مخرجاً في كراهية اليهود تناقض

1- الأعمال التي نشرها راي هيلفر **R.Helfer** وهنري كيمب **H.Kempe (1979)** بعنوان **The Batterd Child** لا تساعد في فهم ومعرفة بواعث العقوبات الجسدية التي يتم إلحاقها بالأطفال الصغار.

فرضية فيست التي تقول إن أدولف هتلر ربما بدأ بكراهية أبيه في سن الرشد في عام 1938 بعد أن عرف من خلال فيست أنه قد يكون من أصل يهودي. يقول فيست:

لا يمكن معرفة ردود فعل الابن الذي كان على عتبة تسلّم السلطة في ألمانيا، بعد اكتشافه لهذه الحقائق؛ لكن بعض المؤشّرات تدفعنا إلى الظن بأن العدوانية الكامنة التي طالما شعر بها إزاء والده راحت من الآن فصاعداً تتحول إلى كراهية صريحة. فقد عمل منذ شهر أيار من عام 1938 أي بعد بضعة أسابيع على ضمّ النمسا، قام بتحويل بلدة دولرشايم ومحيطها إلى حقل مناورات عسكرية. وقامت دبابات فيرماخت بإزالة مكان ولادة أبيه والمقبرة التي دُفنت فيها جدته لأمه عن الوجود. (ج. فيست، 1963، ص. 22)

لا يمكن لمثل كراهية الأب هذه أن تكون ناجمة عن ذهن راشد فحسب، أو نوعاً من معاداة «فكرية» للسامية؛ بل لا بدّ أن تكون جذورها ضاربة في عمق عتمة الطفولة. والدليل على هذا إلى حد ما، أن جيتزنجر نفسه يظن أن «الكراهية السياسية» إزاء اليهود «تحولت» بعد تصريحات فرانك إلى «كراهية شخصية » للأب. (ينظر جيتزنجر، ص. 54.)

حينما توفي ألويس نشرت صحيفة **Linzer Tagepost** مذكرة نعي ورد فيها:

«لا يمكن للكلمات الجارحة التي كانت تخرج من بين شفتيه أن تخفي قلباً طيباً يخفق تحت هذه الهيئة الخارجية... وما من مناسبة إلا كان فيها نصيراً نشطاً للقانون والنظام، والثقافة العامة، ومُلمّاً بجميع المواضيع التي تعرض أمامه.» فوق شاهدة القبر توجد صورة مستطيلة للموظف السابق في مصلحة الجمارك، بعينيه الثاقبتين بعزم. (تولاند، 1979، ص. 35)

بل يتحدث سميث عن «احترامه العميق لحقوق الآخرين واهتمامه بسعادتهم». (ستيرلين، ص. 23)

قد يبدو «الخارج المخيّب للآمال إلى حد ما» لهؤلاء «الأشخاص المفعمين بالاحترام» جحيماً حقيقياً بالنسبة لأطفالهم، وهو جحيم يقدم لنا ج. تولاند مثالاً عليه:

قرّر أدولف الطفل الهروب في إحدى نوبات تمرده. لكن ألويس علم بمشروعه هذا، فحبسه في غرفته. وطيلة الليل، حاول الانزلاق بين قضبان النافذة الحديدية. ولمّا لم يتمكن من الخروج، خلع ملابسه. سمع خطوات أبيه فوق الدرج، فانسحب بسرعة

ليستر عريه بسجادة الطاولة. هذه المرّة، لم يضربه ألويس بالسوط بل انفجر ضحكاً ونادى على كلارا لرؤية «الولد الذي يرتدي جبّة». فجرحت السخرية أدولف أكثر من أيّ سوط، «واحتاج إلى وقت طويل لينسى هذه الحادثة»، كما أسرَّ إلى هيلين هانفستاينغل.

بعد عدة سنوات، قال لإحدى سكرتيراته إنه قرأ في إحدى روايات المغامرات أن عدم تعبيره عن ألمه برهان على الشجاعة: «فقرّرت ألا أبكي أبداً حينما يضربني أبي بالسوط. بعد عدة أيام سنحت لي الفرصة لاختبار إرادتي. ارتاعت أمي ووقفت أمام الباب. أما أنا فقد بقيت صامتاً أعدُّ ضربات العصا التي كانت تبكت مؤخرتي». وزعم هتلر أنه بدءاً من ذاك اليوم كفَّ والده عن لمسه أبداً. (ج. تولاند، ص.32).

جميع المقاطع التي تندرج في هذا الأسلوب تعطي انطباعاً واضحاً بأن ألويس كان يحمّل ابنه الغضب الأعمى الذي أيقظته في نفسه مواقف الإذلال التي تعرّض لها في طفولته، وتركه يدفع ثمنها من خلال ضربه. كان يحسّ بحاجة مُلحّة إلى نقل الإذلال الذي تعرّض له في طفولته والآلام التي عاناها بنحو خاص، إلى هذا الطفل.

هناك ثمة قصة أخرى قد تساعدنا هنا في فهم خلفية مثل هذه الحاجة الملحّة. في أحد البرامج التي عرضها التلفزيون الأمريكي، نرى مجموعة من الأمّهات الشابّات وهن يتحدثن عن تعاملهن السيئ مع أطفالهن. روت إحداهن، أنها ذات يوم لم تعد تطيق سماع بكاء طفلها، فانتزعته من مهده وضربت به عرض الحائط بقوة، فجعلت المشاهد يشعر فجأة في أعماقه باليأس الذي انتابها آنذاك؛ ثم روت لاحقاً، بعد أن ارتبكت ولم تعد قادرة على معرفة ما تفعله، اعترفت لقسم الهاتف المخصص في الولايات المتحدة لهذا النوع من الحالات. سألها الصوت الذي ردّ عليها في الهاتف عمّن أرادت ضربه فعلياً. سمعت المرأة الشابة صوتها يقول: «أردت أن أضرب نفسي»، ثم أجهشت في البكاء.

أودّ أن أشرح بهذا فهمي لمعاملة ألويس السيّئة لابنه. لكن هذا لا يغيّر حقيقة أن أدولف الذي لم يكن قادراً على معرفة هذا كلّه حينما كان طفلاً، كان يعيش في ظل تهديد دائم وجحيم، وحالة قلق دائم وألم حقيقي؛ وأنه كان في الوقت نفسه مجبراً على قمع هذه المشاعر كلّها، وغير قادر على إنقاذ كبريائه إلا إذا نجح في إخفاء ألمه ورفضه أيضاً.

أيُّ غيرة لا واعية ولا تُقهر أثارها الطفل لدى ألويس، اللـهمّ سوى وجوده؟! هـل لأنـه طفـل «شرعي» لزوجين، وابن موظف في الجمارك، وأمّ لم تكن مضطرّة لأن تعهد به إلى أخريـات لشـدّة فقرها، ويعيش مع أب كان يعرفه (بل كـان يستشـعر حضـوره جسـدياً، بشـكل ملمـوس ودائـم بحيث لم ينسَه طيلة حياته)؟ أليس هذا ما عاناه ألويس طيلة حياته من أنه لم يكن هذا الطفل، ولم ينجح في أن يكون كذلك على الـرغم مـما بذلـه مـن جهـود، لعـدم القـدرة عـلى تغيـير قـدر الطفولة الذي لا يمكن إلا قبوله والتأقلم مع حقيقة الماضي، أو الاحتفاظ به تماماً وإيلام الآخـرين بهدف التعويض.

يصعب على الكثيرين منا قبول الحقيقة المحزنة بأن القسوة تصيب البريئين في أغلب الأحيان. ولا بد من القول إننا ننظر منذ نعومة أظفارنا إلى قسوة التربية بوصفها عقوبات سببها أخطاؤنـا. روت لي إحدى المعلمات بعد عرض فيلم المحرقة على شاشـة التلفزيـون، أن كثـيرين مـن تلاميـذ صفّها ظنّوا أن «اليهود قاموا بأمر سيّئ، وإلا لما عوقبوا على هذا النحو».

هكذا ينبغي أن نفهم جهود كتّاب السير وهـم ينسـبون إلى الصـغير أدولـف جميـع الخطايـا الممكنة والمُتخيّلة، لا سيما الكسل، والوقاحة، والكذب. هل يولد الطفـل كـذّاباً؟ ألا يعـد الكـذب في بعض الأحيان الوسيلة الوحيدة للعيش مع أب كهذا، والحفاظ على ما تبقّى من كرامة؟ حينما نقع تحت نزوات أحـدهم، كـما كـان حـال أدولـف هتلـر (وكثـيرين غـيره)، ألا يشـكّل الكـتمان والدرجات السيّئة في المدرسة الوسيلتين الوحيدتين ليحقّق الإنسان شـيئاً مـن الاسـتقلالية بشـكل خفيّ؟ لهذا فإن الأسباب التي تدعونا للظن بأن جميع سرديـات النقـاش الصريـح والمعلـن حـول اختيار مهنته بين هتلر وأبيه، ورواها هتلر لاحقاً، عبارة عن نسخة منقّحـة للحقيقـة، ولـيس لأن الابن «جبانٌ بطبيعته»، بل لغياب النقاش الممكـن مـع الأب. والمقطـع الآتي المـأخوذ عـن كتـاب كفاحي **Mei Kampf** يعبّر عن حقيقة الأشياء بشكل أكبر:

> كنتُ قادراً على تدبّر أمري لأحتفظ لنفسي بما كنت أفكر فيه داخليـاً، لم أكـن بحاجـة إلى الردّ دائماً. كان يكفينـي أن أتخـذ القـرار الراسـخ في ألا أصـبح موظفـاً لأشـعر بالهـدوء في داخلي. (ساقه ك. هايدن **K.Heiden**، ص. 16)

ثمة هنا دلالة كبيرة في أن يختتم كاتب السيرة كونراد هايدن بعد أن ساق هذا المقطع بقوله: «إذاً، كان صاحب أسرار». إن ما ننتظره تحديداً من الطفل في النظام الشـمولي هـو أن يعبّر عـما

في نفسه بصراحة وصدق، وفي الوقت نفسه أن يطيع بحركة من الأصبع أو من طرفة عين، وأن يحوز على درجات جيدة في المدرسة، وألا يردّ على والده، وأن يلتزم بواجبه دائماً.

ويتحدث كاتب السيرة رودولف أولدين **R.Oldin** أيضاً في عام 1935 عن الصعوبات المدرسية التي واجهت هتلر بقوله:

> سرعان ما تعزّز لديه سوء النيّة بعدم الجدارة وبالعكس. فقد غاب محرّك قويّ (!) مع الغياب المفاجئ للأب (ر. أولدين 1935، ص. 18).

من ثم لا بد أن يكون الضرب محرّكاً للعمل المدرسي. والأكثر إثارة للدهشة أن كاتب السيرة نفسه من تحدث أعلاه عن ألويس:

> لقد حافظ على عزّة النفس التي يتميز بها الضابط المتقاعد بعد عمله في الشأن العام؛ فصار يطلب من مخاطبه بأن يُناديه سيدي، وبرتبته العسكرية. وكلنا يعرف أن الفلاحين والصحفيين يخاطبون بعضهم بضمير المخاطب، لكنهم منحوا هذا الغريب الشرف الذي كان يطالب به من باب السخرية. وإذا عرفنا أن هذا الرجل لم يكن يرتبط مع محيطه بعلاقات جيدة، فقد أنشأ في بيته نوعاً من الديكتاتورية العائلية للتعويض عن كل ذلك. فخضعت له المرأة، وقست يده على الأطفال. وكان أدولف بنحو خاص، هو الذي لم يكن يفهمه. فراح يضطهده. حينما كان صف الضابط يريد استقدامه يضع أصابعه الستة في فمه ويصفر له. (أولدن، ص. 12)

في حدود معلوماتي، هذا المشهد الذي يعود إلى عام 1935 غير موجود في السير الذاتية التي كتبت بعد الحرب، فقد كان كثيرٌ من الناس يعرفون عائلة هتلر وما يزالون يعيشون في برونو **Braunau**، بمعنى أن الحصول على مثل هذه المعلومات لم يكن صعباً. وصورة الرجل الذي يصفر لابنه لإعادته إلى البيت، كما نفعل مع الكلب، تذكّرنا بالأوصاف المعروفة في معسكرات الاعتقال، التي لا نستغرب أن يكون كتّاب السيرة الحديثون قد ألغوها - لما تسبّبه من إزعاج لا يصعب علينا فهمه. إلى هذا، لا بد من إضافة التوجّه العام في جميع السير الذاتية إلى التقليل من فظاظة الأب للإيحاء بأن العقوبات الجسدية كانت معياراً متّبعاً آنذاك، أي في محاولة لدحض هذه «الافتراءات» الموجّهة ضد الأب، كما حاول جيتزنغر القيام به. لكن استقراءات جيتزنغر جاءت، لسوء الحظّ، لتشكّل أحد المصادر الدقيقة للأعمال اللاحقة. ومن ثم، فإن هذه الأطروحات النفسية لا تختلف أبداً عن أطروحات ألويس!

اتضحت الطريقة التي نظر هتلر الطفل فعلياً من خلالها إلى أبيه، حينما عاد بشكل غير واعٍ إلى سلوكه مرّةً أخرى بشكل فعّال في التاريخ العالمي. فالديكتاتور ذو الحركات المهتزّة وغير المنتظمة، والمثير للضحك إلى حدٍّ ما، ببزّته الرسمية كما قدّمها شابلن في فيلمه، أو كما رآه أعداؤه، يمثل ألويس كما رأته عين الابن الناقدة. الفوهرر العظيم، الذي يحبه الشعب الألماني ويعجب به، كان ألويس الآخر، الذي كانت كلارا تحبه وتعجب به؛ تلك الأم الخاضعة التي كان الصغير هتلر يبادلها الاحترام والإعجاب. هذان الوجهان اللذان كوّنهما عن أبيه يظهران بوضوح كبير في الأشكال اللاحقة من حياة هتلر (لنتذكّر فقط تحيّة «هايل هتلر»، وحماسة الحشود، وما إلى ذلك.) ليتكوّن لدينا الانطباع بأن مواهب الفنان هذه قد دفعته بقوة لا تقهر نحو تقديم أولى تصورات الأب الديناميكي خلال حياته وإظهارها لتبقى محفورة في أعماق نفسه لكن بشكل غير واعٍ. لقد بقيت راسخة في ذهن من عاش تلك المرحلة، مع أن جزءاً من المعاصرين قد رأوا فيه هول الديكتاتور المتمثل في الطفل الذي أسيئت معاملته، وجزء آخر رأى في الولاء والإحساس بالطفل البريء. ما من فنان عظيم إلا ويمتح إلهامه من طفولته اللاواعية؛ وقد يعدّ ما قام به هتلر بمثابة عمل فني، لو لم يكن ثمنه حياة ملايين الناس، ولو لم يتعرّض هذا الكمّ من الضحايا لما سبّبه لهم من الآلام غير المعيشة والمكبوتة في الأنا الكبرى. لكن على الرغم من التماهي مع المعتدي، فإن بعض مقاطع كتاب كفاحي تبيّن أيضاً وبشكل مباشر كيفية الحياة التي عاشها هتلر في طفولته:

> في غرفتين من أحد الأقبية كانت تعيش عائلة من سبعة أفراد. ومن بين الخمسة أطفال واحدٌ صغير في الثالثة من عمره. وهو العمر الذي يكتسب الطفل فيه وعيه.[...] ضيق السكن وتكدّس ساكنيه بعضهم فوق بعض يبعث الضيق الدائم في النفس فتنجم عنه النزاعات. هؤلاء الناس لا يعيشون بعضهم مع بعض، بل يتكدسون بعضهم فوق بعض. الاختلافات البسيطة التي تُحلّ من تلقاء نفسها في بيت فسيح تتحول هنا إلى مشاجرات يومية. [...] حينما يتعلق الأمر بالوالدين، تصبح المشاجرات اليومية في أغلب الأحيان فظّة وعنيفة لدرجة لا يمكن تخيلها. فيشعر الأطفال بهذه الأمور. لا بد من التعرف على هذه الأوساط لنعرف إلامَ يؤدّي السُّكر، والمعاملات السيئة. الولد التعيس ذو الستة أعوام لا يجهل التفاصيل التي تجعل البالغ ينتفض. هذا المواطن الصغير المسموم معنوياً، ويعاني من سوء التغذية الجسدية يذهب

إلى المدرسة الرسمية ولا يتعلم فيها سوى الكتابة والقراءة. ولا يستطيع الدراسة في البيت حيث يحدّثونه عن صفّه ومعلّميه بكلمات فظّة، ويغيب احترام أيّ مؤسّسة بشرية بدءاً من المدرسة وصولاً إلى أعلى هيئات الدولة. ويتم تشويه الدين والأخلاق، والأمة والمجتمع. [...] ثم يسوء الأمر بعد أن ينسب الأب إليه جميع المحاسن منذ بداية الأسبوع، وتدخل الزوجة في صراع معه بسبب الأطفال. تبدأ الشجارات، وكلما ابتعد الرجل عن زوجته اقترب من الكحول. كل يوم سبت، يثمل؛ وتناضل المرأة من أجل نفسها ومن أجل الأطفال لتنتزع منه بعض القروش، بينما يكون في طريق المصنع نحو الخمارة في أغلب الأحيان. وحينما يعيده الليل أخيراً إلى البيت، يوم الأحد أو الاثنين ثملاً وفظّاً، وجيوبه فارغة، تبدأ المشاهد المثيرة للشفقة... وقد شهدت قصصاً مشابهة مئة مرّة.» (نقلاً عن ستيرلن، ص. 30).

على الرغم من أن الجرح العميق والدائم قد أصاب أدولف هتلر في كرامته ومنعه من تصوّر حالة ذلك الطفل («لنقل») ذي الثلاثة أعوام مثله، بضمير المتكلم، لا يبقى أيّ شكّ حول المضمون المعيش لهذا الوصف.

طفلٌ لا يناديه أبوه باسمه، بل يصفّر له كما لو كان كلباً يحتل في كنف العائلة المكانة المغفلة نفسها؛ طفل محروم من حقوقه كأيّ «يهودي» يعيش في ظل الرايخ الثالث [الجمهورية الثالثة].

نجح هتلر فعلاً عبر تكرارٍ قهريّ غير واعٍ في نقل مشكلته النفسية العائلية إلى مجمل الشعب الألماني. فجاء إصدار القوانين العنصرية ليجبر جميع المواطنين على إثبات أصولهم بالعودة إلى الجيل الثالث، واستخلاص النتائج من هذا الأمر. وسواء كانت هذه الأصول سيئة أو مجرّد عرضة للشكّ فهي تقلّل من شأن صاحبها، وتعرّضه للإهانة في البداية ثم تنتهي به إلى الموت، في عزّ السلم الذي تعيشه دولة تزعم أنها دولة القانون؛ وهي ظاهرة لا نجدها في مكان آخر. ليس في الجمهورية الثالثة [الرايخ الثالث] سلوكٌ أو جهد أو مزية تشكل عوناً ما - إذا كنت من أصل يهودي فأنت محكوم بالإذلال، ولاحقاً يكون مصيرك الموت. ألا نجد في هذا انعكاساً مزدوجاً لقدر هتلر؟

1. لم يكن والد هتلر أيضاً، على الرغم من جهوده، ونجاحه، وارتقائه الاجتماعي والمهني من إسكافي إلى موظف في الجمارك، قادراً على محو «وصمة» ماضيه، مثلما لم يتمكن ليهود لاحقاً من التخلّص من النجمة الصفراء. بقيت هذه الوصمة، لتجعله يحسّ

بالاضطهاد طيلة حياته. قد تُضاف أسباب أخرى إلى الأسباب المهنية مثل الانتقال من بيت إلى آخر (كما ينقل أونز عن فيست) قد دفعته إلى هذا السلوك: أي الحاجة إلى إخفاء الآثار، وهو توجّه بالغ الوضوح في حياة هتلر: «حينما علم في عام 1942 بإشادة نصب تذكاري في قرية سبيتال (مسقط رأس والده **A.M**) أصيب بواحدة من نوبات غضبه المعروفة» كما يقول فيست.

2. وفي الوقت نفسه، جاء إصدار القوانين العنصرية تكراراً لمأساة مرحلة طفولته: فمثلما لم يكن أمام اليهودي أيّ فرصة للهروب، لم يكن لدى الطفل أدولف أيّ فرصة لتحاشي ضربات والده، لأن سببها يعود إلى مشكلات هذا الأب التي عجز عن حلّها، ورفض الأسى الذي عاشه في طفولته، وليس في سلوك الطفل. فقد اعتاد هؤلاء الآباء على انتزاع أولادهم النائمين من أسرّتهم حينما لا يستطيعون تجاوز مزاج معيّن (كشعورهم بفقدان الثقة بمكان معيّن من المجتمع أو عدم ارتياحهم فيه، على سبيل المثال)، فيشرعون عندئذٍ في ضرب الطفل بغية استعادة توازنهم النرجسي (ينظر: كريستيان ف.، ص. 25).

كان اليهودي يقوم بالوظيفة نفسها إبّان الجمهورية الثالثة [الرايخ الثالث] حين كان يريد التخلّص من عار جمهورية فيمار على حسابه: وهي تحديداً الوظيفة التي اضطلع بها أدولف طيلة طفولته؛ إذ كان عليه أن ينتظر دائماً ثوران عاصفة فوق رأسه، من دون أن تثنيه أيّة فكرة أو جهد أو تتيح له تحاشيها.

ولغياب الحنان بين أدولف وأبيه (وهو يسمّيه «السيد الوالد» في كتابه كفاحي)، فقد استمرّ تطور الحقد في نفسه بشكل ملتبس. وهو أمر مختلف بالنسبة للأطفال الذين تنتاب آباءهم نوباتٌ من الغضب، لكنهم يستطيعون العودة للعب مع أطفالهم بطريقة لطيفة. ومن ثم فلا يمكن أن تكون الكراهية خالصة عندئذٍ، لأن صعوبات من نوع آخر تعترض سبيل هؤلاء الأشخاص: كبحثها عن شركاء ذوي بنية تمتدّ إلى الطرفين، فتشعر بألف قيد يربطها بهم، فلا تستطيع التخلي عنهم بانتظار انتصار الجانب الخيّر دائماً لتقطع الأمل عند كل ومضة جديدة. هذا النوع من الروابط السادية-المازوشية التي يعود سببها إلى ازدواجية الشخصية عند أحد الوالدين، يكون أقوى من روابط العلاقة الغرامية، لأنها لا تنهار، وتعادل التدمير الذاتي دائماً.

كان أدولف متيقّناً بأن العقوبات ستستمرّ؛ ومهما فعل، لن يغيّر شيئاً في الضربات التي كان ينتظرها يومياً. ومن ثم لم يبقَ أمامه سوى إنكار الألم، بمعنى إنكار نفسه والتماهي مع المُعتدي،

لعدم وجود من يهبّ لمساعدته، حتى أمّه التي من شأنها التعرّض لخطر الضرب. (ينظر: تولاند، ص.28)

انعكست هذه الحالة القائمة على التهديد الدائم بشكل دقيق جداً على أحوال يهود الجمهورية الثالثة [الرايخ الثالث]. دعونا نتصور المشهد الآتي: ثمة يهودي في طريقه لشراء الحليب، وفجأةً ينقضّ عليه رجلٌ يحمل الشريط المكتوب عليه **S.A** [البوليس السرّي]، يحقّ له أن يفعل به ما يشاء، أيْ كلّ ما يخطر على باله ويمليه عليه لاوعيه في تلك اللحظة. فيفقد اليهودي أيّ تأثير على هذا كلّه- كما كان حال أدولف الطفل. فلو دافع اليهودي عن نفسه يحقّ لذاك الشرطي أن يدوسه حتى الموت؛ وهو حال أدولف يوم كان في سنّ الحادية عشرة، وهرب للتخلّص من العنف الأبوي برفقة ثلاثة من رفاقه فوق عوّامة صنعوها بأيديهم وراحت تعوم فوق ماء النهر. وكان يمكن أن يتعرّض للضرب المميت لمجرّد فكرة الهروب (ينظر ستايرلن، ص. 28). من الآن فصاعداً لم يعد أمام اليهود أيضاً إمكانية الهروب، بعد أن سُدّت في وجوههم الطرق، ولم يبقَ أمامهم سوى طريق الموت؛ ومثلما تتوقف الخطوط الحديدية عند مدخل تريبلينكا أو أوشفيتز تتوقف الحياة هناك. هذا هو بالتحديد ما شعر به طفلٌ يتعرّض يومياً للضرب، وكاد أن يُقتل لمجرّد أن راودته فكرة الهروب.

في المشهد الذي أتيتُ على وصفه وتكرّر عدّة مرّات بين عامي 1933و 1945، بمعزل عن بعض الاختلافات، نرى أنه كان على اليهودي تحمّل كلّ شيء بوصفه طفلاً عاجزاً، كالصبر على ذلك المخلوق المزمجر، والخارج عن طوره، بعد أن تحوّل إلى وحش حقيقي بشريط البوليس الذي يحمله، ويسكب الحليب فوق رأسه، ويدعو آخرين للضحك عليه (كما كان ألويس يسخر من ثوب أدولف) ويشعر بقوّته الخارقة أمام هذا الكائن البشري المستسلم له ولسلطته تماماً. إن كان هذا اليهودي محبّاً للحياة، فلن يخاطر لإثبات شجاعته وصمود روحه، بل سيبقى هادئاً، ومفعماً بالرعب ممّن يعتدي عليه ويحتقره؛ وهو موقف يشبه تماماً أدولف في الماضي حينما بدأ يدرك مع مرور الزمن، ضعف والده، وراح يمهّد للانتقام عبر تكرار فشله الدراسي الذي كان يُغضب الأب.

يعتقد جولشيم فيست **Joachim Fest** أن فشل أدولف المدرسي لا يعود إلى علاقته بأبيه، بل بارتقاء شأن أطفال مدينة لينز المنحدرين من عائلات بورجوازية تتجاوز مستواه الاجتماعي. ومن جانب آخر، يضيف فيست قوله إن أدولف كان «تلميذاً حاضر الذهن

ومفعماً بالحيوية، وبدا موهوباً» (ص. 9) فلماذا يفشل طفلٌ كهذا، اللـهم إلا للأسباب التي يتحدث عنها هو نفسه ولا يريد فيست الأخذ بها، فينسب إليه «نفوره المبكر من كلّ عمل منتظم، وميله الواضح إلى اللامبالاة». وهو ما كان يمكن لألويس التعبير عنه بهذه الطريقة، لكن ما يدهشنا هو تماهي أكبر كتّاب سيرته مع الأب ضد الطفل، ليقدّم بعد ذلك عبر آلاف الصفحات، برهاناً على ما يتمتّع به هتلر من قدرات؛ اللـهم إن لم تكن هذه هي القاعدة. فجميع كتّاب السيرة يتبنّون معايير تربوية تقوم على قيمة إيديولوجية تقول إن الأهل دائماً على حقّ، بينما الأطفال كسالى، ومدلّلون و«عنيدون»، ومزاجيون (ص.9) حينما لا تتطابق تصرفاتهم مع أهوائنا تماماً في جميع الميادين. وإذا صادف أن عبّر الأطفال عن انتقادهم للوالدين، فإنهم يُتّهمون دائماً بالكذب؛ يقول فيست:

> بعد ذلك، ولكي يضيف هتلر بعض الرتوش المذهلة والقاتمة على هذه اللوحة (وكأنها تحتاج إليها) فقد جعل والده سكّيراً، وأنه كان مضطرّاً، بالتوسّل أو بالتهديد، إلى انتزاعه من «مقاهٍ قذرة وعفنة وتعجّ بدخان السجائر «لكي يعيده إلى البيت بعد مشاحنات مريعة». (ص. 9)

ترى، لمَ هذا السواد المصطنع الذي يضفيه على اللوحة؟ الجواب هو إقرار كتاب السيرة بأن الوالد كان يحتسي الكحول في المقهى، ثم يعود لخلق الشجارات في البيت، مع أنهم جميعاً يؤكدون أنه لم يكن «كحولياً». وهذا التشخيص القائل بأنه لم يكن «كحولياً» يكفي لمحو كل ما كان يفعله الأب، وإنكار أهمية التجربة التي يعيشها الطفل، أي شعوره بالخجل والذلّ أمام هذه المشاهد المرعبة.

برزت ظاهرةٌ مماثلة أثناء قيام هؤلاء بتحليلهم، يتضح منها أن بعض المرضى يسعون للحديث مع أفراد آخرين حول عائلات أهلهم الميّتين. هؤلاء الأهل الذين كانوا مثاليين في حياتهم، يجدون أن الموت قد رفعهم إلى مرتبة الملائكة، وتركوا طفلهم في جحيم تأنيب الضمير. ونظراً لعدم وجود شخصٍ في محيطهم قادرٍ على تأكيد المشاعر التي يحسّ بها هؤلاء الرجال والنساء خلال طفولتهم، فإنهم الوحيدون الذين يتحمّلون مسؤوليتها، وهو ما يدفعهم إلى الاعتقاد بأنهم سيّئون جداً. لا شكّ أن الأمور لم تجرِ خلافاً لذلك بالنسبة لأدولف هتلر حينما فقدَ والده وهو في الثالثة عشرة من عمره، ولم يصادف بعد ذلك في محيطه سوى الصورة المثالية للأب. فمَن والحال هذه يؤكّد له قسوة ألويس وفظاظته، إذا كان يصعب كثيراً على كتّاب السِّير الحديثُ

من دون جدوى عن العقوبات التي كـان يوقعهـا بالطفـل يوميـاً؟ مـا إن نجـح أدولـف هتلـر في تحويل معاناته للألم إلى «اليهوديّ في حدّ ذاته»، حتى تمكّن أيضاً من فكّ عزلته.

لا يمكن تصوّر رابط أكثر وثوقاً بين شعوب أوروبا من رابط معاداة السـامية، لأنـه طالما كـان وسيلة تضليل مفضلة لدى أصحاب السـلطة، وملائمـة تماماً لإخفـاء أكـثر المصـالح تنوعـاً لدرجـة مكنت الجماعات تعارضاً في ما بينها من التفاهم التامّ حول التهديد الذي يشكّله اليهـود، وحـول وضاعتهم. كان هتلر البالغ يعرف هذا لقوله ذات يوم لراوشـنينغ **Rauschning** [مؤلـف كتـاب قال لي هتلر، 1939] «لو لم يكن اليهودي موجوداً لوجب إيجاده».

أين تجد معاداة السامية قدراتها الدائمة على الانبعاث؟ الأمر ليس صعباً جداً عـلى الفهـم. لا أحد يكره اليهودي لأنـه فعـل هـذا أو ذاك. فكينونـة اليهـود كلّهـا، ومـا يفعلونـه موجـود لـدى الشعوب الأخرى. لأن من يكرهه يحمل في ذاتـه كراهيـة غـير مسـموحة، فيحتـاج إلى تسـويغها. والشعب اليهودي قابلٌ بنحو خـاص لهـذا التسـويغ. فبعـد اضـطهاده منـذ ألفـي سـنة عـلى يـد السلطات الكنسية والدولة، لم يعد أحدٌ يخجل من معاداتـه للسـامية، حتـى لـو تـربّى عـلى أكـثر المبادئ الأخلاقية صرامةً، ويخجل حتى من أكثر الحركـات الطبيعيـة للـنفس. الطفـل الـذي تـربّى باكراً جداً في قيد الفضـائل المفروضـة يسـارع نحـو المتـنفس الوحيـد المتـاح «فيمسـك» بمعـاداة للسامية (أيْ حقّه في الكراهية) ليحتفظ به طيلة حياته. لكن، لا شـكّ أن هـذا المُتـنفّس لم يكـن سهل المنال بالنسبة لأدولف، لأنه يصيب أحـد محرّمـات العائلـة. فقـد اسـتطاع في وقـت لاحـق، حينما كان في فيينا، وبعد تذوّقه متعة رفع هذا المحظـور الضـمني وبلـوغ السـلطة، اسـتطاع أن يشيد الكراهية الوحيدة المسموحة في التقاليد الغربية للإعلاء من شأن العرق الآريّ.

ما يدفعني إلى افـتراض أن مسـألة النسـب كانـت مـن مُحرّمـات عائلـة هتلـر، هـو الأهميـة المفرطة التي أولاها لهذا العنصر في مرحلة لاحقة. وقد جاء ردّ فعلـه عـلى تقريـر فرانـك في عـام 1930 ليعزّز لديّ هذه الفكرة. لأنها تكشف عن مزيج من معرفة وجهل تتسم به حالـة الطفـل، وتعكس الاضطراب الذي كان يخيّم على العائلة حول هـذا الموضـوع. ومـن بـين مـا ورد في هـذا التقرير نقرأ ما يأتي:

> أدولف هتلر نفسه، يعرف من روايات والده وجدّته لأمـه أن والـده لم يولـد بعـد علاقـة جنسية بين ماريا شيكلغروبر ويهوديّ غراز، بـل نتيجـة علاقـة بـين جدّتـه لأمـه وزوجهـا المستقبلي قبل الزواج. لكن نظراً لفقرهما، قام ذاك اليهودي بتقـديم إعانـة غذائيـة كـان

هذان الزوجان ينتظرانها بفارغ الصبر طيلة سنوات. وبما أنه كان قادراً على الدفع، فقد جعلوه أباً، وجاء دفعه من دون إجراءات قانونية لخشيته من تحول القضية إلى شأنٍ عامّ (بحسب جيتزنغر، ص. 30).

وقد علّق جيتزنغر على ردّ فعل هتلر على النحو الآتي:

هذا المقطع يعيد كتابة ردود فعل هتلر على ما كشفه فرانك. كان بطبيعة الحال غاضباً، لكنه لم يستطع إظهار غضبه هذا أمام فرانك، ومن ثم فقد تصرّف كما لو أن ما سمعه لم يكن جديداً عليه؛ فقال إنه يعرف مما رواه والده وجدّته لأمه أن والده لم يكن ابناً لأحد يهود مدينة غراز. لكن الاضطراب الذي استبدّ بهتلر في تلك اللحظة جعله يفقد عقله! إذ كيف لجدّته الراقدة في قبرها منذ أربعين سنة أن تكون قد حكت له عن هذا الأمر! وماذا عن والده؟ هل يمكن أن يكون قد رواها له ولم يكن أدولف قد بلغ الرابعة عشرة من عمره، لأن والده كان ميتاً آنذاك؛ وهذه أشياء لا تقال لولد في مثل هذا العمر، لا يقال له بنحو خاص: «جدّك لوالدك لم يكن يهودياً!»، حينما لا تكون المسألة تتعلق بجدٍّ يهودي! بعد ذلك، ردّ هتلر إنه يعرف أن والده ولد نتيجة علاقة بين جدّته لأمه وزوجها المستقبلي قبل الزواج. فلماذا إذاً ذكر قبل سنوات في كتابه أن والده كان ابناً لأحد فقراء الفلاحين المياومين؟ أما عامل الطاحون، الوحيد الذي أقامت معه علاقة قبل الزواج بعد عودتها فقط للعيش في دولرشايم، فلم يكن أبداً نجّاراً! واتهام الجدة بأنها لم تكن صادقة في قولها إن الأب هو من كان قادراً على الدفع، سواء كانت مبادرة من هتلر أو فرانك، فإن لها من دون شكّ علاقة بطريقة المحاكمة الذهنية الشائعة لدى الأشخاص المنحرفين، لكنها لا تتحدث عن الأصل! الحقيقة أن أدولف هتلر لم يكن يعرف شيئاً عن أصوله! لأنه لا يتم إخبار الأطفال عموماً بمثل هذه الأشياء (جيتزنغر، ص.30، وغيرها).

إن مثل هذه الضبابية التي تخيّم على العائلة قد تؤدي إلى صعوبات مدرسية تعترض سبيل الطفل (لأن المعرفة ممنوعة أيْ تعرّض صاحبها للتهديد والخطر). في كل الأحوال، أراد هتلر بعد ذلك أن يعرف بشكل دقيق جداً أصول المواطن الألماني بالعودة إلى الجيل الثالث، وما إذا كان «يتخفّى» خلف جدٍّ يهوديّ.

يذكر فيست عدّة ملاحظات حول فشل أدولف المدرسي، تقول بنحو خاص، إنه استمرّ بعد موت أبيه، وهو برأيه دليلٌ على أن هذا الفشل لم تكن له علاقة بالأب؛ وهو ما نسوق عليه بعض البراهين:

1. تبيّن الاستشهادات المتعلقة بالتربية السوداء بوضوح شديد أن المعلّمين يضطلعون بدور الآباء في ما يخص العقوبات الجسدية، وفائدتهم منها لتحقيق الاستقرار النرجسي في أناهم.
2. حينما توفّي والد أدولف، كان ابنه قد استبطنه منذ عهد بعيد، وجعل المعلّمون أنفسهم بديلاً للأب، وهذا يعني الوقوف في وجوههم بمزيد من النجاح. الفشل المدرسي جزء من الوسائل النادرة التي تملكها لمعاقبة الأب-المعلم.
3. كان أدولف قد تلقّى ضرباً مميتاً تقريباً وهو في الحادية عشرة من العمر، لأنه أراد التحرّر من خلال الهروب من مؤسّسة لم يعد يطيقها. في تلك الفترة أيضاً، توفّي أخوه إدموند، الكائن الوحيد الأضعف منه، والذي لا شك أنه جرّب ممارسة السلطة عليه إلى حدّ ما، لكننا لا نعرف شيئاً عن هذا الأمر. على كلّ حال، بدأ الفشل المدرسي في تلك الفترة، لأن الطفل كان يحصل قبلها على درجات جيدة. من يدري؟ ربما كان يمكن لهذا الطفل النبيه والموهوب العثور على وسيلة أخرى أكثر إنسانية لمعالجة الكراهية التي راكمها لو عرفت المدرسة كيف تقدّم له مواد دراسية تناسب فضوله وحيويته. لكن اكتشاف قيم الروح صار مستحيلاً عليه، بسبب هذه العلاقة الأولى بالأب الذي تدهورت علاقته به بشكل عميق، فارتدّت على المعلمين والمدرسة.

ذات يوم، كنتُ جالسة فوق أحد مقاعد حديقة عامة في إحدى المدن الكبرى التي لم أكن أعرفها. جلس بجانبي رجلٌ عجوز قال لي إنه في الثانية والثمانين من العمر. أثار هذا الرجل انتباهي بسبب طريقته المفعمة بالاهتمام والاحترام للأطفال الذين كانوا يلعبون، فانخرطت معه في محادثة روى لي خلالها تجاربه يوم كان جندياً إبان الحرب العالمية الأولى. فقال: «بين جوانحي ملاكٌ حارس يرافقني أينما حللت. غالباً ما رأيت رفاقي يسقطون بعد إصابتهم بقنبلة وأنا إلى جانبهم، لكني بقيت على قيد الحياة، ولم أُصب بجرح». لم أهتم بتفاصيل الوقائع إن كانت جرت على هذا النحو الدقيق أم لا، بل بالصورة التي عبّر من خلالها عن نفسه وثقته بقدره. حينما سألته عما آل إليه إخوته وأخواته، لم يدهشني قوله: «جميعهم ماتوا، وكنتُ أنا

أصغرهم». وقال إن أمه كانت تحب الحياة كثيراً. أحياناً توقظه صباحاً ليستمع إلى شدو العصافير المنبعث من الغابة قبل أن يتوجه إلى المدرسة. كانت تلك أجمل ذكرياته. ولدى سؤالي له عما إذا كان قد تعرّض للضرب، أجابني: «الضرب، عملياً لا، ربما كان أبي يسارع إلى ضربي في بعض الأحيان، وكنت أغضب في كلّ مرة، لكنه لم يكن يفعل هذا أبداً بحضور أمي، لأنها ما كانت تسمح بهذا». ثم تابع قوله: «ذات مرّة ضربني المعلم ضرباً مخيفاً مع أني كنتُ أفضل التلاميذ خلال السنوات الثلاث من دراستي. في السنة الرابعة، وصل معلّم جديد اتّهمني ذات يوم بخطأ لم أرتكبه. أخذني إلى مكتبه وضربني؛ كان يضربني صارخاً كمن أصابه مسّ: سينتهي بك الأمر إلى الاعتراف بالحقيقة؟ لكن، عن أيّ حقيقة يتحدث؟ برأيه، كان يجب أن أكذب، وهو ما لم أفعله قطّ لأني لم أكن بحاجة للخوف من والدي. ومن ثم فقد صبرت على الضربات طيلة ربع ساعة، لكن بدءاً بتلك اللحظة لم أعد أهتمّ بما يدور في قاعة الدرس، وأصبحت تلميذاً سيئاً. أنا نادم على أني لم أحصل على شهادة البكالوريا. لكني أعتقد بأني لم أكن صاحب الخيار في تلك الفترة».

بدا أن هذا الرجل أفاد من تقدير والدته له، وأنه كان يحترم مشاعرها، وقادراً على فهمها. هكذا كان يرى نفسه حينما يسارع والده إلى ضربه، ويدرك أن المعلم أراد دفعه إلى الكذب وإهانته، كما شعر بالحزن لاضطراره إلى التنازل عن تعليم مدرسي جيد في غياب سبيل آخر آنذاك. دهشت من أنه لم يكن يقول كما يقول غالبية الناس «كانت أمي تحبني كثيراً»، بل «كانت أمي تحب الحياة كثيراً»، وتذكرت أني كتبتُ هذا ذات يوم حول أم غوته. أجمل اللحظات التي عاشها هذا الرجل مع أمه وهو يشعر بمشاركتها متعتها وهي تصغي إلى شدو العصافير. هذه العلاقة الحارّة بالأم كانت ما تزال تشعّ في عيني هذا العجوز، وتجلّى الاحترام الذي كانت أمه تكنّه له حتماً في طريقته الحالية في مخاطبة الأطفال الذين يلعبون أمامه. لم يكن في موقفه أيّ شيء فوقيّ أو متكبّر، بل مجرّد اهتمام واحترام.

إن هدفي من التوقف المطوّل عند الصعوبات المدرسية التي واجهت هتلر يرمي إلى بيان أسبابها وآثارها اللاحقة على أحوال ملايين الآخرين، وبدا لي أن عدد الأنصار المتحمّسين الذين جمعهم حوله كانت لهم نشأته نفسها وتكوينه. كما يبيّن كُتّاب السير الحاليين مقدار بُعدنا عن فهم درجة الاحترام التي ينبغي أن نوليها للطفل. جواشيم فيست، الذي وضع عملاً ضخماً، وبالغ العمق، يصف فيه حياة هتلر، لا يصدّق قول الابن إنه تألّم بسبب والده،

ويظن أن أدولف «يبالغ» في حديثه عن هذه الصعوبات، وكأن هناك من يمكنه الزعم بمعرفة هذا الأمر أكثر من أدولف هتلر نفسه.

لم يعد يدهشنا ما بذله فيست من جهد في توقير الأهل إن عرفنا أهمية هذا الموضوع في التحليل النفسي. وما دام أصحابه لا يؤمنون إلا بتحرير الحياة الجنسية فقط - بالمعنى الذي قصده فيلهلم رايخ تقريباً -، فهم لا يهتمّون بالمظاهر الحاسمة.

ليست العقوبات الجسدية التي يتعرّض لها الأطفال وحدها تندمج في حياتنا فقط، بل تبعاتها أيضاً بحيث لا نلاحظ عبثيّتها. وقد يرتبط «الاستعداد البطولي» عند الشباب للانخراط في الحرب (في بداية حياتهم!) والتعرّض للقتل من أجل الآخرين أيضاً، بعودة انتعاش الكراهية المكبوتة منذ الطفولة الأولى في سن البلوغ. ويمكن للشباب نقلها من الأهل، إذا قُدّمت لهم صورة ملموسة للعدو في وقت يتمتعون بحرية الكراهية. وهذا هو السبب الذي دفع الكثيرين من الشباب الرسامين والشعراء إلى التطوع للذهاب إلى جبهة القتال في الحرب العالمية الأولى. وجعلهم الأمل في التحرر من الاضطهاد العائلي يتلذّذون بالموسيقا العسكرية. الهيرويين بديل يؤدي أيضاً هذه الوظيفة من بين أشياء أخرى، لكن الغضب التدميري يرتدّ هنا على جسد المتعاطي، كما يرتدّ على أناه.

كان مؤرخ علم النفس لويد دو موس **LIoyd de Mause** مهتمّاً بتفسير الجماعة لأسباب انخراطها في الحروب القائمة أساساً على تفسيراتها وتصوراتها. ولدى مراجعته لما جمع من وثائق حول هذا الموضوع أدهشه أن كثيراً من خطابات قادة هذه الشعوب تتضمنُ صوراً تذكِّر بظاهرة الولادة؛ فيتحدثون عن حالة الاختناق التي يعيشها الشعب المنخرط في الحرب وأمله منها في تحرّره، ويأمل في نهاية المطاف. ويعتقد ل. دو موز أن هذه التوهّمات تعبّر عن الحالة الحقيقية للطفل في لحظة الولادة، بعد أن قرّت في نفوسنا بوصفها صدمة، ومن ثم خضعت لما يسمى التكرار القهري **compulsion de répétition** (ينظر: **L.de Mause, 1979**).

استناداً إلى هذه الفرضية نلاحظ أن الشعور بالاختناق وضرورة التخلّص منه لا يظهر عند الشعوب المعرّضة للتهديد فعلياً، كما حدث في بولونيا عام 1939، بل في غياب هذه الحالة، كما وقع في ألمانيا خلال عام 1914 وعام 1939 أو لدى كيسنجر في حرب فيتنام. لا شكّ أن للأمر علاقةً بحالة من الاختناق والشعور بالإذلال المتخيّلين. وما أعرفه اليوم عن الطفولة، وأحاول بيانه استناداً إلى مثال هتلر، يجعلني أستخلص أن ثمة تجارب أخرى

يعيشها المرء تجعله راغباً بالانخراط في الحرب وليس صدمة الولادة فقط. وتبقى هذه الصدمة فريدة، ونهائية حتى أصعب الولادات، وأننا، على الرغم من ضعفنا وحجمنا في تلك الفترة، قد تجاوزناها وحدنا أو بمساعدة شخص آخر. وخلافاً لتجربة العقوبة الجسدية، والإذلال النفسي والقسوة المتكرّرة التي لا يمكننا تحاشيها لغياب المساعدة الخارجية لانعدام الرغبة في مثل هذا الجحيم، لأنها حالة دائمة ونعيشها باستمرار، ولا تنتهي بصرخة تحريرية، ولا يمكن نسيانها إلا بالانفصام والكبت. هذه التجارب التي لا يمكن السيطرة عليها هي ما ينبغي التعبير عنها بالتكرار القهري. فحماسة من يعلن الحرب تقوم على أمل الانتقام أخيراً من إهانات الماضي، والشعور بالارتياح عبر القدرة على الكراهية والصراخ. وهي فرصة تتاح أمام الطفل السابق ليصبح فعّالاً، ولا يضطرّ إلى السكوت. وحينما لا يكون ألم الفقدان متاحاً، نحاول من خلال التكرار القهري جعل الماضي كأنه غير موجود، واستخدام قوتنا الراهنة للقضاء على سلبية تلك الفترة. لكن، بما أننا لا نفلح في هذا بسبب عدم إمكانية استبدال الماضي، فإن هذه الحروب لا تفضي بالمعتدي إلى التحرير، بل إلى الكارثة في نهاية الأمر، حتى في حالة الانتصار المؤقت.

على الرغم من تلك الملاحظات الأخيرة، يمكننا أيضاً تخيّل أن لتصورات الولادة دورها هنا. فقد تكون بالنسبة للطفل الذي يتعرّض للضرب يومياً وهو مضطرّ إلى السكوت بمثابة الحدث الوحيد الحقيقي في طفولته الذي خرج منه منتصراً، وليس توهّماً، وإلا ما كُتبت له النجاة بعد أن تجاوز عنق الزجاجة، وتمكّن من الصراخ، ووجد من يمدّ له يد العون. هل يمكن مقارنة هذه السعادة بما جرى بعد ذلك؟ ليس غريباً أن نستخدم هذا النصر لتجاوز هزائمنا وشعورنا بالهجران خلال الفترات السابقة. بهذا المعنى ينبغي فهم إشراك (ألم) الولادة بالإعلان عن الحرب: بوصفه رفضاً لألم حقيقي ومستتر لا ينظر إليه المجتمع بعين الجِدّ، ومن ثم يجب أن يكون ظاهراً. في حياة أدولف هتلر شكّلت حروب البويرز **Boers** في المدرسة، وكتاب كفاحي، والحرب العالمية الثانية، ذلك القسم المرئيّ من جبل الجليد. ولا يمكن الوقوف على الأصل المخفيّ لمثل هذا التطور في تجربة العبور من قناة الولادة التي يشترك فيها هتلر مع جميع الناس، علماً أن الآخرين لم يتعرّضوا كلّهم للتعذيب مثله في طفولتهم.

ما الذي لم يفعله هذا الطفل لنسيان آلام الصدمة النفسية الناجمة عن الاعتداءات الأبوية: لقد عرف كيف يهيمن على الطبقة الحاكمة الألمانية، ويكسب الجماهير، ويُخضع حكومات البلدان

الأخرى في أوروبا، إضافة إلى السلطة غير المحدودة التي توفرت له تقريباً. مع حلول الليل، وأثناء النوم حين يدفع اللاوعي الإنسان للعودة إلى تجارب الطفولة المبكرة، لا يعود هناك ثمة مهرب: الأب المخيف يظهر أمامه وينتشر الرعب، كما يقول راوشنينغ (ص 284-285):

الأخطر من هذا هي ظواهر الاضطهاد وازدواجية الشخصية لأنها تدلّ على اضطراب الروح. فلم يكن أرقهُ في الحقيقة أكثر من هيجان زائد في الجملة العصبية. فكان يستيقظ ليلاً في أغلب الأحيان، وعندئذٍ لا بد أن تكون الإنارة كاملة. في آخر أيامه، كان يستقدم شبّاناً يجبرهم على مشاركته ساعاته المرعبة. وفي بعض الأوقات كانت تلك الحالات المَرَضية تتخذ طابع الهوس. حدّثني أحد المحيطين به أنه كان يستيقظ ليلاً ويطلق صرخات متشنّجة، ويطلب النجدة، ويجلس على حافة السرير كالمشلول؛ ويستبدّ به رعب يجعله يرتجف فيهتزّ السرير، ويتلفّظ بشتائم مشوّشة وغير مفهومة؛ ويلهث كما لو كان على حافة الاختناق. وحدّثني الشخص نفسه عن تفاصيل إحدى هذه النوبات بتفاصيلها التي لا أستطيع التأكيد على يقينه منها. كان هتلر واقفاً في غرفته مترنّحاً ويلقي حوله نظرات تائهة، ويصيح: إنه ه! هذا هو!، لقد جاء إلى هنا». شفتاه زرقاوان، والعرق يتصبّب منه. فجأة راح يتلفظ بأرقام لا معنى لها، ثم بكلمات، وبنتف من الجمل. كان الأمر لا يصدّق. فقد كان يستخدم عبارات اجتمعت في فمه على نحو عجيب، وغريبة تماماً. ثم يعود إلى الصمت مرّة أخرى، لكنه يستمرّ في تحريك شفتيه، فيأتي من يدلّكهما، ويقدّم له شيئاً يشربه. فجأة يشرع بالزمجرة: «هناك! هناك! في الزاوية. من هناك؟» وكان يضرب الأرضية الخشبية بقدميه ويصيح. فيطمئنه من حوله بقولهم إنه لا شيء غريباً يحدث، فيهدأ قليلاً. بعد هذا، نام لساعات طويلة، ثم عاد إلى طبيعته تقريباً وصار من الممكن احتماله لبعض الوقت.

على الرغم من أن غالبية الأشخاص المحيطين بهتلر كانوا من الأطفال القدامى الذين تعرّضوا للضرب (أو إنه جاء بهم لهذا السبب بالتحديد)، لم يفهم أحدٌ العلاقة بين رعبه و«والأرقام» غير المفهومة التي كان يتلفظ بها. ألمه الذي كبته في طفولته يوم كان يُحصي الضربات تهجم عليه بالغاً فجأةً وهو في ذروة مجده على شكل كوابيس لا يستطيع فكاكاً منها حينما يكون وحيداً في الليل.

لم تكن إبادة العالم تكفيه لإبعاد والد أدولف هتلر عن غرفته، لأن دمار العالم غير كافٍ لتدمير لاوعيه، وما كان بوسعه تدمير هذا اللاوعي حتى لو عاش أكثر مما عاشه، لأن النبع الذي كانت تسيل منه كراهيته لا يتوقف حتى في نومه... نبعٌ لا ينضب.

قد يبدو من السذاجة لمن لم يشعروا أبداً بقوى اللاوعي تفسير ما فعله هتلر على ضوء طفولته. كثير من الرجال (والنساء) ما زالوا يظنّون أن «شؤون الأطفال، تخصّ الأطفال فقط»، وأن السياسة شأن جدّيّ لا تعني سوى البالغين، وليست لعبة أطفال؛ ويرون أن هذا الاقتران بالطفولة غريبٌ أو مثير للضحك لأنهم يريدون أن ينسوا - وهو أمرٌ مفهوم - حقيقة هذه المرحلة. إذا كانت حياة هتلر قابلة تماماً للبرهان على فرضية معينة، فذلك لأن الاستمرارية تظهر فيها بشكل أفضل من ظهورها في أيّ حياة أخرى. فقد كان الرجل منذ طفولته المبكرة يعيش رغبة التحرّر من النير الأبوي من خلال لعبة الحرب. فقاد الهنود أولاً، ثم البويرز إلى القتال ضد المُضطهِدين [بكسر الهاء] يقول في كتابه كفاحي: «لم تستمرّ هذه المعركة التاريخية الكبرى طويلاً حتى تصبح همّي الشخصي الرئيسي». وفضلاً عن هذا، نرى بداية ارتسام التقدم المثير للقلق الذي يبدأ بالحاجة الطفلية إلى المخاطرة في الأمور الجدية: «عندئذٍ، راحت حماستي تزداد إزاء كل ما يرتبط بالحرب بشكل أو بآخر، أو بمهنة الأسلحة في نهاية المطاف.» (كفاحي، نقله ج. تولاند، ص.33).

روى هيومر **Huemer** أستاذ هتلر للغة الألمانية، أنه في سنّ الرشد كان «يتقبّل دروس معلّميه باستياء يصعب إخفاؤه؛ وفي المقابل، يطلب من رفاقه خضوعاً غير مشروط» (ج. تولاند). وقد نجم عن تماهيه المبكر بالأب، بحسب أحد الشهود من مدينة برونو **Braunau**، أن أدولف صعد قمّة تلّة «وراح يلقي خطابات حماسية». وإذا عرفنا أن برونو هي المدينة التي عاش فيها هتلر السنوات الثلاث الأولى من حياته، ندرك أن بداية صعود الفوهرر جاءت مبكرة جداً. أثناء إلقاء هذه الخطابات كان الطفل يتقمّص خطابات والده العظيمة، كما كان يراه آنذاك ويعيش معجباً بحضوره وهو طفل خلال السنوات الأولى.

ثم جاءت لاحقاً الحشود الجماهيرية، التي تجلّى فيها عنصر الطفولة الأولى للفوهرر لتؤدي الوظيفة نفسها أيضاً. وبرزت الوحدة النرجسية والرمزية للفوهرر مع شعبه بوضوح كبير في كلمات صديق شبابه كوبيزك **Kubizek** الذي ألقى هتلر أمامه العديد من الخطابات، وكتب جون تولاند حول هذا قائلاً:

تلك الخطب الحماسية [...] كانت توحي لكوبيزيك ببركان ثائر؛ قد يعتقد المرء نفسه في المسرح. «لم يكن بوسعي إلا أن أبقى فاغراً فمي، وسلبياً، فأنسى أن أصفق له». كان عليه أن ينتظر فترة معيّنة ليدرك أن صديقه لم يكن يلعب الكوميديا بل كان «صادقاً تماماً». كما لاحظ أن هتلر لم يكن يطيق عبارات الاستحسان، لكن كوبيزك لم يكن يوفرها، وهو مشدوهٌ بفصاحة أدولف أكثر من مضمون ما يقول... كان يبدو أن هتلر يعرف مشاعر صديقه. «كان دائماً يعرف ما أحتاج إليه، وما أريده. أحياناً كان ينتابني شعور بأنه يعيش حياتي كما يعيش حياته». (ص.40).

لا يمكن تخيّل تعليق أفضل من هذا حول سلطة الجاذبية البلاغية التي يتمتع بها هتلر: في الوقت الذي كان اليهود يمثّلون القسم الذي يعيش أناه مهانة الطفولة، والتعرّض للضرب ويسعى إلى إبادتهم بجميع الوسائل، كان الشعب الألماني الخاضع- ممثلاً هنا بكوبيزك -، كان يعبر عن الجانب النبيل من روحه؛ أي الجانب المحبّ للأب والمحبوب منه. هنا يقوم الشعب الألماني ورفيق الصفّ بلعب دور أدولف بوصفه طفلاً عاقلاً. لأن الأب يحمي النفس الطفولية النقية من التهديدات التي يحملها في داخله عبر تهجير اليهود وإبادتهم، بهدف استعادة الوحدة التامة بين الأب والابن في نهاية المطاف.

بطبيعة الحال، هذه الأمور غير مكتوبة لمن يظنّون أن «الأحلام ليست سوى أدراج رياح» وأن اللاوعي من اختراع «روح مضطربة». لا يبدو لي مستبعداً حتى أولئك الذين عكفوا على دراسة قضايا الوعي ينتابهم الشعور بالحذر، أو الاستنكار، أمام محاولة تفسير ما قام به هتلر منذ طفولته، لأنهم في حقيقة الأمر، لا يريدون الاهتمام بكل هذا التاريخ غير الإنساني ». لكن يمكن فعلاً تصور أن تكون قد خطرت ببال اللـه فجأة فكرة إنزال «وحش شاذّ إلى الأرض»، بالمعنى الذي رمى إليه إيريك فروم تقريباً:

كيف لنا تفسير قدرة هذين الكائنين المتوسطين، المتوازنين، والطبيعيين تماماً على إنجاب هذا الوحش المستقبلي؟ (منقول عن ستيرلن، ص.47).

قناعتي المطلقة تقول إن خلف الجريمة تقبع مأساة شخصية. لو حاولنا إعادة تكوين تاريخ الجرائم وما قبل تاريخها بشكل أكثر دقة، لربما قمنا بما هو أكثر من الاستنكار والعظات من أجل تجنّب وقوع المزيد منها. رُبّ معترضٍ يقول إن الأطفال الذين يتعرضون للضرب لا يصبحون قتلة، وإلا لكان الناس كلّهم كذلك. وهو قول حقّ بمعنى. لكن الأمور لا تسير

بمثل هذه البساطة بين الناس، ولا يمكننا أبداً معرفة ما يمكن أن يفعله الطفل أو ما سيضطر إلى القيام به إزاء الظلم الذي يحيق به، لوجود «أشكال» عديدة من التصرفات حول هذا الأمر. لا سيما أننا لا نعرف بعد كيف سيكون العالم لو نشأ جميع الأطفال من دون إهانة، وكانوا محترمين من أهلهم، ونظروا إليهم بعين الجدّ بوصفهم كائنات بشرية قائمة بذاتها. أنا شخصياً لا أعرف مثالاً عن كائن تمتّع خلال طفولته بهذا الاحترام[1]، وتكوّن لديه لاحقاً شعور بالحاجة إلى القتل.

لكننا لا نعرف بعد ماهية تدهور الطفل. لأن احترام الطفل ومعرفة ما تعنيه الإهانة بالنسبة له ليسا مفهومين فكريين، وإلا تأكّدا عموماً منذ زمن بعيد. وفي الوقت نفسه تشبه مشاركة الطفل شعوره حينما يكون معزولاً، ومجروحاً، ومهاناً، مشاركةَ المرء آلام طفولته في المرآة، وهو ما يعترض عليه كثيرٌ من الرجال لأنهم يخافونه، بينما يقبله آخرون ويحزنون له. الأشخاص الذين سلكوا سبيل هذا الشعور بالحزن، تزداد معرفتهم اللاحقة بديناميكية الحياة النفسية التي لم توفرها لهم الكتب.

للوهلة الأولى، تبدو ملاحقة الرجال من أصول يهودية، وضرورة البرهنة على «نقاء العرق» بالعودة إلى الجيل الثالث، ووضع الممنوعات تبعاً لنقاء الأصول، أمراً بغيضاً، ولا يمكن إدراك معناها إلا إذا تصورنا أن الاستيهامات اللاواعية التي كانت تراود أدولف هتلر تجسّد اتجاهين قويين: فمن جهة، كان يمكن للقوانين العرقية أن تطول أباه اليهودي المكروه الذي كان يحتقره، ويخضع للملاحقة والاضطهاد، والإرهاب بناء على تعليماته، وأن تطوله أيضاً لو بقي على قيد الحياة. لكن، في الوقت نفسه - وكان هذا هو الاتجاه الآخر -، فإن هذه القوانين العرقية رسّخت القطيعة بين هتلر ووالده وأصوله. ومن بين البواعث الرئيسية لإصدار القوانين العرقية، إضافة إلى الانتقام من الأب، هناك الشكوك الرهيبة التي كانت تحيط بعائلة هتلر؛ ولتبديد هذا الشكّ كان على الشعب كلّه البرهنة على نقاء أصوله بالعودة حتى الجيل الثالث، لأن أدولف هتلر أراد التيقّن من معرفة جدّه لأبيه. لا سيما أن اليهودي قد حُمّل جميع الصفات الحقيرة والسيئة التي يمكن للطفل اكتشافها لدى والده. والتصور الذي كان لدى هتلر عن الكينونة اليهودية **judéité** بما فيها من مزيج متميز جداً يجمع بين العظمة

1- لا أعني أبداً التربية المزعومة بأنها مناهضة للسلطوية، باعتبارها تقوم على حشو دماغ الطفل، ومن ثم احتقار عالمه.

والسلطة المنفلتة من عقالها، والشيطانية (تحالف اليهود المستعدّين لتدمير العالم) من جهة، وضعف اليهودي وهشاشته بكل قبحه من الجهة الأخرى، يعكس القوة الكلية التي يملكها أضعف الآباء على ابنه: كموظف الجمارك الذي يتشاجر مع الآخرين للتعبير عن عدم إحساسه العميق بالأمان، ويدمر فعلياً عالم الطفل.

غالباً نرى خلال التحليل، أن التوجه الأول لانتقاد الأب تقوده الذكرى المكبوتة لحادث عارض صغير. فمثلاً، الأب الطويل، الذي يتخذ أبعاداً ضخمة بنظر الطفل، كان يبدو تماماً مثيراً للضحك وهو يرتدي قميص النوم. صحيح أن الطفل لم يحظَ بتواصلٍ وثيق مع الأب على الإطلاق، وكان يخشاه دائماً، لكن هذه الصورة عن الأب بقميص النوم القصير أبقت في تصوراته جزءاً من الانتقام الذي يستخدمه، حينما تظهر الازدواجية في التحليل بشكل سلاح في مواجهة الصرح الإلهي. إنها الطريقة نفسها تقريباً التي اتبعها هتلر في ستورمر **Stürmer** في بثّ كراهيته وقرفه من اليهودي «العفن» لتحريض الناس على إحراق كتب فرويد، وآينشتاين والعديد من المفكرين اليهود الذين كانوا يحظون بقيمة كبيرة. بروز هذه الفكرة، التي تتيح نقل الكراهية المتراكمة ضد الأب إلى اليهود بوصفهم شعباً، له دلالة بالغة حينما جاء وصفها في كتاب كفاحي على النحو الآتي:

> منذ بداية اهتمامي بهذه المسألة وتوجّه انتباهي نحو اليهود، صرت أرى فييّنا بشكل مختلف. فأرى اليهود في كلّ مكان، وكلما ازدادت رؤيتي لهم، تعلّمتُ كيف أرى يهوداً حيثما كنتُ أذهب، وكلما رأيت المزيد منهم أصبحت قادراً على تمييزهم بشكل أوضح عن بقية الناس. كان مركز المدينة، والأحياء الواقعة شمال الدانوب، تعجّ بسكان لا يمتّ ظاهرهم بأيّ صلة إلى الألمان... لم تكن هذه التفاصيل مريحة أبداً؛ لكنك تشعر بالنفور حينما تكتشف فجأة تحت أدرانهم الوساخةَ الأخلاقية لشعب اللـه المختار. لأنه هل هناك أيّ قذارة، أو عمل شائن مهما كان نوعه، لا سيما في الحياة الثقافية لم يشارك فيها يهودي واحد على الأقل. ما إن تعمل المشرط في خرّاج من هذا النوع، حتى تكتشف ما يشبه دودة في جسم يتحلّل، يهودي صغير مبهور بهذا الضوء المفاجئ... بدأتُ أكرههم شيئا فشيئاً.(نقلاً عن ج.فيست، ص.35).

قد يكون نجاحنا في توجيه الكراهية المتراكمة نحو الشيء نفسه باعثاً على الارتياح في البداية. («حيثما ذهبتُ، كنتُ أرى يهوداً...»). هنا يمكن للمشاعر الممنوعة، والمُهمّشة حتى

الآن أن تتحرك على هواها. وكلما ازداد امتلاؤنا بها وعملنا على قمعها، ازدادت سعادتنا لعثورنا أخيراً على شيء بديل، فلا يعود الأب موضع الكراهية، ونتجاوز العقبات من دون المخاطرة بتعريض أنفسنا للضرب.

لكن متعة البديل لا تُرضي - وخير مثال على هذا هو أدولف هتلر. من الناحية العملية، لم يتمتّع أيُّ رجل بالسلطة التي تمتّع بها هتلر في إزهاق أرواح الملايين من البشر من دون حسيب أو رقيب، لكن هذا كله لم يبعث في نفسه الارتياح كما تبيّنه وصيّته بشكل بالغ الوضوح.

من عاش الحرب العالمية الثانية يصاب بالذهول من مدى تبنّي الطفل لسلوك أبيه، وعاش الحرب العالمية الثانية، وقرأ الصورة التي رسمها ستيرلين لوالد هتلر:

> لكن لا يبدو أن هذا الصعود الاجتماعي تحقّق من دون مشكلات له وللآخرين. لا شكّ أن ألويس كان مجتهداً ومستقيماً، كما كان هشّاً إلى حدٍّ ما على الصعيد النفسي، ومفرطاً في اضطرابه، بل ربما انتابته أحياناً بعض الاضطرابات العقلية. ولدينا وثيقة على الأقل تقول إنه أقام في مصحّ للمضطربين عقلياً؛ كما يقول أحد المحلّلين النفسيين إنه كان يعاني عدداً من الأعراض النفسية المرضية مثل تجيير القوانين لمصلحته مع حفاظه على مظهر الشرعية: مختصر القول إنه كان يوالف بين طموح كبير ووعي أخلاقي وحسن معشر بالغ. (فقد أشار مثلاً في طلب إذن البابا للزواج من كلارا- التي كانت شرعياً ابنة عمه - إلى وجود شابّين يتيمين بحاجة إلى رعاية أمومية من كلارا، لكنه أغفل ببراعة قوية الإشارة إلى كونها حبلى.) (ستيرلن، ص. 88-89.).

لا يمكن إلا لوعي الطفل نسخ أحد هذين الوالدين بمثل هذه الأمانة، بحيث تتوفر عنده كل سمة من شخصيته، حتى لو لم يهتمّ كتّاب السيرة بذلك.

مكانة الأم في العائلة ودورها في حياة أدولف

يتفق كتّاب السيرة على القول إن كلارا «كانت تحب ابنها [أدولف] وتدلّلهُ كثيراً » لكن، دعونا نشير في البداية إلى أن هذه العبارة تقوم في حدّ ذاتها على تناقض. فإذا قصدنا بالحب الانفتاح على الحاجات الحقيقية للطفل والاهتمام بها، فإن الطفل يكون مدلّلاً في الحالة المعاكسة تحديداً، أي إنه يتمتّع بكثير من المزايا ويتلقّى هدايا لا يحتاج إليها، لأننا غير قادرين على تقديمها له بوصفها بديلاً عما يعانيه من نقص. ومن ثم فإن المبالغة في هذا الاتجاه تكشف نقصاً

حقيقياً تؤكده بقية الحياة. لو كان أدولف هتلر طفلاً محبوباً بالفعل، لاستطاع أن يحب غيره. فعلاقاته بالنساء، وانحرافاته (كما يقول ستيلين، ص.41)، وعلاقته البعيدة والباردة عموماً بالآخرين، تؤكد أنه لم يعرف أيّ شكل من أشكال الحب.

قبل ولادة هتلر، كان لدى كلارا ثلاثة أطفال توفّوا جميعاً بمرض الخناق (الدفتريا) خلال شهر واحد. لا شكّ أن الطفلين الأولين كانا مريضين عند ولادة الثالث الذي توفّي بعد ثلاثة أيام من ولادته؛ ثم ولد أدولف بعد ثلاثة عشر شهراً، كما يتبين من الجدول الآتي الذي وضعه ستيرلين حول هذا الموضوع:

الاسم ونوع المرض	تاريخ الولادة	تاريخ الوفاة	العمر عند الوفاة
غوستاف (خناق)	1885/5/17	1887/12/8	عامان وسبعة أشهر
إيدا (خناق)	1886/9/23	1888/1/2	عام وأربعة أشهر
أوتو (خناق)	/1887	1887	ثلاثة أيام
أدولف	89/4/20		
إدموند (حصبة)	1894/3/24	1900/2/2	ستة أعوام تقريباً
بولا	1896/1/21		

تقول الحكاية إن كلارا كانت أمّاً حنونة، ومن ثم فقد نقلت حنانها كلّه إلى أدولف بعد وفاة أطفالها الثلاثة. ربما ليس من باب المصادفة أن يكون كتّاب السيرة الذين رسموا هذه اللوحة اللطيفة من الرجال. فهذه المرأة الصادقة اليوم بعد أن كانت هي نفسها أمّاً، تستطيع تصور الأحداث التي سبقت ولادة هتلر بطريقة أكثر واقعية، وترسم صورة أكثر دقّة للبيئة النفسية لمجريات السنة الأولى الحاسمة في حياة الطفل.

كانت كلارا بوتزل في السادسة عشرة حينما أقامت في بيت «عمّها ألويس» لرعاية زوجته المريضة وطفليها؛ فحملت منه قبل وفاة زوجة ربّ المنزل، الذي لم يتزوجها إلا بعد أن بلغت الرابعة والعشرين، بينما كان في الثامنة والأربعين. وضعت ثلاثة أطفال خلال عامين ونصف، ثم فقدتهم بعد أربعة أسابيع أو خمسة. دعونا نتخيّل الأمر بشكل أدقّ: الطفل الأول غوستاف توفّي بالخنّاق في شهر تشرين الثاني، ولم تتمكن كلارا من رعايته قطّ، لأنها كانت على وشك

وضع طفلها الثالث أوتو، الذي ربما انتقلت إليه العدوى من غوستاف، فتوفي بعد ثلاثة أيام. وبعد هذا بقليل، أي قبل عيد الميلاد توفي غوستاف، ولحقته إيدا بعد ثلاثة أسابيع. ومن ثم فقد شهدت كلارا، خلال أربعة أو خمسة أسابيع ولادة واحدة، وموت ثلاثة أطفال. لا حاجة للقول إن امرأة بمثل حساسية كلارا ستفقد توازنها أمام صدمة من هذا النوع، لا سيما إذا كانت تعيش وهي في سن المراهقة تقريباً مع زوج متسلّط وكثير الطلبات. ربما اعتقدت هذه الكاثوليكية المؤمنة أن تلك الوفيات الثلاث جاءت بمثابة عقابٍ إلهي على العلاقة التي أقامتها مع ألويس قبل الزواج، أو لامت نفسها لتقصيرها في تقديم العناية الكافية لغوستاف أثناء حملها. لكن مما لا شكّ فيه أنها كانت امرأة صلبة وإلا انهارت أمام ضربات القدر هذه؛ لكن كلارا لم تكن بصلابة الخشب، لا سيما أن أحداً لم يساعدها على تحمّل أحزانها، واستمرت في القيام بواجباتها الزوجية بعد موت ألويس؛ في السنة التي توفيت فيها أيدا، كانت حبلى مرة أخرى، وفي السنة التالية وضعت ابنها أدولف. ولكونها لم تتمكّن في هذه الظروف من أن تعيش آلام الفقدان، جاءت ولادة طفل جديد فأنعشت الصدمة الحديثة، وأثارت فيها أسوأ أنواع القلق، وولّدت لديها شعوراً عميقاً بالشكّ في قدراتها على القيام بواجب الأمومة. هل توجد امرأة لها مثل هذا الماضي لا تشعر بالقلق من خوض تجربة حمل جديدة؟ لا يمكن أبداً أن يكون ابنها قد رضع الراحة، والرضا، والهدوء من ثدي الأم، في المرحلة الأولى من تماهيه مع الأم. بل ربما عاد قلق الأم، والذكرى القريبة لموت ثلاثة أطفال مرة أخرى مع ولادة أدولف، فانتقل القلق الواعي أو غير الواعي من رؤية هذا الطفل وهو يموت أيضاً، إلى الرضيع كما في الأواني المستطرقة. كما أن ضغينة كلارا إزاء زوجها الأناني، الذي تركها وحيدة مع ألمها الجسدي لم تمكّنها من العيش بشكل واعٍ؛ لا شكّ أنها أشعرت به الطفل الذي لم تكن بحاجة لتخاف منه كخوفها من معلّم أو سيّد.

هذا كلّه قدرٌ لا يجدي معه البحث عن المذنب؛ قدرٌ عاشه كثير من الناس مثل نوفاليس، وهولدرلين، وكافكا، بعد العديد من موت إخوة وأخوات لهم وترك فيهم أثراً عميقاً، لكن الفرصة سمحت لهم بالتعبير عن آلامهم.

أمّا في حالة أدولف هتلر، فقد أُضيف إلى قدره عجزُهُ عن مشاركة مشاعره أو قلقه العميق الناتج عن اضطراب علاقته بأمه مع أيّ شخص، فاضطرّ إلى كبتها، والعمل على ألّا يلاحظ أبوه شيئاً يعرضه للضرب. ومن ثم، لم يبقَ أمامه أيُّ إمكانية أخرى سوى التماهي مع المعتدي.

زد على هذا عنصراً آخر نتج أيضاً عن هذه الحالة العائلية الخاصة، هو أن الأمهات اللاتي يلدن بعد موت ابنٍ سابق يُسبغنَ صورة مثالية على المتوفى (كتعويض عن فرصة ضائعة في حياة تعيسة). ومن ثم يشعر الطفل الحيّ بأنه مضطرّ لبذل جهود كبيرة، والقيام بأشياء خارقة لكيلا يكون أقلّ أهميةً من الميت. لكن الأم تحتفظ بالحب الحقيقي في أغلب الأحيان للراحل المؤمثل **idéalisé** [من رُسمت له صورة مثالية] الذي يمكن أن يمثل في خيالها جميع الفضائل - لو بقي على قيد الحياة، وهو قدرٌ عاشه فان غوغ مع أنه لم يفقد سوى أخٍ واحد.

ذات يوم، زارني في عيادتي مريضٌ حدّثني بنبرة من الحنين المضطرم عمّا عاشه في طفولته من سعادة وتحابّ. صحيح أنني معتادة على هذا النوع من الأَمْثَلَة **idéalisation**، لكني لمستُ في نبرته شيئاً لم أفهمه. خلال اللقاء، عرفتُ أن أخته توفّيت في سن الثانية تقريباً، وبدا واضحاً من حديثه أنها كانت تملك قدرات غير عادية قياساً بعمرها. فقد زعم الرجل أنها كانت ترعى أمها حينما تكون مريضة، وتغنّي لتبعث الهدوء في نفسها، وكانت تحفظ صلوات بأكملها عن ظهر قلب، وما إلى هذا. حينما سألتُ هذا الرجل ما إن كان ما يقوله عن أخته ممكناً في مثل هذا العمر؛ نظر إليّ كأني انتهكت المحرمات وقال: «عادةً، لا، لكنها كانت كذلك - كانت بالفعل طفلة غير عادية». نبّهته إلى أن الأمهات يلجأن في أغلب الأحيان إلى أمثلة **idéalisation** أطفالهن المتوفّين، ورويتُ له قصة فان غوغ، وأضفتُ إنه يصعب جدّاً على الطفل الناجي أن يُقارنَ دائماً بتصوير عظيم مثله وهو الذي لم تتوفر له أبداً فرصة مساواته. عاد الرجل للحديث بشكل آلي عن القدرات الخارقة التي كانت تتمتع بها أخته ويكرر قوله إن موتها كان مريعاً. لكنه توقف فجأة والحزن يهزّه على موت أخته - برأيه على الأقل- قبل اثنين وثلاثين عاماً. شعرتُ أنها المرّة الأولى التي يذرف فيها دموعاً حقيقية على قدره كطفل. هنا فقط فهمتُ أبعاد النبرة الغريبة والمصطنعة التي أدهشتني في بداية الاستشارة. ربما اضطرّه لاوعيُه إلى أن يُريني ما كان يمكن لأمه أن تقول عن طفلتها الأولى. فقد كان يتحدث عن طفولته بالتفخيم الأسلوبي نفسه الذي كان يمكن أن تستخدمه أمه للحديث عن ابنتها المتوفاة، لكن زيف نبرته كشف لي حقيقة كان يخفيها حول قدره شخصياً.

غالباً ما تحضرني هذه القصة حينما يزورني أشخاص يعيشون مثل هذه الخلطة العائلية؛ ولدى سؤالي لهم عن هذه النقطة، يحدّثونني دائماً عن تقديس أضرحة الأطفال الميّتين، الذي يستمرّ عشرات السنين في أغلب الأحيان. كلّما ازداد التوازن النرجسي هشاشةً لدى الأم، فإنها

ترى المزيد من الفرص التي ضيّعها عليها موتُ الطفل؛ إذ لو بقي حيّاً لعوّضها عمّا كانت تحتاج إليه، وعن آلام حياتها الزوجية، وجميع الصعوبات التي واجهتها مع الأطفال الآخرين. فقد كان يمكن أن يكون لها بمثابة «الأم» المثالية التي تحميها من جميع الشرور - فقط، لو بقي على قيد الحياة.

وبما أن أدولف قد ولد بعد وفاة ثلاثة أطفال آخرين، لا يمكن تخيّل العلاقة التي ربطته بأمّه مجرد علاقة «حبّ وتضحية بالنفس»، كما يقدّمها كُتّابُ السيرة. يبدو أنهم جميعاً يظنون أن أدولف هتلر كان محبوباً جداً من أمه (يرون في سلوكها حباً مفرطاً)، وأنه سبب حاجته الشديدة لإعجاب الآخرين وكسب الحظوة بنظرهم. ونظراً لوجود هذا التماهي المحتمل مع أمه، فقد سعى دائماً إلى إعادة خَلْقها من خلال صهرها النرجسي بالجماهير. وهو نوع من الجمل التي نقع عليها أحياناً في قصص المرض في التحليل النفسي.

مرّة أخرى، يبدو لي أن هذا أحد مبادئ التربية المتجذّرة فينا، ويعدّ نتيجة لهذا النوع من التفسير. تنصح الكتب التربوية دائماً بعدم «تغنيج» الأطفال أو تدليلهم بإغداق الحب عليهم والتساهل معهم (وتسمّيه «حبّاً كاذباً»)، بل تصليب عودهم لتهيئتهم منذ البداية للانخراط في الحياة الحقيقية. وهو ما يعبّر عنه المحلّلون النفسيون بشكل مختلف بقولهم إنه لا بدّ من «تهيئة الطفل لتحمّل الإحباطات»، كما لو أنه لا يستطيع تعلّمها وحده في حياته. بينما العكس هو الصحيح: فالطفل الذي حظي بحنان حقيقي يستطيع تجاوزها ما إنْ يصبح بالغاً أكثر ممن لم يتمتع بها على الإطلاق. حينما يكون الشخص «متعطّشاً» للحب، ففي هذا علامة دائمة على بحثه عن شيء طالما افتقده، وليس لأنه لا يريد التخلّي عن شيء لم يحصل عليه قطّ بإفراط خلال طفولته.

تبدو له الأمور من الخارج بمثابتها نعمة، بينما الأمر ليس على هذا النحو. فقد يمكن إغداق الطعام، والهدايا، والرعاية (!) على الطفل من دون أن نكنَّ له الاحترام ونقدّره لما هو عليه. في ما يتعلق بهتلر، يمكننا أن نتخيل تماماً أنه لم يحظَ بحب والدته قطّ بوصفه طفلاً كارهاً لأبيه، وهو ما كان عليه بالفعل. فأمّه لم تكن قادرة أبداً على أن تُحب، وليس القيام بواجبها كما ينبغي فحسب، لأن شرط ذلك أن يكون طفلاً عاقلاً، و«يصفح عن كل ما يفعله أبوه به وينساه». للمقطع الآتي الوارد عند سميث سميث دلالته البالغة، لأنه يبيّن أن والدة هتلر ربما لم تكن قادرة على مساندته أمام الصعوبات التي كانت تعترض سبيله مع أبيه:

كانت هيئة سيد المنزل المهيمنة هي التي تفرض بالأساس على الزوجة وأطفالها المزيد من الاحترام العميق. ورؤية غلايينه في المطبخ تفرض جلال تلك الهيبة حتى بعد موته؛ بحيث كلما أرادت الزوجة التذكير بسطوة السيد أثناء النقاش، كانت تشير إلى غلايينه (نقلاً عن ستيرلن، ص. 25).

إذا كانت كلارا قد حوّلت «الاحترام» الذي كانت تكنّه لزوجها أثناء حياتها نحو الغلايين المعلّقة فوق الجدار، فهذا لا يعني بتاتاً أن طفلها كان قادراً على أن يبوح لها بحقيقة مشاعره. لا سيما أن في توهّمات أمّه أن إخوته الثلاثة المتوفّين كانوا دائماً بالتأكيد «أطفالاً عاقلين»، وبما أنهم في السماء، فلن يكون بمقدورهم الإساءة إلى أحد فعلياً.

ومن ثم، لم يكن بإمكان أدولف التمتّع بحب والديه إلا بإخفاء مشاعره الحقيقية وإنكارها. ومن هنا نشوء موقفه الذي حافظ عليه طيلة حياته، ورأى فيه فيست خطأً أحمر في تاريخه كلّه. في بداية سيرته عن هتلر، كتب الجمل الآتية الهامة، والجديرة جداً بأن تكون محطّ انتباهنا:

> ظل يبذل طيلة حياته جهده لإخفاء شخصيته وإضفاء الطابع المثالي عليها [أَمثَلَتها]. ولا نجد في تاريخ أيّ رجل تطبيقاً منهجياً ودقيقاً كهذا الذي زيّن به هتلر صورته، وجعلها غير قابلة للتفسير من الناحية الإنسانية. ولا يقلّ تصوره لنفسه شبهاً عن صرحٍ سعى دائماً إلى الاختباء خلفه. (فيست، ص.3).

الكائن الذي أحبّته أمه لا يشعر بالحاجة أبداً إلى إخفاء نفسه على هذا النحو.

لطالما كان هتلر يسعى إلى قطع أيّ تواصل مع ماضيه؛ فلم يسمح لشقيقه ألويس بالاقتراب منه؛ وأجبر أخته بولا التي كانت تهتم بشؤون منزله على تغيير اسمها. لكن على الصعيد السياسي العالمي عاد بشكل غير واعٍ إلى لعب مأساة طفولته- تسبقها علامة أخرى. فهو من الآن فصاعداً الديكتاتور الأوحد، كما كان حال أبيه في الماضي، يأمر فيطاع. هو الذي يبعث الخوف في النفوس، لكنه أيضاً من يكنّ الحب لشعب ينحني كلّه عند قدميه، كما كانت كلارا تنحني في الماضي عند قدمي زوجها.

كلّنا يعرف مقدار السحر الذي كان يمارسه هتلر على النساء؛ لأنه كان يمثل بنظرهن صورة الأب الذي يعرف كيف يميّز تماماً بين الخير والشرّ، ويقدّم لهن فضلاً عن هذا، متنفساً للكراهية التي راكمنها في نفوسهن خلال طفولتهن. هذا المزيج هو الذي منح هتلر حشوداً

من رجال ونساء تحالفوا معه لأنهم تدرّبوا على الطاعة، ونشؤوا على الإحساس بالواجب والفضائل المسيحية؛ ولا شكّ أنهم تعلّموا في سنٍّ مبكرة كيف يقمعون كراهيتهم وحاجاتهم؛ فيأتي رجل لا يرفض هذه الأخلاق البورجوازية التي كانوا يؤمنون بها، بل كانوا قادرين على الإفادة من الانضباط الذي تعلّموه، ولا يثير من ثم مشكلات وأزمات داخلية من أيّ نوع كان، بل يضع بين أيديهم وسيلة مشروعة تماماً ليمارسوا الكراهية المتراكمة في نفوسهم منذ أول يوم في حياتهم. فمن لا يستطيع ممارستها؟ عندئذٍ صار يُنظر إلى اليهودي بوصفه مذنباً في كلّ شيء، واستطاع المضطهدون الحقيقيون، أي الأهل الذين يعدّون في أغلب الأحيان بمثابة الطغاة الحقيقيين، أن يبقوا بكلّ نيّة حسنة بعيدين عن المحاسبة ومؤمثلين **idéalisés**.

أعرف امرأةً لم تتواصل مع أيّ يهودي إلى أن انتسبت إلى جمعية الشابّات الألمانيات **Bund Deutscher Mädel**، نشأت على تربية شديدة القسوة، وكان والداها بحاجة إليها لترعى شؤون المنزل، بعد رحيل أخويها عنه. ومن ثم لم تتمكّن من تعلّم أيّ مهنة على الرغم مما لديها من طموحات مهنية، وقدرات شخصية على تحقيقها. وروت لي لاحقاً مقدار انبهارها بما ورد عن «جرائم اليهود» في كتاب كفاحي **mein Kampf**، والارتياح الذي شعرت به لمعرفتها بوجود أناسٍ يمكن للإنسان أن يكرههم صراحة. لم يسبق لها أن عبّرت عن حسدها المعلن إزاء إخوتها وأخواتها الذين كانوا قادرين على الاستمرار في المهنة التي كانوا يريدونها. لكن هذا المصرفيّ اليهودي الذي دفع له عمّه فوائد عن قرضٍ أخذه منه، هو نفسه المستغِلّ الذي كان يعيش على حساب العمّ الفقير الذي كانت تتماهى معه. حقيقة الأمر أنها كانت موضع استغلال من أبويها، وتحسد إخوتها وأخواتها، وهي مشاعر لا يجوز لفتاة جيدة الإفصاح عنها. فجاء حلٌّ بالغ البساطة لم يكن يكمن في أن للإنسان الحقّ في كراهية طالما أرادها، ويبقى لهذا بالتحديد، الطفل المحبوب من والده، والبنت المناسبة لخدمة وطنها. فضلاً عن هذا، كان يمكن إسقاط صورة «الشرّير» والضعيف على اليهودي الذي طالما تعلّم بذاته كراهية اليهود، الذين كانوا فعلاً ضعفاء ومجردين من أيّ مصدر قوة، كالانتماء الى «عِرقٍ آريّ» نقيّ.

وماذا عن هتلر نفسه؟ هنا يبدأ الإخراج **la mise en scène**. فهو أيضاً مقتنع أن الإساءة إلى اليهودي تعبيرٌ عن إساءة أبيه إليه في الماضي. ومثلما لم يكن أبوه يتوقف قطّ عن مضاعفة ضربه كل يوم، ويكاد يقتله وهو في الحادية عشرة من عمره، كذلك لم يتوقف أدولف عن الضرب. وفي وصيّته يقول بعد إبادة ستّة ملايين يهودي: لا بدّ من القضاء على ما تبقّى منهم.

وكما هو الحال بالنسبة لألويس، والآباء الذين يضربون أطفالهم، يتجلّى الخوف من انبعاث الأجزاء المنفصلة من الأنا وعودتها مرة أخرى. وهذا هو سبب استمرار الحاجة الدائمة إلى الضرب - حيث يكمن الخوف من عودة العجز، والإهانة والرعب الذي سعى الشخص إلى الهروب منه طيلة حياته باللجوء إلى أمثَلَة الأنا **moi grandiose**: ألويس من خلال وظيفته في مصلحة الجمارك، وأدولف بعد أن أصبح زعيماً (فوهرر)، وآخرون بوصفهم ربما أطباء نفسيين لا يقسمون إلا بالصدمات الكهربائية بوصفهم أطباء متخصّصين بزراعة دماغ القرد، وبوصفهم أساتذة يقدّمون الآراء، أو ببساطة بوصفهم آباء يقومون بتربية أطفالهم. في جميع هذه الحالات، لا يكون الآخرون هم المعنيّين (ولا حتى القرود)، إذ جلّ ما يقوم به هؤلاء الناس حينما يكرهون الآخرين، أو يحطّون من شأنهم، إنما يهدفون منه في الحقيقة إلى القضاء على عجزهم السابق وتحاشي ألم الفقدان **travail du deuil**.

انطلق هيلم ستيرلين في دراسته الهامة عن هتلر، من فكرة أن أدولف كان «مُفوّضاً» من أمّه بشكل غير واعٍ لإنقاذها. ومن ثم من شأن ألمانيا المُضطَهَدة أن تكون رمزاً للأم. قد يكون هذا صحيحاً، لكن تعنّته في الاستمرار بعمله يوضح من دون أيّ شكّ أنّ لديه مصالح أخرى غير واعية خاصة به، ما يعني أنه يخوض نضالاً رمزياً ضخماً لتحرير أناه من آثار إذلال لا حدود له لحق بألمانيا.

لكن هذا لا يستبعد ذاك: فإنقاذ الأم يعني أيضاً للطفل طريقة للنضال من أجل وجوده شخصياً. أي لو كانت والدة أدولف قوية، لما عرّضته - على الأقل في ما له علاقة بتوهّمات الطفل - لهذه الآلام، والقلق الدائم والخوف من الموت. لكن، بما أنها هي نفسها مُهانة، وخاضعة تماماً لزوجها، فلم تكن قادرة على حماية الطفل. والآن عليه أن ينقذ الأم (ألمانيا) من العدو، لكي يحظى بعد ذلك بأمٍّ نقيّة، وقوية، متعافية من أيّ دمٍ يهوديّ، لكي تعيش بأمان. في أغلب الأحيان، يتخيل الأطفال عبر توهّماتهم أن من واجبهم تحرير أمّهم أو إنقاذها، لتكون في نهاية المطاف تلك الأم التي كانوا بحاجة إليها في الماضي. وقد يصبح هذا الأمر في بعض الأحيان، الشغلَ الشاغل لما تبقّى من حياة الإنسان. لكن بسبب عدم توفر الطفل على إمكانية إنقاذ أمه، فإن التكرار لقهري لهذا العجز يفضي إلى فشل مؤكد، أي إلى الكارثة، حينما لا تُعاش ولا تتماهى بمصدره. يمكننا متابعة فكرة ستيرلين من هذا المنظور، وبلغة رمزية من شأنه أن يفضي إلى النتيجة الآتية: إن تحرير ألمانيا، والقضاء على الشعب اليهودي حتى آخر

ممثليه، بمعنى القضاء التامّ على الأمّ السيّئة، من شأنه أن يهيّئ ظروفاً أمام هتلر تجعله طفلاً سعيداً، يعيش بسلام وطمأنينة في كنف أمه المحبوبة.

هذا الهدف الرمزي اللاواعي يكتسي، بطبيعة الحال، طابعاً وهمياً لعدم قدرتنا على تغيير الماضي، لكن لكلّ وهمٍ معناه الذي يمكننا استخلاصه حينما نكون على بيّنة من حالة الطفولة، لكن السوابق الصحية والمعلومات التي يقدمها كتّاب السيرة تخفي، لأسباب لها علاقة بالدفاع عمّن يكتبون سيرته، عناصر هامة، تشوّه هذا المعنى في أغلب الأحيان. لهذا كُتب الكثير، وأجريت أبحاث عديدة لمعرفة ما إذا كان والد ألويس مدمناً كحولياً أم لا.

لكن الواقع النفسي للطفل لا يرتبط كثيراً بالمعطيات التي يؤكد كتاب السيرة على دقتها الحقيقية في فترة لاحقة. فالشكّ في وجود دمٍ يهوديّ في العائلة أشدُّ وطأةً على الطفل من اليقين. ومما لا شكّ فيه أن ألويس قد عانى من عدم اليقين هذا، وأن أدولف عاش هذه الإشاعات، حتى وإن لم يُفصِح عنها أحدٌ قطّ. وهذا بالتحديد ما يريد الأهل إخفاءه ويشغل بال الأطفال أكثر، لا سيما حينما يتعلق الأمر بصدمة أساسية عاشها والدهم.

لقد «أتاح» اضطهاد اليهود لهتلر تصحيح ماضيه الذي عاشه في توهّمه. إذ أتاح له:

1. الانتقام من أبيه، الذي أصبح موضع شكّ من حيث نصفه اليهودي؛

2. تحرير أمه (ألمانيا)، من مُضطهِديها؛

3. الحصول على حبّ أمه بقليل من العقوبات الأخلاقية وبمزيد من أنا حقيقي (اكتسب هتلر حب الشعب الألماني بوصفه مناهضاً للسامية، وليس لأنه طفل كاثوليكي جيد، وهو ما يدين به لأمه)؛

4. قلب الأوراق - بعد أن أصبح الديكتاتور، وله الطاعة في كلّ شيء، كما طاعت الأمور لأبيه في الماضي؛ وهو الذي ينظّم معسكرات الاعتقال ليلقى الناس فيها ما كان يلقاه في طفولته. (لا يمكن أن تسمح الظروف لشخص باختلاق أيّ شيء وحشي، من دون أن يكون قد اختبره بطريقة أو بأخرى خلال طفولته المبكرة؛ لكننا نميل إلى التقليل من أهمية تجارب الماضي).

5. فضلاً عن هذا، فقد سمح اضطهاد اليهود لهتلر اضطهاد ما في نفسه من ضعف الطفل الذي كان يُسقطه على ضحاياه، حتى لا يعيش الحزن الناجم عن ألمه السابق، لأن أمّه لم تتمكن

من مساعدته في هذا الموضوع. وبهذا، كما في الانتقام اللاواعي من جلّادي الطفولة المبكرة، التحق به عددٌ كبير من الألمان الذين عاشوا الحالة نفسها.

في مجموعة هتلر العائلية كما وصفها ستيرلين، نرى أن الأم المحبوبة التي توكل الوظيفة الشافعة للطفل تبقى لتحميه من عنف الأب رغماً عن كل شيء. وهي صورة نجدها في الصيغة الأوديبية عند فرويد، أيْ صورة الأم المحبوبة والمُحبّة والمثالية. ويقترب كلاوس ثيلويت **Claus Thelewet** في كتابه (**Männerphantasien**) أكثر من واقعية أولئك الأمهات، مع أنه لا يخشى أن يستخلص من النصوص التي يستشهد بها نتائج حاسمة. ويلاحظ لدى ممثلي الإيديولوجيا الفاشية التي عمل على تحليلها، أننا نقع دائماً على صورة الأب القاسي، الذي يفرض العقوبات الجسدية، مضافةً إلى صورة الأم الرقيقة والحامية. إنها «أفضل امرأة في العالم»، و«الملاك الخيّر» و«المرأة الذكية، قوية الشكيمة، والخدومة، والمتدينة بعمق» (ينظر كتاب ثيلويت، ج. 1، ص. 133). تعجبنا بعض صفات أمهات رفاقنا أو حمواتهم، اعتقاداً منا بأنها لا تتوفر لدى أمهاتنا: كالصلابة، وحب الوطن، والهيئة البروسية («الألماني لا يبكي»)، - الأم الحديدية التي لا يرفّ لها جفن حينما تعلم بوفاة ابنها ، ومثاله هذا الشاهد الذي يسوقه ثيلويت:

> ليس هذا الخبر هو الذي وجّه الضربة الحاسمة إلى الأم. فقد تجاوزت الحرب التي التهمت أولادها الأربعة؛ بل شيءٌ سخيف هزّ كيانها، وقتلها، هو أن منطقة اللورين أصبحت فرنسية ومعها مناجم الحديد.(ص. 135).

لكن، ماذا يحدث حينما تعتمد الأمّ السلوكَين معاً؟

يقول هيرمان إيرهارد:

> في إحدى ليالي الشتاء قضيت أربع ساعات في الخارج تحت الثلج، حتى قرّرت أمي أخيراً أن العقوبة كافية. (المرجع السابق، ص.133.)

وعلى الرغم من قناعة الأم بكفاية العقوبة إلا أنها أبقته تحت الثلج لأربع ساعات قبل أن «تنقذه». لكن الطفل لا يستطيع فهم السبب الذي يدفع الأم التي يحبها إلى جعله يعاني مثل هذا الألم الكبير، ولا يمكنه تصور أن هذه المرأة العملاقة بنظره، تخاف زوجها كما لو كانت فتاة صغيرة، وتحمّل ابنها من دون وعي منها ثمن الإذلال الذي عاشته في طفولتها. لا شكّ أن هذه القسوة تؤلم الطفل، لكن ليس من حقّه أن يعيش هذا الألم أو يفصح عنه. فلا يبقى أمامه

سوى فصله عن أناه وإسقاطه على الآخرين، أي أنه ينسب إلى أمهات غريبـات مظـاهر القسـوة هذه التي هي مواصفات أمه، ومن ثم يعجب بها لديهن.

كيف كان يمكن لكلارا هتلر مساعدة ابنها وهي نفسها الخادمة الطيعة والخاضـعة لزوجهـا؟ بل تناديه خلال حياته: «العم ألويس»، وراحت، بعد موته تنظر إلى غلايينه المعلقة فـوق حـائط المطبخ باحترام كلما أراد أحدهم التلفّظ باسمه.

ما الذي يمكن أن يدور في نفس الطفل حينما يرى دائمـاً هـذه الأم نفسـها التـي تحدثـه عـن الحب والحنان، وتهتمّ بطعامه، وتغني له الأغاني الجميلة، وهـي تتحـول إلى تمثـال مـن الملـح، لا تعبأ بمنظره وهو يتلوى تحت ضربات أبيه حتى يسيل دمه؟ وبماذا ينبغي أن يشـعر وهـو الـذي يأمل مساعدتها مـن دون طائـل؟ كيـف يكـون شـعوره وهـو يأمـل دائمـاً منهـا أثنـاء عذابـه أن تستخدم سلطتها التي يراها عظيمة؟ لكن، هيهات، فهذا التدخل المنقذ لم يحـدث. الأم تنظـر إلى طفلها المُهان، والمزدرى، والمُعـذّب، مـن دون أن تـدافع عنـه، أو تفعـل شـيئاً لتخليصـه، وتجعـل نفسها بصمتها هذا متضامنةً مع الجلادين، وتتخلّى عـن ابنهـا. فهـل يمكـن أن نتوقـع مـن طفـل كهذا أن يفهمها؟ وهل يمكن أن يدهشنا أن تنسحب مرارته على رأيه في أمه، حتى وإن كَبَتَهـا في لا وعيهِ؟ لا شكّ أن هذا الطفل يكنّ حباً عظيماً لأمـه في وعيـه؛ وسيشـعر لاحقـاً، خـلال علاقاتـه بالآخرين دائماً أنه تُرِك لقدره، واستُغلَّ، وتعرّض للخيانة.

لا شكّ أن أمّ هتلر ليست استثناء، بل من المحتمل جداً أن تكون هي القاعدة أيضاً في أغلـب الأحيان، إن لم تكن نموذجاً لكثير من الرجال. لكنْ، هل يمكن لأمٍّ ليست في حدّ ذاتها سوى عبدة، أن توفر الاحترام الذي يحتاج إليه الطفل لتطوير حيويته؟ في الوصف الآتي الـذي يقدّمـه أدولـف هتلر للجماهير في كتابه كفاحي، نرى نموذج الأنوثة الذي يريده لنفسه:

«لا يبلغ روحَ الجماهير إلا القويُّ العاقل.

مثلما أن المـرأة غـير معنيّـة بالمحـاكمات العقليـة المجـرّدة، وتشـعر بجاذبيـة عاطفيـة غـير محدّدة نحو الموقف الكامل، وتخضع للقويّ بينما هي تهيمن على الضعيف، فإن الجماهـير تفضّل السـيد عـلى المتوسّـل، وتطمـئنّ لعقيـدة لا تقبـل غيرهـا إلا بتسـامح واسـع الصـدر. التسامح يمنحها شعوراً بهجران لا يفيدها بشيء. إنها لا تعرف أننا نمارس عليها إرهاباً فكرياً، ونـتحكم بحريتهـا الإنسـانية لأنهـا لا تحـسّ عـلى الإطـلاق بخطـأ العقيـدة. إنهـا لا تـرى

سوى التجلّيات الخارجية المقصودة لقوة محدّدة، وفظاظةٍ تخضع لها دائماً... (منقول عن فيست، 1974، ص. 51).

في هذا الوصف الذي قدّمه هتلر للجماهير إنما يصف بالتحديد أمه وما كانت عليه من خضوع. وتستند مبادئه السياسية الأساسية على تجارب تغلب عليها القسوة التي عاشها في وقت مبكر جداً.

يشير فيست أيضاً إلى احتقار هتلر للنساء؛ وهو احتقار تفسّره الحالة العائلية بشكل واضح تماماً. يقول فيست:

تعكس نظريته حول العرق مزيجاً راسخاً من الحسد وكراهية النساء، التي يعبّر عنها في تأكيده أن المرأة أتت بالخطيئة إلى العالم، وأن سهولة خضوعها لأحابيل الرجل الدوني الخليعة، القريب من الحالة الحيوانية، هو السبب الرئيس في تلوث الدم الشمالي. (فيست، ص.36.).

ربما كانت كلارا تنادي زوجها «العم ألويس» بدافع خجلها العميق منه، لكنه، في كل الأحوال كان يسمح لها بمناداته على هذا النحو. هل كان يطلب منها أن تناديه كذلك، كما كان يطلب من جيرانه مخاطبته «بضمير الجمع»، وليس بضمير المخاطب؟ كان أدولف يناديه أيضاً «السيد الوالد» أيضاً حينما يتعرض له في كتابه كفاحي، ربما لأن السبب يعود إلى حاجة داخلية اختزنها الأب في وقت مبكر جداً. ومن المحتمل أن يكون ألويس يسعى من خلال هذا النوع من المتطلبات إلى التعويض عما عاشه من تعاسة خلال طفولته المبكرة (نقلتها إليه أمه الفقيرة، والعازبة، ومجهولة النسب)، ليشعر في نهاية المطاف أنه السيد (**Herr** تعني السيد أو المعلم). هذه الفكرة قريبة جداً من فكرة استمرار الألمان في أن يحيّي بعضهم بعضاً طيلة اثنتي عشرة سنة بعبارة «هايل هتلر». لأنه كان على ألمانيا كلّها أن تلبي أكبر متطلبات الفوهرر وأكثرها خصوصية، مثلما كانت كلارا ومعها أدولف يلبّيان متطلبات الأب المهيمن.

عُرف عن هتلر تملّقه للمرأة «الألمانية المنتمية إلى العرق الجرماني النقيّ» لحاجته إلى ثنائها، وصوتها في الانتخابات، كحاجته إلى خدماتها، مثلما كان يحتاج إلى أمه. لكنه لم يأنسها قطّ، ولم تربطه علاقة وثيقة بها، كما يقول ستيرلين:

عمل ن. برمبرغ **N.Bromberg) 1961)** على تحليل ممارسات هتلر الجنسية على النحو الآتي: «إذا أراد هتلر بلوغ الرضا الجنسي، ينظر إلى امرأة شابة تبول وهي مقرفصة فوقه،

أو تتبرز فوق وجهه. ثم يتحدث عن حادثة «تعبّر عن مازوشية كارهة للمرأة، فيرمي نفسه عند قدمي ممثلة ألمانية شابة، ويطلب منها أن تضربه بقدميها، وحينما ترفض هذا الأمر يرجوها لتلبّي طلبه. في الوقت نفسه، كان يكثر من اتهام نفسه، ويتلوّى عند قدميها بطريقة تدفعها إلى قبول طلبه أخيراً. كان يتهيّج حينما تضربه بقدميها، وحينما تقبل بتوجيه المزيد من الركلات إليه، يزداد هياجه. كان فارق العمر بين هتلر والنساء الشابات اللاتي ارتبط بهن بشكل ما من العلاقة الجنسية قريباً من فارق الثلاثة وعشرين سنة بين عمر أمه وعمر أبيه... (ستيرلين، حاشية وردت في ص. 41 من كتابه.).

لا يمكن الظن تماماً بأن رجلاً كان حظي بحب أمه وحنانها خلال طفولته، كما يؤكد غالبية كتّاب سيرة هتلر يمكن أن يعاني هذا النوع من تكرار هذه السادية المازوشية التي تدلّ على اضطراب قديم جداً. لكن يجب التنبّه إلى أن تصورنا للحب الأمومي لم ينفصل بعد تماماً عن إيديولوجيا «التربية السوداء» التي تحدّثنا ونتحدث عنها.

ملخّص

إذا شاء أحد القرّاء النظر إلى هذه الاعتبارات المتعلقة بطفولة أدولف هتلر المبكرة بوصفها تفخيماً درامياً **sentimentalisme**، أي محاولة منه «لغفران» جرائمه، فمن حقّه أن يفهم ما قرأه على هذا النحو، أو يأخذ ما كتبتهُ، في الاتجاه الذي يريده، أو يشعر بأنه مضطر إليه. الأشخاص الذين تعلّموا في عمر مبكّر جداً كيف «يكظمون ألمهم» يرون، عبر تماهيهم بالمعلم، أن أيّ فهم للطفل بمثابة رقّة غير طبيعية أو انحياز عاطفي. في شأن الشعور بالذنب، فقد اخترتُ هتلر بالتحديد لأني لا أعرف مجرماً آخر لم يشعر مثله بتأنيب الضمير على ما أزهقه من حيوات بشرية. لكن حينما نقول «مذنب» فمن حقّنا تماماً، بل من الضروري حبس القتلة الذين يعرّضون حياتنا للخطر. وحتى الآن لم نعثر على وسيلة أخرى تقينا شرّهم. لكن هذا لا يغيّر شيئاً في أن غريزة القتل هي تعبير عن مصير مأساوي للطفولة، والسجن طريقة مأساوية لوضع حدّ لهذا القدر.

لو بحثنا في التاريخ الذي نعرفه عن دلالته عوضاً من البحث عن وقائع جديدة، لاكتشفنا في دراسة هتلر مصادر غنية حقيقية لم تُستثمَر عملياً بعد، ومن ثم ما يزال الجمهور جاهلاً بها. في حدود معرفتي، هناك أمرٌ بالغ الأهمية على سبيل المثال لم يؤخذ بعين الاعتبار، هو أن أخت كلارا

هتلر كانت حدباء وتعاني من انفصام الشخصية؛ والخالة يوهانا عاشت منذ ولادتها وطيلة طفولتها في البيت نفسه. في السِّيَر التي اطّلعتُ عليها، لم أرَ علاقة لهذا العنصر بصدور قانون الموت الرحيم **euthanasie** في ظل الجمهورية الثالثة [الرايخ الثالث]. وملاحظة هذه العلاقة، لا بد أن يكون المرء قادراً على الشعور بالأحاسيس الناشئة عند طفل يتعرض يومياً لسلوكٍ عبثيّ ويشكّل مصدراً للقلق، وفي الوقت نفسه يمنعه من إظهار ألمه، أو حتى طرح أسئلته. وحتى وجود عمّة منفصمة الشخصية في البيت من شأن الطفل أن يستثمره إيجابياً، لكن شريطة أن يتمكّن من التواصل بحرّية مع والديه على الصعيد العاطفي والتحدث معهما عن آلامه.

في حوار مع جيتزنغر قالت الخادمة في وقت ولادة أدولف: فرانزيسكا هورل **Franziska Hörl** إنها لم تعد قادرة على احتمال جوّ هذا البيت منذ فترة طويلة بسبب هذه العمّة، وهو ما دفعها إلى مغادرته. كلّ ما صرّحت به هو: «لم أعد قادرة على البقاء عند هذه الحدباء المجنونة.» (يُنظر جيتزنغر، ص.81).

أما طفل العائلة، فلا يحقّ له التفوّه بمثل هذه الأشياء. لكن ما إن بلغ أدولف سنّ الرشد، وأمسك بالسلطة، حتى أتته مئات الوسائل للانتقام من هذه العمّة التعيسة، ومن تعاسته الشخصية أيضاً: فعمد إلى القضاء على المرضى العقليين في ألمانيا الذين رأى فيهم (بوصفه طفلاً) كائنات «غير قابلة للاستخدام في مجتمعٍ سليم». وحينما صار هتلر راشداً لم يعد يعتبر نفسه مسؤولاً عن أيّ شيء كان، بل إنه تمكّن من «تخليص» ألمانيا كلّها من لعنة المرضى العقليين، وضعفاء النفوس، ولم يتوانَ قطّ عن إيجاد الذرائع الإيديولوجية لتسويغ انتقامه الشخصي هذا.

إن عدم دراستي في هذا الفصل، لأصْل قانون الموت الرحيم، سببُه اهتمامي الأساسي بإبراز نتائج الإذلال الفعّال على طفل عبر مثال بالغ الوضوح. بما أن هذا النوع الإذلال المقترن بالمنع من الكلام، يشكّل عاملاً أساسياً في التعليم، ونراه في كلّ مكان، فإننا غالباً ما نهمل تأثيره على مستقبل تطور الطفل. القول إن العقوبات الجسدية معتادة، أو حتى القناعة بضرورتها للحثّ على التعلّم، يعني جهلنا بضخامة مأساة الطفولة. وبما أن الناس لا يربطون تلك العقوبات بالجرائم اللاحقة، تراهم يضيقون ذرعاً بمن يتابع البحث عن أصولها، كما لو أن القتلة يهبطون من السماء.

توقفت عند مثال من هتلر فقط لأبيّن أن:

1. حتى أكبر مجرم في كل العصور لم يأتِ إلى هذا العالم مجرماً؛

2. فهم قدر الطفل لا يمنع قياس حجم رعب القسوة اللاحقة (وهذا ينطبق على ألـويس كـما ينطبق على أدولف)؛

3. الاضطهاد يقوم على آلية دفاعية عن دور الضحية؛

4. التجربة الواعية لدورنا كضحية يحمينا من الســادية، أي مـن الحاجـة إلى التكـرار القهـري **besoin compulsionnel** إلى تعذيب الآخـرين وإذلالهـم أفضـل مـن الـدفاع عـن لعـب هـذا الدور؛

5. واجب عدم التعرّض للأهل، الذي يعود إلى الوصية الرابعة [من الكتاب المقدّس] و«التربية السوداء»، يؤدي إلى تجاهل العوامل الحاسمة في الطفولة المبكرة للفرد وتطوره المستقبلي؛

6. البالغ لا يحلّ مشاكله بالاتهام، والاستنكار، ومشـاعر الـذنب، بـل عليـه البحـث في الأمـور المرتبطة بها؛

7. لا علاقة للفهم الحقيقي، على الصعيد العاطفي، بالشفقة أو النزوع العاطفي الدوني؛

8. يجب ألا تعفينا عمومية العلاقة من تحليلها، بل بالعكس، لأنها تتعلـق بمصير الجميـع أو تصبح كذلك؛

9. وأن التحـرّر العـاطفي المفـاجئ **abréaction** مـن الكراهيـة منـاقضٌ للتجربـة المعيشـة. التجربة حقيقة نفسية داخلية **intrapsychique**، أما التحرّر العـاطفي المفـاجئ فهـو فعـلٌ قـد يكلّف الآخرين حيـاتهم. حيـنما يكـون طريـق الـوعي مغلقـاً بممنوعـات «التربيـة السـوداء»، أو انعدام كفاءات الوالدين، فالحلّ الوحيد هو التحرّر العاطفي المفاجئ؛ الذي يمكن أن يظهـر عـلى شكل قوة تدميرية، كما هو حال هتلر، أو قـوة تدميريـة ذاتيـة كحـال كريسـتيان ف.. لكـن قـد يعني، بالنسبة إلى غالبية المجرمين الوافدين إلى السجن، تدميراً للأنا ولأنا الآخرين. وهو ما يظهـر بوضوح كبير عبر مثال يورغن بارتش **Jürgen Bartsch**، الذي سأدرسه في الفصل اللاحق.

يورغن بارتش

فهم الحياة من نهايتها

«لكن سيبقى دائماً سؤالٌ مطروحاً دائماً، ولن يغيّر الشعور بالذنب فيه أيّ شيء: لماذا ينبغي وجود أشخاص هكذا فقط؟ هل ولد معظمهم هكذا؟ ما هي، يا ربّ، الجريمة التي ارتكبوها قبل ولادتهم؟».

(من رسالة بعث بها يورغن بارتوخ من السجن)

مقدّمة

يرى أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالدراسات الإحصائية ويأخذون منها معارفهم السيكولوجية أن جهودي لمحاولة فهم حالة بعض الأطفال مثل كريستيان ف.، أو أدولف هتلر غير مجدية وفي غير محلّها. فصار من الواجب إذاً أن أبرهن لهم إحصائياً أن كثيراً من المعاملات السيئة للأطفال قد نتج عنها لاحقاً العدد نفسه من القتلة تقريباً. لكن مثل هذا البرهان غير ممكن، للأسباب الآتية:

1. غالباً ما تُمارس المعاملات السيئة في الخفاء، فيصعب البرهان عليها؛ ولأن الطفل نفسه يخفي هذا النوع من التجارب ويكبته.

2. حتى إن كثر عدد شهود العيان على تلك الممارسات يبقى دائماً عددٌ من الأشخاص يقولون العكس. ومن ثم، على الرغم من تناقض الشهادات كما في حالة جيتزنغر، فإننا نصدّق الناس الخارجيين بدلاً من تصديق الطفل نفسه، لأنهم يساعدون في الحفاظ على الصورة المثالية للوالدين.

3. بما أن العلاقة بين المعاملات السيئة التي يتلقّاها الأطفال، حتى الأطفال الصغار في بعض الأحيان، والجرائم التي تُرتكب في وقتٍ لاحق، غير مؤكدة عملياً ولا يوليها الباحثون في علم الجريمة اهتمامهم، وبضمنهم غالبية علماء النفس، لأن الدراسات الإحصائية التي تُظهر هذا النوع من العوامل ليست كثيرة الشيوع؛ على الرغم من وجود بعضها.

لكن هذه الدراسات الإحصائية لا تبدو لي مصدراً موثوقاً بالمطلق، حتى وإن أكدتْ أطروحاتي الشخصية، لأنها تنطلق غالباً من صيغ ومعايير مقبولة ولا معنى لها (كالحديث عن «طفولة محمية»)، وغامضة، وملتبسة («طفل محبوب جداً»)، وتزويرية («أبٌ قاسٍ لكنه منصف»)، أو تقوم على حقائق مضادّة فاضحة («كان محبوباً ومدلّلاً»). ومن ثم أرفض أن أثق بشبكة من مفاهيم تعتريها ثقوبٌ واسعة تمرّ الحقيقة من خلالها. بل أفضّل، كما فعلت في الفصل الذي عقدته للحديث عن هتلر، محاولة السير في درب آخر. عوضاً عن الموضوعية الإحصائية، سأبحث عن ذاتية الضحية المعنية بمقدار ما تتيح لي حساسيتي فهمها. عندئذٍ، أكتشف لعبة الحب والكراهية؛ فمن جهة هناك قلّة الاحترام والاهتمام إزاء الكائن الذي خضع ذات يوم لحاجات والديه من تحكّم وتلاعب، والحد من حريته، وإذلاله ومعاملته بشكل سيّئ، ومن جهة أخرى ملاطفته، وتغنيجه، والسعي إلى استمالته باعتبار أن الطفل جزء من الذات. ما يضمن القيمة العلمية لهذه الأطروحة هو أنها قابلة للبرهان، وتقوم على حدٍّ أدنى من جهاز نظري يمكن حتى لغير المتخصص تأكيده أو نفيه. أوليس ممثلو المحاكم عبارة عن جماعة من غير المتخصصين في علم النفس؟

يصعب فهم كيف يمكن لبعض الدراسات الإحصائية أن تحوّل بعض القانونيين الذين يعوزهم الإحساس إلى كائنات حسّاسة تصغي إلى الآخرين. ومع ذلك، يصرخ المجرم بطريقته للتعبير عن حاجته إلى الفهم؛ وهي قصص تتحدث عنها الصحافة يومياً لكنها لسوء الحظ لا تتحدث إلا عن المرحلة الأخيرة. هل من شأن معرفة الأسباب الحقيقية للجريمة أن يؤدّي إلى تغيير في تطبيق العقوبة؟ لا، ما دام الأمر رهناً بتحديد الذنب والعقاب. لكن قد يكون هذا مفيداً لإفهام أن المتهم ليس وحده المذنب على الإطلاق، كما سنرى في حالة يورغن بارتش التي لا يمكن أن نرى مثيلاً لها، بل ضحية سلسلة من الظروف المأساوية؛ لكن هذا لم يجنّبه الحبس والعقوبة من أجل حماية الجماعة. لكن هناك اختلاف بين التطبيق الدائم لمبدأ «التربية السوداء» من خلال إيقاع عقوبة السجن بالمجرم، وإدراك مأساة كائن بشري يسمح له بتلقي العلاج النفسي في السجن.

يمكن مثلاً، ومن دون نفقات مالية كبيرة، السماح لمجموعة من المعتقلين ممارسة الرسم أو النحت؛ فلربما يتيح لهم هذا فرصة للتعبير، بطريقة إبداعية، عما خفي من ماضيهم البعيد، وما تعرّضوا له من معاملات سيئة، ومشاعر كراهية مكبوتة، وهو

لا شكّ، من شأنه التخفيف من الحاجة إلى استرجاع هذا الماضي، والسعي إلى التخلّص المفاجئ منه.

ولكن، للتخلّص من مثل هذا الموقف، يجب أن ندرك ألا شيء يحدث في لحظة إصدار الحكم. لأننا نكون حبيسي تصوّر إشعار الآخر بالذنب، ويصعب علينا تخيّل أيّ شيء آخر غيره. لهذا تُفسَّر فكرتي بالقول إنني أرى دائماً أن الأهل «مذنبون في كل شيء»، ويؤخذ عليّ في الوقت نفسه الإكثار من الحديث عن «الضحايا»، واتهام «الوالدين» وأتناسى أنه على كلّ طرف تحمّل مسؤولية أفعاله. وهي مآخذ أرى فيها آثاراً «للتربية السوداء»، وتبيّن مقدار التأثير الأولي لإشعار الآخرين بالذنب. لا شكّ أنه يصعب علينا فهم مأساة المجرم، أو القاتل، من دون أن نقلّل من هول جريمته أو الخطر الذي تمثله. إذا كان التخلّي عن أحد هذين الموقفين، سيسهّل عليّ إدراج نفسي في نموذج «التربية السوداء». لكن اهتمامي يقوم تحديداً على تقديم المعلومات، والتخلي عن إزجاء المواعظ الأخلاقية.

يصعب كثيراً على المربّين فهم طريقتي في رؤية الأمور، لأنهم كما يقولون لا يستطيعون «الوقوف على شيء» مما أكتب. لئن كانوا يتشبّثون حتى اليوم بعصاهم أو بمناهجهم التربوية، فلن يكون هذا التغيّر مضيعة كبرى للوقت. إن تخلّى المربي عن مبادئه التربوية فقد يعاني هو نفسه المخاوف ومشاعر الإحساس بالذنب التي تلقّنها في الماضي عبر العصا، أو من خلال المناهج الأكثر تطوراً حينما يكفّ عن نقلها إلى الآخرين، ولا سيما الأطفال منهم. وعودة انبثاق هذه المشاعر المكبوتة تقدّم له بالتحديد أساساً أكثر أصالة وموثوقية مما تقدمه مبادئ التربية. (ينظر كتاب أ. ميلر، 1979).

والد المُحلّل **analysant** الذي عاش طفولة قاسية لم يتمكن من الحديث عنها أبداً، فكان يلجأ أحياناً إلى تعذيب ابنه الذي كان يرى نفسه فيه بطريقة قميئة. لكن لم يتنبّه الأب والابن إلى هذه القسوة التي يعدّها كلاهما «إجراء تربوياً» طبيعياً. حينما أصيب الابن بأعراض مرضية خطيرة، بدأ بالتحليل، وكان «ممتنّاً» لوالده، بحسب قوله، وللتربية الصارمة، و«الانضباط الدقيق» اللذين فرضهما عليه. فاكتشف الابن الذي أراد دراسة أصول التربية، اكتشف خلال دراسته تحليل إيكهارد فون برونمول **Ekkehard von Braunmühl** وكتاباته المناهضة للتربية فتحمّس لها. في غضون ذلك قام بزيارة والده، ولاحظ للمرة الأولى أن هذا الوالد كان يضايقه دائماً إما بعدم

الإصغاء إليه، أو بالسخرية مما كان يحدثه بـه، أو الاسـتهزاء بـه. وحيـنما نبّهـه الابـن، ردّ عليه الأب الذي كان هو نفسـه أسـتاذاً في علـم التربيـة، وبجدّيـة لا تضاهى: «عليـك أن تكون ممتنّاً لي. ستواجه خلال حياتك كثيرين ممن لا يعيرون انتباههم إلى ما تقـول، أو لا يأخذونه على محمل الجد. فإن تعلمت هذا وأنت معـي، سـتعتاد عليـه. لأن مـا يتعلمـه المرء في شبابه يبقى في ذاكرته مدى الحياة.» ارتبك الشاب ابـن الرابعـة والعشريـن، لأنـه سمع كثيراً هذا النوع من الخطـاب مـن دون أن يعيـد النظـر في مضـمونه. لكنـه غضـب هذه المرّة، واستشهد بجملة قرأها عند براونهول تقول: «إذا اسـتمررت فعـلاً في تعليمـي تبعاً لهذه المبادئ، عليك أن تقتلني أيضاً، لأنني سأموت ذات يوم. ولهذا فإنك تهيّئني لـه بشكل أفضل!». لا شكّ أن الأب أنّبه على وقاحته وتخمينه، لكن الأمر بالنسبة للابن اتخذ منحى حاسماً؛ واتخذت دراساته منحىً آخر تماماً.

يصعب القـول مـا إن كانـت هـذه القصـة تنـدرج في إطـار أمثلـة الأمثلـة عـلى «التربيـة السوداء»، أم «التربية البيضاء»، لكنهـا لم تـحضر في ذهنـي إلا لأنهـا بـدت بمثابـة مرحلـة انتقالية في قضية يورغن بارتش. تبيّن من تحليل هذا الطالب البالغ أربعة وعشريـن عامـاً من العمر أن هذه التوهّمات السادية المريعة كانت تعذّبه، فدفعه الـذعر في النهايـة إلى قتل أحد الأطفال. لكـن بسـبب عمـل اسـتيعاب **perlaboration** هـذه الاسـتيهامات في إطار التحليل واستعادة وعيه بالعلاقات الأولية التـي تربطـه بـالأب والأم، اختفـت هـذه الآلام بالترافق مع اختفاء أعراض أخرى، وأفسحت في المكان لتطوّرٍ أكثر صـحّةً وتحـرّراً في نهاية المطاف. يمكن لتوهّمات الانتقام التي كان يرى نفسه فيها دائماً وهو يقتل طفـلاً أن تفسّر تجلّي كراهية الأب الذي كان يمنعه من الحياة، وفي الوقت نفسه بوصفها تماهياً مع المعتدي الذي يريد قتل الطفل الذي كانه هو نفسه. اخترت هذا المثال قبل دراسـة حالـة يورغن بارتش لأني تـأثرتُ والحـال هـذه بالتشـابه بـين الديناميكيـة النفسـية بـين هـاتين الحياتين، مع أن مآليهما كانا مختلفين جدّاً.

«هبط من السماء؟»

تحدثتُ إلى عدة أشخاص انتابهم الذعر بعـد قـراءة كتـاب كاثارينـا روتشـكي حـول «التربيـة السوداء»، أمام القسوة التي كان الأطفـال يربّـون عليهـا «في المـاضي». كـان لـدى النـاس عمومـاً

الانطباع بأن «التربية السوداء» تعود من دون شكّ إلى عصرٍ انقضى، أو على الأقل إلى عهد طفولة أجدادهم.

عند نهاية سنوات الستينيات تقريباً جرت محاكمة في جمهورية ألمانيا الاتحادية أثارت كثيراً من الضجّة حول سلسلة من «الجرائم النزوية» التي ارتكبها شخص يدعى يورغن بارتش. هذا الشاب المولود عام 1946 قام وهو بين السادسة عشرة والعشرين من عمره، بقتل عدّة أطفال بقسوة تعصى على الوصف. في الكتاب الذي وضعه بول مور **Paul Moor** (لوحة ذاتية ليورغن بارتش **Das Selbstporträt des Jürgen Bartsch**) المنشور عام 1972، والذي نفدت طبعاته مع الأسف، يروي الوقائع الآتية:

في 6 تشرين الثاني من عام 1946، هربت من المشفى خلسةً، قبل التاريخ المنتظر، أرملةُ حربٍ مصابة بمرض السلّ، تاركةً طفلها الطبيعي كارل هاينز سادروزينسكي، الذي سيحمل مستقبلاً اسم يورغن بارتش، بعد أن كانت حملت به من عامل موسميّ هولندي. بعد عدّة أشهر، دخلت السيدة غيرترود بارتش، زوجة لحّام ثريّ من مدينة آخن **Essen** المشفى نفسه لتخضع لعملية جراحية كاملة. فقرّرت مع زوجها أخذ الطفل إلى بيتها على الرغم من تردّد مسؤولي التبنّي في أقسام الطفولة؛ وكان هذا التردّد بالغ القوة بحيث لم تُستكمل إجراءات التبنّي إلا بعد سبعة أعوام. تميّز الوالدان الجديدان بقسوة شديدة، فعزلا ابنهما المُتبنّى تماماً عن الأطفال الآخرين بحجّة أنه لا يجوز أن يعرف بأنه مُتبنّى. وحينما اشترى الأب ملحمة ثانية (ليؤمّن محلاً خاصاً ليورغن في أقرب فرصة ممكنة) وتكفّل بها السيد بارتش؛ في البداية قامت الجدّة برعاية الطفل، ثم تعاقبت على رعايته مجموعة من الخادمات.

حينما بلغ يورغن بارتش العاشرة من عمره، أودع مؤسسة لرعاية الأطفال في راينباخ تضمّ نحو عشرين طفلاً داخلياً. في الثانية عشرة من عمره انتقل من هذا الجوّ اللطيف نسبياً إلى مؤسسة كاثوليكية تضم تقريباً ثلاثمئة طفل، كان يعدّ عدد منهم صعبي المراس، ويخضعون لأشدّ قواعد الانضباط العسكرية صرامة.

بين عامي 1962 و1966 قتل بارتش أربعة صبيان صغار، ويقدّر هو نفسه أنه قام في الفترة نفسها بمئات محاولات القتل الفاشلة. كانت كل جريمة تختلف قليلاً عن غيرها، لكنها تشبهها بشكل عام: فبعد أن يستجرّ الولد الصغير إلى ملجأ فارغ كان

يستخدم للوقاية من الغارات الجوية في شارع هيغرشتراسه من مدينة لانغنبرغ بالقرب من بيت عائلة بارتش، ويرغمه بالضرب على الطاعة، ويربطه بخيط اللحام. وبعد أن يتلاعب بأعضائه التناسلية يقوم بخنقه أو ضربه حتى الموت، ثم يقطع الجسد إلى أجزاء، ويفرغ الأحشاء والقفص الصدري، ثم يدفن الأجزاء الباقية. الاختلافات تظهر في طريقة تقطيع الجثة، تبعاً لطريقة قطعه للأعضاء؛ فيقطع العنق، ثم الخصيتين، ويسمل عينيه، ويقتطع قطع لحم الإليتين (ليشمّها بعد ذلك) أو يحاول أن يقيم معه علاقة شرجية لا جدوى منها. في الحكايات التي تصل تفاصيلها إلى ذروتها بحسب ما رواها يورغن بارتش نفسه خلال التحقيق والمحاكمة، أشار إلى أنه كان يبلغ ذروة الإثارة الجنسية ليس من خلال الاستمناء، بل عبر تقطيع الجسد، وهو ما كان يمنحه نوعاً من اللذة الدائمة. وعند جريمته الرابعة والأخيرة نجح في تحقيق ما كان يبدو له الهدف الأسمى: إذ بعد ربط ضحيته إلى عمود، يقوم بتقطيع الطفل الذي كان يصرخ قبل أن يقتله أولاً. (ص. 22 وما بعدها).

حينما انتقلت مثل هذه الجرائم إلى الرأي العام أثارت موجةً مفهومة من السخط، والفزع والهلع. كما دهش الناس في الوقت نفسه من إمكانية وجود قسوة كهذه، لا سيّما عند ولدٍ لطيف، ومحبوب وحسّاس وذكيّ لا تبدو عليه سمات مجرم خطير، إضافة إلى أن تاريخه وتاريخ طفولته لا يشيران للوهلة الأولى إلى أمر خاص مثير للانتباه. فقد شبّ في عائلة بورجوازية كلاسيكية تشبه كثيراً من العائلات الأخرى، عائلة فيها حشدٌ من الدمى ذات الأرياش اللينة: وكان لسان حال كثير من الناس يقول: «لم ننشأ بطريقة مختلفة عن الطريقة التي نشأ عليها، والتي لم نلاحظ فيها أي شيء غير طبيعي، وإذا كان للطفولة دور في هذه القضية، فلا بدّ أن نكون جميعاً مجرمين»، أو أنهم لم يجدوا تفسيراً آخر. حتى أطبّاء الأعصاب كانوا يشيرون في تقاريرهم إلى أن يورغن بارتش لم يكن سليل عائلة فقيرة، بل عائلة تهتم به في ظروف «محافظة تماماً»، ومن ثم فهو وحده من يتحمّل مسؤولية أفعاله.

إذاً، ترتسم أمامنا مرة أخرى كما في حال أدولف هتلر، لوحة والدين مستقيمين ومسالمين أرسل اللهُ أو الشيطان، لأسباب غير مفهومة، وحشاً إلى مخدعهم. لكن الوحوش لا تهبط من السماء أو الجحيم إلى غرف الطعام البورجوازية. ما إن نعرف آليات التماهي مع المعتدي، وانفصال الأنا، وإسقاط المشكلات الخاصة بطفولتنا وتحويلها على طفلنا، وتحوّل التربية إلى

اضطهاد حقيقي، لا يعود بمقدورنا الاكتفاء بتفسيرات بالية (تعود إلى القرون الوسطى). وحينما نعرف، فضلاً عن هذا قوة تأثير هذه الآليات على الفرد، وشدّتها، وطابع الغريزية التي تكتسيها، نرى في حياة كلّ واحدٍ من هذه «الوحوش» استكمالاً منطقياً لطفولته. وسنحاول البرهنة على هذه الفرضية استناداً إلى حياة يورغن بارتش.

قبل هذا كان السؤال المطروح هو معرفة لماذا يصعب إدخال الرأي العام في مقاربة تحليلية نفسية للرجل. بول مور الذي نشأ في الولايات المتحدة ويعيش منذ ثلاثين عاماً في جمهورية ألمانيا الاتحادية، عجب كثيراً من مفهوم الإنسان الذي بدا أنه مفهوم الموظفين الأكفاء خلال المحاكمة الأولى. فلم يتمكن من فهم أن جميع المشاركين في هذه المحاكمة لم يلاحظوا ما قفز أمام عينيه مباشرة على الرغم من أنه أجنبي. لا شك أن قاعة المحكمة تعكس معايير المجتمع ومحظوراته **tabous**، وأن ما لا ينبغي على «المجتمع» رؤيته ينطبق على قضاته ومحاميه. لكنْ، ثمّة استسهالٌ كبير في الحديث عن «المجتمع»، لأن القضاة والمقرّرين بشرٌ أيضاً؛ ولا شكّ أنهم نشؤوا تقريباً مثل يورغن بارتش، وأضفوا صبغة مثالية على هذه المنظومة منذ نعومة أظفارهم، وعثروا على وسائل مناسبة للتحرّر منها. كيف يمكنهم فجأةً ان يعوا هول هذه التربية من دون أن ينهار الصرح كله؟ أحد الأهداف الرئيسة «للتربية السوداء» يقوم تحديداً منذ البداية على رؤية ما عانيناه خلال الطفولة، وعدم الإحساس به والحكم عليه. ثمّة عبارة تتكرّر في جميع التقارير تقول إن «ثمّة آخرين تربّوا بهذه الطريقة»، لكنهم لم يرتكبوا جرائم جنسية. يجري تسويغ المنظومة التربوية المعمول بها بإظهار أن الأفراد المعزولين، «غير الطبيعيين» وحدهم من خرجوا منها مجرمين.

لا توجد معايير موضوعية تتيح لنا اعتبار طفولة معينة، وليس أخرى «أنها تتميّز بالتعاسة». الطريقة التي يعيش الطفل قدرَهُ من خلالها ترتبط بحساسيته، التي تختلف من فردٍ إلى آخر. وفضلاً عن هذا، طالما وُجد أن في الطفولة فرصاً ضئيلة، أو بالعكس ظروفاً كارثية، لا تُرى من الخارج. هذه العوامل القائمة في مصير كل منا لا يمكن تغييرها على الإطلاق.

لكن ما يمكن أن يتغيّر ويغيّر نفسه هو معرفة نتائج عملنا. في مجال حماية البيئة، لم تعد مسألة الغيرية أو مسألة «التصرف السليم» مطروحة، مذ عرفنا أن التلوث الجوي، وتلوث المياه، يعرّضان بقاءنا للخطر. انطلاقاً من هنا فقط يمكن سن قوانين تضع حدّاً للإسراف في تلويث البيئة. ولم تعد المسألة مسألة أخلاق بل دفاع عن النفس.

يمكن تطبيق مبادئ مماثلة على ما يتعلق بالتحليل النفسي. ما دام يُنظَر إلى الطفل بوصفه سلّة مهملات يمكن أن نلقي فيها «قاذورات الغرائز» من دون رقيب أو حسيب، فلن تتغيّر ممارسة «التربية السوداء» أبداً. وفي الوقت نفسه، ترانا ندهش أمام تكاثر الاضطرابات العقلية العصابية، وحالات الإدمان في فترة الشباب، وتثور ثائرتنا ونحن نعترف بعجزنا عن الوقوف في وجه الانحرافات الجنسية وأعمال العنف، ونتمرّن على عدّ حروب الإبادة بوصفها جزءاً لا يتجزأ من حياتنا.

لكن ما إن تنفذ المعارف التحليلية النفسية إلى الرأي العام - وهو ما سيحدث عاجلاً أم آجلاً بفضل شباب يتمتعون بمزيد من الحرية -، فإن قانون القوة العائلية «القائم على تغييب حقّ الطفل لصالح البشرية» لا يعود قادراً على الصمود. ولن يعود من الطبيعي أن يكفّ الأهل عن إفراغ غضبهم، وضغينتهم، على الطفل، بينما تراهم يطلبون منه السيطرة على غرائزه **affects** في عمرٍ مبكر.

لا بدّ أن يتغير شيء في موقف الأهل حين يرون أن ما مارسوه بحسن نيّة حتى الآن، بوصفه «التربية الضرورية»، ليس في حقيقة الأمر سوى إثارة للغضب، والإذلال والمعاملات السيئة. فضلاً عن هذا، فإن الرأي العام بصدد الانفتاح تدريجياً على فكرة ربط الجريمة بتجربة الطفولة المبكرة؛ وأن الجريمة تكشف قصة مستورة يمكننا قراءة جميع تفاصيلها، ولن تبقى طريقة إخراجها بعد الآن سرّاً يتداوله المتخصّصون. كلما درسنا هذه العلاقات بشكل أفضل، فإننا نقف أمام الحاجز الذي ينشأ خلفه المجرمون المستقبليون من دون حساب أو عقاب. لأن أصل فعل الانتقام اللاحق يكمن في قدرة البالغ على إطلاق عنان نزعته العدوانية ضد الطفل، مع أن ردود الفعل العاطفية لدى الطفل أكثر كثافةً منها لدى البالغ، إلّا أنها تكون مقموعة بأكبر قدر من العنف ويفرض عليها أقصى العقوبات.

حينما نعرف عبر ممارسة التحليل النفسي معوّقات العدوانية وتأثيرها على صحة الكائنات الطبيعية التي لا نعيرها اهتمامنا وكيفية عيشها، نحمد الله على هذه الفرصة العظيمة التي لم تحوّلنا جميعاً إلى مجرمين، وعلى أنها ليست أمراً طبيعياً في هذا العالم. لا شكّ أن هناك وسائل أخرى للعيش مع هذا الكبت، كما في حالة الاضطراب الذهني **psychose**، وإدمان المخدرات والتكيّف التامّ الذي يتيح تحويل الكبت إلى الطفل، لكن تاريخ الجريمة الجنسية يتضمن عوامل خاصة تتدخل بشكل أكبر مما نريد قبوله. إنها تتجلّى أيضاً في أغلب الأحيان أثناء

التحليل على شكل استيهامات (تـوهّمات) **fantasmes** لا تحتـاج إلى أن تتحـول إلى أفعـال، لأن اختبار هذه الغرائز يتيح دمجها وإنضاجها.

بماذا تخبرنا الجريمة عن المجرم؟

لم يكتفِ بول مور بمراسلاته الطويلة مع يورغن بارتش سعياً لفهمه فقط، بل أراد فضـلاً عـن هذا جمعَ معلوماتٍ ممّن يفترض بهـم إخبـاره شـيئاً عـن موضـوعه واسـتعدادهم للقيـام بهـذا. وأفضت أبحاثه التي أجراها حول السنة الأولى من حياة هذا الطفل إلى النتائج الآتية:

وجد يورغن بارتش نفسه منذ يوم ولادتـه، في 6 تشريـن الثـاني مـن عـام 1946 في وسـط موبوء **pathogène**. سرعان ما فُصل عن أمه المصابة بمرض السلّ فور ولادته، ثم توفّيـت الأمّ بعد أسابيع قليلة في غياب أمٍّ بديلة تهتمّ بهذا الرضـيع. في مشـفى فوشـنر في مدينـة آخن، عثرتُ على آني التي ما تزال اليـوم عـلى رأس عملهـا، وتتـذكّر يـورغن جيـداً بقولهـا: «كان نادراً جداً الاحتفاظ بالأطفال لأكثر من شهرين في المشفى، لكن يورغن بقـي عنـدنا أحد عشر شهراً». لقد علّمنا علم النفس الحديث أن السنوات الأولى تعدّ الأهـمّ في حيـاة الفرد. فحرارة الأمومة والاحتكاك البشري لهما قيمة لا نظير لها في التطور اللاحق للطفل.

لكن في حضانة المشفى بـدأ الوضـع الاقتصـادي والاجتماعـي للأهـل السـاعين إلى التبنّـي يتحكم بحياة الطفل. دعونا نستمع إلى ما أضافته هذه الممرضة: «دفعت السيدة بـارتش خصيصاً لإبقاء الطفل هنا. قرّرت مع زوجها أن تتبنّاه، لكن المسؤولين كـانوا مـتردّدين لأن ظلاً من الشكوك كان ينتابهم حول أصول الطفل؛ إذ كانت أمه أيضاً طفلاً طبيعياً تكفّلت بها الإدارة العامة للمشفى. أما الأب فم يكن أحدٌ يعرف عنه شيئاً. وقد جـرت العـادة أن يرسل الأطفال اليتامى بعد فترة معينة إلى مؤسسة أخرى، لكن السـيدة بـارتش لم توافـق على ذلك. كانت المؤسسة الأخرى تضمّ أطفالاً من أصول مختلفة بل أهاليَ انطـوائيين. مـا أزال أتذكر تلك النظرات البرّاقة التـي كانـت تنبعـث مـن عينـي ذلـك الطفـل. فقـد بـدأ بالابتسام باكراً، ويتابع الآخرين بنظراته، ويرفع رأسه، وهي أمورٌ تعلّمهـا في وقـت مبكـر جداً. ذات يوم اكتشف أنه قادرٌ عـلى إحضـار الممرضـة بكبسـة زرّ، فسرّه هـذا كثـيراً. ولم يكن يشكو من صعوبات تتعلق بالطعام. كان طفلاً طبيعياً تماماً، متفتحاً ومحبوباً».

من جانب آخر، وقعت تطورات مرضية مبكرة. فكان على الممرضات وضع مناهج استثنائية لأن طفلاً كهذا في عمرٍ متقدّم يعدّ استثناءً في حدّ ذاته. دهشت كثيراً حينما علمت أن الممرضات نجحن في جعل الطفل «نظيفاً» قبل بلوغ شهره الحادي عشر، فاستغربت الممرضة آني سبب دهشتي. «ينبغي ألا ننسى ما كان عليه الحال في تلك الفترة، أي بعد عام بالضبط على نهاية الحرب التي خسرناها، حيث لم يكن لدينا أي فريق». وكانت تردّ بفارغ الصبر على أسئلتي لمعرفة كيف نجحت مع زميلاتها في تحقيق هذه النتائج. «لأننا بكلّ بساطة أحسنّا التصرف. بدأنا في الشهر السادس أو السابع، فكان عندنا أطفال المشفى يمشون في شهرهم الحادي عشر، وكانوا أيضاً «نظيفين». لا يمكننا أن ننتظر مناهج تربوية تقدمية من ممرضة ألمانية من ذاك الجيل، حتى وإن كانت تتمتع بمثل لطف هذه الممرضة[...].

بعد أحد عشر شهراً، وصل الطفل بعد أن حمل اسم يورغن إلى بيت والديه بعد تبنّيه، أي عائلة بارتش. كل من عرف السيدة بارتش يقول إنها سيدة «مهووسة بالنظافة». بعد فترة وجيزة على خروج الطفل من المشفى تراجعت حالته مقارنة بحالته غير الطبيعية المبكرة، فعاد وسخاً، مما أثار قرف السيدة بارتش منه.

رأى أصدقاء عائلة بارتش ومعارفها أن الرضيع كان يحمل دائماً آثار جروح. وكانت السيدة بارتش تجد دائماً تفسيراً غير مقنع لهذه الكدمات. وقد عبّر الأب غيرهارد بارتش خلال هذه الفترة لأحد أصدقائه عن استيائه من زوجته وأنه يفكر بالطلاق: «إنها تضربه بطريقة لم أعد قادراً على احتمالها». ومرة أخرى أراد السيد بارتش الاعتذار من صديقه للإسراع في العودة إلى البيت قائلاً: «عليّ أن أعود إلى البيت وإلا قتلتني بكثرة ضربها له». (مور، 1972، ص. 80 وما يليها).

بطبيعة الحال لم يكن يورغن قادراً في تلك الفترة على الحديث، لكن الآلام العديدة التي يتذكرها ليست من دون علاقة بهذه الضربات: «كنت صغيراً جداً، وأرتعد خوفاً مما يثيره والدي من ضجيج، كما لاحظت شيئاً في تلك الفترة لم ألاحظه من قبل هو أني لم أكن أراه مبتسماً على الإطلاق».

«لِمَ هذا الخوف الذي تحدثتُ عنه والذي لم يكن الأطفال الآخرون يقرّون به؟ لا أقول إني كنتُ كبش فداء تلامذة الصف! وما قاسيته منهم! هل أدافع عن نفسي؟ حاول أن

تدافع عن نفسك قليلاً حينما تكون الأصغر في الصف! كنت أخاف كثيراً من عـدم القـدرة على الغناء أو ممارسة الرياضة في المدرسة! الأسباب؟ أولاً، الأطفال الذين لا نـراهم خـارج ساعات الدرس غير معروفين، تبعاً للقول السائر: «يظنّون أنهم أفضل منـك!» وأن الطفـل المعنيّ لا يتمكن أو لا يريد الانضمام إليهم، الأمر سيّان بالنسبة للآخرين. أنا لم أكن قـادراً على ذلك. كنتُ أقضي بعض فترات بعـد الظهـر عنـد أسـتاذي السـيد هـونيماير، وأحيانـاً أخرى في ويردن عند جـدّتي حيـث كنـت أنـام في مخـزن الغـلال، أمـا فـترات بعـد الظهـر الأخرى فكنت أقضيها في المخزن في كاتنبرغ. النتيجة: حيـثما كنـت سـواء في بيتـي أم لا لا أجد حولي رفاقاً أو أصدقاء لأننا لا نعرف أحداً. هذه هي الأسباب الرئيسية؛ لكن يمكن أن أضيف إليها شيئاً: حتـى دخـول المدرسـة، كنـت أبقـى دائمـاً تقريبـاً محبوسـاً في السـجن العتيق بنوافذه الشبكية ونوره الاصطناعي طيلة النهار. حيطان بعلوّ ثلاثـة أمتـار، لا شيء يتحرك. والخروج ممنوع إلا إذا كنت ممسـكاً بيـد جـدتي. كـما مُنعـت مـن اللعـب مـع الأطفال الآخرين لسنوات، حتى لا تتسخ ملابسي، ويقولون دائماً: «هـذا الطفـل أو ذاك لا يناسبك!»، ومن ثم أبقى خاضعاً في البيت، وهنا يتضايقون مني، فيقـذفون بي مـن زاويـة إلى أخرى، وأتلقّى ضربات لا أسـتحقّها، بيـنما لا أتلقّاهـا إذا كانـت محقّـة. بابـا ومامـا لا يملكان الوقت. أخاف أبي لأنه سرعان ما يبدأ بالصراخ، وأصبحت أمـي هيسـتيرية في تلـك الفترة. الأهم من هذا: عدم احتكاكي بأناس من عمري، لأنه أمر ممنوع كـما قلـت! كيـف لي أن أندمج إذاً وأطرد الهلع مما قد يحدث معي أثناء اللعب؟ بعد سـتّ سـنوات. تـأخر الوقت». (ص. 56، وما بعدها.)

سيكون لهذا الحجز دوراً هاماً في فترة لاحقة، حينما راح المراهق يقود الصغار إلى ملجأ أرضي ليقتلهم هناك. ولغياب من يقف إلى جانبه ويفهم آلام طفولته، لم يتمكن من ممارستها، فاضـطرّ إلى كبتها و«إخفاء كلّ شيء فيها».

«لم أكن جباناً قطّ. كان يمكن أن أكون كذلك لو تركتُ ألمي يظهر أمام عيني أيٍّ كان. ربمـا كان ذلك خطأً، لكن هـذا مـا كنـت أعتقـده عـلى أي حـال؛ عليـك أن تعـرف أن للطفـل كبرياءه. لا، لم أكن أبكي حين أتلقّى الضربات، لأني كنت أرى في البكاء جبناً؛ كنـتُ شـجاعاً في هذا الأمر على الأقل: لم أُظهرْ شيئاً. لكن في الحقيقة، وجدّياً، إلى من كنـتُ سـألجأ؟ إلى والديَّ، فعلى الـرغم مـن محبتـي لهـما، كـان عـليّ أن أدرك بهلـع أنـه في هـذا المجـال...،

أبداً، أبداً... لأنهما لن يبديا إزائي أيّ ذرّة من التفهّم؛ قلتُ إنهما كانا عاجزين عن القيام بذلك، ولم أكتفِ بالقول إنهما لم يفعلا هذا، آمل أن ترى في هذا علامة على تسامحي! وهناك أمرٌ آخر لا أعدّه ملامة بل مجرد حقيقة: كانت قناعتي راسخة، بل اختبرت هذا على جسدي، بأن والديّ لم يعرفا قطّ كيف يتعاملان مع الأطفال». (ص. 59)

لم يوجه يورغن أيّ لومٍ إلى والديه إلا بعد أن أودع السجن:

«ما كان عليكما أن تمنعاني عن الأطفال الآخرين كما فعلتما، لأنكما بهذا جعلتماني في المدرسة تعيساً جباناً؛ وما كان عليكما أن تبعثا بي إلى أولئك الساديين المتلفعين بالقفطان؛ وما كان عليكم إعادتي إلى القسم الداخلي يوم هربت منه بعد أن اغتصبني رؤسائي، لكنكما طبعاً لم تكونا تعرفان هذا. ما كان على أمي أن ترمي في المدفأة كتاب التربية الجنسية الذي قدّمته لي العمة مارتا لمّا بلغت الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمري. لماذا، خلال عشرين عاماً لم تشاركاني لعبة واحدة فقط؟ ربما لأن هذا ما كان يفعله آباء وأمهات آخرون. كنتُ بالنسبة لكما ولداً مرغوباً على الأقل، حتى لو لم أدرك هذا طيلة عشرين عاماً، لقد أدركت هذا اليوم، لكن هيهات، الوقت تأخر كثيراً!».

«حينما كانت أمي تدفع الستارة نحو اليمين وتعود كالتنّين من الدكّان لتكنس كل شيء في طريقها، ولو كنت هناك لتلقّيت صفعتين على وجهي، فقط لأني موجود في طريقها، وفي أغلب الأحيان يكون هذا هو السبب الوحيد والأوحد. بعد دقائق، أصبحُ الولد الصغير اللطيف الذي ينبغي احتضانه ومعانقته. عندئذٍ، كانت تدهش أمام ممانعتي وخوفي منها. كنتُ صغيراً جداً عندما كنتُ أخاف هذه المرأة، كما كنت تماماً أخاف أبي، لكني كنتُ أراه على الأقل. سؤالي له اليوم: كيف كان يحتمل هذا كله؟ أحياناً كان يعمل من الساعة الرابعة صباحاً حتى العاشرة أو الحادية عشرة مساء، بلا توقف، ليُحضر اللحوم الباردة في أغلب الأحيان. لم أكن أراه طيلة النهار، وإن شاءت المصادفة أن أراه أو أسمعه يكون عندها كالإعصار وهو يصرخ. كنتُ صغيراً جداً، فأتغوّط في حفاظتي، كان هو من يهتمّ بي. وقد روى لي هذا بنفسه: «أنا من كان يغسل حفّاظاتك ويغيّرها؛ زوجتي لم تفعل هذا أبداً، لأنها لم تكن قادرة عليه، ولم تتمكن منه قطّ». لم أرغب في التقليل من شأن أمي. أحبُّ أمي، أحبها كثيراً، لكني لست على يقين بأنها قادرة على فهم الشيء الكثير. لا شكّ أن هذا أمرٌ مثير للدهشة، وإلا لما فعلت بي كل ما

فعلته. أحياناً تكسر حمّالة المعطف فوق ظهري، حينما لا أجيد كتابة واجباتي المدرسية مثلاً أو لا أنجزها بالسرعة الكافية. أما الحمّام فهو طقسٌ ثابت، وكانت أمي دائماً تحمّمني. لم تتوقف عن هذا ولم أرفضه قطّ علماً بأني كنت في بعض الأحيان لو أقول: «يا إلهي، الآن...» لكني لم أكن أعرف، ربما اعتبرتُ ذلك أمراً طبيعياً. في كل الأحوال، ما كان لأبي أن يدخل هناك، وإلا صرختُ.

لم يتوقف هذا حتى التاسعة عشرة من عمري: صرت أغسل قدمي ويدي بنفسي، وأمي تتكفّل برأسي، ورقبتي وظهري. كان لهذا كله أن يبدو عادياً، لولا أنها كانت تنزل يديها إلى أسفل بطني، وفوق الفخذين، وتغسل كل شيء عملياً من الأعلى إلى الأسفل. وكانت تجيد هذا أفضل مني بكثير. وغالباً لا أقوم بأيّ شيء على الإطلاق، بينما كانت تقول: «اغسل قدميك ويديك!». لم يقل أبي أو أمي أبداً أن أنظف ما تحت القلفة؛ وحينما أغسل نفسي لا تعود أمي تهتم بها.

هل كنت أرى أن هذا كلّه غريب؟ إنه شعور تحسّ به يتنامى فيك بشكل دوري لثوانٍ أو دقائق، وعلى وشك أن يخترقك، لكنه لا يبلغ السطح أبداً. لقد شعرت به جيداً لكن ليس مباشرة، هذا إذا كان للمرء الشعور بشيء بشكل غير مباشر.

لا أريد أن أتذكر أنني كنت رقيقاً مع أمي، أو أني احتضنتها بين ذراعي، أو حاولت أن أكون أنيساً معها. أتذكّر بشكل مشوش، حينما أتفرّج على التلفزيون، أو أكون في السرير بين أمي وأبي، أتذكر أنها أمسكتني بحنان على هذا النحو، لكني أعتقد أن هذا لم يحدث أكثر من مرتين خلال أربعة أعوام، زد على هذا أني كنت بالأحرى أقاوم ذلك. لم تكن أمي أبداً سعيدة جداً بهذا أبداً، لكني كنت دائماً أشعر بنوع من الرعب إزاءها. لا أدري كيف يمكن تسمية هذا، ربما سخرية القدر، أو شيئاً آخر أكثر حزناً. وأنا صغير جدّاً حينما كنت أحلم بأمي أرى إنها كانت تبيعني، أو تنقضّ عليّ وبيدها سكين. لسوء الحظ أن الحالة الثانية تكرّرت فعلياً بعد ذلك.

ذات يوم ثلاثاء على ما أعتقد من عام 1964 أو 1965، لأن أمي كانت تذهب إلى المحل الواقع في كاترنبرغ يوم الثلاثاء أو يوم الخميس، كنا خلال استراحة فترة الظهر، كنا نغيّر مكان قطع اللحم وننظف الطاولات. نظفت أمي نصفها وأنا النصف الآخر. قلت إنني انتهيت من التنظيف، لكنها كانت متعكرة المزاج فأجابتني: «إنك أبعد ما تكون عن

النهاية!»، «لا!»، استأنفت قولها «انظر إلى المرايا من فضلك، عليك أن تعيد تنظيفها كلها»، فقلت «لن أفعل هذا ثانية، لأنها نظيفة ولا غبار عليها. كانت في آخر المحل قريبة من المرآة، وأنا على بعد ثلاثة أمتار أو أربعة منها. مالت نحو الدلو، وتساءلت عمّا يحدث. أخرجت منه سكّينة جميلة، وطويلة وقذفت بها نحوي تقريباً عند مستوى الكتفين. لم أعد أعرف ما إن كانت قد اصطدمت بالميزان، أو بمكان آخر، لكنها على كلّ حال وقعت فوق قطعة خشب. لو لم أتحاشَها في اللحظة الأخيرة لكانت أصابتني. كنت جامداً كقطعة خشب. لم أعد أعرف ما أصابني على الإطلاق. جرى كل شيء بطريقة لا يصدّقها العقل. بعد ذلك، أسرعت نحوي، وبصقت في وجهي وبدأت بالصراخ قائلة بأني خرا. ثم أضافت بعد قليل: «سأنادي السيد بيتر - مدير دائرة الخدمات العامة في مدينة آخن - ليعيدك إلى حيث أتيت، لأن هناك مكانك!». ركضتُ في المطبخ حيث كانت توجد البائعة، السيدة أوشسكوب، وهي بصدد تنظيف أطباق الغداء. وقفتُ مسمّراً أمام الخزانة، وتشبّثتُ بها قائلاً: «لقد رمتني بسكّين.» فأجابتني: «أنت مجنون، يبدو أنك جننت!». نزلت الدرج مسرعاً، وجلست هناك مختبئاً أنحب في إحدى المقصورات. وحينما صعدت مرة ثانية، كانت أمي تذرع المطبخ جيئة وذهاباً، بعد أن فتحت دليل الهاتف باحثةً عن رقم هاتف السيد بيتر. توقفت عن مخاطبتي لفترة. ربما ظنّت بأني شخص سيّئ، يترك نفسه ليُرمى بسكّين ويكتفي بتحاشيه، لا أعرف.

«أودّ لو تستمع إلى أبي! فلديه صوت عجيب تماماً، صوت مساعد أول حقيقي، صوت قائد ميكانيكي، صوت عسكري. أشياء كثيرة تثيره - زوجته أو أيّ شيء آخر لا يروق له. في بعض الأحيان كان يتخذ صوته شكل زعقات مرعبة، لكني على يقين بأنه لم يكن يشعر بها على هذا النحو أبداً، لا يمكنه إلا أن يتصرف على هذا النحو. حينما كنتُ صغيراً، كان هذا الأمر يبعث الرعب في نفسي. لديّ كمٌّ كبير مثل هذه الذكريات.

وكان دائماً يعطي أوامر مساعد عسكري وملامات يوزّعها. مشكلته أنه غير قادر على ضبطها، وهو ما سبق لي قوله. لكن في ذهنه شيء، وهذا مؤكد، ومن ثم فلا يمكن لومه على ما يفعل.

خلال المحاكمة الأولى، سأل رئيس المحكمة أبي: «سيد بارتش، كيف يمكن أن يكون في ميرينهاوسن هذا الكمّ من العقوبات الجسدية، مما يدلّ على أن مثل هذه

القسوة كانت متفشّية فيها؟»، فأجاب أبي حرفياً: «لكنها لم تقتله في نهاية الأمر». وهو جواب واضح.

عملياً، لم يكن يتسنّى لي خلال النهار أيّ احتكاك بيني وبين والديَّ. طبعاً كانت أمي تمر أمامي كالصاروخ من وقت إلى آخر، لكن لم يكن ممكناً أبداً للطفل أن يكلّمها. بل لم أكن أجرؤ على فتح فمي، لشعوري بأني مزعج في كلّ شيء، والغريب أن أمي لم تكن تعرف شيئاً عما يسمّونه صبراً. في أغلب الأحيان كنتُ أتلقّى ضربات لمجرّد أني أريد أن أطرح سؤالاً، أو أطلب شيئاً، لأني سأكون مزعجاً لو فعلتُ شيئاً من هذا القبيل.

لم أتمكن من فهم ما يدور في نفسها على الإطلاق. أعرف أنها تحبني، وما تزال تحبني كثيراً، لكن يجب أن يشعر الطفل بهذا الحب. مثلاً (لكنه ليس استثناء بتاتاً لأني طالما عشت أشياء من هذا النوع) لم تكن أمي ترى في احتضاني بين ذراعيها لتعانقني أمراً غير طبيعي، وبعد دقيقة، حينما ترى أنني نسيت خلع حذائي تتناول حمّالة المعطف من الخزانة لتحطّمها فوق ظهري. لم أتمكن من نسيان طريقتها هذه في التعامل معي ولن أتمكّن من نسيانها، لأني أمام أمر أقوى مني. لن يتوانى البعض عن القول بأني أفتقر إلى الشعور بالامتنان، وهو غير صحيح تماماً، لأن هذا ليس أكثر أو أقلّ من انطباع أعيشه، وأختبره، ولا بد للحقيقة أن تكون أهمّ من الأكاذيب المفيدة.

في البداية، لم يكن على والديَّ أن يتزوجا أحدهما من الآخر. حينما يفتقر شخصان إلى المشاعر اللازمة لتأسيس عائلة، فلا يمكن لنتائجه إلّا أن تكون كارثية. كلمة السر كانت دائماً هي نفسها: «اسكت، لأنك الأصغر، وليس لديك شيء تقوله أصلاً؛ وبوصفك طفلاً لا يحقّ لك الكلام إذا لم يُسمح لك بهذا.»

«أعيش في البيت أشدّ أوقاتي حزناً؛ كلّ ما فيه يقوم على رعاية صحية مثالية، بحيث ينتابك الانطباع بأن عليك أن تمشي على رؤوس أصابعك، لأن البيت بالغ النظافة، لا سيّما عشية عيد الميلاد. حينما أنزل إلى غرفة الطعام أرى هدايا كثيرة بانتظاري، وهذا جميل جداً. في ذاك المساء على الأقل تتحكم أمي بمزاجها وتجامل قدر استطاعتها، بحيث يقال، ربما تنسى (المقصود أنا في هذه الحالة) خساستك هذا المساء، لكن ثمّة ما يشبه الكهرباء في الهواء الذي من شأنه أن يحوّل الأمور إلى السوء؛ آه لو كنا قادرين على

ترديد أحد أناشيد الميلاد، فتقول أمي: «أنشد إذاً أحد أناشيد الميلاد!»، فأجيب: «لا، لا، لا أعرف، ثم إني أكبر من أن أقوم بهذا!»، لكني، في حقيقة الأمر كنت أظن: «قاتل أطفال ينشد أغاني الميلاد، أليس في هذا ما يثير الجنون؟!». أفتح علب الهدايا وأفرح لها، أو أتصنّع الفرح في كل الأحوال. تقوم أمي بفتح هداياها أيضاً، وهداياي وهي فعلاً سعيدة. خلال هذا، يكون العشاء جاهزاً وهو عبارة عن دجاجة بالمرق، يصل أبي مع وصول الدجاجة، أي بعد ساعتين من وصولي، لأنه يبقى في عمله حتى هذه الساعة. يلقي بجهاز ما خاصّ بالمطبخ عند قدمي أمي، فتدمع عيناها من شدّة التأثر، ثم يتمتم بكلمات يبدو أنها تعني «عيد ميلاد سعيد!»، ثم يجلس إلى الطاولة. «ما بكم، ألا تأتون؟!» نبدأ بتناول الحساء بصمت، وحتى من دون أن نلمس الدجاجة.

خلال هذه الفترة كلّها، لا نتبادل أي كلمة بيننا. لا تسمع سوى صوت المذياع الصادر بهدوء، كما هو حالنا طيلة النهار. «في مثل هذا الوقت يحمل إلينا الأمل بالاستقرار قوة وعزاء...». ينتهي العشاء. يجلس والدي ويشرع بالزعيق بكل ما أوتي من قوة: «حسناً ماذا نفعل الآن؟» فيأتي الردّ غالباً من أقوانا. تجيب أمي: «لا شيء» ثم تتجه إلى المطبخ باكية؛ فأقول لنفسي: «ترى، من يعاقبني، أهو القدر أم الله؟!»، لكني أدرك مباشرة أنه ليس هذا أو ذاك، فأتذكّر مشهداً قصيراً رأيته على التلفزيون:

«أهو الشيء نفسه الذي عشناه السنة الماضية، يا سيدتي؟!».

«إنه الشيء نفسه الذي نعيشه كلّ عام، يا جيمس».

أسأل نفسي بخجل: «ألا تريد أن ترى ما قدّمناه لك؟»، «لا»، إنه جالس هناك يحدّق في غطاء الطاولة بنظرة جوفاء. لم تبلغ الساعة الثامنة بعد، ولا يعود لي ثمة ما أفعله في الأسفل؛ فأتوارى عن الأنظار وأعود إلى غرفتي وأسأل نفسي جدياً: «هل ترمي بنفسك من النافذة أم لا؟ لماذا عليّ أن أعيش في هذا الجحيم هنا؟ لماذا ليس من الأفضل أن أكون ميتاً على أن أعيش أمراً كهذا؟ هل لأني مجرم؟ لا يمكن أن يكون هذا هو السبب الحقيقي، لأن الأمر ليس مختلفاً هذه السنة عما كان عليه في السنوات السابقة. طالما كان هذا اليوم أسوأ الأيام، لا سيما خلال السنوات الأخيرة حيث كنتُ أبقى دائماً في البيت. يأتي يوم، تتراكم فيه الأشياء، كلّها فعلاً.

والدي طبعاً (ووالدتي أيضاً بطبيعة الحال) جزء من الناس المقتنعين بأن لدى التربية التي يطبّقها النازيون أجوبة جيدة أيضاً. أكاد أرغب في القول «أكيد»، بعد أن سمعت أبي يقول ذات يوم (خلال حواراته لجماعة من جيله، ويؤمنون جميعاً بهذا»، «هناك انضباط على الأقل، ونظام، ولم تساورهم الأفكار السيئة حينما يجبرونهم على أداء واجباتهم» وأشياء من هذا القبيل. أعتقد أن على غالبية الشباب من عمري ألا يتحدثوا في موضوع الرايخ الثالث لأن عليهم جميعاً عندئذٍ تعلّم أشياء لا يرغبون في تعلّمها.

أنا على يقين من أن قصة السكين في المطبخ جرت بعد الجريمة الثالثة، لكن حدثت أشياء مماثلة (دائماً مع أمي طبعاً) لم تكن رهيبة كهذه. فكل ستة أشهر تقريباً، حتى قبل ارتكابي الجريمة الأولى، كان يحدث ذلك حينما تضربني. يثور غضبها إذا تحاشيت الضربات، لأنه كان عليّ أن أبقى لا مبالياً أثناء ضربها لي. في السادسة عشرة والنصف من العمر، في التاسعة عشرة، حينما كانت تريد ضربي بشيء تمسكه بيدها آخذه منها فقط، وهو الطامّة الكبرى بالنسبة لها. كانت ترى في هذا تمرّداً بينما هو في الحقيقة دفاع اضطراري عن النفس، لأنها لم تكن ضعيفة. وفي هذه الأثناء لم أكن أخاف من أن أصاب بجرح. وهو أمر يمكن ملاحظته.

كان ذلك يحدث دائماً لمخالفتي التعليمات («لا أحد يدخل الغرفة بعد أن نظفتها»)، أو لأني أجبت. (مور، 1972، ص 63-79).

تركت الكلام ليورغن بارتش لفترة من دون مقاطعته لأضع القارئ بما يمكن أن يكون عليه جو جلسة التحليل النفسي، حيث نجلس ونصغي إلى ما يقوله المريض من دون السعي إلى تعليمه نقترح عليه أيّ نظرية، فنلاحظ أنه ينفتح أمامنا في الوسط العائلي المحمي جحيمٌ حقيقي، لا يمكن للوالدين أو حتى المريض نفسه أن يعرف بوجوده حتى تلك اللحظة.

هل يسعنا القول إنه كان بإمكان والديّ يورغن بارتش أن يكونا أفضل مما كانا عليه لو عرفا أن السلوك اللاحق الذي سار عليه طفلهما سيكشف سلوكهما الشخصي أمام الرأي العام؟ ربما، لكن يمكن الظن أيضاً أنه ما كان بوسعهما معالجة الأمر بطريقة مختلفة، بسبب تكرار ما يفعلانه بشكل غير واعٍ **compulsions inconscientes**. لكن، من المحتمل، لو كانا عارفين، لما أخرجاه من المدرسة الداخلية المناسبة لوضعه في مارينهاوزن، ولما أجبراه على العودة إلى البيت بعد أن هرب منه. ما يرويه يورغن بارتش بخصوص مارينهاوزن في رسائله

إلى بول مور، وما أظهرته شهادات الشهود خلال المحاكمة، يبين أن «التربية السوداء» ما تزال مهيمنة حتى وقتنا الحالي، كما تشير الاستشهادات الآتية:

«من خلال المقارنة، أو حتى بمعزل عن بابو **PaPu**، نرى أن مارينهاوزن جحيماً؛ جحيم كاثوليكي، لكنها لم تحلّ الأمور. أتذكر فقط الضرب الذي له يكن يتوقف عن توجيهه هؤلاء الرجال المعمّمون، سواء خلال ساعات التدريس، أو أثناء الكورال أو حتى في الكنيسة من دون أن يشكّل ذلك حرجاً لهم. تميّزت العقوبات بساديّتها (الوقوف بالبيجاما بشكل دائري في الباحة حتى ينهار أحدنا)؛ وتحت الحر الشديد في الحقول، في وقت يُمنع عمل الأطفال (خلط القش، جمع البطاطا، والشوندر، وضربات العصي التي تنهال على أكثرنا بطئاً)، والإدانة القاسية (اللازمة للتطور!)، و«الفواحش» المريعة التي ترتكب بحقّ الصغار، و«الصمت» المطبق غير الطبيعي ونحن جلوس إلى الطاولة بدءاً بساعة معينة، الخ، والملاحظات المثيرة للاضطراب، وغير الطبيعية التي توجّه إلى الأطفال: «أول من ينظر إلى إحدى عاملات المطبخ يُضرب». (ص. 105)

ذات يوم صفعني الشمّاس هاماشر في المهجع (لأني تكلمت في وقت كان ينبغي أن يكون الصمت مطبقاً) صفعةً جعلتني أتدحرج فوق بعض الأسرّة البعيدة. وقبل هذا بقليل، قام الأب المكلف بتدريس الإنجيل بكسر مسطرة ضخمة فوق مؤخرتي، وأراد جادّاً أن أعوّض ثمنها.

ذات مرة، كنت في الصف الأول وأصبت بالزكام، فرافقني مدرس الإنجيل إلى قسم التمريض؛ لأنه لم يكن يعلّم الدين فقط بل ممرضاً أيضاً. كان صبيّ يقف إلى جانبي يشكو من حمّى شديدة. دخل فدخل هذا المدرس، ووضع مقياس الحرارة في مكان ما، وخرج ثم عاد بعد بضع دقائق؛ ثم عاد لتناول مقياس الحرارة؛ ونظر إليه وراح يضرب الطفل بعنف شديد، فتلوّى في كلّ اتجاه على الرغم من الحمّى الرهيبة التي كان يعانيها. لا أدري حتى إن كان يشعر بها أصلاً. على كلّ حال، زعق المدرس قائلاً: «لقد وضع مقياس الحرارة فوق الشوفاج». - نسي أننا لسنا في فصل الشتاء وأن الشوفاج لا يعمل. (ص. 106)

يجب على الطفل أن يتعلّم احتمال الحماقات، وتقلّبات مزاج معلميه، من دون أن يرفّ له جفن، أو يبدي أيّ شعور بالغضب، وأن يتمكن في الوقت نفسه من استبعاد الحاجة إلى

القرب الجسدي والعاطفي ممن يستطيع تخفيف هذا العبء عنه وكبتها. الحقيقة أن ما يُطلب من الأطفال قدرة تفوق ما يمكن حتى للبالغين تقديمه.

في البداية، قال **PaPu**: «ماذا لو أمسكنا باثنين معاً؟!»، وحينما تحقّق هذا، بدأت موجة الضربات المعتادة، لكنها كانت من دون شك أسوأ من المعتادة، وهو ليس بالشيء القليل. في اليوم التالي، يقع الطرد بطبيعة الحال. يا إلهي، كان خوفنا من الطرد أقل من خوفنا من الضربات. ثم تبدأ الأحاديث المعتادة حول هذا الموضوع، فكيف يمكن الاعتراف بأولاد من هذا النوع، الخ... من نوع، أن الولد ذي اليدين الرطبتين شاذّ جنسياً، ومن يقوم بمثل هذه الفواحش يعدّ مجرماً. عملياً كان يقال لنا هذا بهذه النبرة، يقال لنا إن هذه القذارات الإجرامية تنشأ بعد القتل - بل بالتحديد على النحو الآتي: كان بابو يتحدث عنها كل يوم تقريباً، ولا بد أن مثل هذه الغوايات كانت تنتابه أيضاً، «النسغ يصعد»... وهي عبارة طالما رأيتها مرعبة... لكنه لم يخضع أبداً للشيطان، وكان فخوراً بهذا. كنا نسمع هذا عملياً كل يوم، ليس خلال الدروس خلال الاستراحة.

في الصباح ننهض عند الساعة السادسة أو السادسة والنصف، حيث يخيّم صمت مطلق. بعد ذلك ينبغي أن نجهّز أنفسنا بصمت، ووفق صفّ مزدوج بهدوء، وننزل السلم نحو المعبد لإقامة القداس. نخرج من القدّاس، بصمت أيضاً، وبصفّ مزدوج (ص.108).

الاحتكاكات الشخصية والصداقات في حدّ ذاتها ممنوعة؛ كما يمنع على التلميذ غالباً اللعب مع أحد رفاقه. لأنهم كانوا يعتبرون الصداقة مثيرة للريبة، لاعتقادهم أنه إذا اتخذ أحدنا صديقاً، فسيضع يده في فتحة بنطاله. خلف أقل نظرة يشكّون دائماً بوجود أمر جنسي. يمكن تلقين الأطفال بأشياء كثيرة من خلال الضرب بالعصا. فتبقى آثاره. وهو ما نلاحظه اليوم، لكن إذا سارت الأمور كما ينبغي، وإذا عرفنا أن هذا يجب أن يبقى، فإنه يبقى حتماً، وما أكثر الأشياء التي بقيت لدي حتى اليوم. (ص. 111)

حينما يريد بابو معرفة شيء معين، أي من قام بهذا الفعل أو ذاك، كان يدفعنا إلى الركض في الباحة من دون توقف، إلى أن يختنق الأوائل ومن ثم ينهارون.

غالباً (بل أكثر من غالباً) كان يتحدث في جميع التفاصيل، كإبادة اليهود إبان الجمهورية الثالثة [الرايخ الثالث]، كان يعرض علينا صوراً ضوئية، فينتابنا الانطباع بأنه يتحدث عنها من دون استياء (ص.118.)

خلال الكورال، كان بابو يحب أن يضرب أول من يصادفه بشكل عشوائي والزبد يتطاير من بين شفتيه. وغالباً ما يكسر العصا فوق ظهر من يضربه، وهنا أيضاً كان ينتابه غضبٌ غير مفهوم، والزبد بين زاويتي فمه.» (ص. 120.)

هذا الشخص نفسه، الذي طالما كان يحذّر من الممارسات الجنسية، ويكثر من التهديدات، سحب يورغن إلى سريره ذات يوم حيث الطفل المريض:

«أراد أن أعيد له مذياعه. كانت الأسرة متباعدة عن بعضها. نهضتُ على الرغم من الحمّى، وحملتُ إليه المذياع. فقال لي فجأة: «بما أنك أتيت إلى هنا، تعال إلى سريري».

لم أفهم قصده. بقينا ممدّدين جنباً إلى جنب لبعض الوقت، إلى أن شدّني إليه وزلق يده إلى مؤخرتي تحت البنطلون. كان الأمر جديداً في حدّ ذاته، لكن في الوقت نفسه لا شيء جديداً في أن يستلقي أحدنا إلى جانب الآخر. خلال اجتماعنا في ساحة الكنيسة، نسيت عدد المرات، ربما أربع مرات، وقد تكون سبعاً حينما نكون جالسين إلى جانب بعضنا، كان كالساهي يقوم بحركة معينة تمكّنه من لمس كلسوني. في ذلك اليوم، في السرير، زلق يده في بنطلوني و«داعبني». وفعل الشيء نفسه من الأمام ثم حاول استمنائي، لكن الأمر لم ينجح، بسبب الحمى.(ص. 120.)

لم أعد أذكر العبارة التي استخدمها، لكنه قال لي في كل الأحوال إنه سيحطّم فمي إن تكلمت. (ص. 122.)

يمكن تخيّل الصعوبة التي تعترض الطفل إذا أراد التخلص من مثل هذه الحالة من دون عونٍ خارجي. لكن يورغن تجرّأ على محاولة للهروب جعلته يشعر أن حالته ميئوسٌ منها وأنه وحيد تماماً في هذا العالم:

في مارينهاوزن، أي قبل هذه القصة مع بابو، لم أكن في الحقيقة أشتاق إلى البيت، لكن فجأة، وبعد أن قام والدي بإعادتي إليه، انتابني ضجرٌ مخيف. كنت في أغلب الأحيان أتواصل مع بابو، ولم أتخيل أني سأبقى فيه. وبعد رحيلي من مارينهاوزن، لم أتخيل أني

سأعود إليه مرة أخرى. من جانب آخر، كنت قد توقعت هذا تماماً: إن عدت إلى البيت الآن ستضرب ضرباً مبرحاً. لهذا كنتُ خائفاً. لم أعد قادراً على التقدم أو التراجع.

لجأت إلى غابة قريبة من البيت. بقيت فيها عملياً فترة بعد الظهر حتى المساء. فجأةً، رأيتُ أمي قادمة. لا شك أن أحدهم رآني. رأيتها خلف شجرة وهي تنادي: «يورغن، يورغن، أين أنت؟» عندئذٍ ذهبتُ معها؛ وطبعاً، سرعان ما بدأ التوبيخ والصراخ.

اتصل والداي مباشرة بمارينهاوزن. لم أقل لهما شيئاً. أمضيا أياماً في الاتصال بماريهاوزن، ثم قالا لي: «سيمنحونك مع ذلك فرصة جديدة! يمكنك العودة. رجوتُ وتوسّلت: كي لا أعود. لكن من يعرف والديّ، يدرك ألّا شيء يجدي معهما.

يورغن بارتش لا يتحدث عما تعنيه مارينهاوزن له فقط، إذ يتحدث أيضاً عما جرى لأحد رفاقه على سبيل المثال:

كان رفيقاً جيداً. سبقني في الدخول إلى مارينهاوزن. جاء من مدينة كولونيا. وكان الأصغر في صفنا؛ ولا يقبل أن يتكلم أحدٌ بسوء عن مدينته «كولونيا»، وكان هذا الأمر على ما أعتقد سبباً في شجاره مع الآخرين. وبما أنها لم تكن دائماً المعنية بالشتائم بسكانها، فهذا يعني أنه كان دائم الحنين إليها.

لا بدّ من القول إنه جاء إليها قبلي بمدّة طويلة. في جوقة الكنيسة، بما أنه الأصغر في جوقة الكنيسة، كان يجد نفسه حتماً في الصف الأول، ما يعني عملياً أنه كان يتلقّى في كل تدريب قسماً من الضربات فوق خاصرته أو فوق وجهه، بل والله أكثر مما يستحق، لأن الصف الأخير كان دائماً بمنأى عن الضرب نسبياً. لا أستطيع إحصاء عدد المرات التي تلقّى فيها الصفعات والركلات. لسنا معنيّين هنا بتمجيد الأبطال، وإلّا فلن يُغفر لنا هذا أبداً. لأنه لم يكن بطلاً، ولم يسعَ إلى أن يكون كذلك. حينما كان بابو أو مدرس الإنجيل بريانه تسمع صراخه يعلو على صراخ الآخرين، كتعبير قوي عن آلامه لدرجة تعتقد معها أن هذه الحيطان المقدسة والمقيتة على وشك الانهيار.

في عام 1960، كنا ذات مساء صيفي نخيّم في راث بالقرب من نيديغن، قرّر الأب بوتزليش (بابو **PaPu**) أننا على وشك فقدانه. لا شك أنها كانت لعبة، مسلية جداً. لكن هربرت لم يكن يعرف أي شيء لأن أحداً لم يحدّثه عنها. سحبناه إلى عمق الغابة،

وربطناه، وكمّمناه، ووضعناه في كيس نوم أبيض، ثم تركناه هناك حتى منتصف الليل؛ أما ما عاناه، فأمرٌ لا يمكنني وصف ما عاناه من آلام. بعد منتصف الليل، جاء دور السخرية منه والضحك. كانت لعبة، مسلّية جداً.

بعد عدة سنوات على مغادرته مارينهاوزن، ولم يكن قد بلغ سن البلوغ بعد، انتحر أثناء قيامه بنزهة في الغابة. لقد وُلد ليُضربَ ويُعذّب، ومن ثم «يموت» بعد ذلك. كان هربرت غرو أصغر تلاميذ صفنا، ورفيقاً جيداً. (ص. 126.)

مارينهاوزن ليست سوى مثال واحد من مؤسّسات أخرى:

في بداية سنوات 1970 حدث نوع من الفضيحة التي عرف الجمهور بها من خلال الصحافة والتلفزيون في مؤسسة دون-بوسكو-هايم الواقعة في مدينة كولونيا. إذ إن الممارسات التي كانت تجري في مارينهاوزن ولا تثير الاستغراب في تلك الفترة، دفعت اليوم دوائر الرعاية العامة إلى سحب جميع أطفالها الذين أودعتهم في مؤسسة دون- بوسكو- هايم، ربما لأنها لم تعد قادرة على الإبقاء عليهم فيها، بعد أقاويل عن أن المعلمين يدحرجون التلاميذ فوق السلالم ويضربونهم، ويدوسون رؤوسهم بأحذيتهم، ويغرقون رؤوسهم في المراحيض، وما إلى ذلك. إنها المزحات نفسها التي كانوا يمارسونها معنا في مارينهاوزن. الشيء نفسه تماماً يجري هنا حتى في مؤسسة دوم- بوسكو -هايم التي يديرها الآباء الساليزيون **Salésiens**. وذكرت التقارير أن أربعة من المعلمين كانوا يغتصبون الأطفال الذين يُعهد بهم إليهم باستمرار. والجدير ذكره أن الأب بوتزليش كان بالتحديد أحد المربّين العاملين في هذه المؤسسة من مدينة كولونيا بعد عام 1960.» (ص. 130)

في هذا الجحيم وجد يورغن بارتش شيئاً إيجابياً ما يزال يعترف بفضله: إذ للمرة الأولى لا يجد نفسه الضحية الوحيدة كما كان حاله في البيت أو المدرسة. فقد وجد تضامناً بين التلاميذ «ضد المعلّمين الساديّين»:

«كان الجانب الجيد بالغ الأهمية لي، فقد يساعدني على تحمّل الأسوأ. المهمّ أنني عشت أخيراً تجربة رائعة تتمثل في أني لم أعد مستبعداً. كان هناك تضامن رائع بين التلاميذ ضد «المعلّمين الساديّين». ذات يوم قرأت حكمة عربية تقول: «عدوّ صديقي عدوّي.» وددت

لو كنتَ تعرف هذا الشعور الرائع بالتضامن، هذا الاتحاد بيننا. لا شك أن الذكرى تُجمـلّ الأشياء، لكن لا أعتقد أني سأفعل هذا. فللمرّة الأولى لم أكن منبوذاً. وتعاهدنا على تقطيع جسد من يخون رفيقه إلى أشلاء، وهو أمرٌ مستبعَد كلّياً.» (ص. 131.)

يستمرّ قمع «الغرائز السيئة» بالعمل الطبي النفسي **psychiatrique** الذي يحاول مساعدته بعملية خصاء توقّي على أعقابها في عام 1977، لتقديره أنه لا يستطيع على غرائزه «العنيفة جداً»؛ الفكرة بغيضة تقريباً إذا تذكرنا أن يورغن كان نظيفاً وهو في الخامسة عشرة من عمره. لا بد أن موهبته المتميزة كانت وراء نجاح أهليته هذه، لا سيما في مشفى لا مُعين له فيه. في موضوع «سيطرة على الغرائز» فقد برهن بارتش بهذا عن قدرته على ذلك. لكن ههنا كانت تكمن المأساة؛ فلو لم يسيطر على نفسه جيداً لمدة طويلة، لما قرّر والداه تبنّيه، أو عهدا به إلى من كان أكثر قدرة على تفهّمه.

شكّلت مواهب يورغن عوناً له في البداية على التكيّف مع معطيات البيئة لكي يتمكن من الاستمرار في الحياة: الصبر على الاحتمال، قبوله وقبوله البقاء في القبو من دون تمرد وتحقيق نتائج جيدة في المدرسة رغماً عن هذا كلّه. لكن أمام انفجار حياته العاطفية في سن البلوغ، وآلياته الدفاعية لم تكن قد بلغت القوة الكافية بعد. وهذا بالتحديد ما نلاحظه في عالم المخدّرات. قد يغرينا القول تقريباً «لحسن الحظ»، لو لم تُفضِ تبعات هذا الانهيار في فترة لاحقة إلى المأساة:

«طبعاً، قلتُ لأمي أكثر من مرة: «انتظري حتى أبلغ الحادية والعشرين من عمري فقط! هذا أيضاً كنت أتجرأ على قوله. وبطبيعة الحال كانت أمي تجيبني: نعم، نعم، تخيّل هذا! أولاً غباؤك البالغ لن يسمح لك بالعيش عند أحد غيرنا. ثم، إذا أردت الرحيل فعلاً فستعود بعد يومين؛ وهو ما كنت أعتقده فعلاً، كما كانت تقول. أنا نفسي لم أفكر بقدرتي على العيش وحيداً في الخارج. وأعرف أيضاً أنني لن أغادر البيت عند بلوغي سن الحادية والعشرين. كان الأمر واضحاً كماء النبع، مع أني كنتُ بحاجة إلى التخلص من القليل من الضغط. لكن، لو فكّرت بهذا جدّياً، فمن الحماقة أن أفصح عن هذا. ما كان بوسعي أن أفعل هذا قطّ.

حينما بدأت بالعمل، لم أقل يومذاك «إنه يروق لي»، كما لم أقل: «هذا مخيف!». في الحقيقة، لم أفكر في الأمر كثيراً.» (ص.147.)

هكذا يُخنَق الأمل بالحياة المستقلّة في مهده. كيف نسمّي هذا إن لم يكن قتلاً للنفس؟ إنه نوع من القتل لم تُعِره دراسات علم الجريمة اهتمامها حتى اليوم على الإطلاق، بل لم تلمحه، لا سيما بعد تشريعه. هذا الفعل الأخير، من سلسلة أفعال طويلة هو الوحيد الذي ترى المحاكم أنه يستحقّ العقوبة؛ وغالباً ما يمثل بالتحديد ما يطلق عليه اسم ما قبل قبل تاريخ الجريمة، لكن من دون أن يكون الفاعل واعياً به.

الوصف الدقيق الذي قدّمه يورغن بارتش عن «أفعاله» إلى بول مور يوضح أنه لا علاقة لجوهر هذه الجرائم «بالغريزة الجنسية»، حتى لو كان يورغن بارتش نفسه مقتنعاً بالعكس واختار الخصاء لهذا السبب في نهاية المطاف. يمكن للتحليل أن يستخلص من هذه المسائل معلومة خاصة بالأصل النرجسي للانحراف الجنسي لم تستثمرها الدراسات التخصّصية بالقدر الكافي بعد.

يورغن بارتش نفسه لا يفهم فعلاً سبب انفصال غريزته الجنسية عما يحدث حوله لذلك تراه يكرّر السؤال. كان يستهويه بعض رفاقه ويحبهم، وودّ لو حظي بصداقتهم، لكن هذا كله مختلف تماماً عما كان يفعله مع الأطفال الصغار. كما كتب أنه لم يكن عملياً يمارس العادة السرية معهم. ما يبرزه هنا هو حالة الإذلال العميقة الناجمة عن التهديد، والقضاء على عزّة النفس، والاغتراب، والرعب الذي لحق بهذا الولد الصغير الذي كانه ذات يوم. كان يحسّ بتهيّج خاص حينما يغرق نظرته في عيني ضحيته الخائفة، والخاضعة، والمسلوبة الإرادة؛ كان يجد نفسه في هذا المشهد وهو يقوم في عزّ إثارته بتدمير أناه - هنا ليس بوصفه ضحيةً لا حول لها ولا قوة، بل جلاداً قوياً.

وبما أن كتاب بول مور مفقود اليوم، سأسوق هنا مقاطع طويلة من القصة التي رواها يورغن بارتش حول ما كان يقوم به من أفعال؛ فقد بدأت محاولاته الأولى مع أحد أولاد جيرانه الصغار أكسل.

> بعد عدّة أسابيع، حدث الشيء نفسه. قلتُ له: «رافِقني إلى الغابة!»، فقال: «لا، هناك ستعود إليك الحالة!». لكني اصطحبته واعداً إياه بأني لن أفعل أيّ شيء. لكني كرّرت ما فعلته. عرّيتُ الطفل بقوة، وفجأةً خطرت ببالي فكرة شيطانية؛ صحتُ عليه مرة أخرى: «بما أنك هنا، عليك أن تستلقي فوق ركبتيّ وإليتيك نحو الأعلى! يمكنك تحريك ساقيك إذا شعرتَ بألم، لكن لا تحرّك ذراعيك، أو بقية جسمك! سأضربك

ثلاث عشرة ضربة فوق مؤخرتك، تشتدّ قوّتها تدريجياً! إذا رفضت سأقتلك!»؛ كان تهديدي هذا فارغاً، أو على الأقل كنتُ أنا نفسي مقتنعاً بهذا!

اتفقنا؟

طبعاً-هل كان قادراً على القيام بشيء آخر؟ ما إن اتخذ الوضعية التي طلبتها في الاستلقاء فوق ركبتيّ حتى بدأت بتنفيذ ما قلت. ضربتُ وضربت، بمزيد من القوة، بينما كان الطفل يحرك ساقيه طالما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لكنه لم يعد يعترض على الباقي. لم أكتف بالضربات الثلاث عشرة، لكن حينما بدأت يدي تؤلمني كثيراً لم أعد قادراً على الضرب.

بعد ذلك، كرّرت الشيء نفسه: أفقت من أوهامي ينتابني شعورٌ بالمهانة إزاء نفسي، وإزاء شخص آخر، على الرغم من محبتنا الكبيرة له، اليأس من البكاء نوعاً ما. خلاصة القول، أكسل لم يكن يبكي، ولم يبكِ؛ ولم يظهر عليه أنه كان مرعوباً حتى تلك اللحظة؛ كلّ ما في الأمر أنه بقي صامتاً، صامتاً لفترة طويلة جداً.

طلبتُ منه أن يضربني؛ وكان بإمكانه أن يضربني حتى الموت، ولما دافعت عن نفسي لم يرد هذا. وفي النهاية، كنتُ أنا من بكى. وبينما كنت في طريقي إلى البيت، قلت له: «الآن، ربما لا تودّ أن يقال عني شيء؛ لكنه لم يُجب.

في اليوم التالي، وخلال فترة بعد الظهر، عاد لرؤيتي رغماً عن كل شيء. دخل، لكن بهدوء إذا شئت وبطريقة تنم عن خوف أكثر من المعتاد، مكتفياً بالقول: «أرجوك لا تفعل هذا معي بعد الآن أبداً! لم أصدّقه في البداية، لكنه لم يكن غاضباً مني! عدنا للعب معاً بعد ذلك غالباً إلى أن انتقل، لكن إذا كنت قد فهمت جيداً، فقد أخفت نفسي بنفسي كثيراً خلال هذه المرحلة الأخيرة التي تحدثتُ عنها، لكي أطمئن قليلاً. لحظة قصيرة، كما يقول الكتاب المقدّس.» (135.)

في أسوأ الأحوال، كل ما يمكن قوله هو أن انطباعاً طالما تكوّن لديّ، بعد فترة (بعد أن صرت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري) هو أني فقدت أيّ تأثير عليه، وعدم قدرتي على التصرف بشكل مختلف. صلّيت، ورجوت، واعتقدت أن هذا قد يفيد في شيء ما على الأقل، لكن هذا، لم يكن مفيداً لأيّ شيء.»

«كانوا جميعاً صغاراً جداً، بل أصغر مني بكثير. كانوا جميعاً خائفين جداً بحيث لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم على الإطلاق.»

«حتى عام 1962، كان الأمر يتوقف عند التعرية، والتلاعب، وهكذا دواليك. بعد ذلك، حينما كانت تحضر الحاجة إلى القتل، تترافق مباشرة بالحاجة إلى تقطيع الأوصال. في البداية لم أكن أفكر إلا بشفرات حلاقة الرأس، لكن بعد المرة الأولى بدأت بالتفكير في السكاكين، سكاكيننا.» (ص. 139.)

قد يكون التوقف على ما يأتي مجدياً ليكون ملاحظة إضافية:

«حينما أحبُّ أحداً لشخصه كحبّ الولد للفتاة، يكون الأمر أكبر بكثير في حال تشابهت الضحية مع التصور المثالي للشيء الذي أبحث عنه غريزياً. هذا لا يعني أن عليّ أن أبذل جهداً آنئذٍ لأمنع نفسي بطريقة أو بأخرى، لا، لا معنى له. هنا تختفي الغريزة آلياً.» (ص. 155)

الأمر مختلف تماماً حينما يتعلق بالأولاد الصغار:

«في اللحظة نفسها، وددت لو دافع الطفل عن نفسه، حتى لو شكّل عجز هؤلاء الأطفال عموماً مصدر جاذبية بالنسبة لي. لكني كنت صادقاً في قناعتي أن الولد الصغير عاجز عن مقاومتي.

أما فريس، فقد حاولت تقبيله، لكن الأمر لم يأتِ بناء على خطة مسبقة. دعونا نقُل إن الحالة هي التي فرضته. لا أدري كيف، انتابتني هذه الرغبة خلال لحظة. بدا لي عندها أن الأمر لن يكون بهذا القدر من السوء. الأمر كان بالنسبة لي جديداً تماماً. لم أقبّل فيكتور أو ديتلف قطّ. لو قلتُ اليوم إنه كان يرغب في أن يقبّله أحدهم، سيقال لي: «يا لك من قذر! هل تتخيل أن هناك من سيصدقك؟! - مع أن هذه هي الحقيقة. برأيي، يمكن تفسير هذا فقط في أن بدأت بضربه ضرباً مبرحاً قبل هذا. لو حاولت تصوّر ما كان يعني ذلك له، ووضع نفسي مكانه، لبدا لي أن ما كان يهمّه هو معرفة أين يكمن الأسوأ، وما الذي يؤلم أكثر. أعني أن عدم الممانعة في أن يقبّلني من يثير الرعب في نفسي فكرة أقل احتمالاً نسبياً من تلقّي الضربات التي يوجهها هذا الفرد نفسه من الخلف فوق خصيتي. حينما نفكر في هذا نجده مفهوماً. لكن في اللحظة نفسها كنتُ مندهشاً.

كان يقول: «المزيد، المزيد!»؛ لكني استمررت في نهاية المطاف. أظن أن الشيء الوحيد الذي كان يهمّه، هو أقل ما لا يمكن احتماله.» (ص.175.)

لا يمكن إلا أن تدهشنا رواية يورغن بارتش المفصّلة في أغلب الأحيان عما ألحقه بالأطفال من عذاب، وذكريات المشاهد التي كان هو نفسه فيها ضحية عاجزة، على الرغم من معرفته بالمشاعر التي يوقظها في نفوس الآخرين، لا يرويها إلا على مضض وباختصار يخلو من الدقة. ففي عامه الثامن تعرّض لمضايقات جنسية من ابن عمّه ذي الثلاث عشرة ربيعاً، وحينما بلغ الثالثة عشرة وجد نفسه في سرير واحد إلى جانب معلّمه ومراقبه؛ وهنا يبرز الفارق بين الواقع الذاتي والواقع الاجتماعي صارخاً بنحو خاص. في منظومة القيم التي يعيشها الولد الصغير يرى يورغن بارتش نفسه في مشهد القتل بوصفه الأقوى، ويعيش وعياً قوياً في ذاته، على الرغم من معرفته بأنه ملعون بنظر الجميع. بينما في المشاهد الأخرى، يظهر الألم المكبوت لدى الضحية المُهانة وهو يزداد ليثير فيه خجلاً لا يطاق. إنه أحد الأسباب التي تجعل كثيراً من الأشخاص لا يتذكرون أبداً ما تعرّضوا له من ضرب أثناء طفولتهم، أو يتذكرونه بمعزل عن المشاعر المرتبطة به، أي بطريقة «باردة **cool**» لامبالية تماماً.

إن روايتي هنا لقصة طفولة يورغن بارتش حسبما وردت على لسانه لا تهدف إلى «تبرئته» كما يأخذ القضاة على التحليل النفسي، أو لأتّهم والديه، بل لأبيّن معنى الفعل المنعزل الذي إن أردنا كشف النقاب عنه فلا بدّ من التخلص من إعادة النظر في علاقته بأمور أخرى. ما قرأته في الصحافة عن يورغن بارتش أصابني بالاضطراب، لكنه لم يزعجني من الناحية الأخلاقية، لمعرفتي بأن ما فعله يورغن بارتش يتبدّى لدى بعض المرضى على شكل استيهامات **fantasmes** حينما يتسنّى لهم إظهار الضغائن المكبوتة منذ الطفولة المبكرة، لأن الفرصة أتيحت لهم للحديث عنه، والبوح لأحدهم عن مشاعر الكراهية والسخط التي يمكن أن تعفيهم من الحديث عنها وتحول استيهاماتهم إلى فعل، وهي إمكانية لم تتوفر ليورغن بارتش على الإطلاق. في أولى سنوات حياته، كان يفتقر إلى شخص يستشيره حتى دخوله المدرسة، ولم يكن يحقّ له اللعب مع الأطفال الآخرين، كما لم يشاركه والداه اللعب، فأصبح ضحية لجميع الإساءات. ربما يكون مفهوماً إلى حدٍّ ما ألا يتمكّن طفلاً معزول على هذا النحو، وتعلّم الطاعة في عائلته بضربات العصا من فرض هيبته ضمن طائفة من الطلاب الآخرين لهم العمر نفسه ويعاني آلاماً مبرحة، ومن ثم يجد نفسه مضطهداً من الآخرين. يوضح المشهد

الذي أعقب الهروب من مارينهاوزن الوحدة اللامتناهية التي يعيشها هذا المراهـق بـين العائلـة البورجوازية «المحميّة جداً **bien protégée**» والمؤسسة الدينية. والحاجة إلى الحـديث عـن كـل شيء في البيت، واليقين بأن أحداً فيه لن يصـدّقه، والخـوف مـن وجـوده بـين والديـه والرغبـة في اللجوء إليهما - أليس هذا حال آلاف المراهقين؟

في المدرسة الداخلية امتثل يورغن بوصفه ابناً مطيعاً لوالديه إلى ما تفرضه ممنوعات المكـان، فاتخذ ردّ فعله شكل الذهول والغضب حينما يروي أحد رفاق الصف، خـلال المحاكمـة، أنـه قـد نام «بشكل طبيعي» مع ولـد آخـر. مـن المؤكـد أنـه كـان يمكـن تجـاوز الممنوعـات، لكـن لـيس بالنسبة لأطفال تعلّموا منذ المهد الخضوع تحت التهديد. هؤلاء الأطفال يـرون أنفسـهم سـعداء لقدرتهم على خدمة الجماعة، والقدرة على الاقتراب من كـائن حـيّ يمثلـه شـخص الكـاهن عـلى الأقل.

غالباً ما تتجلّى تركيبة العنف والإثارة الجنسية التي مورسـت عـلى الطفـل أثنـاء وجـوده مـع والديه، اللذين يستخدمانه كمالكين له على شكل انحرافات أو ضلال. حتى جرائم يورغن بـارتش تعكس بدقّة مرعبة عدّة عناصر تعود إلى طفولته:

1. الملجأ الـذي يقتـل فيـه الأطفـال يـذكّر بالأوصـاف التـي قـدمها بـارتش لحبسـه في القبـو بقضبانه، وبجدرانه العالية بمقدار ثلاثة أمتار.

2. الفعل مسبوق بـ«بحث»، كما كان هو نفسه موضع «بحث» قبـل التبنّـي، ثـم مُنـع بعـد ذلك من الحياة (ليس مباشرة بل ببطء شديد).

3. تقطيع ضحاياه بسكّين، «سكاكيننا»، كما يقول.

4. يستثار حيـنما ينظـر في عينـي الضـحية، المرتـاعتين والعـاجزتين، لأنـه يلتقـي بنفسـه مـن خلالهما، وبمشاعره التي اضطرّ إلى كبتها. وفي الوقت نفسه، يرى نفسـه وهـو يعـيش دور البـالغ المتهيّج والمنحرف بين يدي من تُرِك في الماضي بين يديه.

هناك أشياء عديدة تبرزها أفعال يورغن بارتش الإجرامية:

1. محاولته اليائسة «لإرضاء الغرائز» سرّاً، وانتزاعها من القدر.

2. إفراغ الكراهية المتراكمة والمدانة من المجتمع والموجهة ضد الأهل والمعلمين الذين منعـوه من اختبار أيّ شيء حيّ بأي شكل كان، ولم يهتموا قطّ إلا بسلوكه.

3. إظهار التبعية التامة إزاء عنف الأهل والمعلمين المُسقطة على الطفل (مثل صورة يورغن بارتش حينما كان صغيراً).

4. الإثارة القسرية للرعب والتقرّب من الرأي العام، وهي مشاعر عاشتها أمّه في الماضي، حينما عاد يورغن في السنة الثانية إلى توسيخ نفسه.

في التكرار القهري **compulsion de répétition** كما في كثير من الانحرافات - يبحث الفاعل عن نظرة أمه. وأفعال يورغن بارتش تثير رعباً عميقاً (مُبرّراً) في الرأي العام، كالاستفزازات التي كانت تثيرها كريستيان سعياً منها لتضليل أبيها الذي كان شخصاً لا يمكن توقع تصرفاته، تخلق في الحقيقة مشكلات لناطور البناء أو أساتذتها، أو رجال الشرطة. إذا لم نشأ اعتبار الباعث على قتل الأطفال سوى (غريزة جنسية مَرَضية)، سنبقى عاجزين عن فهم أكبر عدد من أفعال العنف في زمننا، بل عاجزين تماماً أمامها. سأنقل هنا باختصار الحالة التي لا تلعب فيها الغريزة الجنسية دوراً متميزاً، لكنها تعكس في المقابل، وبطريقة مأساوية إلى حدّ ما، قصة الطفولة.

نشرت صحيفة **Die Zeit** في 27 تموز من عام 1979 مقالة حول طفلة في الحادية عشرة من عمرها اسمها ماريبل **Mary Bell** حكمت عليها محكمة إنكليزية عام 1968 بالسجن المؤبد لارتكابها جريمتي قتل؛ وعلى الرغم من بلوغها اليوم الحادية والعشرين، ما تزال قابعة في السجن ولم تخضع لأيّ علاج نفسي؛ وسأنقل المقالة كما جاءت على النحو الآتي:

قُتِل صبيّان عمر كلّ منهما سنتان ونصف، وطلب رئيس محكمة نيوكاستل من المتهمة الوقوف. فردّت البنية إنها واقفة. ماري بل، المتهمة بقتل طفلين كانت في الحادية عشرة من العمر.

في 26 أيار من عام 1957، ولدت بيتي ماك البالغة من العمر سبعة عشر عاماً في مشفى ديلسون هال في كامبردج غايتشيد طفلة سميت ماري. ويروى أنها قالت بعد ولادتها بعدّة دقائق: «خلّصوني من هذه الحشرة!»، حينما أرادوا وضع طفلها بين ذراعيها. حينما بلغت ماري الثالثة من عمرها، رافقتها أمها بيتي في إحدى النزهات - تبعتها أختها سراً وهي مرتبكة. اقتادت بيتي ماري إلى أحد مكاتب التبنّي. ومن المكان الذي يجري فيه الحديث، خرجت امرأة وهي تبكي وتقول إنهم رفضوا إعطاءها طفلاً لزعمهم أنها

صغيرة جداً. فقالت لها بيتي: «لقد أتيت بهذه الطفلة ليتبنّاها أحدهم، فخُذيها!». وهكذا تخلت بيتي الصغيرة عن ماري لهذه المرأة المجهولة وغادرت.[...]. في المدرسة، عُرف عن ماري أنها كانت تدفع بالأطفال الآخرين، وتضربهم، وتخدشهم، وتخنق طيور الحمام، كما رمت ابن عمها الصغير في ملجأ مضادّ للطيران بعمق مترين فوق حجر من الإسمنت. في اليوم التالي كادت أن تخنق ثلاث بنات صغيرات في أرضٍ بور. في عمر التاسعة دخلت مدرسة أخرى حيث صرح اثنان من معلميها في وقت لاحق: «يفضّل عدم البحث في حياتها عن أصولها». كما قالت إحدى موظفات الشرطة التي عرفتها خلال الحبس الاحتياطي: «كان ينتابها الضجر. تجلس أمام النافذة وتنظر إلى قطة تتسلق أحد المزاريب، وسألتني ما إذا كانت تستطيع إدخالها.

فتحنا النافذة؛ وأمسكت بالقطة وراحت تلعب معها فوق الأرض بقطعة صوف... رفعت بصري فرأيت أنها تمسك برقبة القطة، ولاحظت فوراً أنها تضغط عليها، فلم تعد القطة قادرة على التنفس، وكان لسانها متدلياً. سارعت إليها وانتزعتها من بين يديها قائلة لها: «لا يمكنك القيام بهذا، إنك تؤذينها!». فأجابتني: «لكنها لا تحس بهذا، وفي كل الأحوال فأنا أحب إلحاق الأذى بالأشياء الصغيرة العاجزة عن الدفاع عن نفسها!».

روت ماري لإحدى المراقبات أنها تحب أن تصبح ممرضة - «لأنني سأتمكن من غرز الناس بالإبر». بعد فترة تزوجت أم ماري من بيلي بيل، لكنها كانت، فضلاً عن هذا، تتعامل مع زبائن خاصّين. بعد محاكمة ماري، شرحت بيتي لأحد رجال الشرطة عن اختصاصها قائلة «إني أسوطهم»، قالت بنبرة تعبر عن دهشة من لا يعرف. وأضافت: «لكني كنت دائماً أضع السياط بعيداً عن متناول الأطفال!».

لا يمكن لسلوك ماري بل إلا تنبيهنا إلى أن أمها التي ولدتها وتخلّت عنها في السابعة عشرة، وراحت تمارس المهنة التي أشرنا إليها [الدعارة]، قد عَذّبت ماري، وهدّدتها وربما حاولتْ قتلها، تماماً كما فعلت هذه بالقطة والطفلين، وذلك لعدم وجود قانون يمنعها من القيام بذلك.

قيل إنها مصابة باضطراب عقلي باهظ الثمن. لكن ألم يكن أقلّ كلفةً من حبس طفلة في الحادية عشرة من عمرها لبقية حياتها؟ لا بد أن تتوفر لطفلٍ صغير جداً وأسيئت معاملته إمكانية الحديث عن الظلم الذي يحيق به بطريقة أو بأخرى؛ وإذا لم يتوفر له شخصٌ يتحدث

إليه عنه، فلن يجد اللغة المناسبة، ولا يمكنه الحديث عنه إلا بتكرار ما حدث معه بالضبط. لكن، في الحقيقة، لا بد أن نشعر بهذا الرعب أمام الجريمة الأولى، فقد نتمكن من مساعدة الطفل على أن يعيش قصته بوعي من دون أن يحتاج إلى سردها عبر سيناريوهات مخيفة[1].

جدران الصمت

رويت قصة يورغن بارتش لأبيّن بالمثال المادّي ما يمكن أن تقدّمه لنا تفاصيل سيناريو جريمة قتل من مفاتيح، لفهم الجريمة النفسية التي ترتكب في فترة الطفولة. وكلّما حُدّدت الجريمة النفسية في وقت مبكّر يصعب على الفاعل فيه إدراكها، وتقلّ قدرته على تقديم شهادة عنها عبر الذكريات والكلمات لتقتصر على طريقة إخراجها، وهذا هو السبب الذي دفعني إلى الاهتمام أساساً بتجارب الحياة الأولى من خلال السعي إلى فهم الجذور العميقة للسلوك المنحرف. على الرغم من هذا الاهتمام الخاص، فقد حصل معي الأمر الآتي: بعد كتابة هذا الفصل وتدقيق المقاطع التي أوردتها في الكتاب، لاحظتُ أني تجاوزت أهم مقطع بالنسبة لي؛ أي الشواهد التي تتحدث عن الضرب الذي يتعرّض له الرضيع **bébé**.

بدا لي التغاضي عن هذا المقطع، على الرغم من أهميته الكبيرة بنظري بسبب تأكيده لأطروحتي، أنه يبرهن عن صعوبة تصوّر امرأة تضرب رضيعها، ومقاومة هذه الصورة، وتحمّل تبعاتها العاطفية بشكل كامل. لا شك أن هذا هو السبب الذي يجعل حتى المحلّلين النفسيين، لا يولون هذه الأشياء القدر الكافي من الاهتمام لنتائج تجارب الطفولة هذه.

قد لا يفهم كلامي جيداً، ويتم تشويهه إذا نُظر إلى هذا الفصل بوصفه اتهاماً موجّهاً إلى السيدة بارتش. بل أودّ تحديداً الابتعاد عن أيّ خطاب وعظي، لأبيّن فقط علاقات السبب بالنتيجة، وليكون توضيحي أدقّ بأن الأطفال الذين يتعرّضون للضرب يقومون بضرب غيرهم أيضاً، وأن من يتعرّضون للتهديد، يُهدّدون غيرهم أيضاً، وأن المهانين يُهينون، وأن من يرتكب جريمة نفسية يستمرّ في ارتكاب الجريمة نفسها. أما من الناحية الأخلاقية، فلابد من القول إنه يوجد دائماً سببٌ يدفع الأم إلى ضرب طفل صغير. وبما أننا نجهل كل شيء عن طفولة السيدة بارتش، ستبقى الأسباب غامضة؛ لكنها موجودة حتماً، كما كانت موجودة

1- خلال قراءتي لمسودات هذا الكتاب، عرفتُ من الصحف أن ماري بل أعتقت من السجن، وتحولت إلى «امرأة فاتنة»، وعبرت عن رغبتها في السكن قريباً من أمها.

بالنسبة لأدولف هتلر. لا شكّ أن إدانة أمّ تضرب طفلها واستبعاد المشكلة كلها على هذا النحو أسهل من إخفاء الحقيقة كاملة، لكنها تدلّ على أخلاقيات مشبوهة. لأن عجزنا الأخلاقي يزيد في عزل الأهل الذين يسيئون معاملة أطفالهم الرضّع، وتزيد من المأساة التي تدفعهم إلى هذا العنف. هؤلاء الأهل يشعرون بالحاجة القاهرة إلى استخدام الطفل بمثابته متنفّساً لأنهم عاجزون تماماً عن فهم مأساتهم الشخصية.

وفهم هذه المأساة لا يعني أن نبقى صامتين ونحن ننظر إلى الأهل الذين يدمرون حياة أطفالهم، على الصعيدين النفسي والجسدي. ويصبح بديهياً أن نسحب منهم حضانتهم لأطفالهم ومسؤوليتهم القانونية عنهم من خلال تقديم العلاج النفسي لهم.

لستُ صاحبة فكرة معالجة حالة يورغن بارتش، بل أدين بها إلى إحدى قارئات كتابي مأساة الطفل الموهوب، التي لم أتعرف عليها إلا من خلال رسالة بعثت بها إليّ، أسمح لنفسي أن أسوق بعض ما جاء فيها من مقاطع، بعد موافقتها:

> «أكيدٌ أن الكتب لا تُفتح السجون، لكن بعضها يشجع الإقبال عليها بقوى جديدة؛ كان كتابكم واحداً منها.
>
> في مكان ما من الكتاب تتحدّثين عن العقوبات الجسدية المفروضة على الأطفال (المقطع ليس تحت يدي الآن، ومن ثم لا يمكنني تحديده بدقّة)، وتقولين إنك لا تستطيعين التحدث عنها في ما يتعلق بألمانيا لعدم توفرك على المعلومة الكافية[1]. يمكنني أن أطمئنك حول هذه النقطة، وأؤكّد أسوأ شكوكك. هل تعتقدين أن فترات الاعتقال النازية كانت ممكنة لو لم يكن الإرهاب الجسدي وجميع ملحقاته، من عصي وسياط، هو القاعدة المتبعة في جميع غرف الأطفال في ألمانيا؟ أنا نفسي، وقد بلغت اليوم السابعة والثلاثين من العمر، وأمّ لثلاثة أطفال، أبذل جهدي بدرجات متفاوتة لتجاوز الآثار الكارثية لقسوة الأهل هذه، ليس إلا لكي يعيش أطفالي قدراً أكبر من الحرية.
>
> بعد «نضال بطوليّ» مستمرّ منذ أربع سنوات تقريباً، لم أتمكن من طرد صورة الأب الذي يعتدي ويعذِّب من كياني الداخلي أو جعلها إنسانية. إذا قرّرتِ إعادة طبع كتابك، أظن أن بإمكانك وضع ألمانيا في المرتبة الأولى في ما يتعلق بسوء معاملة

1- لم تترجم فكرتي هنا بدقّة (ينظر: مأساة الطفل الموهوب، ص. 89).

الأطفال. ففي شوارعنا يموت أكبر عدد من الأطفال في البلدان الأوروبية؛ وما يستمر من جيل إلى جيل في غرف الأطفال يبقى محبوساً خلف جدار كتيم من الصمت والمقاومة. وهؤلاء الذين تدفعهم حاجة داخلية، ويشجعهم التحليل ويشعرون بأنهم مضطرّون إلى النظر خلف الجدار تراهم يسكتون أيضاً، لأنهم يعرفون تماماً أن أحداً لن يصدّقهم لو تحدثوا عما رأوه هناك. ولكيلا تخرجي بنتائج خاطئة أقول لك إن حالي لم يصلح في مكان يضمّ المنبوذين، بل في إطار منظّم جداً «لعائلة منسجمة» من البورجوازية الميسورة. كان والدي كاهناً».

هذه القارئة هي التي نبّهتني إلى كتاب بول مور، وأدين لها بعُكوفي على دراسة هذه الحالة التي تعلمتُ منها الكثير. وأشير هنا أيضاً إلى أني عرفت الكثير عن دفاعاتي الخاصة. لا شكّ أني سمعت في تلك الفترة عن قصة يورغن بارتش، لكني لم أهتمّ بها كثيراً. رسالة هذه القارئة فقط هي التي أدخلتني في طريق حيث لم أستطع إلا أن أسير فيه حتى النهاية.

فوق هذه الطريق تعلمتُ أيضاً أنه من الخطأ الكبير الاعتقاد بأن الأطفال يعانون في ألمانيا من سوء المعاملة أكثر مما يعانونه في مكان آخر. أحياناً، بما أنه يصعب علينا احتمال حقيقة مخيفة، ترانا نقاومها بالأوهام. وأكثر أنواع هذه المقاومة شيوعاً هو التنقّل في الزمان وفي المكان. وهكذا تقلّ صعوبة تصوّرنا إذا تصوّرنا أن أطفال القرون الماضية، أو البلدان البعيدة، قد تعرضوا إلى معاملات سيئة أقل من تصورنا للشيء نفسه هنا والآن. هناك أملٌ آخر: حينما يقرّر شخص كتلك القارئة التي تحدثنا عنها، التهرّب من حقيقة قصته ومواجهتها من أجل أطفالها، ربما يودّ على الأقل الاحتفاظ بفكرة أن الحقيقة ليست مخيفة في كل مكان، وأن الأشياء في أماكن أخرى وأزمنة أخرى بشكل أكثر إنسانية، مما تجري في بلدها. لا يمكن للإنسان أن يعيش من دون أمل، ولا شك أن الأمل يفترض درجةً معيّنة من الوهم. ولقناعتي بأن القارئ سيتمكن من الاحتفاظ بالأوهام التي يحتاج إليها، سأقدّم هنا بعض الملاحظات المتعلقة بإيديولوجية التربية التي ما تزال سارية ولها من يحميها بالصمت في أيامنا هذه في بلد مثل سويسرا (ومن ثم، ليس في ألمانيا فقط). لن أسوق هنا إلا بعض الأمثلة المقطوفة من وثيقة هامة نشرها «سورغنتيليفون **Sorgen telephon** في أيفليغن التابع لمقاطعة برن، وهي وثيقة أُرسلت إلى أكثر من 200 صحيفة، لم تنشر سوى اثنتين منها ما ورد فيها من وقائع:

5.2.، طفل في السابعة من عمره يعامله أبوه بطريقة سيئة (لكمات، ضرب بالسوط وحبس، ...الخ). كما صرّحت الأم أنها هي نفسها تتعرض للضرب، بسبب الكحول والصعوبات المالية.

سان غال: فتاة صغيرة في الثانية عشرة لم تعد تحتمل العيش في البيت، لقيام والدها بضربها بالحزام لمجرد قيامها بأيّ شيء.

آرغو: فتاة في الثانية عشرة من العمر هربت من البيت بعد معاناتها من ضرب أبيها لها: يجب ألا يكون لها أصدقاء، لأن والدها يريد أن يستأثر بها.

7.2، بيرن: فتاة في السابعة من عمرها هربت من بيتها لأن أمها تضربها بأداة تستخدمها لتنظيف السجاد؛ ولقناعة الأم بأنه يمكن ضرب البنت حتى سنّ دخولها المدرسة، لأن ضرب الأطفال حتى هذا العمر لا يؤذيهم من الناحية النفسية.

8.2.، زوريخ: فتاة في الخامسة عشرة من العمر عاشت تربية قاسية. كانت تعاقب بشدّ شعرها، أو بليّ أذنيها. لظن الأهل أن قسوة الحياة تحتّم عليهم معاملة ابنتهم بقسوة ينبغي أن يحسّ بها الطفل في سن مبكرة جداً، إذا أردنا له ألا يكون رخواً.

14.2.، لوكيرن: أبٌ يمدّد ابنه البالغ أربعة عشر عاماً فوق ركبتيه، ويربطه إلى أن يسمع قرقعة العمود الفقري («يسمّى مشهد الموزة») لأنه سرق سكّيناً من أحد المحلات؛ أشارت الشهادة الطبية إلى تغيّر في مواقع الفقرات.

15.2.، ثورغو: فتاة يائسة في العاشرة من العمر، قام والدها بقتل هامبستر، وقطعه إلى أشلاء أمام عينيها.

16.2.، سولوثورن: ولد في الرابعة عشرة من عمره منع من ممارسة العادة السرية بشكل قاطع. وهدّدته أمه بقطع عضوه إن كرّرها؛ لاعتقاد الأم أن من يمارس هذه العادة مصيره جهنّم. وبعد أن اكتشفت هذه العادة عند زوجها «استخدمت جميع الوسائل الممكنة» لمنع هذا العار.

غروبوندون: أبٌ يضرب رأس ابنته البالغة الخامسة عشرة من عمرها بكل ما أوتي من قوة، إلى أن تفقد وعيها. بيّنت الشهادة الطبية وجود كسر في الجمجمة. السبب: تأخّرها نصف ساعة عن موعد العودة إلى البيت.

17.2.، آراغو: ولد في الثالثة عشرة من عمره أُجبر على ممارسة الجنس مع عمّه. فرغب الولد بالانتحار، ليس لهذا السبب في حدّ ذاته فقط، بل لخوفه من أن يكون شاذّاً جنسياً، ولا يستطيع قول شيء لوالديه، كي لا يتعرض للضرب.

باسل-لاند: فتاة صغيرة في الثالثة عشرة ضربها صديقها (18 سنة)، وأرغمها على مضاجعته. لكنها احتفظت بسرّها لخوفها الشديد من والديها.

بال: ولد في السابعة من العمر يعاني آلاماً رهيبة، وينتابه الخوف دائماً عند الظهر ويستمر حتى فترة بعد الظهر؛ لكن الأم ترفض إرسال ابنها لاستشارة طبيب نفسي: أولاً لأنهم لا يتوفرون على المال اللازم، ثانياً لأنه لا يعرف ما يقول. انتابتها الهموم بعد أن حاول إلقاء نفسه من النافذة مرّتين.

20.2.، أراغو: أبٌ يضرب ابنته ويهدّدها باقتلاع عينيها إذا استمرّت في «معاشرة» صديقها. السبب هو أن الشابّين سافرا وحدهما لمدّة يومين.

21.2.، زوريخ: أبٌ يعلّق ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً من قدميه إلى الجدار طيلة أربع ساعات، ثم يغطّس الطفل في ماء بارد، لأن الطفل سرق شيئاً من أحد المخازن.

27.2.، بيرن: معلم كان يصفع تلاميذه باستمرار ليكون هذا عبرة لهم؛ بعد كل صفعة، يرغم الطفل على التشقلب. الأثر المؤلم ناتج عن التكرار المستمر إلى أن يعجز الطفل عن النهوض.

29.2.، زوريخ: فتاة في الخامسة عشرة من عمرها تضربها أمها منذ ستة أعوام (بالمكنسة، أو بشريط كهربائي). فأصابها اليأس وراحت تسعى للتخلّي عن أمها.

بعد إنشاء هذه المنظمة (**Sorgentelephon**) بعامين، سُجّلت أنواعٌ كثيرة من المعاملات السيّئة التي تراوحت بين الصفع، والحرق، والجلد وغيرها من الممارسات العنيفة والخطيرة.

[..............................]

لماذا صمتت جميع الصحف أو أغلبها عن هذه الأخبار المثيرة خلافاً لوظيفتها الأساسية التي تقوم على الإعلام؟ من يحمي مَنْ، ومن ماذا؟ لماذا لا يريد الرأي العام السويسري أخذ العلم بأن العديد من الأطفال يعيشون في هذا البلد الجميل مثل هذه الانتهاكات؟ بماذا يفيدنا

الصمت؟ بل ألا يمكن أن يكون مفيداً للأهل الذين يفرطون في ممارسة هذه المعاملات السيئة معرفةُ أن شقاء الطفل الذي يذيقونه المعاملة السيئة أنهم كانوا في الماضي أطفالاً، وأن ينظروا إلى هذا الأمر بعين الاعتبار؟ أليست الجرائم العديدة كتلك التي ارتكبها يورغن بارتش بحقّ الأطفال طريقةً يعرف الرأي العام من خلالها ما جرى في ماضٍ منسيّ؟ من لا يحقّ له رؤية ما كان الآخرون يفعلون به لا يمكنه الحديث عنه إلا بمعاملة الآخر بمثل ما عومل به. لكن وسائل الإعلام التي يفترض بها أن تعمل من أجل تحسين المجتمع، من شأنها، على ما يبدو تعليم فهم هذه اللغة، بدءاً بلحظة منعهم من«رؤيتها».

خلاصات

قد يستغرب القارئ قصص هذه الحالات الثلاث المختلفة. جاء اختياري وجمعي لها مقصوداً لأنها تمثل، بمعزل عن اختلافاتها، نقاطاً مشتركة تصحّ على حالات أخرى أيضاً.

1. في الحالات الثلاث نجد أنفسنا أمام نزوع تدميري بالغ **destructivité**. نراه عند كريستيان موجّهاً ضد نفسها، وعند أدولف هتلر ضد أعداء حقيقيين أو متخيّلين، وعند يورغن بارتش ضد أولاد صغار يسعى إلى تدمير نفسه من خلالهم.
2. هذا النزوع التدميري يبدو لي بمثابة تفريغ للغضب المتراكم والمكبوت منذ الطفولة وتحويل على أشياء أخرى أو على الذات.
3. الفواعل الثلاثة المعنيون عوملوا بطريقة سيّئة، وأُهينوا باستمرار خلال طفولتهم وعاشوا وكبروا في جوّ تسوده القسوة.
4. يتجلّى رد الفعل السليم والطبيعي على هذا النوع من المعاملة، لدى الطفل، بشنّ سخطٍ نرجسي يتسم بأقوى درجات الشدة. لكن هذا جوبه بأقسى أنواع القمع في منظومة التربية التسلّطية لتلك العائلات الثلاث.
5. لم يحظَ هؤلاء الأشخاص الثلاثة، طيلة طفولتهم وفترة شبابهم، بشخصٍ بالغ يمكن أن يعبّروا لهم عن مشاعرهم، لا سيما مشاعر الكراهية لديهم.
6. كان لدى هؤلاء الأشخاص الحاجة الغريزية نفسها **pulsonnel** إلى إيصال تجربتهم المؤلمة والتعبير عنها. إضافة إلى أنهم يتمتعون بموهبة من حيث القدرة على التعبير اللفظي.

7. بما أن سبيل التواصل الكلامي البسيط قد مُنع عليهم من دون مخاطرة، فقد عجزوا عن إيصال تجربتهم إلا على شكل سيناريوهات غير واعية.

8. هذه السيناريوهات كلّها تثير لدى العالم الخارجي شعوراً بالرعب والنفور، لا يستيقظ إلا في الفصل الأخير من هذه المأساة، وليس على خبر هذه المعاملات السيئة إزاء الطفل.

9. صحيح أن هؤلاء الأشخاص نجحوا عبر تكرارهم القهري **compulsion de répétion** في وضع سيناريوهات معيّنة لشدّ اهتمام العالم الخارجي نحوهم، لكنهم وجدوا كما وجد الطفل الذي يتعرض دائماً للضرب نوعاً من الاهتمام لكنه يبقى اهتماماً ضارّاً (تشكل كريستيان في هذه الحالة استثناء، لأنها حظيت خلال فترة البلوغ بأشخاص عرفوا كيف يتحدثون إليها).

10. هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يعيشوا الحنان إلا كأشياء بذاتهم، وليس لما هم عليه أبداً. فقادتهم الحاجة إلى الحنان، المقترنة بانبثاق الغريزة التدميرية في الطفولة وخلال البلوغ والمراهقة، إلى هذه السيناريوهات المأساوية.

الحالات الثلاث التي عرضناها هنا لا تعبّر عن أفراد فحسب، بل عن ممثلين أيضاً لمجموعات معينة نفهمها (مدمنون، جانحون، ذوو ميول انتحارية، إرهابيون، وحتى بعض أصناف رجال السياسة)، إذا حاولنا سرد حالة فردية انطلاقاً من المأساة الخفيّة التي عاشها في طفولته. جميع سيناريوهات هؤلاء الأفراد تفصح في الحقيقة، بفوارق مختلفة، عن حاجتها إلى الفهم، لكنهم يفعلونها بشكل يثير جميع ردود الفعل لدى الجمهور ما عدا الفهم. ويعدّ الأمل في العثور على عالم أفضل من العالم الذي عرفناه عند الولادة، مع الاستمرار الدائم في إعادة خلق التجمّعات نفسها، جزءاً لا يتجزأ من التكرار القهري.

إذا لم نتمكّن من الحديث عن القسوة التي عانيناها لأننا عشناها بشكل مبكر جداً ولا تسعفنا الذاكرة في بلوغها، فلا بدّ من تقديم الدليل عليها. هذا ما فعلته كريستيان عبر مسار، تدميري ذاتي، أما الآخرون فقد فعلوا هذا من خلال البحث عن ضحايا؛ وحينما يكون لدينا أطفال نكون قد عثرنا على ما نبحث عنه، ويأتينا البرهان من دون أن يعلم الرأي العام بهذا؛ أما في حال عدم وجود الأطفال كما في حالة هتلر، فيمكن أن ينصبّ الغضب المكبوت على

ملايين الأشخاص، ويبقى القضاة والضحايا ممنوعين من التصرف إزاء هذا التصرف الحيواني. مرّت عدّة عقود منذ هتلر وفكرته حول إبادة ملايين البشر كما يباد القمل، تطورت الوسائل التقنية التي كانت لازمة آنذاك تطوّراً كبيراً. ولا تقلّ أهمية متابعة هذا التطور وفهم مصدر هذه الكراهية الشديدة التي لا تنضب، كما هو حالها عند هتلر. ومع تقديرنا التام للتفسيرات التاريخية، والسوسيولوجية، والاقتصادية، فإن الموظف الذي فتح صنبور الغاز لخنق الأطفال واخترع هذا الجهاز بشرٌ وكانوا أطفالاً أيضاً. ما دام الرأي العام لا يريد فهم أن الكثير من الجرائم النفسية تُرتكب كلّ يوم بحقّ الأطفال، وأن على المجتمع تحمّل نتائجها، فسنبقى نسير خبط عشواء في متاهة غامضة- على الرغم من النوايا الحسنة التي تتضمّنها خطط نزع السلاح.

حينما عزمت على كتابة هذا القسم من كتابي، لم يخطر في بالي أنه سيقودني للتطرق إلى قضايا السلام. كلّ ما في الأمر أني شعرت بالحاجة إلى تعريف الأهل بما تعلمتُ حول التربية خلال عشرين عاماً من ممارستي للتحليل النفسي. وبما أنني لا أريد التحدث عن مرضاي، فقد اخترتُ حالات طَرَحت نفسها على الرأي العام. لكن الكتابة أشبه بمغامرة كبيرة، لا نعرف حينما نبدأ إلى أين يمكن أن تصل بنا. وسيكون حديثي عن قضايا السلام عابراً، لأن هذه المسائل تتجاوز حدود إمكانياتي كثيراً. لكن دراسة حياة هتلر، والمحاولات التحليلية النفسية الرامية إلى تفسير أفعاله بأنها جاءت نتيجة ما لحقه من إهانات، وشتائم وُجّهت إليه طيلة طفولته لم تتوقف هنا، بل قادتني حتماً إلى التساؤل حول قضية السلام. خلاصة هذا التساؤل لها وجهٌ متشائم وآخرُ متفائل:

الوجه المتشائم يتمثل في فكرة أننا نرتبط أكثر مما نعتقد بأفراد (وليس بمؤسسات فحسب) يمكنهم الاستيلاء على الجماهير حينما يمثّلون منظومتهم التربوية. الأطفال الذين ضلّلتهم المنظومة التربوية لا يمكنهم إدراك ما فعلته بهم حينما يصبحوا بالغين. فصور هتلر التي ترى فيها الجماهير ممثلاً لها تجعله (كالأب المتسلّط في كلّ حالة خاصة) ذلك الطفل الذي ينتقم لنفسه، والذي تحتاجه الجماهير لتحقيق هدفه الخاص (الانتقام). والارتباط الثاني، هو ارتباط الزعيم (الفوهرر) نفسه بطفولته، وبما يكمن فيها من كراهية غير مرئية وغير مفهومة، وهنا يكمن أكبر الأخطار.

لكن، ينبغي ألا نهمل الوجه المتفائل لهذا التحليل. في كلّ ما تمكنتُ من قراءته خلال الفترات السابقة حول طفولة المجرمين، أو الماحقين، لم أعثر في أيّ منها على الحيوان، أي الطفل السيّئ الذي يظنّ المربّون أن عليهم تعليمه «الخير». لم أجد سوى أطفال لا حول لهم ولا قوة، عاملهم البالغون معاملة سيئة بذريعة التربية، وفي أغلب الأحيان لخدمة مثلٍ عليا. ومن ثم يقوم تفاؤلي على أمل أن يكفّ الرأي العام عن التستّر على المعاملات السيئة لخدمة التربية، بعد أن نفهم:

1. أن هذه التربية لم توضع أساساً لمصلحة الطفل، بل لإرضاء حاجة مربّيه إلى النفوذ والانتقام، و..

2. أننا جميعاً ضحايا وليس الطفل الذي تساء معاملته فحسب.

على طريق المصالحة
بين الأسى والغضب والحزن،
لكن من دون مشاعر الذنب

حتى القسوة اللاإرادية تؤلم

حينما نتعمّق في دراسة الكتب التربوية التي تعود إلى القرنين الأخيرين، نكتشف وسائل استخدمت آنذاك بشكل منتظم لمنع الأطفال من المعرفة، وعدم تذكّر الطرق التي كان يعاملهم بها الأهل في فترة لاحقة.

حاولتُ أن أشرح انطلاقاً من فكرة التكرار القهري في ممارسة السلطة، عن سبب استمرار شيوع الوسائل التربوية القديمة. لأن ما يقع على الشخص من ظلم، وإهانة، ومعاملة سيئة، وتعسّف، لا يمكن أن يبقى من دون تأثير، خلافاً لما نظنّ بشكل عام. المأساة هي أن أثر المعاملة السيئة يتكرّر على ضحايا جديدة بريئة، حتى وإن غابت ذكراها عن وعي الضحية نفسها.

كيف يمكن الخروج من هذه الدائرة المفرغة؟ يقول الدين إنه يجب الصفح عمّن يظلمنا، وإنه بدءاً بهذه اللحظة فقط نكون مستعدّين للحبّ ومتحرّرين من الكراهية. هذا كلام ليس خاطئاً في حدّ ذاته، لكن أين نقع على الطريق الحقّة للغفران؟ هل يمكن الاكتفاء بالحديث عن الصفح حينما يصعب عليك معرفة ما فعلوه بك ولماذا؟ جميعنا عشنا هذه الحالة. لم نكن قادرين على معرفة السبب وراء إهانتنا؛ كانوا يتخلّون عنا، ويهدّدوننا، ويهزؤون بنا، ويعاملوننا كقطعة خشب، ويلعبون معنا كدمى، أو ينهالون علينا بالضرب حتى تسيل دماؤنا، وهذا وذاك بالتناوب. الأسوأ من هذا لم يكن علينا أن ندرك أن هذا كلّه يحصل معنا لأنهم كانوا يقدّمون لنا المعاملات السيئة بوصفها تدابير ضرورية لخدمة مصلحتنا. حتى أكثر الأطفال ذكاء لا يستطيع كشف كذبة كهذه حينما تخرج من فم والديه المحبوبين اللذين يعبّران له فضلاً عن هذا عن حنانهما. إنه مضطرّ لتصديق أن المعاملة التي يحظى بها عادلة وجيدة، فلا يلوم أهله. وحينما يصبح بالغاً يفعل الشيء نفسه مع أطفاله، فقط ليبرهن على أن والديه تصرّفا بشكل صحيح معه.

أليس هذا ما تقصده الأديان باسم الصفح؟ أيْ تنشئة الطفل وفق تقاليد الانضباط التي تربّى عليها عبر «محبّته» وتربيته على احترام الوالدين؟ لكنّ الصفح الذي يقوم على إنكار

الحقيقة ويستخدم طفلاً لا حول له ولا قوة كمتنفّس ليس صفحاً حقيقياً، وهو السبب الذي جعل الأديان غير قادرة على قهر الكراهية، بل شحذتها من حيث لا تريد. يتحول الغضب من الأهل، والممنوع بشكل صارم لكنّه شديد، لدى الطفل ينصبّ على أشخاص آخرين وعلى الذات نفسها، لكنه لم يختفِ من العالم بل بالعكس: فهو من خلال الإمكانية المتاحة له للانصباب على الأطفال ينتشر في العالم كلّه كما ينتشر الطاعون. لذلك ينبغي ألا ندهش من اندلاع الحروب الدينية مع أن الأمر في جوهره يشكل تناقضاً في حدّ ذاته.

الصفح الحقيقي لا يمرّ إلى جانب الغضب بل من خلاله. انطلاقاً من اللحظة التي أستطيع فيها التمرد على الظلم الذي لحق بي، وأن أميّز الاضطهاد بوصفه كذلك، وأكره جلادي، عندئذٍ فقط ينفتح أمامي باب الصفح. وحتى لا يستمرّ الغضب، والحقد والكراهية، إلى الأبد لا بدّ من الكشف بشكل كامل عن تاريخ الآلام خلال الطفولة المبكرة. إنها تتحوّل إلى حزن **deuil** وألم لمعرفة أن الأمور كانت على هذا النحو، وفي هذا الألم تؤدّي إلى فهم حقيقي، أي فهم الفرد الذي أصبح بالغاً يرى ما كانت عليه طفولة والديه، وبعد تخلّصه من الكراهية التي تسكنه، يمكنه في نهاية المطاف التعبير عن تعاطف حقيقي مع الآخرين. لا يمكن بلوغ هذا الصفح بالوصفات والوصايا، إنه يعاش كنعمة، ويأتي بشكل عفوي حينما تتوارى الكراهية المكبوتة والممنوعة ليسِمَ النفس. لا تحتاج الشمس إلى الإكراه لكي تلمع حينما تتوارى الغيوم، لأنها تلمع بشكل طبيعي. لكن من الخطأ تجاهل أن الغيوم تشكل عائقاً إذا وجدت.

حينما تتوفر الفرصة أمام البالغ ليعود إلى جذور الظلم الذي لحق به خلال حياته الفردية ويعيشها مع مشاعر واعية، ومع الزمن، سيفهم وحده ما هو الأفضل من دون أي مساعدة تربوية أو دينية، أن أهله لم يعذّبوه أو يسيئوا معاملته بدافع الرغبة أو الحيوية، بل لأنهم غير قادرين إلا على القيام بهذا، وبما أنهم كانوا هم أنفسهم ضحايا في الماضي تراهم يؤمنون بالمناهج التربوية التقليدية.

كثير من الناس تعترضهم صعوبات كبيرة في فهم حقيقة أن أيّ جلاد كان ذات يوم ضحية. لكن يبدو واضحاً إلى حدّ ما أن الشخص الذي استطاع منذ الطفولة الشعور بأنه حرّ وقويّ لا يحتاج بتاتاً إلى إهانة شخص آخر.

كنتُ أوجّه من وقت إلى آخر، بعض الإساءات الصغيرة إلى فتاة لم تكن جميلة، وهي تمشي بمساعدة جهاز اصطناعي بسبب التواء ساقيها. وبما أننا كنا نلعب لعبة الأولاد العاقلين، رجوت الجهات العليا أن تعهد لي بالطفلة خلال نزهة قصيرة. للحظة، انطلقنا بهدوء يمسك أحدنا بيد الآخر؛ وبعد أن وصلنا إلى الحقل الأول حيث كانت أوراق البطاطا مزهرة، والخنافس الملونة، أو ربما قبل هذا بقليل، وقف أحدنا خلف الآخر. في اللحظة المناسبة ركلتُ رفيقتي ركلة خفيفة أوقعتها أرضاً ثم أعدتها باكية إلى أمها، لأقول لها بكل براءة: «لقد وقعت أرضاً»، وكرّرت هذه الحركة بعض المرّات، من دون أن تشك السيدة إنغر بحقيقة الأمر. حسناً فعلت (من خمس إلى ست سنوات). (ص. 17، **Klee, 1957**).

يبدو أن الصغير بول كليه يمثّل مشهداً عاشه شخصياً مع أبيه، الذي لا نجد في مذكراته سوى مقطع صغير يتحدث عنه:

طالما آمنت بوالدي ورأيتُ في كلامه حقيقة لا تشوبها شائبة (لأن بابا يعرف كل شيء). ما لا أحتمله فيه هي تلك الهيئة الساخرة التي يتصف بها المسنّون. ذات مرّة، ظننتُ أني كنتُ بمفردي فتخيّلتُ بعض الشخصيات ورحت أقلّدها. فجأة هبطت عليّ صفعة بعثت في نفسي الاضطراب، وهزّت كياني. تكرّرت هذه الصفعة عدة مرات (ص.16).

السخرية الصادرة عن شخص نحبّه ونعجب فيه مؤلمة دائماً، ويمكننا تخيّل أن الصغير بول كليه قد أحسّ بجرحٍ عميق.

في المقابل، لا يمكن الزعم بأن الألم الذي نلحقه بالآخر بدافع الحاجة القاهرة لا يعدّ ألماً حقيقياً، وأن الصغير بول كليه لم يؤلم الصغيرة أبداً بذريعة معرفة الأسباب. ورؤية وجهَي الأشياء تجعلنا نكتشف المأساة كلها، لكنها تجعلنا نتغير. ونوايانا الحسنة لا تعني أننا نتمتع بقوة مطلقة، تحت سيطرة التحرّر القاهر، وأننا لا نستطيع محبة طفلنا كما نودّ، ينبغي أن يقودنا ذلك إلى الشعور بالفقدان **deuil** وليس إلى مشاعر الذنب، لأن هذه المشاعر تمنحنا حرية وسلطة لا نملكهما. إذا كنا مُحمّلين بمشاعر الذنب، فإننا نحمّلها لطفلنا ونربطه بنا طيلة الحياة. اما في حالة الشعور بالفقدان، فإننا نمنحه حريته الكاملة.

من ثم فإن التمييز بين الشعور بالفقدان والشعور بالذنب من شأنه أن يساهم أيضاً في الحوار بين الأجيال حول جرائم النازية. القابلية للشعور بالفقدان (الأسى) نقيض مشاعر

الذنب؛ الشعور بالفقدان يعني التألم من معرفة أن الأشياء قد جرت كما جرت، وأن لا شيء يمكنه تغيير الماضي. هذا الألم يمكن تقاسمه مع الأطفال، من دون أن نشعر بالخجل، بينما نحاول كبت مشاعر الذنب أو تحميلها للأطفال، أو الأمرين معاً.

ومثلما أن الأسى يُطلق المشاعر، فإنه قد يقود الشباب إلى فهم ما فعله أهاليهم بهم من خلال تربيتهم المبكرة جداً على الطاعة، وفقاً للمبادئ الجيدة التي تقوم عليها التربية التقليدية. وقد يؤدّي هذا إلى نوبات غضب مؤلمة عندما يعي الفاعل أن والديه اللذين تجاوزا الخمسين من العمر، يستمرّان في تبنّيهما لمبادئهما القديمة، فلا يستطيعان فهم غضب طفلهم الراشد، ويجرحهما لومه ويثير غضبهما. عندئذٍ نودّ لو تراجعنا عن كلّ ما قلناه، وعملنا على ألا يكون هذا قد حدث، لأن الألم القديم الذي نعرفه تماماً يعود للظهور مرة أخرى، ونخاف أن تكون هذه المآخذ بمثابة قتل للأهل. وتكرار مثل هذه العبارات أمامنا في أغلب الأحيان، من شأنه أن يؤثر فينا مدى الحياة.

لكن حينما يجد الإنسان نفسه وحيداً مرة أخرى وهو يعيش هذا الغضب الذي بدأ بالظهور، لأن الأهل لم يعودوا قادرين على احتماله كما كانوا في الماضي، فإن أبسط تعبير عن هذا الشعور يمكنه أن يتيح لنا إمكانية الخروج من مأزق الاغتراب عن الذات. الطفل الحقيقي، أي السليم تماماً الذي لا يمكنه أبداً فهم السبب الذي يدفع بوالديه إلى إيلامه ومنعه في الوقت نفسه من الصراخ، والبكاء وحتى التكلم حينما يتألم، يمكنه أن يعيش في نهاية المطاف. وطالما سعى الطفل الموهوب والقادر على التكيّف إلى فهم هذا التصرف الأخرق وقبِلَه بمثابته أمراً بديهياً. لكنه دفع التخلّي عن مشاعره، أي عن حاجاته وأناه ثمناً لهذا الفهم المزعوم. ومن ثم، يبقى الطريق مغلقاً أمام الطفل الأول، الطبيعي، المتمرّد، والذي لم يكن يفهم. حينما يتحرّر هذا الطفل في سنّ الرشد، يكتشف جذوره وقواه الحية.

إن التعبير عن الطفولة المبكرة واختبارها لا يعني أن نصبح كائناً لا يصلح إلا للتوبيخ، بل العكس تماماً. ولأننا عشنا هذه المشاعر التي كانت موجّهة ضد الأهل، لسنا مضطرّين إلى تصريفها نحو أشخاص بدلاء. الكراهية الموجّهة ضد الأشياء البديلة هي وحدها اللا متناهية ولا يمكن إشباعها، كما رأينا في حالة هتلر، لأن الشعور انفصل عن الشخص الذي كان يخاطبه في الأصل في داخل الوعي.

لهذا أظن أن قدرة الطفل على التعبير عن مآخذه على الوالدين مناسبة لبلوغ حقيقة الذات، وإذابة الجليد المحيط بالعاطفة والأسى وحتى المصالحة في أحسن الحالات؛ وفي كل الأحوال تعدُّ جزءاً من عملية الشفاء النفسي. لكن يخطئ تماماً من يعتقد أني أوجه اللوم إلى هؤلاء الأهل القدامى بشكل شخصي؛ فهذا ليس من حقّي، ولا سبب يدعوني إلى ذلك لأني لم أكن واحدة من أطفالهم، ولم يرغموني على الصمت، ولم أنشأ على أيديهم، وبوصفي راشدة، أعرف مثلما يعرف جميع الراشدين أنه لم يكن يسعني إلا أن أتصرف كما تصرفوا.

وذلك لأني أريد دفع الطفل الموجود في داخل البالغ إلى أن يعيش مشاعره، والتعبير عن لومه، ولا أتبنّاها لأني لا أتهم الوالدين تحديداً، ولا أضع أمام بعض قرائي صعوبات هائلة. قد يكون من الأسهل القول إن الطفل مذنب في كل شيء، أو إن الأهل مذنبون في كل شيء، أو أن نوزع الذنب على الطرفين. وهذا بالضبط ما لا أريد القيام به، لأني بصفتي راشدة، أعرف أن المسألة ليست مسألة خطأ، بل استحالة التصرف على غير هذا النحو. لكن بما أن هذا أمر لا يفهمه الطفل، وأن محاولة بلوغ ذلك تجعله مريضاً، أود مساعدته في أنه ليس ملزماً بفهم أكثر مما يستطيع. بعد ذلك، سيكون أمام أطفاله فرصة العيش مع أبٍ حقيقي وأمٍّ حقيقية يشعران بمشاعر صادقة.

لا شكّ أنه حتى هذه التفسيرات لن تكون كافية لإيضاح الالتباسات التي تحيط بهذا الموضوع في أغلب الأحيان، لأن جذورها توجد في مكان آخر غير القدرات الفكرية. فالفرد الذي تعلّم منذ شبابه المبكر أن يكون مذنباً في كلّ شيء وأنه فوق أيّ لوم لن يجد في أطروحاتي سوى حديث عن الألم ومشاعر الذنب. لا يمكن ملاحظة قوة هذا الموقف الذي يعود إلى الطفولة إلا لدى بعض الأشخاص الذين بلغوا عمراً معيناً. إذ ما إن يجد هؤلاء أنفسهم تابعين أو يعانون عوزاً جسدياً حتى يشعروا بأنهم مذنبون بأصغر الأمور، بل واعتبار أطفالهم الذين بلغوا سن الرشد فجأة أقسى أنواع القضاة. ولأنهم كذلك، لا بد من حمايتهم، عندئذٍ يجد الأطفال الذين بلغو سن الرشد أنفسهم محكومين بالصمت، إما ارتياباً أو خوفاً محتملاً من النتائج.

ونظراً لوجود عدد من علماء النفس، ممن لم تتوفر لهم إمكانية التحرّر من هذا القلق، ووعي أن أهلهم لن يموتوا بالضرورة عند رؤية الوجه الحقيقي لأطفالهم يميلون أو يطلبون

من زبائنهم ومرضاهم إتاحة الفرصة أمامهم إلى «التصالح - **réconciliation**» مع أهلهم؛ لكـن هذه المصالحة تبقى وهمية إذا لم يعِش الشخص مرحلة الغضـب الأول؛ ولا تـؤدي إلا إلى إخفـاء الكراهية غير الواعية المتراكمة أو التي تم تحميلها لكائنات أخرى، وتدعم الأنا المزيـف للمـريض إذا اقتضت الحاجة على حساب أطفاله الواثقين من أن عليهم تحمّل آثـار مشـاعرهم الحقيقيـة. لكن، على الرغم من هذه التعقيدات، يزداد عدد الكتب التي يخـوض مـن خلالهـا الشـباب مـع أهاليهم حواراً حراً أكثر انفتاحاً وصراحة مما كان الأمر عليه في السابق... وهو ما يدفع إلى الأمـل بأن عدد الكتاب النقديين الذين لن يمتحوا من الأدب العلمي (سواء في مجـال التربيـة نفسـها أو علم النفس، وفلسفة الأخلاق والسير الذاتية) مشاعر الذنب، أو ما يعزّز مشاعرهم.

سيلفيا بلاث وحظر المقاساة

«تسألني لماذا تشكل الكتابة حياتي؟

وهي التي تغذّيني؟

وهل يستحق الأمر هذا العناء؟

لا سيما إذا كان الأجرُ جيداً؟

وإلا فما هو السبب؟

أكتبُ فقط

لأن في داخلي صوتاً

لا يريد أن يصمت»

سيلفيا بلاث Sylvia Plath

لا يمكن للحياة أو الطفولة إلا أن تكون مليئة بالإحباط لأن، حتى أفضل الأمهات غير قادرات على إشباع جميع رغبات الطفل وحاجاته. لكن، ليس ألم الإحباط هو الذي يؤدّي إلى الاضطراب النفسي، بل حظر هذه المقاساة؛ أي حظر العيش والتعبير عن ألم الإحباطات التي نعانيها، وهو حظرٌ ينشأ عن الأهل، ويهدف في أغلب الأحيان إلى عدم إحراجهم. يحقّ للبالغ أن يشتبك مع الله، والقدر، والسلطات، والمجتمع حينما يتعرّض للخيانة، ولا يُحترم أو يفرض عليه عقاب ظالم، أو يُستغلّ، أو يُكذب عليه، لكن لا يحقّ للطفل أن يشتبك مع الآلهة، أو مع أهله، أو حتى معلّميه؛ لا يحقّ له التعبير عن إحباطاته، وعليه أن يقمعها أو أن ينكر ردود فعله العاطفية التي تزداد تراكماً في نفسه حتى سنّ البلوغ، إلى أن يجد شكلاً مختلفاً من أشكال التصريف التي تبدأ باضطهاد أطفاله عبر التربية ليبلغوا حدّ الإدمان، والجريمة والانتحار، مروراً بجميع درجات الاضطراب النفسية.

ولأن الأدب لا يخلق مشاعر الذنب عند الإنسان ويسمح بصياغة جميع المقاربات خلف شخصيةٍ مُتخيَّلَة، فهو أقرب أشكال التصريف إلى النفس وأكثرها فائدة للمجتمع، كما هو

الحال عند سيلفيا بلاث **Sylvia Plath** التي توفرنا على رسائل شخصية وتصريحات لوالدتها، إضافة إلى مزيج من الإبداع الأدبي والواقعية في التعبير عن الاضطراب النفسي والانتحار النهائي. يُشار دائماً إلى الحاجة الغريبة للإنتاج والتوتر الدائم حينما يأتي الحديث عن انتحارها، وعودة أمها الدائمة إلى هذه العناصر: يحاول أهلُ مَن لديه نزوعٌ إلى الانتحار التعلّق بأسباب خارجية؛ مشاعر الذنب تمنعهم من رؤية حقيقة الأشياء وعيش حالة الأسى.

لم تكن حياة سيلفيا بلاث أشدّ صعوبةً من حياة آلاف الناس الآخرين. من المؤكد أنها كانت تعاني إحباطات عاشتها في طفولتها أشدّ من تلك عاشها آخرون. ولم تكن المقاساة سبب يأسها، بل استحالة إيصال هذه المقاساة إلى الآخرين. فهي تؤكد في جميع رسائلها وتعيد التأكيد لأمها أن أمورها تسير على خير ما يرام. وفكرة احتفاظ الأم ببعض الرسائل السلبية، وعدم السماح بنشرها تتناقض مع مأساة هذه الحياة. (هذه المأساة وتفسير الانتحار في الوقت نفسه) يكمنان تحديداً في استحالة وجود رسائل أخرى مكتوبة، لأن أم سيلفيا كانت بحاجة إلى هذا التأكيد، أو لأن سيلفيا كانت تظن أن أمها ما كان لها أن تعيش هذا التأكيد. ولو كتبت سيلفيا رسائل عدوانية أو تعيسة لأمها، لما احتاجت إلى الانتحار. ولو استطاعت الأم فهم حالة الأسى لعدم قدرتها على فهم مأزق حياة ابنتها، لما سمحت أبداً بنشر هذه الرسائل، لأن من شأن تأكيد ابنتها المستمرّ على أن أمورها تسير على خير ما يرام أن يكون مؤلماً جداً لها. لكن أوريليا بلاث لا تستطيع الاستسلام لحالة الأسى، ولا تعرف أن مشاعر الذنب، والرسائل، تشكل دليلاً على أنها غير مذنبة. وقد نجد في المقبوس الآتي ما يسوّغ هذا القول:

> القصيدة الآتية التي كتبتها سيلفيا وهي في الرابعة عشرة من العمر، بعد امّحاءٍ عارض لألوان لوحة تمثل طبيعة ميتة رسمت بألوان هادئة فرغت لتوّها منها ووضعتها فوق طاولة الشرفة لتكون على مرأى منا. كنت أنا وغراماي **Grammay** بصدد إبداء إعجابنا بها حينما رنّ جرس الباب. نزع غراماي فوطته وذهب لفتح الباب ورماها فوق الطاولة أثناء مروره. شعر غراماي بحزن شديد، لكن سيلفيا قالت له بنبرة هادئة: لا تكترث، سأصلحها! في هذا المساء كتبت للمرة الأولى قصيدة ذات جرسٍ مأساوي، حملت عنوان «ظننت نفسي منيعة»:
>
> ظننتُ نفسي منيعة
>
> وأن الألم لن يتسرب إلى نفسي أبداً- محصّنة ضد الألم الداخلي

ضد العذاب.

شمس آذار تنير العالم كلّه

ألقٌ أخضر وذهبيّ يخترق روحي

قلبي مفعم بالفرح، لكني واثقة

من هذا الألم الناعم والحاد الذي لا يخفيه سوى الفرح

روحي تطير بأسرع من طائر الزمج

وتكاد تفقد أنفاسها وهي تذرع الأعالي

وتخطّ بأجنحتها الواسعة مدى السماء الذي نظنّه أزرقَ

(كم قلب الإنسان ضعيف! نبض ينبض، شيء يرتعد

أداة هشّة ولامعة

أداة من زجاج تغني يوماً وتبكي يوماً آخر)

وفجأةً يصبح العلم رمادياً

وطردت العتمة الفرح.

ولم يبقَ سوى الفراغ الأصمّ والمؤلم

لامسته أيدٍ لاهية

يحطّم شبكتي المفضّضة بالسعادة.

توقفت الأيدي، ممنوعة،

لكم تحبّني! بكت

حينما رأت غيومي تسقط

على شكل صفائح

(يا لقلب الإنسان كم هو ضعيف!

نبض ينبض، شيء يرتجف

أداة هشّة ولامعة،

أداة من زجاج

تغني يوماً وتبكي يوماً آخر.)

عرضها السيد كروكيت، أستاذها في اللغة الإنكليزية على أحد زملائه فقال: «من الغريب أن تكون شابة كهذه قد عاشت شيئاً مُدمّراً كهذا.» حينما نقلتُ إلى سيلفيا ما قاله السيد كروكيت عن هذه المحادثة ضحكت بطريقة ماكرة وقالت: «بعد نشر القصيدة، يحقّ لكل من شاء أن يفسرها بطريقته.» (بلاث، 1975، ص.28).

حينما يشعر شخصٌ حسّاس مثل سيلفيا بلاث أن المهمّ لأمها ألا ترى في آلامها إلا تأثير تدمير اللوحة، وليس نتيجة تدمير الذات الذي عبّرت عن إدراكها له رمزياً من خلال اللوحة المائية، وفعلت ما بوسعها لإخفاء مشاعرها الحقيقية. الرسالة شهادة واضحة على بنية هذا الأنا المزيف. الأنا الحقيقى يبدو في روايتها **The Bell Jar (1978** - جرس الضيق) لكن الانتحار قتلها، وأقامت لها الأم صرحاً مزيفاً بنشر رسائلها.

يبيّن لنا مثال الانتحار هذا أنه الإمكانية الوحيدة التي يملكها الأنا الحقيقي للتعبير عن نفسه، لكنها إمكانية تكلفه حياته. كثير من الأهل يتصرفون كما تصرفت والدة سيلفيا بلاث. فهم يجهدون يائسين للعثور على التصرف السليم، ثم يبحثون في سلوك الطفل عما يؤكد أنهم كانوا أهلاً صالحين. النموذج الذي يبيّن أن الأهل صالحون، أي التصرف السليم إزاء الطفل والقيام بتربيته بشكل جيد، والاعتدال في تحقيق رغباته، لا يعني في حقيقة الأمر سوى أن يكون الأطفال عاقلين ومنضبطين إزاء أهلهم. لكن تصرّف الأهل على هذا النحو يعني جهلهم بمقاساة طفلهم. لا يمكنني إذا كنتُ منشغلة من الداخل أن أستمع إلى طفلي فعلياً، لكي أكون أمّاً جيدة، لا يمكنني أن أكون مستعدّة لسماع ما يريد قوله لي، وهو ما يتبدّى في عدة مواقف:

على الرغم من الأهل لا يدركون الإحباطات النرجسية التي يعيشها طفلهم، وليس لديهم أدنى فكرة عنها، لأنهم اعتادوا منذ عمرٍ مبكر إهمال إحباطاتهم الشخصية. قد يلاحظونها أيضاً لكنهم يظنون أن من الأفضل لطفلهم ألا يعيها بنفسه. وهنا يجهدون في تحويله عن بعض الإدراكات المبكرة ودفعه إلى نسيان أقدم تجاربه، اعتقاداً منهم بأنهم يتصرفون لمصلحته، لأن الطفل غير قادر برأيهم على تحمّل الحقيقة، لأن من شأنها التسبّب في مرضه. بينما الأمر عكس

هذا تماماً، ويجهلون أن إنكار الحقيقة هو سبب مرضه. إنها ظاهرة لاحظتها جيداً عند طفلة صغيرة اضطرّ القائمون على حالتها، بعد اكتشافهم لمرض وراثي عندها منذ ولادتها إلى إطعامها وهي مربوطة بطريقة لا يمكن إلا أن تذكّرنا بغرف التعذيب. ثم استمرّت الأم في بذل كلّ جهد ممكن لحماية ابنتها بعد أن أصبحت راشدة، من هذا «السرّ»، و«تجنيبها» معرفة ما كان عليه حالها في الماضي. ومن ثم لم تستطع مساعدتها في التعبير بنفسها عن هذه المعرفة القديمة التي عادت للانبثاق على شكل أعراض مرضية.

إذا كان الموقف الأول يستند على عناصر بقيت غير واعية منذ طفولتها، فهي تختلط في الثاني بالأمل العبثي في قدرة الماضي على تصحيح نفسه بالصمت.

القاعدة في الحالة الأولى هي: «من ليس له الحقّ في أن يكون لا يمكن أن يكون»، وهي في الحالة الثانية: «إن لم نتحدث عما جرى، يعني ألا شيء قد جرى».

مرونة الطفل الحسّاس لا حدود لها عملياً لقدرته تقريباً على تمثّل جميع هذه المبادئ في نفسه. يمكنه التكيّف معها بشكل تام، لكن يبقى نوعٌ من الذاكرة الجسدية، فلا تعود الحقيقة تتجلى إلا بشكل اضطرابات أو أحاسيس مرضية كما تظهر أحياناً في الأحلام. في حالة التطور النفسي أو العصبي نجد أنفسنا أمام شكل آخر من التعبير عمّا يدور في داخلنا من أن لا أحد يمكنه الفهم، ويصبح الأمر مؤلماً بالنسبة للشخص المعنيّ نفسه وللمجتمع أيضاً، وأن ردود فعل الطفل على الصدمات العصبية التي تصيبه كانت في الماضي مؤلمة لوالديه.

قلنا أكثر من مرة إن الصدمة ليست في حدّ ذاتها سبب المرض، بل اليأس التام اللاواعي والمكبوت بخصوص ما تعرّضنا له، وانعدام حقّنا في التعبير عن مشاعر الغضب، والإذلال، واليأس، والعجز، والحزن أو حتى الحقّ في أن نعيش هذه المشاعر. وهذا ما يدفع الكثيرين إلى الانتحار، لأن الحياة لم تعد تستحقّ أن تعاش بعد أن تصبح هذه المشاعر العميقة التي تتكون منها بنية الأنا غير جديرة بالحياة. طبعاً لا يمكن طرح فرضية تقول إن من واجب الأهل تحمّل كل ما لا طاقة لهم على احتماله، لكن يمكن دائماً مواجهتهم باليقين بأن الألم ليس هو الذي تسبّب بمرض أطفالهم، بل كبتُ هذا الألم الذي فرضه الطفل على نفسه محبّةً بأهله. لاحظت عدّة مرات أن هذا الاكتشاف يمكن أن يكون للأهل علامة تفتح أمامهم إمكانية الشعور بالفقدان **travail du deuil** وعوناً لهم في تخفيف مشاعرهم بالذنب.

ليست معاناة الإحباط عاراً أو سمّاً بل ردّ فعل طبيعي وإنساني. فإذا مُنعت هذه المعاناة بالكلام أو دون كلام، أي إذا طُردت بالعنف، والضرب، كما كان الأمر إبان سيطرة «التربية السوداء»، فهذا يعيق التطور الطبيعي ويخلق ظروف تطور مَرَضيّ. وقد روى أدلف هتلر مفتخراً أنه تمكّن ذات يوم من حساب الضربات التي كان يوجهها إليه والده من دون أن يبكي أو يصرخ. هنا يتخيّل متوهماً أن اباه، في ذلك اليوم توقف عن ضربه. أظن أن هذا توهّم، لأنه من غير المعقول أن تكون الأسباب التي دفعت ألويس إلى ضرب ابنه قد تلاشت بقدرة قادر: هذه البواعث ليس سببها سلوك الطفل، بل الإهانات التي تعرّض لها هو نفسه خلال طفولته واستمرّت بوصفها مشكلة لم تجد حلاً لها. لكن توهّم الابن لا يدلّ على أنه انطلاقاً من ذاك اليوم لم يحتفظ بذكرى الضربات التي كان يوجهها إليه والده: من خلال القمع والألم الجسدي، وبعون التماهي مع المعتدي، اندرجت ذكرى العقوبات الجسدية اللاحقة تحت إطار الكبت. وهي ظاهرة نراها غالباً لدى المرضى: إصلاح بعض المشاعر في حدّ ذاتها تدفع إلى انبثاق مشاهد طالما أصرّوا على إنكار حقيقة وجودها.

الغضب غير المعيش

في عام 1977 نال الفيلسوف ليزك كولدوفسكي **Leszek Kolodowski** جائزة السلام التي تمنحها رابطة أصحاب المكتبات الألمان. في خطابه العام تحدّث عن الكراهية استناداً إلى حدثٍ أثار حفيظة كثير من الناس في تلك الفترة، أي اختطاف طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا إلى مقديشو.

قال كولاكوفسكي إن هناك أناساً لا يكنّون أي شعور بالكراهية، ليبرهنوا بهذا عن إمكانية العيش بلا كراهية أيضاً. لا غرابة في أن يتحدث الفيلسوف على هذا النحو لأن الكائن البشري يتماهى بنظره مع الكائن الواعي. لكن الأمر لا يعود بديهياً بالنسبة لشخص يتعرض يومياً لتجليات الواقع المادي اللاواعي، ويحسب كلّ يوم النتائج الكارثية التي يمكن أن تترتب على جهل هذه الحقيقة، أي تقسيم الناس إلى أخيار وأشرار، وكائناتٍ تحبّ وأخرى تكره. إنه يعرف أن المفاهيم الوعظية **moralisateurs** تخفي وراءها الحقيقة أكثر مما تكشف عنها. الكراهية شعور بشري طبيعي، ولم يسبق له أن قتل أحداً على الإطلاق. هل بوسعنا تخيّل ردّ فعل أنسب من الغضب، أو الكراهية، أمام التعامل السيّئ مع الأطفال، كاغتصاب النساء، وتعذيب الأبرياء، لا سيما إذا بقيت أسباب هذه الأفعال غامضة؟ الكائن الذي حظي منذ البداية، بفرصة التصرّف إزاء الخيبة من خلال الغضب سيتذكر **interioriser** الأهل الذين تمكّنوا من الفهم، ولن يحتاج لاحقاً إلى التحليل ليعيش مع مشاعره، بل حتى مع الكراهية. لا أعرف بوجود كائنات على هذا النحو، أو على الأقل، لم ألتقِ أحداً منهم. لكن، ما رأيته في أغلب الأحيان هو تلك الكائنات التي لا تعرف فعلياً شعور الكراهية، ونقلوا كراهيتهم إلى آخرين من دون علمهم، وإرادتهم، أو من دون أن يلاحظوا ذلك. إنهم يعانون في بعض الحالات من عصابٍ وسواسيّ خطير مع ما عندهم من استيهامات ذات نزوع تدميري، وإن لم يكونوا هم، فأطفالهم. غالباً ما خضعوا للعلاج طيلة سنوات عانوا خلالها من اضطرابات جسدية أصلها في الحقيقة نفسي. أحياناً كانوا يعيشون إحباطات خطيرة. لكن ما إن يوفر لهم التحليل فرصة لكي يعيشوا غضب الطفولة المبكرة، فإن هذه الأعراض تختفي ومعها القلق من إيذاء أحد بهذا الشعور. ليست الكراهية المعيشة بل الكراهية المتراكمة داخلياً والمقموعة بالإيديولوجيات هي التي تقود إلى ارتكاب أفعال العنف والتدمير كما في حالة أدولف هتلر.

كلّ شعور معيش **vécu** ومُؤكد يتحول مع الزمن إلى شعور آخر، ولا يمكن لأعنف أنواع كراهية الأب، إذا كانت واعية، دفع الفرد إلى ارتكاب جريمة، فضلاً عن إبادة شعوب بأكلها. بينما كان هتلر يكبت تماماً مشاعره التي تعود إلى الطفولة ويدمر آلاف الحيوات البشرية، لأن «ألمانيا كانت تحتاج إلى مزيد من الحيوية»، ولأن «اليهود يهددون العالم»، ولأنه كان يريد «شبيبة قاسية لخلق عالم جديد»... يمكن أن تطول قائمة الأسباب المزعومة إلى ما لانهاية.

كيف نفسّر أن ثلثي الشعب الألماني ما يزالون يستحسنون اللجوء إلى العقوبات الجسدية في تربية الأطفال، ويرون، كما بيّنت التحقيقات التي أجريت في العقود الأخيرة، أنها ضرورية وعادلة على الرغم من تطور المعارف النفسية (السيكولوجية)؟ وماذا عن الثلث الأخير؟ كم يتضمن من الأهالي الذين يحسّون بالحاجة الماسّة رغماً عنهم، إلى ضرب أطفالهم؟ لا يمكن فهم هذه الحالة إذا لم نأخذ العناصر الآتية بعين الاعتبار:

1. لكي يشعر الأهل بما يفعلونه بأطفالهم، لا بد أن يشعروا أولاً بما لاقوه خلال طفولتهم هم. لكن هذا هو بالتحديد ما مُنع عنهم. حينما يكون باب الولوج إلى هذا الوعي مغلقاً، يلجأ الأهل إلى ضرب أطفالهم أو تعذيبهم بأي طريقة ممكنة غير مدركين للألم الذي يلحقونه بهم، بل تراهم لا يستطيعون التصرف إلا على هذا النحو.

2. حينما تبقى مأساة طفولتهم مخفيّة خلف صور مثالية لأفراد حسني النيّة، لابد أن تعّبر المعرفة غير الواعية لهذه الظروف عن نفسها بطريقة غير مباشرة. وهذا ما يحدث من خلال التكرار القهري. ويعيد هؤلاء الأفراد لأسباب تبقى غير مفهومة لهم، دائماً خلق حالات جديدة، وينسجون علاقات يعذّبون شركائهم من خلالها، ويتعذبّون منهم أو الأمرين معاً.

3. بما أن تعذيب الفرد لأطفاله وسيلة تربوية مشروعة، فإن النزعة العدوانية المكبوتة والمتراكمة تجد هنا مُتنفّساً لها.

4. وبما أن الأديان كلّها تقريباً تمنع ردود الفعل العدوانية على المعاملات الجسدية والنفسية التي يمارسها الأهل، فإن الفاعل يتحول إلى هذا النوع من المخرج.

يقول علماء الاجتماع ما كان يمكن لسفاح الأقارب أن يكون محظوراً، لو لم يكن الانجذاب الجنسي بين هؤلاء جزءاً من هذه الغرائز الطبيعية. وهذا هو سبب وجود هذا المحظور (تابو) لدى جميع الشعوب المتمدّنة وتدرجه منذ البداية في التربية.

لا بدّ حتماً من وجود تشابه في ما يتعلق بمشاعر الطفل العدوانية إزاء والديه. لا أعـرف بتاتـاً كيف تمكّنت شعوب أخرى لا تتوفر مثلنا على وصية رابعة، من حـلّ هـذه المشـكلة، لكـن أيـنما نظرت أرى من يأمر باحترام الوالدين، لكني لا أرى مـن يـأمر بـاحترام الطفـل. ألا يمكننـا الظـن، مقارنة بمحظور سفاح الأقارب، أنه ينبغي تلقين هذا الاحترام للطفـل في أبكـر وقـت ممكـن، لأن من شأن ردود الفعل الطبيعية للطفل إزاء والديه أن تكون بالغة العنف بحيث يـخشى الوالـدان أن يتعرّضا للضرب أو حتى القتل على أيدي أطفالهم؟

لكن هذا كلّه ليس مهماً. فنحن نسمع دائماً من يتحدث عن أهوال زمننـا التـي لا حصر لهـا، ومع ذلك يبدو لي أنه يمكن العثور على بارقة أمل في اتجاه مواجهة المحرمـات الراسـخة، وإعـادة النظر فيها. إذا استخدمت الوصـية الرابعـة بحيـث تجعـل الأهـل يقمعـون العدوانيـة الطبيعيـة والمشروعة لدى الطفل منذ عمره المبكر، بحيث لا يبقى أمـام الطفـل سـوى إمكانيـة نقـل هـذه الحركات العدوانية إلى الجيل اللاحق، فقد يشـكل إلغـاء هـذا المُحـرم تقـدماً كبـيراً. إذا أصبحت هذه الآلية واعية، وحقَّ للأفراد رؤية ما فعله أهلهم بهم، سيحاولون الرد نحو الأعلى وليس نحـو الأسفل. هذا يعني على سبيل المثال أن هتلر ما كان ليحتـاج إلى قتـل ملايـين الـبشر، لـو تـوفرت لديه في طفولته إمكانية التمرد بشكل مباشر ضد قسوة أبيه.

حينما أؤكد أن الإهانات العميقة المتعددة والمعاملات السيئة التي تعـرّض لهـا أدولـف هتلـر من أبيه خلال طفولته، من دون أن يتمكّن من مجابهتها، يجعلني أخاطر بالقول إنه ما كـان لنـا أن نفهم كراهيته التي لا حدود لها. قد يقول لي قائـل: إن شخصـاً بمفـرده يمكـن أن يقـود شـعباً كاملاً إلى دمار بهذا الحجم، وإن الأزمة الاقتصادية والإهانات التي تعرّضت لهـا جمهوريـة فايمـار **Weimar** كانت أيضاً أسباباً إضافيةً في وقوع الكارثة. كل هذا ليس موضع شكّ أبداً، لكن ليست «الأزمات» أو «المنظومات» هي التي قامت بالقتل، بل الناس الذين طالما افتخر آبـاؤهم بطاعـة صغارهم لهم.

وبناءً على هذا يمكن تفسير أشياء كثيرة جرينا عـلى اسـتنكارها منـذ عقـود وإدانتهـا أخلاقيـاً. هناك أستاذٌ أمريكي يجري منذ سنوات تجارب على زراعـات الـدماغ، صرّح في مقابلـة مـع مجلـة **Tele** أنه نجح في نقل دماغ قرد إلى قرد آخر؛ ولا يشكّ في أن المستقبل القريـب سـيوفر إمكانيـة إجراء العملية نفسها على الإنسان. وهنا يجد المرء نفسه بين عدة مواقـف: فقـد ينبهـر بالتقـدم العلمي، أو يتساءل عن كيف يمكن لمثل هذه الحماقات أن تقـع، ومـا فائـدة مثـل هـذا العمـل.

لكن حينما تستوقفه معلومة إضافية يأتيه إلهام معين. الأستاذ وايت تحدث عن «مشاعر دينية» انتابته أثناء ممارسة عمله. وردّ على سؤال الصحفي حول هذه النقطة بأنه كاثوليكي ملتزم جداً، ويشهد أطفاله العشرة أنه تربّى كالديناصور. لا أعرف تماماً ما يعنيه بهذا تحديداً، لكني أتخيّل أنه أراد الإشارة إلى مناهج تربوية بالغة القدم. ترى ما الذي يستهويه في عمله هذا؟ ربما يدور في لاوعي البروفسور وايت أن في تكريسه كامل طاقته وحيويته لتحقيق هدفه الوحيد في إمكانية زراعة دماغ بشري ذات يوم إرضاءً لرغبته التي عمل طويلاً على تطويرها في طفولته لتغيير دماغ والده أو والديه. السادية ليست مرضاً معدياً يصاب به الإنسان بغتةً، بل يتهيّأ له لفترة طويلة خلال الطفولة، ويولد من استيهامات (توهمات) يائسة لطفلٍ يبحث عن مخرج من حالة لا مخرج منها.

كلّ محلّل لديه شيء من الممارسة يعرف هذه الحالات لدى أطفال رجال دين سابقين لم يُسمح لهم بأن تكون لديهم أفكار «سيئة»، وتمكنوا فعلياً من التخلص منها، حتى لو أدى ذلك إلى إصابتهم بالعصاب **nevrose**. حينما يُسمح أخيراً لاستيهامات (توهّمات) الطفل بالظهور خلال التحليل فإن مضمونها يبقى قاسياً وسادياً، وهي نفسها خلاصة الاستيهامات القديمة التي لها علاقة بالانتقام والقسوة التي استدمجها **introjectée** [استبطنها] الأهل الذين سعوا إلى خنق حيوية الطفل، بل نجحوا في خنقها بالتعليمات الأخلاقية غير القابلة للتطبيق.

لكلّ فردٍ الحقّ في أن يجد صيغة لنزعته العدوانية، إذا لم يكن راغباً في أن يكون دمية طيّعة بين أيدي الآخرين. وحدهم الأفراد الذين رفضوا أن يكونوا أداة بيد إرادة غريبة يستطيعون فرض حاجاتهم الشخصية والدفاع عن حقوقهم المشروعة. لكن هذا الشكل من العدوانية المتكيفة والملائمة تبقى ممنوعة على جميع من شبّوا وعاشوا طفولتهم في ذلك الاعتقاد الأخرق القائل إن الإنسان يمكن ألا يتمتع إلا بأفكار خيّرة وورعة، ويكون في الوقت نفسه مخلصاً وصادقاً. إن مجرد إرادة تحقيق هذا المطلب المستحيل من شأنه وضع الطفل على حافة الجنون. وعلينا ألا نستغرب إن حاول التحرّر من السجن عبر استيهاماته السادية. لكن حتى هذه المحاولة ممنوعة وينبغي كبتها. هكذا يبقى هذا القسم من المفهوم والمُحتمل لهذه الاستيهامات يبقى كلّه مخفياً عن الوعي، تغطّيه شاهدة قبر القسوة التي تعمل على تغريب الإنسان وتكون منقطعة عن الأنا. هذه الشاهدة، التي لا تخفى بتاتاً على العين بشكل عام أمرٌ نخشاه مع ذلك، ونسعى طيلة حياتنا إلى تحاشيه. لأنه قبل أن يتمكن الإنسان من صياغة شكل عدوانيته

الشخصية لا بد أن يكون قد اكتشف في نفسه وشعر بأوهام الانتقام المكبوتة لأنها ممنوعة. هذه الأوهام وحدها هي القادرة على الإفضاء به نحو تمرّده الحقيقي بوصفه طفلاً، ويمكن أن يحلّ محلّها الأسى والمصالحة.

إن تطور حالة الكاتب المسرحي فريدريك دورنمات **F. Dürematt** الذي ربما سار من دون تحليل قد يفيدنا هنا كبرهان. فبعد أن شبّ في منزل أحد رجال الدين حينما بدأ الكتابة، ألقى في البداية في ذهن القارئ عبثية العالم البغيضة، وزيفه وقسوته. حتى أشدّ البراهين برودة، وأشد أنواع الوقاحة غدراً، غير قادرة على طمس آثار المعيش خلال الطفولة المبكرة. وكما هو الحال عند هيرونيموس بوش **Hieronymous Bosch**، فإن ما يصفه لنا هو جحيم معيش، حتى وإن فقد المؤلف معرفته المباشرة به.

ما كان يمكن لمن لم يتعلم بنفسه أن الكراهية تنتشر بقسوة وكثافة حيثما تكون العلاقات أكثر شدّةً أن يكتب مسرحية مثل زيارة السيدة العجوز. وعلى الرغم من جميع هذه التجارب العميقة جداً، فقد تشبّث الشاب دورينمات بمبدأ اللامبالاة **froideur** الذي يفرضه الطفل على نفسه حينما ينبغي أن تكون مشاعره مخفية تماماً عن محيطه. وللتحرّر من أخلاقيات عائلة رجل الدين، كان عليه أولاً رفض الفضائل التي سبق له تعلّمها، وصار ينظر إليها بعين الريبة، كالشفقة، وحب القريب، والرحمة، وأنه قادر أخيراً على التعبير بشكل عنيف وبشيء من التشويه عن الاستيهامات (الأوهام) الممنوعة المتعلقة بالقسوة. في سن النضج، يبدو أنه لم يعد بحاجة إلى إخفاء مشاعره الحقيقية، ونلاحظ في أعمال دورينمات المتأخرة أن الإثارة تصبح أقل من الحاجة النهمة إلى جَلد البشرية بحقائق كريهة، وهذا أمر يخدمها في الحقيقة. لأن طفلاً مثل دورينمات عرف جيداً كيف يكشف النقاب عن محيطه. وما دام استطاع التعبير عما رآه من خلال عملية الإبداع الأدبي، فهو يساعد القارئ أيضاً على أن يكون أكثر تنبّهاً وحذراً. وبما أنه رأى بأمّ عينه، فلن يحتاج إلى ترك نفسه عرضةً لإفساد الإيديولوجيات.

إن شكل استيعاب **perlaboration** كراهية الطفولة هي المفيدة في حدّ ذاتها للبشرية، ولا تحتاج إلى أن تكون «مجتمعية - **socialisée**»؛ فلم يعد المحلّلون القدماء أيضاً بحاجة للإساءة إلى الآخرين، بعد مواجهة «سادية» طفولتهم. بل إنهم يصبحون في حقيقة الأمر أقل عدوانية حينما يعيشون مع عدوانيتهم وليس ضدّها. هذا لا يعني رفعاً من شأن الغريزة، بل عملية نضوج طبيعي يبدأ مع استبعاد المعوقات. لم تعد ثمة حاجة لبذل جهد، لأن الكراهية المكبوتة

قد عِيشت ولم تعد مُخفّفة. هؤلاء الرجال والنساء يصبحون فجأة أكثر شجاعة من أيّ وقت مضى، أي إنهم لم يعودوا يتحدثون، كما في الماضي، من تحتهم بل مباشرة «من فوق ». ولم يعودوا خائفين من وضع حدود للمهيمنين عليهم، أو إهانة شركائهم وأطفالهم. لقد عاشوا أنفسهم كضحايا، ولم يعودوا بحاجة إلى فصل هذا الدور اللاواعي بوصفهم ضحايا، عن أناهم، أو إسقاطه على الآخرين. لكن العديد من الأشخاص يحتاجون إلى المرور في درب الإسقاط هذا. يفعلون هذا بوصفهم أهلاً مع أطفالهم، وأطباء نفسيين مع مرضاهم، وباحثين مع الحيوانات. لن يدهش أحدٌ، ولا أحد يغضب من هذا. ما يفعله البروفسور وايت بأدمغة القردة يحمل اسم العلم، وهو نفسه لا يقلّ افتخاراً. أين تقف الحدود مع الدكتور مينغيليه **Dr.Mengelee** الذي كان يقوم في أوشفيتس بتجارب على الناس؟ بما أن اليهود لم يكونوا في عداد البشر، فإنه كان يُنظر إلى تجاربه بوصفها مشروعة «أخلاقياً». لنفهم كيف تمكن مينغيليه من القيام بهذا واحتماله، يكفينا معرفة ما لحق به في طفولته. أنا على يقين من أننا سنكتشف رعباً يكاد لا يفهم من الخارج، وكان هو نفسه يعتبره في المقابل بمثابة أفضل تربية ممكنة ومقتنعاً قناعة تامة بأنه «يدين لها بالكثير».

إن خيار الأشياء المتوفرة التي يمكن أن نصبّ انتقامنا عليها لما عانيناه في طفولتنا لا حدود له عملياً لكن على أطفالنا، وهي آلية تنتج من تلقاء نفسها إلى حدٍّ ما. جميع كتب التربية القديمة تشرح أولاً كيفية القضاء على نزوة الرضيع ومعاقبة الصغير على «عناده» بأقسى أنواع العقوبة. ولا شكّ أن الأهل الذين عرفوا الخوف بسبب هذه المناهج على عجلة من أمرهم للتحرر عبر اللجوء إلى شيء بديل، ويعيشون في خوف طفلهم صورة أبيهم الجائر الواقع تحت رحمتهم - كحال القرود تحت رحمة البروفسور وايت.

نلاحظ غالباً في التحليلات أن شعوراً ينتاب المرضى بأنهم متطلبون جداً في ما يتعلق بأهمّ حاجاتهم الدنيا على الصعيد الحياتي، ويلقون اللوم كثيراً على أنفسهم؛ مثلهم مثل من اشترى بيتاً لزوجته وأطفاله، لكنه لم يتمكن من تحقيق أعمق رغباته في أن تكون له غرفة خاصة يمكنه اللجوء إليها وحيداً. لأن في مثل هذا تعبيراً عن الزهوّ أو «السلوك البورجوازي». فشعر بالاختناق لعدم حصوله على هذه الغرفة وفكّر في مغادرة عائلته والهروب إلى الصحراء. وهناك امرأة، أجرت تحليلاً بعد سلسلة من العمليات رأت أنها متطلبة جداً، لأنها لم تكن ممتنّة بما يكفي لما وفّرته لها هذه الحياة، وتسعى دائماً لتحقيق المزيد. خلال التحليل، لوحظ أنها كانت تعيش

طيلة سنوات حاجة قهرية دائمة لشراء ملابس جديدة لا تحتاج إليها تقريباً، وأنها تسلك هذا السبيل بوصفه بديلاً عن استقلاليةٍ لم تسمح لنفسها بها على الإطلاق. حينما كانت صغيرة سمعت أمها تقول إنها تبالغ في طلباتها، فأحسّت بالخجل، ومن ثم ظلت تبذل جهدها طيلة حياتها لتبقى متواضعة. وهذا أيضاً هو السبب الذي منعها من قبول الخضوع للتحليل النفسي. كان لا بد في البداية من أن يقوم الجراحون باستئصال بعض الأعضاء لكي تقبل بهذا. بينما ظهر تدريجياً أن هذه المرأة كانت بديلاً حاولت الأم فرض نفسها عليه رغماً عن إرادة أبيها. لم تكن مقاومة هذا الأب المستبدّ ممكنة على الإطلاق. لكن البنت وقعت منذ البداية في مثل هذه الجماعة التي رأت في جميع رغباتها مطالب متطرّفة، ومزاعم مبالغاً فيها جابهتها الأم باستياء أخلاقي. ومن ثم، فقد رأت هذه البنت أن جميع ميولها الاستقلالية تُشعرها بالذنب، فتسعى إلى إخفائها عن أمها. وكانت أعمق أمانيها تتمثّل في أن تبقى بسيطة ومتواضعة، بينما كانت تعاني من الحاجة القهرية التي تدفعها إلى شراء أشياء لا فائدة منها وتكديسها، وهي طريقة تبرهن لنفسها من خلالها على هذا الطموح المفرط الذي طالما اتّهمتها أمّها به. عاشت لحظات بالغة القسوة خلال عملية التحليل، إلى أن جاء اليوم الذي تخلصت فيه من الدور الاستبدادي الذي كان يلعبه جدّها. لكن تبيّن عندئذٍ أن اهتمامها بالأشياء المادية كان قليلاً جداً - ما إن تمكّنت من تحقيق حاجاتها الحقيقية وأن تكون مبتكرة. لم تعد بحاجة أبداً إلى شراء أشياء لا نفع فيها لتبرهن لأمها عن مطلب ملح، أو السعي وراء تحقيق استقلالية خفيّة، وتمكّنت أخيراً من الاهتمام بطموحاتها الفكرية والروحية الحقيقية من دون أن تنتابها مشاعر الذنب.

طبعاً الأهل ليسوا جلّادين فقط، لكن من المهم معرفة أنهم كذلك أيضاً في العديد من الحالات، وغالباً لا يدركون ذلك. هذه حقيقة لا يعرفها كثيرون ويرفضها حتى المحلّلون، ولهذا سأفرد لها حديثاً خاصاً.

على الأهل الذين يحبون أطفالهم أن ينظروا أكثر من غيرهم في ما يفعلونه بأطفالهم. إن لم يريدوا معرفة أيّ شيء عن هذا الأمر من خلال التعبير عن حبهم، فهذا يعني أنهم لا يهتمون فعلياً بحياة أطفالهم، بل بنوع من حساب الشعور بالذنب في سجلهم. وهذا الهمّ الذي يحملونه في أنفسهم منذ عمرهم المبكر يمنعهم من تطوير حبهم لأطفالهم بحرية، واستخلاص العبر منه. ميدان «التربية السوداء» لا يقف عند بعض مبادئ التربية التي عفا عليها الزمن منذ القرون الأخيرة حين كانت تُطبق بوعي ووضوح، بينما اليوم يتردّد المطالبون بها، لكنها مع ذلك تتسلّل إلى الميادين الرئيسة في حياتنا، بشكل كبير يجعل تحديدها بالغ الصعوبة. إنها كالفيروس الذي اعتدنا على معايشته منذ نعومة أظفارنا.

وهو أيضاً السبب الذي لا يجعلنا نشكّ في أغلب الأحيان بقدرتنا على العيش أفضل وأكثر سعادة من دونه. قد يصاب أفضل أصحاب النوايا مثل والد **A** حتى من دون أن يشعروا به. وإذا لم تتح لهم المصادفة إجراء تجربة تحليلية فلن تتاح لهم الفرصة لإدراكه، أي أنهم لن يضطرّوا إلى إعادة النظر في القناعات القائمة على العاطفة الموروثة عن آبائهم في عمرهم المبكر. وعلى الرغم من رغبتهم الصادقة في بناء عالمٍ يقوم على التعايش الديمقراطي، فإن التستّر على حقوق الطفل وطمسها يبقى في جوهره شيئاً طبيعياً بنظرهم، إذ تجعلهم تجربتهم خلال الطفولة عاجزين عن تصوّر شيء آخر. وهو موقف يضمن استقرارهم بسبب رسوخه في لا وعيهم منذ وقت مبكر.

يضاف إلى هذا عامل استقرار آخر هو أن غالبية البالغين أنفسهم أهلٌ ربّوا أطفالهم على ما يمتحونه مما خزّنه لا وعيهم منذ طفولتهم، ولم تتسنَّ لهم الفرصة قطّ للتصرف بطريقة مختلفة عن طريقة أهاليهم في الماضي. حينما يواجهون فكرة أن أكبر أذىً نلحقه بالطفل ويترك فيه أثراً عميقاً يحدث في عمره المبكر تنتابهم طبعاً مشاعر ذنب قاسية في أغلب الأحيان. الأشخاص

الذين تربّوا على مبادئ «التربية السوداء» هم من يحسّون بفكرة أنهم لم يكونوا أهلاً مثاليين فتعذّبهم كثيراً، لأن أهلهم جعلوهم يفكرون أنهم لم يخطئوا. ومن ثم سيميلون إلى إنكار اكتساب معرفة جديدة بهذا المجال، جاهدين بضراوة زائدة للتخفّي خلف قواعد تربوية تقليدية، ويزداد تشبّثهم في تكرار قولهم إن قمع المشاعر والواجب والطاعة تفتح الأبواب أمام حياة نبيلة وعادلة، وأنهم يصبحون بالغين عبر «مواجهة الصعاب»؛ إنهم مجبرون على مقاومة أيّ معلومة تتعلق بالعالم المعيش للطفولة المبكرة.

لكن ليس من الصعب العثور على المعلومات الملائمة، بل يمكن أخذها «من الشارع». إذا راقبنا أطفال اليوم الذين يشبّون في إطار حرية أوسع، نعرف الكثير عن قوانين الحياة العاطفية التي بقيت مخفيّة عن الأجيال السابقة، كما في المثال الآتي:

وجدت أمٌّ نفسها فوق أرض بور مخصّصة للّعب مع ابنتها الصغيرة ماريان ذات الثلاثة أعوام، وهي تتشبّث بساقيها وتنحب بشكل يقطع نياط القلب. سألت عن السبب، فأجابتني الأمّ بطريقة واعية إنهما عائدتان من المحطة لتوّهما حيث انتظرتا والد البنت هناك لكنه لم يصل. لم ينزل من القطار سوى والد إنغريد. قلت: «لا شكّ أنك مُحبطة جداً!»؛ نظرت الطفلة إليّ والدموع تسيل فوق خدّيها وتنظر إلى الأطفال الآخرين في الوقت نفسه؛ وبعد دقيقتين راحت تلعب معهم بمرح. وهذا يعني أنها بعد أن عاشت ألماً عميقاً، ولم تكبته أو تضبطه بسبب عدم قدوم والدها، فقد استبدلت به مشاعرَ أخرى أكثر بهجة.

لا يمكن للمراقب المنفتح إلا أن يحزن أمام هذا المشهد؛ ولا بدّ أن يتساءل ما إذا كانت التضحيات التي فرضها على نفسه ضرورية. يبدو أن الغضب والألم يمرّان بسرعة بالغة إذا تركناهما يعبّران عن نفسيهما. هل من غير الضروري أن يناضل الإنسان طيلة حياته ضد الحسد والكراهية، وأن قوتهما المعادية التي نشعر بها ليست سوى منتوج القمع ونتيجة له؟ هل يمكن أن يكون قمع الإنسان لمشاعره، و«توازنه» الهادئ، وتحكّمه بذاته الذي فرضه بصعوبة على نفسه، والذي يفخر به جداً لا يمثل في حقيقة الأمر سوى إفقار مشؤوم وليس «قيمة ثقافية» كما جرينا على اعتباره بوصفه كذلك؟

إذا كان من رأى المشهد الذي سبقَ وصفهُ فخوراً بالسيطرة على نفسه حتى تلك اللحظة، فإن جزءاً من افتخاره قد يتحول إلى غضب من كونه كان مخدوعاً طيلة حياته ومحبطاً من حرية مشاعره. هذا الغضب، إذا جرى عيشُه والتعبير عنه فعلياً قد يؤدّي إلى الحزن على عبثية

تضحياته. هذا المسار الذي يبدأ بالغضب وينتهي بالأسى يسمح بقطع دائرة التكرار المفرغة. مـن لم يدرك أنه كان ضحية تربيته وفق إيديولوجيا الشجاعة وهيمنة الذات قد يميل إلى الانتقام من الجيل اللاحق لأنه بقي ضحية غير واعية. لكن بعد مرحلة الغضب يأتي الشعور بالأسى على كوننا ضحية الوالدين، فلا نعود بحاجة إلى اضطهاد أطفالنا.

هذا ينطبق أيضاً على علاقاتنا بالأطفال البالغين. فقد أجريتُ يوماً حواراً مع شابّ صغير جـداً حاول الانتحار للمرة الثانية، فقال لي: «منذ سـنّ البلـوغ أعـاني مـن اكتئـاب ولم يكـن لحيـاتي أيّ معنى. ظننتُ في البداية أن الدراسة هي السبب، لما فيها من أشياء عبثية. أما الآن فقـد أجريـت جميع امتحاناتي، لكن الفراغ ما يزال رهيباً. لكن ليس لحـالات الاكتئـاب هـذه علاقـة بطفـولتي، بعد أن أكدت لي أمي أنها كانت سعيدة ومرعية بشكل كبير.

التقينا بعد عدة سـنوات خضـعتْ خلالهـا أمُّ هـذا الشـاب لتحليـلٍ نـفسي، ولاحظـتُ تطـوراً مدهشاً بين المحادثتين في ما يتعلق بقدراته الإبداعية الخاصة بمهنته وفي جميع الميـادين الأخـرى أيضاً، ما يعني أنه يعيش حياته بارتياح. قال لي خلال المحادثة: «حينما خرجت أمي من قوقعتهـا بفضل التحليل، زالت الغمامة عن عينيها ورأت ما فعله الاثنان بي. بدأت تثقل عليّ بالإكثـار مـن الحديث في أغلب الأحيان، لكي تريح نفسها أو لتنال غفراني، من خلال شرحها لمبادئهما التربويـة، التي في الحقيقة منعتني من الحياة. في البداية لم أرغب في معرفة أيّ شيء، فأتحاشـاها وأغضـب منها. لكن، مع مرور الزمن لاحظتُ أن ما كانت تحكيه آنذاك هو الحقيقة. كـان شيء في داخـلي يعرف هذا كلّه منذ فترة طويلة، لكن لم يكن يحقّ لي معرفته. الآن، برهنت أمي عن قدرتها عـلى مواجهة ما جرى وجهاً لوجه، وتحمّل وزره كلّـه، مـن دون أن تـوفر شـيئاً، أو تنكـر أيّ شيء، أو تشوّهه، لأنها شعرت أنها هي نفسها كانت ضحية، وبحقّي في التعبير عمّا أعرفه عن ماضيّ. وقد ارتحت تماماً لشعوري بأني لم أعد أخدع نفسي. المدهش في الأمر أنه مع كل هـذا الفشـل الـذي وعيناه نحن الاثنين، أشعر بأمي ككائن أكثر إنسانية، وأكـثر حيويـة، وأشـدّ حنانـاً مـن أيّ وقـت مضى، كما أشعر بأني أكثر حرية، وأكثر انسجاماً مع نفسي. وانتهى زمن الجهود الدائمة التـي كنـا نبذلها للتستّر على الحقيقة. فلـم تعـد بحاجـة إلى البرهنـة عـن حبّهـا لتغطيـة مشـاعر الـذنب عندها؛ وصرتُ أشعر بحنانها وحبها. كما لم تعد بحاجة لـتملي عـليّ مـا ينبغـي فعلـه، فتتركنـي لأكون كما أنا، لأن هذا من حقّها أيضاً، وأنها لم تعد تحت سيطرة المبـادئ الكـبرى، بمعنـى أنهـا تخلّصـت مـن عـبء ثقيـل. فصرتُ راغبـاً في الحيـاة، ونجحـت في هـذا مـن دون حاجـة إلى

تحليل نفسي طويل. لكني لن أقول اليوم إن محاولاتي في الانتحار لم يكن لها علاقة بطفولتي. فقط لأنه لا يحقّ لي إدراكها، وكان هذا سبباً في تعاظم اضطرابي».

لقد وصف هذا الشاب عملية تعدّ مصدراً لجميع الاضطرابات النفسية: ما عشناه في طفولتنا المبكرة، الذي لا يمكن أن يتجلّى إلا على شكل أعراض جسدية، وتكرار قهري، أو اضطراب ذهاني. وقد كتب جون بولبي **J. Bowlby** دراسة بعنوان « **On knowing what you are not supposed to know and feeling what you are not supposed to feel**» [حول معرفة ما ليس من المفترض أن تعرفه والشعور بما لا يفترض أن نشعر به] (1979) يتحدث فيها عن تجارب مماثلة.

ربطاً بهذه القصة ذات النزوع الانتحاري، أفدتُ إلى حدٍّ ما من ملاحظة أنه حتى في الحالات الخطيرة لدى فواعل شابة، يمكن نعفي أنفسنا من العلاج النفسي، إذا كان لدى الأهل إمكانية كسر جدار الصمت وإنكار الحقيقة والتأكيد للطفل أن أعراضه ليست من فراغ، أو أنها بسبب الوهن، أو قراءة سيئة لرفقة السوء، أو صراع عاطفي داخلي، الخ. حينما لا يعود الأهل بحاجة إلى مقاومة مشاعر الذنب لديهم بشكل محموم، ومن ثم تفريغها على أطفالهم، وتعلّموا قبول مصيرهم، فإنهم يمنحون أطفالهم حرية العيش مع ماضيهم وليس ضده. عندئذٍ تتطابق المعرفة الجسدية والغريزية لدى الطفل الذي أصبح راشداً مع ولادته الفكرية. حينما يكون هذا الأسى **travail du deuil** ممكناً، يشعر الأهل أنهم مرتبطون بأطفالهم وليسوا منفصلين عنهم - هي حقيقة معروفة إلى حدٍّ ما، لأننا نادراً ما نقوم بهذا النوع من التجارب. لكن حينما تكون ممكنة، فإن المعلومات المغلوطة حول التربية تزول لتحلّ محلّها معرفة الحياة التي يمكن لكلٍّ منا بلوغها عندما يثق بتجاربه الشخصية.

خاتمة

بعد أن أنهيت مخطوطة هذا الكتاب وأرسلتها إلى الناشر، جرى حوارٌ بيني وبين زميل شابّ وأبٍ لطفلين مرهف الإحساس، وأقدّر أعماله كثيراً، حول قضايا التربية. يرى هذا الزميل ويأسف أن التحليل النفسي لم يطرح بعد مبادئ تقوم عليها التربية البشرية. أما أنا فقد عبّرت عن بعض الشكوك حول إمكانية وضع تربية بشرية بقولي إن ممارستي التحليلية النفسية علّمتني رؤية أدقّ أشكال التضليل، وأكثرها تطوراً، والتي تسعى لأن تكون تربية. وشرحت قناعتي بأن التربية تصبح نافلة ما إن يتهيّأ للطفل منذ طفولته شخص مستقرّ ويستخدمه بالمعنى الذي رمى إليه وينيكوت **Winncott** أيضاً، وألا يخشى فقده، ومن خلاله ألا يخشى من تخلّيه عنه إن عبّر له عما يشعر به. الطفل الذي يؤخذ على محمل الجدّ، ويُحترم، ويساند بهذا المعنى، يمكنه خوض تجربته الشخصية وتجربته في الحياة، ولا يخشى عقوبات المربّي. وافقني متحدثي على هذه النقطة، لكنه كان يظن أن من المهم للأهل تلقّي عدد معيّن من التوجيهات الملموسة. أجبته بعبارة سبق لي استخدامها: «إذا تمكّن الأهل من إبداء الاحترام نفسه الذي طالما أبدوه دائماً لأهاليهم، فسيتمكّن هؤلاء الأطفال من تطوير جميع قدراتهم في أفضل اتجاه».

بعد ضحكة قصيرة نظر زميلي إليّ بقدرٍ كبير من الجدّية وقال بعد لحظة صمت: «لكن هذا غير ممكن!»، سألته «لماذا؟»، فأجاب: «لأنّ.. لأنّ.. الأطفال لا يعاقبوننا، ولا يهدّدوننا بالتخلي عنا إذا لم نتصرف بشكل جيد. وحتى لو قالوا هذا، فنحن نعرف أنهم لن يفعلوه». استغرق زميلي في تفكيره وتلفّظ بكلمات ببطء: «أتساءل عما إذا كان ما نصفه تربية ليس مجرد قضية سلطة، أليس الأفضل لو أكثرنا الكتابة حول العلاقات الخفيّة للسلطة، بدلاً من إرهاق أنفسنا في وضع مناهج تربوية أفضل؟» أجبته: «هذا ما حاولت القيام به في كتابي الأخير».

مأساة الفرد المربّى تربية جيدة تكمن في أنه ما إن يصبح بالغاً حتى لا يعود قادراً على معرفة ما عومل به، أو ما فعله بنفسه، إذا لم يتنبّه إلى هذا في طفولته، فتتلقّفه المؤسسات الشمولية بنحو خاص لتفيد من حالته.. في هذه المرحلة من التضليل يمكن لعلم النفس أيضاً، إسداء خدمات رهيبة في تعليب **conditionnement** الفرد، والعائلة والشعوب. إذ طالما كان التعليب والتضليل سلاحاً وأداة لممارسة السلطة حتى لو تقنعا تحت أسماء مثل: «التعليب» أو

«العلاج النفسي». وبما أن ممارسة السلطة على الآخرين والاستبداد بهذه السلطة غالباً ما تكون وظيفتها منع انبثاق مشاعر العجز لدينا، ومن ثم فهي في أغلب الأحيان محكومة باللاوعي، ولذلك تعجز الذرائع الأخلاقية عن إيقاف هذه العملية.

وكما ساهمت التقنيات في تسهيل الإبادة الجماعية خلال الجمهورية الثالثة [الرايخ الثالث]، فإن المعرفة الأكثر دقّة للسلوك البشري القائمة على المعلوماتية والسيبرنيتيك قد تؤدي إلى قتل نفسي للإنسان بطريقة أكثر راديكالية وفاعلية من علم النفس الحدسي القديم، وهو تطور لا يمكن لأي وسيلة الوقوف في وجهه. حتى التحليل النفسي قد يكون واحداً منها، لأنه قد يستخدم كوسيلة بيد السلطة في معاهد التأهيل. الحلّ الوحيد الباقي برأيي ينطوي على تعزيز موضوع هذا التلاعب بما يشعر به هذا الإنسان، ومساعدته من خلال توعيته باستعباده، ليكون قادراً على الدفاع عن نفسه بقواه الخاصة والتعبير عن مشاعره وعن الجريمة النفسية التي تهدّده.

الشعراء طليعة عصرهم وليس علماء النفس. خلال السنوات العشر الماضية ازداد عدد كتب السير الذاتية، ولاحظنا أن إلباس الصبغة المثالية على الوالدين قد خفّ لدى المؤلفين الأكثر شباباً. ويتضح الاستعداد لمواجهة حقيقة الطفولة والقدرة على احتمالها أكثر لدى جيل ما بعد الحرب. قبل ثلاثين عاماً، أو حتى عشرين عاماً ما كان يمكن تخيّل لوحات للأهل بالشكل الذي وردت به في كتب كل من كريستوف ميكيل (1980) وإيريكا بوركارت (1979)، وكارين ستروك (1975)، وروث ريهمان (1979)، وبريجيت شويغر (1980)، وباربارا فرانك (1979)، ومارغو لانغ (1979). إذ أرى فيها أملاً كبيراً على طريق الحقيقة، وفي الوقت نفسه تأكيداً على أن قدراً قليلاً من التخفيف من عبء مبادئ التربية من شأنه أن يأتي أكله من خلال السماح للمؤلفين الأدبيين على الأقل بالتعبير عن وعيهم، لمعرفتنا بملاحقة العلم الموقوتة لهم.

خلال هذا العقد نفسه، إذ يكتشف الأدباء الأهمية العاطفية للطفولة والآثار المُدمرة لممارسة السلطة المتخفّية وراء اسم التربية، تعلّم طلاب علم النفس في الجامعات خلال أربع سنوات أن ينظروا إلى الإنسان بوصفه آلة يتحكمون بطريقة عملها. إذا فكرنا في الزمن والطاقة المخصصين، في أفضل سنوات الحياة، لإفساد آخر فرصة أمام المراهقة وإبقاء المشاعر الحادّة التي تتجلّى عندئذٍ مضيئة بقوة العقل العلمي، لن ندهش أن يفعل علماء النفس بعد هذه

التضحية بمرضاهم، وزبائنهم من الضحايا ويعاملونهم كأدوات لمعارفهم، وليس بوصفهم كائنات خلاقة ومستقلة. هناك دراسات في علم النفس تزعم أنها موضوعية وعلمية تذكّرنا ضراوتها التدميرية الذاتية بذلك الضابط في قصة كافكا مستوطنة العقاب. الموقف البريء بل الواثق للمُدان يتكرّر لدى الطالب الذي يودّ لو يستطيع تصديق أنه فقد قواه وليس جوهره بعد أربع سنوات من الدراسة.

الرسام أو الشاعر التعبيري الذي عبّر عن آرائه في بداية القرن فهم عُصاب زمنه (أو على الأقل عبر عنه بشكل واع) أفضل من أساتذة الطب النفسي المعاصرين له. وقد كانت الأعراض الهيستيرية لدى المريضات تعبيراً لاواعياً عن الصدمة التي تعرضن لها خلال طفولتهن. وقد نجح فرويد في فكّ شيفرة هذه اللغة غير المفهومة من الأطباء، الأمر الذي سبّب له العداء أكثر من الامتنان لأنه تجرّأ على ملامسة محرّمات ذلك العصر.

الأطفال الذين يدركون أشياء كثيرة يُعاقبون، ويستبطنون في أعماقهم العقوبات حينما لا يعودون يدركون أيّ شيء بعد أن يصبحوا بالغين. لكن بما أن البعض لا يستطيعون التخلّي عن «إدراك» كثير من الأشياء على الرغم من العقوبات، يحدونا الأمل، على الرغم من التقنية المتزايدة التي تتسم بها دراسات علم النفس، أن رؤية مستوطنة العقاب لكافكا لا تطبّق إلا على بعض ميادين حياتنا، وربما ليس دائماً. لأن النفس البشرية غير قابلة للتدمير عملياً، وتبقى فرص انبعاثها قائمة ما دام الجسد حيّاً.

قائمة المراجع

Ariès, Philippe (1960), *L'Enfant et la vie familiale sous l'Ancien Régime,* Paris, Le Seuil.

Bolwby, John (1979) « On knowing what you are not supposed to know and feeling what you are supposed to feel », in *Journal of the Canadian Psychiatric Association.*

Braunmühl, Ekkehard von (1978), *Zeit für Kinder,* Francfort, Fischer. *Antipädagogik,* Weinheim et Bâle, Beltz.

Bruch, Hilde (1978), *The Golden Cage,* Cambridge, Ma, Harvard Univ., Press.

Burkart, Erika (1979), *Der Weg zu den Schafen,* Zurich, Artemis.

F. Christiane, *Moi, Christiane F., droguée, prostituée...* témoignages recueillis par Kai Hermann et Horst Rieck, Mercure de France, 1981, trad. Léa Marcou.

Fest, Joachim (1963), *Les Maîtres du Troisième Reich,* Paris, Grasset, trad. Simone Hutin et Maurice Barth.

Fest, Joachim (1973), *Hitler* (vol. 1), Paris, Gallimard, trad. Guy Fritsch-Estrangin, Marie-Louise Audiberti, Michel-François Demet, Lily Jumel.

Frank, Barbara (1979), *Ich schaue in den Spiegel und sehe meine Mutter,* Hambourg, Hoffmann und Campe.

Handke, Peter (1975), *Le Malheur indifférent,* Paris, Gallimard, trad. Anne Gaudu.

Heiden, Konrad (1936), *Adolf Hitler,* Vienne, Europa.

Helfer, Ray E. und Kempe, C. Henry (éd.) (1979), *The Battered Child Chicago.*

Höss, Rudolf (1959), *Le Commandant d'Auschwitz parle,* Paris, Maspéro.

Jetzinger, Franz (1957), *Hitlers Jugend,* Vienne, Europa.

Kestenberg, Judith (19747, « Kinder von Überlebenden der Naziverfolgung » in *Psyche 28,* p. 249-265.

Klee, Paul (1957), *Tagebücher,* Cologne, Dumont.

Krüll, Marianne (1979), *Freud und sein Vater,* Munich, Beck.

Lange, Margot (1979), *Mein Vater.* Frauen erzählen vom ersten Mann ihres Lebens, Reinbek, Rowohlt (rororo 4357).

de Mause, Lloyd (1977), *History of Child Hood,* Francfort, Suhrkamp. (1979), « Psychohistory. Über die Unabhängigkeit eines neuen Forschungs gebietes » in *Kindheit I,* p. 51-71.

Meckel, Christoph (1979), *Suchbild. Über meinen Vater,* Düsseldorf, Claasen.

Miller, Alice (1983), *Le Drame de l'enfant doué,* Paris, Presses Universitaires de France, trad. Bertrand Denzler.

Miller, Alice (1981), *Du sollst nicht merken,* Francfort, Suchrkamp.

Moor, Paul (1972), *Das Selbstporträt des Jürgen Bartsch,* Francfort, Fischer (Fischerbücherei 1187).

Niederland, William G. (1980), *Folgen der Verfolgung,* Francfort, Suhrkamp (es 1015 NF 15).
Olden, Rudolf (1935), *Adolf Hitler,* Amsterdam, Querido.
Plath, Sylvia (1975), *Briefe nach Hause,* Munich, Hanser.
La cloche de détresse, Gonthier, 1972.
Rauschning, Hermann (1973), *Hitler m'a dit,* Avant-propos de Marcel Ray, Coopération, Paris, 1939.
Rutschky, Katharina (éd.), (1977), *Schwarze Pädagogik,* Berlin, Ullstein (Ullstein Buch Nr 3318).
Schatzman, Morton (1978), *Die Ansgt vor dem Vater,* Reinbek, Rowohlt (rororo 7114).
Schatzman, Morton (19737, Soul Murder, London, Allen Lane, a Division of Peuguin Books Ltd.
Schwaiger, Brigitte (1980), *Lange Abwesenheit,* Vienne/Francfort, Zsolny.
Stierlin, Helm (1975), *Adolf Hitler, psychologie du groupe familial,* Paris, Presses Universitaires de France, trad. Jeanne Etoré.
Struck, Karin (1973), *Klassenliebe,* Francfort, Suhrkamp (es 629).
(1975), *Die Mutter,* Francfort, Suhrkamp.
Theleweit, Klaus, (1977), *Männerphantasien,* Francfort, Roter Stern.
Toland, John (1978), *Adolf Hitler,* Paris, Pygmalion, trad. Léo Dilé.
Zenz, Gisela (1979), *Kindesmisshandlung und Kinderrechte,* Francfort, Suhrkamp.
Zimmer, Katharina (1979), *Das einsame Kind,* Munich, Kösel.

أليس ميلر

جُذُور العُنف

في تربية الطفل

أرى أن مهمّتي تنطوي على تنبيه الرأي العام إلى آلام الطفولة المبكرة، وهو ما أسعى إليه على مستويين مختلفين، وأبذل جهدي على هذين المستويين للوصول إلى الطفل الذي كان عليه القارئ الراشد. أبحث هذا في القسم الأول من الكتاب عبر عرضٍ لـ«التربية السوداء»، أيْ المناهج التربوية التي نشأ عليها أهلنا وأجدادنا. ربما يوقظ الفصل الأول عند بعض القراء، مشاعرَ إثارةٍ وغضب قد يكون لها تأثيرٌ علاجيّ مفيد. وفي القسم الثاني، سأعمد إلى وصف حياة إحدى مدمنات المخدرات، ثم أتحدث عن حياة قائد سياسي مشهور، وثالثاً عن أحد قتلة الأطفال؛ فهؤلاء الثلاثة كانوا ضحيّة معاملات سيّئة وإهانات عميقة خلال سني حياتهم الأولى. في اثنتين من هذه الحالات الثلاث، أستند بشكل مباشر تماماً إلى قصصٍ سردها لي المعنيّون حول طفولتهم، وما تلاها من حياتهما، وأودّ مساعدة القارئ على فهم هذه الشهادات المؤلمة بوصفي محلّلة نفسية. هذه الأقدار الثلاثة تدين الآثار التخريبية للتربية، وإنكارها للجزء الحيّ فينا، وتفضح خطرها على المجتمع. حتى في إطار التحليل النفسي، ولا سيما إطار النموذج الغريزي، تبقى آثارٌ من هذا الموقف التربوي. فكرتُ في البداية، في أن أجعل من دراسة هذه النقطة المحدّدة فصلاً أدرجه في هذا الكتاب، لكن نظراً لضخامة الموضوع، فقد تحول إلى موضوع لكتابٍ ثالث نُشر في ألمانيا (Du sollst nicht merken، Suhrkamp، ١٩٨١). بيّنتُ فيه أيضاً، وبشكل أدقّ ممّا فعلت حتى الآن، أوجهَ الخلاف بين مواقفي ومختلف النظريات والنماذج التحليلية النفسية.







